د. خولة الرومي
الصمت حين يلهو
رواية

الصمت حين يلهو

تأليف
الدكتورة خولة الرومي

الفصل الأول

الذئاب

غفا القمر .و الصحراء تمتد ، فوقها مجاهيل السماء زاخرة بالنجوم، تحتضنها بسكينة عميقة، صمتت فيها حتى الاصوات السرمدية لحيوانات وحشرات الليل، والهوام، متهربا يلاحق هنات الهواء وهي تسحب من بعيد قطعا لغيوم حالكة. تبدل الجو. ببطء اولا، ثم بسرعة. وفجأة تلامع السواد وهز الهدوء هزيم من خيوط البرق واحدة بعد الاخرى، تشق السحب المتدافعة بسرعة الريح، ثم انطلق الرعد ، يدق لحنا قويا عنيفا، اخذ يتدحرج فوق الوهاد ويمتزج برمالها،وهو يدفعها في رقصة دائرية الى الاعلى ثم يقتلعها ليفتح ابوابا في اغوار اعماقها، حيث التراب يتلوى، كثيفا غامقا، يتراكض مسرعا لتلقف اول رذاذ للمطر، مدمدما اثناء اختراقه للدروب المقفرة المؤدية الى المدن والقرى. اهتزت البيوت المرصوصة، وطقطقت الابواب والنوافذ وهي تتصادم مع كل ما خف حمله . غطت العاصفة كل مكان داخل بلد بكامله امتدت فيه حتى اطراف قرى الجنوب.
لم يكن الليل قد انتصف في قرية أم السعد حين تداورت فيها اوراق الشجر وتطاير سعف النخيل المتيبس والاعواد الجافة العجفاء، لتكتب يوما، ليلة من تاريخ لقرية منسية.. قد تحمل اسما او موقعا جغرافيا .. ولكن ما قيمة ذلك؟ فالحدث هو الذي يصنع التاريخ ويعطي للاسماء اهمية. مع الرياح خرجت اشباح الذكريات من مخابئها،تلف وتدور بين المنازل تحت اشجار النخيل، تتحدى الواقع وتمزجه بالخيال. وتهدم النسيان مكابرة.
ارتجفت الايدي المعروقة المتعبة وهي تتململ في نومها ، وتحركت الشفاه مسبحة تتلو آيات تحتمي بها. وتناثر شعر فوق الوسائد. في تلك الليلة دقت الاحذية الثقيلة الارض السمنتية في مكان ما . واغلق بصرير باب حديدي كبير . ومشت اقدام كثيرة متراكضة تجر خلفها اناسا في صراخ انتهى بزخة من رصاص. وساد الهدوء ..حتى الكلمات اصبح لها معنى آخر.. انا هو الاهم.. عيون متفتحة محدقة في سقف مظلم وهي تتساءل لماذا يحدث ما يحدث لنا ؟ من المسؤول ؟ .. اهي عاصفة للصحراء ستنقذنا من رمال النسيان؟
انصت ابو رند الى عواء الريح ، واطرق صامتا يعد حبات سبحته ويتمتم بصوت اثقلته السنوات، والتغيرات. عدل من العباءة الصوفية التي التف بها، فتحرك خياله الكبير على حائط الغرفة وسقفها.. الخيال دائما اوسع من الواقع. ضخامة خياله لفتت انتباهه .. ضوء الفانوس يضعف. فكر لو ان ام رند ما تزال الى جانبه.. فقدها كما فقد امه .. لايزال يذكر تلك الليلة الرهيبة حين فقد امه.. قالوا له انها احرقت نفسها .. ولكنه لم يصدق ذلك، حتى كبر، وفي ليلة شتائية باردة قص عليه والده تفاصيل ما وقع. حقيقة الاحداث حصلت سنة 1948 .كان ذلك حين هرب والده الشيخ شعلان من مطاردة الشرطة. انها تشبه هذه الليلة الموحشة العاصفة .. نفس الرعد ونفس البرق .. نفس بستانهم الكبير.. وسطه اصوات ركض وعدو .. اصوات تطارد الشيخ شعلان وهو يسرع جارا زوجته داخل ظلمة النخيل خلال الاحراش. افراد من الشرطة يلاحقانهما.في تلك الوحشة ، وتحت العاصفة .. اطياف الذكريات البعيدة ..مد الشيخ يده وقد انحنى جذعه يساعد الام الصغيرة الشابة كي تنهض من سقطتها فوق السطح الغريني للجدول. وبذراع ثابته طوق خصرها اللدن، فترنحت وهي تتعلق بعنقه. ليونة جسدها الفتي، رائحتها الحلوة، ساقاها الدافئتان زادتا من احتضانه لها وعنف التصاقه بها.. وهي تبكي خائفة.. بصمت سقطت عباءتها في ماء الجدول والتصقت بالوحل، بأشارة منه تركتها مرمية في مكانها . مزقت اغصان الاشجار اكمام ثوبها المطبع بالورد، وفكت فوطتها البريسم، ولكنها استمرت تركض خلف زوجها .. يده في

يدها.. ومن بعيد خلفهما اضواء الفوانيس يحملها اربعة رجال مزقت السواد. الضوء رماح بلورية تعكس اشباح سعف النخيل ، وتمايل ثمار البرتقال المهتزة. قال لها زوجها وهو يساعدها:
- اركضي. ترة راح يلحقون بينا.. بس نوصل للنهر وهناك بلمي، نخلص بجلدنا منهم.
ثم اردف بتأثر عميق وحنان:
- مو جان احسن لو بقيتي ويا الجهال.. يمكن اسهل علي جان اهرب وحدي.
صاحت بغضب:
- لا.. حياتك وحياتي وحدة .. وانت تعرف الشيخ من ينفرد بيه راح يطمع.. شلون ابقى وحدي.
الخوف عليها أصبح هاجسه. الاولاد سيكونون بأمان عند ابيه. لن يدع احدا يضطهده ابدا. لن يخنع للضيم. ليس وحده.. لن يزول الاقطاع اذا استمروا مطبقي الافواه. صراخه كفم مفتوح لصخور لا تلين. تتلوى امعاؤه . حمل احلامه فوق كفه ورسم لها طريقا للخلاص. ولكن البيوت المتلألئة اوقفته عند حدود دائرة الخروج الى الحرية. وقف ينظر خلفه بوجنات ملوثة بالطين ورذاذ المطر. لو يستطيع ان يغسل آثام وذنوب كل من يطاردونه وينشرها حتى تجف تحت شمس تموز.. ربما استطاع فتح باب لضوء جديد.. ولكن عريهم لايستره كل سعف نخيل البصرة.
حشود الجماهير في بغداد .. كان وسطهم، وروحه ترف منطلقة بتوليفات جديدة للمشاركة.. كانوا متراصين في الشوارع يتحدون البلدان التي لأتغيب الشمس عنها، ومعاهدة ما وراء البحار . يحب الاحاديث الشيقة، يقتل بها زمن الانتظار نحو الافضل.. ما اصعب واعسر زمن الانتظار.
الرجال الاربعه يقتربون منه . تنوشه اطراف ضياء فوانيسهم. ينكشف موقعه تحت الاحراش.. سأتبع اثار خطوهم. قال احدهم:
- ما يطير من ايدي .. ابن النجس. يحرض الناس ضدي. ضد الحكومة.. يريد يكسر عرضنا .. اليوم ما راح يفلت مني.. وين يروح.. الساقط.. من صغره وراي يتحداني قدام الفلاحين.. يستهزئ بيه ويضحكهم عليّ.. مسوي القرية فوضى ماكو أمن بيها .. راح ويه اهل بغداد يتظاهر.
لغط وصياح:
- هناك آني شايفة بين الاغصان..
لحظات واشتبك العراك. شخص واحد ضد اربعة. قاتل بضراوة . صرخاته ملامح متوحشة بالبكاء، وارهاصات الارتعاش.شبح الموت اعمى يحوم فوق رأسه. ود لو ان زوجته تستطيع الغوص عميقا في الارض الرخوة لتحتمي منهم. دمه يتوهج في عروقه، تنبض بقوة العضلات المفتولة التي أنهكها اليأس والهلع. اعقاب البنادق تمزق ظهره وصدره. انهم في كل مكان ولائم ابدية للظالمين. سقط كطير الخضيري بين قصب البردي في الاهوار. انهار طيفه فوق خيال زوجته المختبئة. هرعت نحو النهر. رفع رأسه ينظر لها بحسرة. تدحرج محاولا فك يديه ورجليه من الحبال اتي اوثقوه بها، ولكن الفكرة بدأت مستحيلة، كمن يحاول الصعود الى السماء وهو معلق في الفراغ. التحدي يصنع معجزات وخوارق.. تمرغ في الطين وهو يصرخ:
- اتركوها .. هدوها خلوها تروح لأهلها.. تريدوني آني .. قواويد.. اولاد الكلب.

تطاير الدم كالنافوزة من جانب رأسه. نعب صوتها ببؤس يوجع القلب حين مزقوا اكمام ثوبها وهم يمسكون بيديها الدافعتين لهم بمرارة الصراع . كالحيوان الذبيح الذي يقاوم من اجل حياته . صيد سهل هي.. ضعفها منحها قوة مضاعفة وهي تركض نحو زوجها ثم ترتمي فوقه، تسنده بساعديها، تمنحه دفق الحياة وهي تحتضن جسده المدمى الى صدرها. نحيبها شرارات تمتد حتى لجين صفحة النهر، وتنطفيء هناك بين امواج النهر الساري.. لامجيب سوى الصدى. تطايرت اسراب الحمائم فوق سعف النخيل بجنون تشاركها الصراخ نعيق بوم الليل. صوت نباح لكلاب من اطراف القرية. صوتت.. تطلب المستحيل هي. الكل مختبىء داخل الاكواخ.. يعرفون هم ما يجري.. يسمعون.. ولكن الخنوع والخوف البسهم السلبية. لادخل لهم في الموضوع.. التجاهل اسلم. لقد نصحوه بترك طريق المواجهه.. ولكنه عنيد، وهذه هي النتيجة. مات الكثيرون على هذي الدروب.

كانوا ينشدون وهم يلفظون الانفاس. سحبوها بقوة من شعرها وهم يبعدونها عن زوجها، وهو يستفيق. ربطوه الى جذع نخلة . تقدم احدهم الى المرأة وقد امسك بها الاخران. دنا منها وقدجحضت عيناه من الشهوة وهو يرى بعضا من جسدها العاري من بين شقوق الثوب الممزق والذي التصق ببدنها المبلل بالمطر. مد يده يتحسس نهديها النافرين. ارتجفت مشمئزة وبصقت عليه صارخة:
- انقطعت ايدك يا نجس..
رفع زوجها رأسه وقد عاد اليه وعيه. داهمه الالم الغريب الذي ابتدأ من قلبه نازلا عبر عموده الفقري حيث قدماه المرتخيتان.. اين شجاعته؟ بصوت شق الفضاء توجع وأن وهو يراهم يلامسون عري زوجته. تلوى جسدها بين اكفهم وهي ترفسهم وتعض ايديهم. حررت ذراعيها وامسكت بسرعة البرق بالفانوس تسحبه بقوة ، فأندلق النفط فوق ثوبها وخلال لحظات اشتعلت فيه النيران. هوت الى الارض كالكرة المتوهجة واضاءت المكان. تصاعد ازيز الشرار ورائحة اللحم المحترق. حاول احدهم ان يطفيء جسدها الملتهب ولكنه لم يفلح. اما الاخرون فوقفوا بعيدا يتفرجون على الموت المشتعل والمتدحرج وهي تنقلب على قفاها يحوط بها صراخ زوجها:
- طفوها.. انجدوها.. راح تموت.. خلصوها لخاطر الله..
كان يهذي.. بكاؤه اجتاح اعماق الوجود ورافق بريق الرعد وشهب السماء. مخالب الالم تمزقه.. تمزقها.. جحيم تهاوت فوقه يهدهد عذابها وهي تخمد ببطء وقد تحول الجسد الغض الى فحم مشتعل .. لم يحرك احد منهم ساكنا لانقاذها. كعواء الذئب صاحبها انين زوجهاالاجش:
- يارب السماوات وينك.. ماتسمع صراخنا احنا المتعذبين..
جاءته دفرة من حذاء احدهم:
- لاتذكر اسم الله.. ملحد ابن كلب.. هذا درس الك ولأمثالك.. اخذوها لأهلها وبلغوهم حرقت نفسها هي.. وهو اخذوه للمعتقل.. ها خل جماعتك ينفعوك.
جروحه تدمي. خنقته دموعه وعبرات اللوعة. كان يترنح وهو ينوح ويعوي في ليل اللاوعي. متعثرا مغلول اليدين يحصد الاغصان بكتفيه وهم يجرونه جرا. لو استطاع لغرز اظافره في اعناقهم.دماؤه متخثرة فوق بدنه. ويسيل انكساره وقد تبعثر عقله، ونما وجعا كل عصب فيه. السائل اللزج يتمرغ في الطين والنثيث المنهمر. لبه يسبح في دوائر ودوامات زرقاء تمر امام عينيه، يخترقها ضوء شفيف كالذي يخترق احداق رضيع عند خروجه من رحم امه. غشاوة الدمع تعبر ليلا تساقطت نجومه وانطفأت.
كم مضى من الوقت على تلك الاحداث .. خمسون عاما . ضوء الفانوس يتراقص بضعف، فكر ابو رند ان ذاكرته اصبحت تخونه مؤخرا . تسارعت دقات قلبه وجعا كلما تذكر امه وما حدث لها، واباه بعناده وتحديه الدائم لصعاب الحياة. ذلك الوجع الذي عوضته عن الكثير منه ام رند بأحاديثها الطلية الهادئة عن البستان والماء وعن الجيران وعن ابنته رند... الماضي الهادىء الرتيب. عاود التحديق الى الفانوس. الافكار تخفق بسكون في رأسه. ماضيه وحياته هو وحفره للبئر . لو ان المياه تدفقت في الحفرة التي قام بتعميقها مؤخرا. ترنح الضوء حوله ذات اليمين وذات الشمال. يجب ان يصل الى المياه الحلوة، انها الحياة له ولمستقبل القرية.. المياه.. المياه فكرة عالقة مثل الصدى تترددفي وجدانه.كان القدماء يقدمون القرابين من اجل المياه. سيصبح كل شيىء عبثا بدونها. انها القوة التي تساعدهم على الصمود. خيالات لهوام دارت حول النور. عاد يسبح وهو يرفع صوته يدعو رند اليه. ابنته الوحيدة. ضاع صوته مع اصوات العاصفة وازيزها راح يحدث نفسه من جديد.. رند فتاته العاقلة الهادئة.تشبه امها في الكثير من صفاتها.كل شيىء يمر ببطء حتى رغباته.. لقد تجاوزت الثامنه عشر من عمرها وهي لاتتعجل الزواج. تريد دخول كلية الطب في مدينة البصرة.. اليس للقلق من نهاية؟ .. الا يسكت الضمير؟.. رند جميلة ، انها اجمل من كثيرات بشعرها الطويل وعينيها الواسعتين وقامتها الممتلئة بالاضافة البذكائها.. للروح وجدان تحبس جروحا للماضي تئن لها . ارتفع صوته ينادي فارتطم الصوت بالجدران وعاد متكسرا بتردد.

في تلك الساعات.. في مكان ما امام مدخل لبناية مظلمة في ساحة مضاءة بالانوار الكاشفة اجسام متناثرة انتهى طابور الحرس من جرها وتحميلها في سيارات لتدفن بعيدا في قبور منسية في تلك المدن المنسية.
ارتجفت يده وهو ينصت.. اجل انه الصوت.. كذب نفسه.. كلا انه صوت العاصفة الهادرة في الخارج.. صوتها كان مشابها له.. منذ خمسة وثلاثين سنة وهو يسمع صوت بكائها.. ايها الضمير اما كان لك ان تدعني اعيش بسلام. كل تلك السنين وهو يبحث دون جدوى. يتمنى قبل موته ان يعرف وان يصلح خطأه اتجاهها.. يريد اسكات ضميره الضاج في خلايا عقله.. كلما طفا اسمها فوق سطح ذكرياته.. يسكته.. يبعده بقوة .كيف فعلها معها وهو الرجل العاقل.؟ لو يستطيع لدفع عمره للرجوع الى الوراء واصلاح ما اقترف.. رغم مرور السنين لايزال يبحث عنها.. ذكرى.. ايها الضمير دعني انام .. ابتعد عني.
صوت طويل ممطوط طغى على كل اصوات العاصفة الصافقة في الخارج.. انه عواء.. ان روحه تئن بعواء.. بدأت تشاركه اصوات اخرى، بدا اولا وكأنه بكاء طفل يشق الهواء الثقيل ويخترق جدران البيوت، فيوجف القلوب فزعا، وتمتد الايادي الى العصي والبنادق القديمة.. انها الذئآب.. اندفع ابو رند يفتح الباب بصعوبة وهو يحمل بندقيته القديمة ويصرخ:
- رند.. رند.. روحي بالعجل الى بيت عمج.. خليهم يتبعوني.
قفزت رند مذعورة من فراشها، تعبر الحد الفاصل بين الحلم واليقظة. تمايلت بثقل النعاس ووضعت فوطة على رأسها وكتفها، وشقت الهواء خارجة من باب دارهم. تلقفتها الريح، وهي تلتف حولها وتدور معها. التحمت بها وهي تبصق الرمال. محت الحلم الذي كانت داخله اثناء نومها. صعبت عليها خطواتها حتى كادت ان تفقد الارض وتطير داخل المدن الخالية والبيوت المهدمة في كابوس احلامها. بذلت جهدا للسيطرة على توازنها حتى وصلت بيت عمها.فتحت عيونها كي تستيقظ وصرخت وهي تضرب الباب :
- ياعمي.. ياساهر.. اركضوا عاونوا ابوي..
لم تتم جملتها فمن جوف الظلام تشكلت خيالات لرجال صارت اعدادهم تزداد.. وتجمعت لترسم اشباحا مستطيلة على صفحة الليل، اخذت تتلوى منحنية باتجاه الريح الهابة. صيحات وصرخات تعالت متزاوجة مع دوامات وازيز. موجات تدفع بعضها بعنف. امسكت رند بحافة الحائط وتماوجت مع طيات الحلكة. لاتستطيع فتح جفنيها.. من هم هؤلاء الرجال؟ لاتدري اهم يعاركون العاصفة ام الذئآب ؟ علت اطلاقات الرصاص. رغم الخوف ووجيب قلبها النابض اخفت رأسها بذراعها وسبحت باليد الاخرى. استطاعت التمسك بباب المنزل. احتمت بها. في تلك اللحظة شعرت بجسم ما يلتصق بها.. ذعرت.. هلعها منحها قوة مضاعفة لدفعه عنها بكل قوتها. ولكن الذراعين كانتا اقوى منها وهما تحتضنانها. دفء الجسد انتقل اليها فضعفت قليلا كأنها لاتزال في فراشها تحلم. ولكنها استفاقت ورفعت كفها وبكل قوتها صفعت الوجه الذي اقترب بأنفاسه منها. سمعت آهة مكتومة، ولحظة ضعف في الذراعين استغلتهما لتندفع راكضة الى داخل المنزل.. وجسدها يرتجف.
بهرها ضوء الفانوس المعلق، ورن صوت زوجة عمها وهي تخرج منفوشة الشعر منتفخة العينين:
- شكو؟.. شصار.. شنو هذا الصياح؟
انفاسها اللاهثة صعبت عليها الاجابة. تلفتت رند الى الخلف علها تكشف المجهول الذي ضايقها قبل قليل ولكن الباب كان قد انغلق بفعل الريح. ولولت زوجة عمها واسرعت رند خلفها وهي تلتقط عصا غليظة ركنت الى الجدار، رفعتها عاليا واحتمت بها في مواجهة خطر الهواء، وستارة الظلام. والمعركة جارية. والحيوانات تتقافز، والجياد تفر بحرية الى جوف الصحراء مخلفة وراءها الرمال وشيئا من الفراغ الدائر مع الرجال. اختلطت اصوات العاصفة بالصيحات الانسانية وامتزجت مع صورة المهاجمين وقفز الذئآب.اندفعت رند بينهم ولكن العمة امسكت بها. وكلماتها المحذرة.. لا يا رند انت اضعف منهم.. بالمعارك الضعفاء اول من يسقط.. ظلي الى جانبي وراقبي المعركة من هنا:
- الزمي العصا واضربي .. احمي نفسج واحميني. . وابقي الى جانبي .. بس لو توقف الريح جان خوفناهم بالنار والمشاعل.

النار هي الحل. هرعت رند للف قطعة قماش على طرف العصى ثم غمستها في تنكة النفط القريبة من الجدار واشعلتها.شع النور وتطايرت نجمات من الشرر. رفعتها رند وضربت بها الذئآب العاوية حولهم. فرت الحيوانات هاربة بأصواتها الممطوطة. ساعدت رند عمها في التخلص من احدهم. وكان قد غرز انيابه في طرف الثوب فمزقه وسالت الدماء من ساقه وذراعه. اشعلت العمة الاغصان الجافة والسعف اليابس والريح تنفخ فيها فتحولها الى اللون الازرق المتلألىء . اقتربوا من النار وقد تمزقت ملابسهم وتلطخت بالدماء. حملت النساء جرادل الماء فبدأ الجميع بالاغتسال وتضميد الجروح التي اصيبوا بها.
فتحت رند غرفة الضيوف في الدار. فلجأ الجميع اليها.اصواتهم ارتفعت وهي تصف ما قاموا به اثناء المعركة. العواصف تأتي دائما بالذئآب الجائعة. فكرت رند بالمعرفة والرغبة في المعرفة تملكتها .. من هو؟ .. التراث .. التقاليد .. العرف الاجتماعي داخل وعيها. لايمكن ان يكون اختلال لمثل هذه الموازين الاخلاقية. اختلالها يمزق صفاء روحها. ويجعل الضمير يصرخ في صمت الليل.. من حاول احتضانها وتقبيلها قبل قليل؟ لم تطل وقفتها امام الباب فالجميع امامها. انه امر مزعج هذا القلق الرابض فوق صدرها. ملامح الوجوه رغم الانفعالات بسيطة. الا ان القتال غيرها الى شهوة مكتومة الى العنف الذي بدوره اضفى شعورا بالقوة والثقة بالنفس والراحة. اختفى الضعف والخنوع .. هي فقط خطوة واحدة بين ان يكون المرء سيدا او مسودا اجتيازها منحهم فرحة الانتشاء بالنصر. تعرف الجميع هي ولا تعرفهم.فعلى ملامحهم شيىء من الخبث والزيف وعدم الاطمئنان. رؤوسهم تشبه كرات سوداء فارغة، تضحك وتتحدث وقد تشوهت بالشك والقبح. قطع افكارها صوت رباب ابنة الشيخ نسيم وزوجة رويد ابن الشيخ عبد الله وهي تسألها ما بها.. ولماذا هي ساهمة؟. لم تجبها وانما اسرعت الى عمتها فمعها يكون الحديث اسهل والحاجات اكثر اهمية.
حملت الشاي تدور به بخفة بينهم. هذا رويد بصوته الجهوري يكلم اباه. القى عليها نظرة متفحصة وكلمة شكر. وهذا ساهر ابن عمها بقامته الفارعة وملامحه الصارمة يقف الى جواره صابر وحسن الاعرج . قطع ساهر حديثه مع اخيه زياد وحاول معاونتها في حمل الشاي نيابة عنها. امتدت حينها يد صارم الاخ الاكبر لرويد يأخذ احد الاقداح ببرود وتعال. بجانبه وقف الشيخ نسيم والد رباب بسذاجته وطيبته يناقش ابو كاصد ووالدها ثم يرشف جرعة من السائل الحار الداكن وهو يحدث اباها. يد باردة جذبتها الى خارج الغرفة:
- المي مقطوع.. اخذي السطل واملئيه من البئر. قالت لها عمتها
ارتفع صوت والدها داخل الغرفة:
- ياجماعة الخير ترة مسألة الذيآبه هذي صارت خطرة علينا
ورد عليه الشيخ نسيم
- يا ابو رند خلي هذا الموضوع هسه .. لأن ينراد النا كعدة نفكر بيها شراح نسوي
خرجت رند بالجردل . دفعتها الريح. توقفت مترددة خوفا من الظلام ورهبة. خجلت من نفسها . لفت الشال حول كتفها وهي تتجه نحو البئر في وسط القرية .. أي طريق لفتاة وسط الليل؟ اما كان الافضل بعمتها ان ترسل ابنها ساهر او زياد؟ لماذا يطلب من الفتاة القيام بمثل هذه الاعمال؟ خدمة الاخرين.. ما بها خدمة الاخرين ؟ اهي عار؟ ام هي اقلال من قيمة الانسان؟ وهل المرأة هي فقط لخدمة الاخرين؟ .. افكار دارت ببال رند. الجردل يطفح بالمياه. تدفعه وتسير به وسط الدرب الخالي. رغم قوة صوت الريح سمعت امواج النهر خلف البساتين وهي تصفق الجرف، يواكبها هسيس سعف النخيل وهي تنحني امام العاصفة. اوراق شجر البرتقال تتطاير حولها هنا وهناك. وجيب قلبها، والخشية تجعلها تنسل بهدوء . تخاف الانهزام. ترمي نفسها خطوات الى الامام وهي ترتجف. ولكن يدا قوية امتدت تساعدها . لحظة فزع تناثرت وهي تشاهد رافد الاخ الاصغر لصارم يمد يده لحمل الدلو عنها.دخلت الطمأنينة الى صدرها. هبات قوية من الهواء الثقيل اللزج وقلق.. وشيء يرف .. اهو من..؟ كلا لايمكن ان يكون هو .. هذا الشاب الذي يكبرها بأربعة اعوام .. انه خطيب عفراء ابنة الشيخ فياض وابنة عمه والتي سميت له منذ نعومة اظافرهما. هزت كتفها بعدم مبالاة ونزعت الافكار عن رأسها.اقتربت من البيت دون ان تفوه بحرف لرافد الذي كان يسير خلفها.. من بعيد وفجأة ظهر شبح لأمرأتين خلف الاشجار قرب نهاية الدرب تسيران متخفيتين. لم تحزر من هما فقد كانتا ملتفتين بالعباءتين السوداوين

وقد انتفختا بفعل الريح. حين اصبح المطر رتيبا وخفت حدة الريح تغير مزاجها الى نشوة خفيفة. انتشرت رائحة الادغال والبساتين في الجو . تنفست بعمق نثيث المطر. الماء هو الحياة تحب المطر هي . ان اباها يكافح في سبيل حفر البئر وسط الارض التي يملكونها. والبئر وفرة من الخير، ولكن هل يمكن حفر بئر وسط الرمال؟ ما ان يحفر المرء نصف متر حتى تنهار الرمال.. لايمكن حفر بئر وسط الرمال قالت له رند.. فهي تنهار كلما تعمقنا في الحفر ويزداد انهيارها قرب سطح الماء العميقة.حتى المساند لاتوقف الانهيار.. انها قسوة ان يحفر الانسان في سبيل الخير ويغلبه الانهيار.. قسوة فظيعة ضياع جهود الانسان، وكأن الطبيعة تضطهده، وهو يحارب بقوة كل انواع الاضطهاد ولكنه لايستطيع ايقاف انهيار الرمال رغم صموده. ان ضعف الارض يغلبه وهو مثل ضعف المرأة . المرأة الضعيفة تغلب الرجل بضعفها..تذوب وتنساب من بين اصابعه. والرجل لايعرف كيف يمسك بها الى جانبه . تهرب من بين اصابعه. الرجل قد يمر بالمرأة لحظة .. زمن قصير .. ويترك هناك عمرا بكامله. يحن اليها.. يناديها.. وحين يرتفع النداء بدون جواب تصبح كالصدى بين رمال الصحراء. تنفست رند بعمق وقد زال توترها، وحل محلها حب للحياة. اعطت الجردل الى عمتها في المطبخ لغسل الاقداح. وعادت الى غرفة الضيوف. اربكها صوت صارم:

- اول نوبة لازم نجمع الفلوس وبعدين نلاقي حل ووسيلة ندافع بيها عن قريتنا وعن نفسنا. بالفلوس نشترى سلاح.

صوته قوي ممطوط اثار خوفها. السلاح معناه القتل والدمار والخراب. نظرت من خلال الباب اليه، الوجهه الاسمر وقامته الطويلة وشعره الاجعد وعضلاته البارزة وشعرت بقلبها يضيق عليها . ان صارم يتلاعب بكل شيء حسب عادته. بأخذ زمام الامور والمبادرة كي يقود. يخطط ويرتب الامور بطريقته الخاصة. يعتبر نفسه اذكى منهم.. تقوده منافعه الشخصية بخبث ومن خلف الستار. استمرفي كلامه:

- بهمة وحكمة شيوخنا ان شاء الله تنحل المشاكل، همه الخير والبركة .. وبهمتهم راح تنجمع الفلوس

انصتت رند وشعرت بلاشمئزاز. هل الاخرون لايرونه على حقيقته؟ عليك الحذر منه يارند هذا ما قالته لها ام كاصد. ام كاصد عمرها خمسون سنة والشقاء مرسوم على ملامح وجهها. ذهب ابنها كاصد الى مدينة البصرة قبل اكثر من عشر سنوات. نزل ليبيع اكياس البرتقال ولكنه لم يرجع. ترك ابنه الصغير وزوجته المريضة ولم يعد. تعب والداه في البحث والسؤال عنه.كل شهر تسافر ام كاصد الى مدينة البصرة للتفتيش عنه. قالوا لها انه ذهب مع المتطوعين للدفاع عن الوطن .. ذهب الى الجبهة. جادلتهم بأنه المعيل الوحيد للعائلة. وان لديه ورقة اعفاء من متصرف البصرة. اخبروها بأن مثل هذه الورقة لاتنفع. وقص عليها بعض المعارف بأن الانضباطية جاءوا في ذلك اليوم باللوريات الى سوق الهنود وحجزوا على كل من وجدوه من الشباب واخذوا كاصد معهم.. كانت هناك معارك طاحنة مع الايرانيين وكانوا بحاجة الى جنود للحلول محل الذين استشهدوا او فقدوا. ومنذ ذلك اليوم لم تسمع ام كاصد ولا ابوه بشيىء عن ابنهما.

- ليش ما يكتب مكتوب؟ ولا دز النا طارش؟ وين هو؟.. صار النا سنين ندور عليه. قابل فص ملح وذاب.. لا مكاتيب ولا اكو احد يعرف وين راح؟ قالولي يمكن اسير.. هناك عند الايرانيين.. بس ليش ما يكتب؟ ما يقول وين مكانه؟ ليش صار ازيد من عشر سنين ما سمعنه عنه؟ قالوا لي يمكن حاجزته الحكومة لو مسجون؟ رحت للبصرة وسألت عنه الشرطة.. قالولي ما سامعين بواحد مثله ولا عدهم مثل اسمه .. ولا فرد يوم شافوا.. يعني فص ملح وذاب.. مثل الماي الينطش بالرمل بحر الصيف تشربه الكاع ويروح بساع.

هذا ما تردده ام كاصد كل يوم ومن سنين. وخصوصا حين تذهب الى مدينة البصرة وتمر على مديرية مكافحة الاجرام للسؤال عن ابنها :

- بلكت وصل خبر عنه.. الشرطة ما تعرف عنوانا.. وكلما اروح احط عندهم العنوان مال بيتنا .. بس ماكو فايدة .. اروح ثاني مرة القاهم مضيعين عنوانا من جديد.. ماكو احد يهتم ..

وتهز رأسها بيأس. وترد عليها رند:

- الله يساعدج ام كاصد.. ان شاء الله يرد كاصد بالسلامة

فص ملح وذاب.. مثل الماي من ينطش فوق الرمل بعز الصيف.. وابوها يريد حفر بئر في الرمال. قال له الجيولوجيون لاتتعب نفسك عمي لن تجد الماء. واذا وجدتها ستكون مالحة ولا تصلح للري. ولن تستفاد منها.
استمر صارم في الكلام:
- ياجماعة خلونا نسوي لجنة..
اللجنة من اصحابه قالت رند في سرها. لجنة تسرق المال الذي سوف يجمعونه.. ما الذي يجعل الجميع يصغون اليه ويطيعونه.يقولون عنه شاب جيد ، صلب، شغول، عنده كبرياء.. يشيعون عنه بأنه شقاوة القرية. والقرية بحاجة النمن يحميها.. يحميها من ماذا؟ سألتهم.. قالوا بأستغراب.. الاتعرفين من اجل من تكون الحماية؟ انها من اجلنا كي لايعتدي علينا احد اذا عرفوا ان عندنا واحد مثل صارم. اجفلت حين احست بيد رافد تلمس يدها ، وسمعت همسه .. رند اريد ان اراك .. عندي كلام مهم ، اريد مكاشفتك به. دفعت يده عنها:
- فك ايدي.. انت توجعني..
غشاوة من الدمع في عينيه:
- اريد احجي وياج.. لازم اشوفج.
ابتعدت . لا ..انا لا احب الاسرار.. ابتعد عني .. عندك خطيبتك اذهب اليها. قفزت هامسة . تركها واختفى داخل غرفة الضيوف. راقبته.. راقبتهم .. كانوا جميعا ينظرون الى صارم بنظرات فارغة لاتعكس أي انفعال، وكأنهم موجودون وغائبون في نفس الوقت. غادرت عمتها ورباب البيت وذهبتا .نظرت رند الى ساهر ابن عمها وهو يتحدث الى صابر واخيه زياد.. تذكرها قامته المنتصبة بالنخلة الفارعة. تتحاشى النظر مباشرة في احداقه. فعيناه نفاذتان تشعرانها بالارتباك والخجل، وكأنه ينظر الى اعماقها.. يعري روحها.. يعرف ما تفكر به.. وهذا يحرجها فتدير عينيها مبتعدة تداري اضطرابها. واسرارها. فكرت رند لن يغمض لها جفن هذه الليله. فجميع هذه الاصوات والنقاشات ستسرق النوم من عينيها. يطير النوم في الليالي المؤرقة، فتحلق ابصارها عبر نافذتها نحو السماء. نحو النجوم.. مااجمل النجوم والليل مرصع بها. تحب الظلام حين يحتوي الصحراء، والرمال، وبساتين البرتقال.
بعد ذهاب عمتها صعدت الى غرفتها. وقفت الى جانب النافذة حسب عادتها تطل على بستان ابيها.رغم ان غرفة نومها في الطابق العلوي الا ان الضوضاء وصلت الى اسماعها. لم تشعل النور.. لانجوم الليلة ، فالسماء مطبقة الظلام. وسعف النخيل يتمايل ويشير كأذرع طويلة لأشباح قادمة من العالم الاخر تلطم احداها الاخرى . ضوء حاد لمع انار القرية وكل ما يحيط بها من اشجار حتى امتداد المقبرة في نهايتها. فبانت الصحراء بكثبانها. في ذلك المكان البعيد خارج القرية شاهدت شبحا لامرأتين تسيران . انهما نفس المرأتين اللتين شاهدتهما حين كانت تجلب الماء . دققت النظر فيهما ورغم الذعر الذي يلف خطوهما عرفت فيهما ام كاصد وملاذ بنت تعبان الفلاح الكردي الذي يعمل عند صارم. الى اين هما ذاهبتين في هذه العاصفة والمطر والذئآب تحيط بالقرية؟ حل الظلام من جديد ولم تعد تراهما داخل الحلكة في تلك اللحظات ظهر العالم غريبا.. وارتعشت اصابعها وهي تفتح النافذة. لو تستطيع السفر وترك هذا المكان هذه الارض الموحشة المغتسلة بعاصفة المطر والرياح. ان كل شيء يهجع فيها تحت صمت يلهو بأقدارهم. لو ان المطر المدرار يستطيع غسل الخنوع والاستسلام لدفعت بأهل قريتها للجلوس تحت الماء المنهمر . ومع هبات الهواء سمعت في ضميرها صدى صوت ام كاصد وهي تنتحب:
- يمة كاصد وينك.. يمعودين يا ولدي الطيبين ما شفتوا كاصد.. يمة راح للبصرة وما رجع .. ما رد لبيته.. فدوة ما اوصيكم اذا شفتو قولوله خل يوديلنا طارش .. لو يكتب مكتوب.. يمه كاصد صخام وجهي .. وصخام الصخمني يوم خليتك تروح للبصرة.
ويعلو بكاؤها. ثم تأخذ تنعي بصوت ممطوط حزين :
- يمه شالوا لا على مقصد وداعي.. يمه الروح والحيل بعدك تداعي.. يمه الدار خالية بعدك يا كاصد يا يمه.. وين الموت يجي وياخذني وداعي يا يمه يا كاصد.. بعد ماظل حيل بيه.. وكاعنا ضاعت بعدك يا كاصد يا يمه. يقولون انت مسافر وهجرت اهلك وكاعك.. يمه كاصد اليهجر هله ماله اهل بالغربة يايمه ضايع انت وين القاك.. وج قلبي حنين وروحي تموت عطش لملقاك.

تنهدت رند حزنا على ام كاصد. اشعلت الفانوس ثم سحبت ديوان شعر راحت تقرأفيه.. "سأودع سنبلة فوق قبرك هذا المساء.. وأقرأمن سيرة الريح ، ما محت الريح اذا عبرت فوق عشب القبور" .. ينبض البرق مرة اخرى ، يضيء ويخترق ويطعن اغوار الظلام. كالرماح اللامعة وهو يمزق صمت الليل . نثيث المطر يدق فوق زجاج النافذة. كم تريد ان تعيش بحرية في مكان ما .. دون قيود. تترك الكتاب وتتجه الى الشباك .تحدق بأتجاه المقبرة علها ترى ملاذ وام كاصد، ولكن فيضان السواد غمر كل شيء. ايقظها همس تعالى من تحت نافذتها محمولا على اجنحة الهواء:

- رند .. رند

تعجبت.. لم تجب.. من يناديها؟ حدقت الى الاسفل لتعرف.. صوت حصاة صغيرة ترتطم بالزجاج. لازالت اصوات النقاشات تصلها من الاسفل.. انحنت هامسة.. من انت؟ بخفوت وصل السمعها صوت ساهر.. انزلي انا محتاج لك. وشوشة جاءت مع صوته اشبه بسرية امواج النهر في ليل صيف. ترددت فما زال الفزع من الظلام يلازمها.. قالت:

- قولي اول شتريد بعدين انزل.

قال بصوت مكتوم مشكلا مع السر الذي يحمله حالة من عدم الصبر والاستعجال:

- انزلي وآني اقولج.

لا تعطي مساعدتها بأنسياب. ساهر باطني لايكشف اوراقه بسرعة. حزين دائما. غريب . وجهه محايد حتى وقت الالم. ماذا يريد منها؟ صوته ينبىء بشيىء اعمق وابعد من السر. تحركت وهي تلم شتات المسؤولية. ملعون هو الضمير. يحركنا حتى في وقت المجهول" عêر ê s1;Noطulº×IـفطHC گèoo7€HXک@7ظىننsاء للكلام الذي لا مرفأ له.. هذا العنف الهمجي من اناس مسالمون. هل هم حقا اهل شقاق ونفاق؟ ام هم بريئون مما ينسب لهم.؟ يقول ابوها ان مشكلتهم هي انهم لايستجيبون بسرعة. لايتفاعلون مع من يحاول دفعهم لعمل شيء ما. لا يطيعون من هم اعلى منهم. فأرضهم كانت مسرحا للغزاة. لذلك اصبح الشك والريبة هي طبيعتهم الغالبة. بتوجس عبرت بستانهم، وكأنها خارجة من تلك الاقبية السرية التي تسمع عنها احيانا. لاقته في منتصف الطريق طلب منها ان ترافقه.ثيابه منتفخة بالالحاح. ولكنها رفضت ورجته ان يشرح لها الى اين يريد اخذها؟ وما المساعدة التي يرغب بها؟. اصر على الكتمان ووضح ان عليها ان تثق به وانه سيشرح لها الامر اثناء الطريق ، وانها اذا عاونته سوف يرد لها الجميل في الوقت اللازم وكما ترغب. ترددت اولا ولكن الوعد اعجبها فهي تحب استغلاله احيانا .. فهو صديقها منذ طفولتها . اخبرها انه سوف يأخذها الى بيت جدهم القديم . امسك بيدها وهو يساعدها على تخطي العقبات، وقد تآلفا مع الجو وغابات النخيل واشجار البرتقال الكثيفة الهاجعة تحت مهرجان عاصف للاوراق المتطايرة. صوت ساهر يضيع احيانا وهو يحادثها. شعر بخوفها فتلمس المدية في جيبه الخلفي . هو متأهب للمفاجآت. تمالك نفسه. رغم شجاعته توجس من المنعطفات المظلمة. كل سنوات دراسته في كلية الهندسة قضاها ويده تهتز كلما اهتزت باب او مدخل لأحد المسؤولين. دائما يخفي كراهيته وراء الشيطنة والمراوغة والكذب الذي اصبح ماهرا فيه. والسكين يحملها دائما في جيبه الخلفي. لايشعر بالأمان الا وهو بين اهله. ينعتون جيله بالانانية والهوس بالنقود. فكل شيء عندهم تجارة. واسلوب لفن اغاظة الآخر وتعذيب الطرف المقابل. فن الغمز واللمز و التعذيب المعنوي. وهكذا اصبح مرض الكآبة صفة عامة للجميع. ولكن ماهو السبيل الصحيح للاستمرار والبقاء.. والنجاة من العواصف؟. الاختباء في اعماق قوقعته ابعده عن مواجهة الاخطار. شجاعته تكمن في قدرته على التحايل على ما يمر به من ظروف. وتحمله بصبر كل المنغصات. قالت رند تحثه على الحديث عن هدفه:

- بعدين .. ما سولفت .. ولا بديت ..

تهرب شارحا .. لاتوجد بداية ابدا .. ففي نظره كل البدايات هي نهاية لشيء ما.. حتى النهاية تستمر مع البداية وترافقها.. وكأنها لم تنته بعد.. وها هم هنا جيل بعد آخر ومنذ الاف السنين.. متى كانت البداية ؟.. وهل هم نهاية

لها؟ ام هم بداية لمستقبل مجهول؟ والحياة بئر من الاسرار مثل البئر الذي يحفره ابوها وكان جدهما يحفر مثله.
اعترضت بأنها لم تسمع ان جدها كان يحفر بئرا قبل ابيها. قال :
- للآبار اسرار ما تعرفينها لصغر عمرج.
احتجت وقد امتزج صوتها الانثوي بطفولة محببة وعناد:
- زين .. انت تعرف هذي الاسرار؟ ليش ما تحجيلي عنها؟
كان نثيث المطر والرياح تحمل برودة ولزوجة لفتهما . شيء ما بدأ بينهما . دفء يده. وتغنج جسدها وقد التصقت الثياب به اظهرت استدارات نهديها.. موجة تكسرت على شاطيء اطرافه السفلى.. فأرتجف. وضغط على يدها في كفه. وشوشة الحيوانات المختفية بين الاغصان جعلتها تقترب منه اكثر .. تحتمي برجولته. تطرد وساوسها.. رد عليها بخفوت:
- ما يخالف.. اذا ساعدتيني ما عندي مانع اشرحلج.. بس كل شيء بثمنه حتى المعلومات.. تعرفين هذا زين مو هيجي..
استسلمت ليده الضاغطة. ذراعه الاخرى كان يدفع بها الاغصان الكثيفة وهو يشق طريقه بصعوبة ليفسح لها مجال المرور قالت بحزم:
- اتفقنا راح اعاونك على قدر ما اقدر.
قص عليها قصة البئر الطويلة.. والتي بدأت في ثورة العشرين حين ثار الشعب العراقي للتخلص من الاحتلال البريطاني. كان الجد واحدا منهم ولهذا فكر بحفر بئر في القرية للطوارىء . أي ان يجعل للبئر سراديب وقنوات سرية تحت الارض، يختبىء فيها الفلاحون عند اشتداد الخطر، ويستعملون اقبيتها كمخزن للسلاح.. ولكن بعد ان انتهت الثورة ، انهارت البئر، لأن الارض رملية. و مرت السنوات.وقبل الحرب العالمية الثانية فكر الجد في حفر البئر مرة ثانية حين اخذ الاقطاعي في السيطرة على مصادر المياه والتحكم بالحصص المائية. فقام هو وبعض رفاقه بوضع اساس لها وتم بناء اقبية وسراديب. ومضت فترة من الزمن، في البداية كانت البئر صغيرة، ولكن مع ازدياد احتياج الناس لها، اخذت تتوسع وفاضت بالخير والماء حتى غمرت الارض الزراعية الجديدة . فقوت سواعد الفلاحين. وبدأوا يطالبون بالعمل المستقل . اخاف ذلك الاقطاعي فأرسل يستنجد بالحكومة. وزير الداخلية ارسل الشرطة لدفن البئر.فحدثت صدامات بين الفلاحين والامن. كان الجد غائبا في ذلك الوقت ، فقد سافر الى بغداد للمشاركة في انتفاضتها ضد معاهدة بورتسموث. وعندما عاد وجد الاقطاعي والشرطة في انتظاره. هرب هو والجدة. كانت ليلة ماطرة رهيبة. اثناء الفرار ماتت الجدة.. قالوا انها احرقت نفسها، وقد كذبوا فقد كان بأمكانهم انقاذها، ولكنهم تركوها تموت محترقة امام الجد. صوت مدو احدثه انجراف حافة الساقية حين قفزت رند لتعبرها، اوقفهما عن اتمام حديثهما. سقطت رند في الجدول القديم الذي يروي وسط بستانهم . كثافة الاشجار زادت من حلكة الظلمة.المطر اثقل سيرها، رغم قوة ذراع ابن عمها انزلقت الارض تحت اقدامها وهوت. لهثت انفاسها وهي تصرخ معلقة بقبضته. حكاية جدها شغلتها عن الانتباه لموقع خطواتها. نعبت بومة وهي ترفرف هاربة نحو نخلة اخرى. تطايرت اسراب من الحمائم والطيور وحلقت تحت المطر تحوم حول اعشاشها، ثم عادت لمخابئها. ادلهم الليل اكثر.. لاضوء لانور سوى اضواء البروق بين حين وحين، لتزيد من رهبة ووحشة المكان كأنه آت من ازمان غابرة. شعرت رند انها تغيب عن وعيها نتيجة السقطة. ارتفع البستان وتحول الى جدران صماء تكبس على صدرها تنفست بعمق وهي تبتعد نحو الاعلى والريح تحملها في رؤيا امتزجت بين الواقع والخيال.ومن عليائها نظرت الى الاسفل حيث وقف ساهر. الخيال والحلم اصبحا هما الواقع. ساهر واقف هناك ولكنه ليس ساهر.. ورند ليست رند.. ساهر هو الجد ورند هي الجدة.. انه نفس وقت هروبهما من مطاردة الشرطة. انها نفس الليلة الموحشة العاصفة. نفس الرعود والبروق. نفس البستان. ضوء قوي انار المكان مرة اخرى... الجد يساعد الجدة الساقطة في الجدول.. انها شابة صغيرة جميلة وجدها شاب وسيم وقوي... ماذا يحدث لهما ؟ انهما يركضان ويختفيان وسط الاحراش. ما الذي يجعلهما يفران؟..انه شبح الجد والجدة وهما يهيمان فوق السطح الغريني للقناة. الاموات يعودون الى موطن الذكريات.. تسمع رند صراخ الجدة وهي تحترق وانين جدها المغلول اليدين. تأن رند لأنين جديها. تصيح كصرخة الروح وهي حبلى

بالموت.. كم تشد على قلبها غربة الجد.. انه هناك وحيد وهم يحملون جثة جدتها بعيدا عنه. تتنهد بعمق. تسمع صوتا.. انه صوت ساهر وهو يضربها على خدها بلطف .. رند .. رند ماذا حدث؟ ما بك..؟ هل انت بخير؟ لهفته عليها ارجعتها الى الواقع. ادارت رأسها شمالا ويمينا.. دموع.. سيل من الدموع غسل وجهها. تأوهت وهي تفتح احداقها ببطء . حاولت ان تنهض وهي توازن ثقلها فوق ساقيها .. وانتحبت.. تراجعت الى وسط الجدول. ساقها التوت تحت ضغط سريان الماء. احتضنها ساهر بساعديه.. بترفق التصق بجسدها. دقات قلبه طبول تهلهل للفرح والنشوة. ضعفها منحه قوة مضاعفة. هديل للحمام تدحرج نحوهما.مسد شعرها المبلل بيده وهو يرتجف. كالطفلة الصغيرة حين تبكي في الايام الخوالي.. كان دائما يحملها فوق كتفه ويدور بها في محاولة لأضحاكها.. يحب حملها على صدره والالتصاق بها. يعشق ضحكتها الحلوة. براءة نظراتها.. ولا يزال يهواها هي كما هي.. وهي لاتعرف كل طاقة الحب الكامنة داخله.. لاتعلم بالجنون تحت اظلاعه..لم يحن الوقت لأخبارها.. ليس الوقت مناسب. لن يفوه بكلمة حتى يثق برغبتها فيه.. حتى تطلبه هي .. وتريده هي.. سينتظر ولو مرت سنين العمر.. سينتظر عبور رحلة الالم.. مسح دموعها مهدهدا..

- أش.. أش.. آني هنا .. لاتخافين.. آني يمج.. شصار؟ وين مكان الالم؟. الرجلين بخير وظهرج ما اظن بي شي.

تحسس جسدها من رأسها حتى اخمص قدمها ومن شهقاتها اخبرته بأنها حلمت بجديها، والظاهر غابت عن وعيها:

- شفت نفسي ارتفع للسما.. وظليت معلقة بالهوا ..وجوا شفت بستاننا..ووسط البستان جدي وجدتي يركضون.. ما اتذكر شنو صار ..بس الاحداث وجعتني حيل.. ونزلت دموعي وآني اتبع خطواتهم فوق الطين والمطر والرمل.

فكرت من الواجب عليها الذهاب وزيارة قبر جدها مساء الغد..ستدعو له وتحدثه عن ارضه..واشجاره التي كان يحبها. حملها ساهر من الجدول.. ووضعها على الارض.كان مؤلما له ان يفصل جسده عن جسدها، كأن روحه ينطفيء وهجها، ويخف سيل دمه الهادر بالنشوة والنداء..

- وقع قلبي من الخوف .. جنتي تبجين وانت غايبة عن الوعي.. حتى ظنيت أني فقدتج.. ها تريدين ترجعين للبيت.. آني ندمان ما جان لازم احملج همومي ومشاكلي.. اقعدي هنا جوا الخص.. احتمي من المطر.

نزع سترته ولف بها اكتافها طمنته وهي تشهق بأنها بخير، فقط جسمها يؤلمها.. وانها ستهدأ بعد قليل. وانه من الافضل ان تعود الى البيت..فقد تأخر الوقت . كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشر مساءا.قال

- لازم ترجعين لوحدج لأن آني مجبور اروح عندي شغل مهم جدا.

كلامه اثار ريبتها فألحت في معرفة هذا الشغل المهم الذي يريدها ان تعاونه على قضائه . ولكنه اصر على انه من الاحسن لها ان لاتعرفه حاليا.. بعدين .. يجوز سيخبرها، فالموضوع يمكن يحدث اضرارا اذا انكشف.. وطلب منها ان لا تحدث احدا بما حصل وان تكتم الموضوع تماما.واوصاها بالتأني وهي تسير لوحدها راجعة. تركها وغاب بين الاشجار.شعرت بالاعياء وهي تنهض من مكانها. ورغم معرفتها للطريق ولكل جزء من اجزاء بستانهم ، فأن وجيب قلبها مع كل خطوة رجوع كان كالسحر ممتزجا بالخيال بين الحلم واليقظة. . وبين تكسر همهمات حيوانات الليل.. حيث يستيقظ الرعب على شاشة عقلهاالمملوء بذكريات اسلافها القدماء واحداثهم، وتوهج سادية ما احاط وما يحيط بهم. فبعد وفاة الجدة وادخال الجد الى السجن.. وحبسه في نقرة السلمان.. تم لهم تطويعه . وقد سمعت انه في بداية الخمسينات ،كرس جهده فقط لاستصلاح ارضه المهملة، وتربية ولديه. لم يحدثهم عن وثائق المواطنين الاسوياء التي اجبر على توقيعها. الاوراق التي انزرعت في ثنايا ضميره. تلك التي تبرؤه من الافكار الشاذة. وانه اصبح مواطنا صالحا بنظر السلطة.. كل الذي قاله لهم من اجلكم يا اولادي وقعتها.فهي تبعد عن البيت الضباط ذوي الكفاءآت العصريةفي آلات التطهير والامن. كم تكره هذه الدوامة الاسطورية على ارض بابل، المستترة تحت هزات وتشقق السنوات الراكعة في غفلة من الزمن امام ذلك الشيء المرعب للذين يحملون الرأي الآخر. تكره القوانين المهووسة بأوهام السلطة الموروثة عبر سنين الهزيمة والانسحاق في صور العصور المظلمة من تاريخ اعوام العزلة.

الفصل الثاني

ابناء تيارات الآبار

اثناء اعوام الحصار والعزلة، الماضي، والحاضر، والمستقبل يلوي كل منهم الآخر. وليس هناك من قوة مادية او معنوية توقف زحف احدهم كي يمتد عبره الثاني. مثل دروب لرحلة موت.ومثل انسياب المياه المندفعة خلال القنوات المتقاطعة مع بعضها داخل بستان ابيها دائما الى الامام. قفزت رند واحدة من تلك الجداول وهي في طريقها الى البيت.وفجأة توقفت بفزع. سمعت حركة بين الاشجار، وكأن هناك شخصا ما يتلصلص بحذر، ولكن كثافة الاغصان ولزوجة الوحل اعاقوه، فأخذ يهمس وهو يلعن القدر والمصير وسنين العمر كله.هذه الهمهمات اوجفت قلب رند. فتوقفت لتهدأ.ثم انحنت ببطء وانسياب تحت الاغصان ترفعها، وبأقل ما يمكن من الضجيج.شاهدت على بضع خطوات منها شبحا اسود . طوقها الهلع.. هل جاءت الاشباح تغزو بستان ابيها في هذه الليلة المسخمة..لحظات الخوف كانت بطول العمر كله . بطول الماضي الممتد منذ آلآف السنين.. جف ريقها . لم تستطع تحريك لسانها او أي عضو من اعضاء جسدها. تسمرت الى الطين. بعد لحظات تحرك الشبح من جديد وهو يشتم الذين خلفوه.. واجداد اجداده.فسقطت العباءة عن الرأس وبان شبح ام حسن الاعرج، الدلالة العجوز الفقيرة التي تسكن الكوخ المنفرد عند اطراف القرية مع ابنها الاعرج حسن. دهشت رند.. ماذا جاء بأم حسن الى بستان ابيها؟ وكيف دخلت وعبرت اسواره العالية؟. انتصبت قامتها مع صرخة ام حسن:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. انس لو جن.. روح.. ولي.. ابعد.. يا ارحم الراحمين ابعد هذا الشر... سايمة عليك الانبياء وكل الائمة..

تساقطت بعض البرتقالات على الارض امام ام حسن. وهي مستمرة في تحريك يديها برعب، وقد انخطف لونها وسابت اقدامها، واخذت ترتعش مثل السعفة في مهب الريح. منظرها وقد تهدلت عباءتها على اكتافها، وانحلت عصابتها، وسقطت فوطتها، ورفعت يديها المرتجفتين، جعل رند تغرق في الضحك وهي تخرج من بين الاحراش. الا ان غصنا طويلا فلت بعنف ولطم أم حسن على وجهها. زاد ذلك من جزعها. فركعت على ركبتيها امام رند وقد اغمضت عينيها واخذت بالسجود وهي تتمتم، وتتأثيء وتبسمل:

- اعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. اعوذ بالله من شر ما خلق.. يامحمد ياعلي.. أمان ..أمان..ما طالبة غير الأمان.. العفو.. العفو..ولي روح .. يا عفريت هذا القرآن رافعتة يحميني منك.

لم تستطع رند الرد عليها فقد كانت غارقة في الضحك الدرجة صعب عليها حتى التنفس، والرد على ام حسن.. الصوت الضاحك والحركات العفوية لرند وهي تحاول انهاض ام حسن من ركعتها قائلة:

- ام حسن شقاعدة تسوين هنا.. آني رند مو جني..

عرفت ام حسن صوتها فنهضت من سجودها بحركة دفاع عن نفسها مع الاستنكار الشديد:

- رند.. خالة رند آني ام حسن.. شجابج بهل الليل المظلم الاغبر؟

استنجدت رند بكل قوتها لتوقف فيض الضحك وهي ترد قائلة:

- هذا بستان ابوي.. واروح واجي مثل ما اريد.. بس انت شدتسوين هنا.. وشلون دخلتي وباب البستان مقفول؟

صمتت..لم تجبها على الفور، واخذت تشغل نفسها بتعديل عصابتها وفوطتها، ثم وضعت العباءة فوق رأسها، وراحت تجمع البرتقال المتساقط على الارض، وهي تمسح عنه الاوحال العالقة به. وبعد ان وضعته في فوطتها التفتت الى رند وهي تقول بكبرياء وكأن الامر من حقها:

- هذا البرتقال راح ادفع فلوسه لأبوج..آني مو قصدي ابوق برتقال.بس ام فرات بعد عيني مريضة هواية.. ما اكلت ولا ذاقت العشا.. قلت شوية عصير برتقال يرد لها روحها.

- زين .. بس ما قلتي شلون خشيتي للبستان؟
تلعثمت ام حسن، وكان واضحا عليها انها ليست المرة الاولى الذي تقوم به بهذا العمل. فبعد برهة تمالكت نفسها وهي تقول بعصبية:
- على كل حال القضية مو سر..قسم من الفلاحين هم يسوون نفس الشي.. يخّشوون مرات حتى يحصلون على شوية فاكهه.. يعني يمعودين ترضون نموت من الجوع.. والاكل قحط.. والدنيا غالية.. والجهال ما يشوفون الفاكهه الا بالشافعات . وينامون وعيونهم على كسرة الخبز .. جهال هل وكت ما يعرفون شكل الموز ولا الخوخ والعرموط.. انقهرت على فرات وامه صار اسابيع ما ذاقوا الفاكهه .. احنه موحراميه.. احنه نتدين بس.. ومن تصير عندي شوية فلوس اروح لأبوج بنفسي وادفع له.
عطفت رند عليها.سمعت الكثير من هذا. وكثير ما حملت بعضا من الطعام البيت كاصد تهديه لهم.امسكت رند بيد ام حسن وسحبتها الى الشواصي لتحتمي من المطر. وجلست معها على صناديق الفواكه المعدة لسوق البصرة.وهي تقول بعد ان انارت الفانوس المعلق:
- آني ماريد فلوسج ياام حسن..بس لو جيتيني وطلبتي مني فاكهه جان نطيتج من عيوني..ولكن ما قلتي شلون خشيتي جوا البستان؟
ارتبكت ام حسن اكثر وتحشرج صوتها وبصعوبة كشفت السر:
- احنه نخش من صوب الساقية اللي توصل الماي لبستان ابوج.. ندخله بعد ما نزحف بنص الانبوب جوا السور .. البوري ضيق ولكن كافي.. باوعي هدومي شلون مبللة.. غرقت بالماي.
ثم اخذت بالنواح:
- جان لازم احسن لي اروح ويه ام كاصد وملاذ..بلكت اشوف زينب بنت علي.. واطلب غفرانها.. بس انقهرت على فاطمة ام فرات.. قلت يمكن تحتاج فرد شي.
ارتجفت رند وهي تسمع كلامها وهتفت:
- زينب اخت سيدنا الحسين؟ وين تلاقينها ياام حسن؟ وين تشوفينها حتى تطلبين غفرانها؟
لطمت ام حسن وجهها ثم عضت على اصبعها ندما ، وقالت بأسلوب المدافع عن نفسه:
- يارند يايمة.. هذا سر.. ما لازم تعرفينه.. بس لعنة الله على الشيطان.. فلتت لسان.ارجوج يا بنتي رجاء حار لاتخبري احد.
زاد عجب رند مع ازدياد فضولها حيث قالت بأصرار:
- اوعدج ماراح اقول ولا كلمة.. بس فهميني شنو الموضوع؟
ناحت ام حسن وهي تحرك يدها يمينا وشمالا :
- آني ما خايفة على نفسي يايمة.. خايفة من زلم صارم يجون ويهدمون كل شي.بس انت بنت ناس خوش اوادم.. طيبين.. الله يخليج لشبابج.
هزت رند رأسها وهي تشير بأنها لن تفضح السر. فأستطردت ام حسن وقد انزلت عباءتها وهي تستعد والمتعة ظاهرة عليها ، فهناك من ينصت لقصصها وقالت:
- في الخمسينات من طلع جدّج من السجن ورجع للقرية، قام بحفر البير بأرضه.. جان يحفر بالسر بالليالي الصافية..خصوصا ايام الصيف.. جان يحفر من دون ان يحس بيه احد..خصوصا الاقطاعي لو الحكومة.. ولما عرفوا الفلاحين بالموضوع.. قاموا همه هم بحفر آبار وسط اراضيهم. بس الماي ارتفع في قسم من الآبار..واحدة منهن من جهة كربلاء.. هذي البير بالبداية جانت ضعيفة ما بيها ماي..لكن مع مرور الأيام زاد الماي بيها..الفلاحين كانوا يروحون لها بالليل يسقون منها.. فبدأت تتوسع وتتعمق سنة ورة سنة ..والاشاعة تقول ان الفلاحين من بلاد ايران عمقوا هذي البير لاعتقادهم بأن تيار الماي يجي من ايران.وفي وحدة من الليالي وقت الفجر جماعة منهم قبل صلاة الفجر..والدنيا ظلمة..شافوا رؤيا.. شافوا شبح لمرة جليلة تلبس البياض طلعت ويه تيار الماي الدافق عرفوها وهمسوا بأسمها ..زينب اخت الحسين..ارتفعت وهي تحمل اخيها الجريح..وراحت تحوم بالهوا فوق رؤوسهم..جانت رأسها شامخة تنوش الغيوم..بالاول خافوا..بعدين سجدوا

قدامها والريح تدور وتحمل اصوات مثل الونين وحفيف اجنحة الملايكة..سمعوا صوت مو واضح..قال الهم..هذا الحسين الجريح.. اطلبوا غفرانه ايها العراقيين..لأنكم تحملون اللعنة..وراح تمر السنين محملة بالكوارث وآلآم والامراض ..والغزاة القساة ..وراح تذوقون العذاب والهوان الى ان يغفر لكم الحسين الشهيد خذلانكم اله. الفلاحين بهتوا واخذوا بالبكاء وطلب الغفران..لكن صوت زينب ابتعد وهي تصعد للسما وصوت الريح يقول ..لم يحن الاوان للغفران بعد ..ستصبح بلادكم قاحلة جرداء لا ماء فيها ولا انهار..وراح يغطيكم البلاء ..وتزحف عليكم رمال الصحراء..اطلبوا السماح من الحسين الشهيد.طبعا الفلاحين لما سمعوا هذا الحجي صابهم الفزع..والريح ظلت تدمدم داير ما دايرهم وهمه يصلون والدموع والندامة محوطتهم الى ان طلع الفجر.

توقفت ام حسن الاعرج عن الحديث وقد بدأ صدرها يضيق عليها وخنقتها العبرات، ولكن رند اصرت ان تكمل لها الحديث:

- وشنو اليوم.. تقولين ام كاصد وملاذ راحن يطلبن المغفرة منها.. يعني راح تطلع مرة ثانية الليلة؟

ارتجفت ام حسن وبلعت ريقها وهي تتم قصتها:

- ما ادري.. اللي اعرفه زينب ما طلعت مرة ثانية من ذاك الوقت، رغم النذور والصدقات والصلوات والذبايح وصوم رمضان..مابينت ولا علامة على غفران الحسين..واليوم تمر ذكرى هذي الرؤيا..وام كاصد راحت لأن عندها نذر بلكت يرجع كاصد صاغ سليم اذا الحسين غفر للعراقيين..وملاذ عندها مراد ما قبلت تقوله.

- بس لويش هذا الامر سر..شنو السر بالموضوع؟

- لأن اكو ناس ماتريدالخير لهل العالم..فمن يسمعون الناس رايحة يم البير تجيهم الزلم وتفرقهم.. يايمة يارند الايمان قوة توحد البشر ومثل هذي القوة ما يوقف بوجها احد..مثل تيارات الابار كلما تنطمر ترجع تنبثق مرة ثانية..اقوى واشد.

ادلهم الظلام اكثر حين تضاءل ضوء الفانوس. زاد ذلك من بؤس ام حسن..فرات الصغير النحيل وجده الكهل.. وجدته التي تتلاشى كل يوم وتصعب عليها خطواتها..ودموعها وعيونها الكليلة وهي تبكي كاصد كل ساعة، كل نهار، كل ليل ، صوتها الضعيف كالأنين في طراوة ليالي الخريف الماطرة المتواصل مع هفهفات الريح ورقصات سعف النخيل وليونه طين الارض العزيزة. صمتت وفي خيالها يرن هذا الصوت الباكي:

- يمة كاصد .. راحت ايام واجت ايام .. والسنين تمر.. ونوحي صار ونين، وجراح قلبي كبرت ودوم تنز دم..وعيوني مشتاقة لشوفتك..ونحوش الثمار وياكلها الغريب..وانت يا يمة بغربتك. منويعطف عليك وينطيك حفنة شعير تاكلها.. والجوع يايمة يذل الناس..كاصد يمة انت جوعان.. مثلنا جوعان..يايمة كبرتك وربيتك حتى تشيل عنا التعب بكبرنا..يمة كاصد وين انت وين ألقاك بهل الزمان الخربان والكاع العاقر المتروسة صبخ.

قطرات من مطر السعف رشت الارض وبللت اقدامهن.انصتت رند الى وجيب قلبها وهو يلهو بصمت..فراغ هائل اثقل صدرها . ماهذا الزمن؟.. لم خلقنا؟ مدت يدها تحتضن يد ام حسن.لمسات يد انسان دافئة تدفع الالم عنها.. نعيق بومة الليل فوق شجرة النارنج، رغم الظلام تتبع اثار خطو قادم من داخل البستان يحمل ضوءا خافتا لفانوس في يده.ينير الاغصان المتمايلة وهي تلتف حول النور.قفزت ام حسن مرعوبة،وشدت على يد رند بشدة وهي تردد:

- بأسم الله.. هذا شنو النوبة.. منوهذا الجاي.. شلون ليلة سودة هاي .. اشجابني هنا..هذا المكان محوط بالاسرار. والارواح تدور بالليالي الماطرة..الله يحمينا من شرهم.

لفت ام حسن وجهها بفوطتها وعباءتها العتيقة، واختفت بين الاشجار.طواها الظلام، وكأنه يبتلعها مع خفاياها ويدها تشد على البرتقالات الى صدرها. لقد عانت كل مشاق وخوف الليل من اجلهن. ولن تعود خالية ولو جاءت كل عفاريت الدهر.. او حتى الطنطويل. همست لنفسها:

- الطنطويل هو ابو بلاوي هذي القرية .. وهو سبب اختفاء شبابها.

ثم اسرعت لاتلوي على شيء. يدفعها الخوف الذي يخذل الناس.. تطلعت الى الطبيعة العاصفة .خشيتها ليست على نفسها بل على حياة الاخرين اقرب الناس لها..حين يأخذونهم في درب الذاهبين بدون عودة .. درب الصد ما رد كألاساطير القديمة ..ولكنها مازالت تنتظر ذاك الفارس الذي سوف يقتحم الضياء ويفتح للنور نافذة يأتي

الفرح منها..طول عمرها وهي تحمل امنية بالحصول على قطعة ارض من الاصلاح الزراعي ولكن الملاك كان دائما يعرقل ذلك بمختلف الوسائل ..وبقيت هي وزوجها، ومن بعد ذلك ابنها فلاحين فقراء يعملون عند الاقطاعي والملاكين. حتى مرض زوجها فلم تجد من يعينها . اعتمدت على نفسها واصبحت دلالة تبيع كل شيء وتشتري كل شيء قديم وبالي ورث.وتساعد كل من يحتاج الى معونة، وتسهل أي حاجة لقاء ثمن تتقاضاه. ومات زوجها منكسر الخاطر، وما زال حلمها القديم بأنه سيأتي اليوم.. اجل سيأتي اليوم الذي تودع فيه فقرها وتحصل على ارض صغيرة تبني فيها بيت جميل تعيش فيه .ودارت السنين وكبر ابنها.. وكبر الكثير من الصغار وصاروا شبابا .. وذهبوا الى الحرب.. وعاد منهم من عاد ولم يرجع آخرون..رجع ابنها برجل واحدة بعد ان قطعت احدى القذائف الاخرى.. وبدأ الحلم يبهت بعد حرب الكويت حتى اخذ بالتلاشي. ولكن احيانا من خلال روائح المياه، وفوق صفحة الريح حين يمر فوق قبور الاعزاء يطل عليها حلمها الصغير، فتنتظر معجزة ما.. ربما في يوم ما ، حدث ما سوف يفتح دربا للاماني الخفية والاحلام. ولفها الظلام وهي تندفع داخله يلاحقها صوت رند:

- لاتخافين يا ام حسن..ترة هذا ساهر .. شايل فانوس.. تعالي باجر وساعديني ومن عيوني انطيج شوية فواكه.

هدأت العاصفة واصبح المطر نثيثا ، وازيز الرياح مازال يبلغ اسماعها من بعيد.تفحصها ساهر فتغيرت ابصاره.وهو يتقدم نحوها .ظهر الجد على سيماه وهو يضع الفانوس على الارض ويجلس الى جانبها فوق صناديق الفاكهة وهو يتسائل مع من كانت تتحدث؟.صوت ديك امتزج مع نقيق الضفادع وطنين الهوام والحشرات وهي تدور حول النور مكونة سمفونية لأسرار الليل حين يحوطه سكون يلهو..وضحت له وكأنها تخاف اختراق المجهول..كانت ام حسن هنا دخلت البستان بواسطة الساقية التي تمر من تحت السور للحصول على بعض الفاكهة ودار معها حديث غريب عن تيارات الآبار.. وظهور زينب اخت الحسين وكراماتها..وقد حرصت على ان يكون الحديث سرا..وبما ان رند تشك ان ساهر حتما يعرف بالموضوع..فقد اصرت عليه ان يشرح لها ان كان كل الكلام الذي قالته صحيح ام لا؟ . مسح وجهه وحدق الى كفيه . ما اغرب مايدور من مشاعر داخل ضمير الانسان، اثناء بحثه عن الحقيقة، عن اوجه الصدق في خبايا الحياة التي تدور حوله.عقل الانسان المفكر ونسبية الاشياء. ليس هناك قالب ثقافي او اديولوجي ولا تنظيم اجتماعي مطلق. المطلق معرض دائما للعبة التساؤل، ومحاولات الاثبات.بواسطة المحاججة والادلة والبرهان. وهذا ما يعمق ذكاء الانسان. فكل حقيقة تتعايش مع حقيقة مضادة لها. وفي النهاية تصبح جميع الافكار والمعتقدات قضايا نسبية. واستمر في توضيحاته وهو يؤكد ان كل شيء هو اقتناع واختيار.. واذا اقتنع الانسان وآمن يصبح ذلك الاختيار هو الحقيقة بالنسبة له. وسألها ان كانت قد صدقت ما سمعته من ام حسن؟ لم تجب وانما نهضت من جلستها والغضب يلوح عليها مشيرة الى انه يخفي عنها ان هناك اسرارا للآبار.غموض على ملامحه. السياسة افكار يهمس بها الجميع.. السلطة.. منذ القدم وحق القرار والتشاور هو ما يرغب به اكثر الناس. اما الآن فقد غدا الثراء والمال هو المتحكم. شراء الناس، والدفع لهم ، سوق الضمائر..هل سيصل البشر في يوم ما الى بناء مجتمع يرضي معظمهم.كان ساهر يحب فضولها يجب عليه تعليمها فهي متعطشة للمعرفة. والمرأة حين تعرف وتتعلم ستطالب بحقها في الاختيار وان يكون لها نصيب في صنع القرار داخل البيت وفي المجتمع. ولكن من اين يبدأ .. كان ذلك في الثلاثينات والاربعينات وبداية الخمسينات.. من تاريخ العراق والبلاد العربية ومنطقة حوض البحر الابيض المتوسط.. والارض مشتعلة بعشق الحرية.. ونداءات البطولة والاشتراكية .. وقيم الكرامة..والارض للجميع.. شعارات منبسطة على وسع اسيا واوربا وافريقيا والعالم..والكل يتسابقون لأثبات ما يؤمنون به..عندها بدأ العراقيون في حفر الآبار. وهكذا ولد ابناء لتيارات الآبار. فلكل بئر انصاره واسراره واقبيته ومياهه.ومساراته مع من يسير معه ومن اجله.كانت الارواح رخيصة في تلك الفترة، وتصب في مجرى واحد هو الصراع ضد غير المعقول بكل اشكاله. وكانت المياه تفيض مع معتقدات الناس فواحدة للكادحين واخرى للعزة والكرامة واخرى لبناء هيكل ذاتي للسيادة واخرى للفقراء والمسحوقين.وعموم ابناء هذه التيارات ومساراتها يخضعون لنفس القوانين الكلية لما يحيط بهم وما يجاورهم من احداث تغذيها. والقرية جزء من هذا المحيط الهائل . ففي كل بستان تم حفر بئر . وشيع ان كل بئر لها مجرى يوصلها ببلد ما .. حتى انفجرت ثورة

الرابع عشر من تموز.كان ساهر يتكلم حينا ويسكت حينا آخر.وكان قد نهض واقترب من رند الواقفة ونظراتها نحوى الدجى تتهجى متواليات السماء والقمر ومدارات النجوم المرتعشة خلف الغيوم، وهي تتلألأ في القبة الدامسة تتبع السحاب.عم يبحث طرفها الساجي في التاريخ المنسي. والمداخل المظلمة للسراديب المخفية عبر تاريخ العراق.وقفار صراع تيارات الآبار..والمقاعد العالية ، وعشائر بلا ارض ولا مأوى ولا ماء.بألآف الاشياء اليومية التي تواكب دروب وارصفة الحياة. ففوق كل دكة وخلف امتداد الجدران، وفي كل الازقة ابواب تفور بالغليان.وتبكي على ترنيمة اشبه بالدعاء .. يامعين.. انه الطنطويل الذي يمتص كل خير. لم يبق سوى الشتاء المتدحرج فوق رمال اليباب.. لماذا؟ ومن الذي انحدر بنا الى هذا الدرك الضيق المزدحم بأنفاس الراكعين تحت العرش الروماني. وهو يعزف نغمات الناي حين تحترق البيوت.. الآن وفي هذه اللحظة.. يفتش ساهر عن روحها.. عن دفء جسدها البض.. عن امكنة يكون فيها الحالم والحلم لحنا للهيام.. اقترب ساهر اكثر من رند.. يبحث عن اصابعها السمراء.. لتداعب الشعر الاسود المجعد..لامست وجنته رائحتها الحلوة.هامت الحشرات فوق اشجار البرتقال زمرا.. اغمض عينيه.سكتت الكلمات الحريرية، وهو يحبس انفاسه اللاهثة كي لايفزعها ..ارض الليل حقل مترع بأحاسيس الضياء الجميلة واطيافها. لو مد يده لأحتضنها الى قلبه النابض. منذ ان كان صبيا وكانت لاتزال صغيرة يخفق لها قلبه. ولكنها لاتدري. في الحلم وحده يدعوها فتجيء نحوه. يغمض اجفانه على خيالها ممسدا شعرها، مقبلا شفتيها. هي فجر ليله الطويل. في صباه مع رفاقه واثناء عبثه ولهوه وشقاواته، كان دائما يرتد متطهرا، ليبدأ من جديد. يتهادى فوق الغمام المطرز بالحواشي الفضية... وهو يتراكض مارا بسعف النخيل ..التفتت اليه وهي تبتعد عنه قليلا ، بحياء ووجل قالت:

- شنو صار بعدين؟

قال وقد غابت الذاكرة داخل جسده:

- شوكت.. وين؟

قالت بعناد:

- ورا الثورة .. شصار بعد الثورة؟

- انت تعريفين كل اللي صار.. ابوج وجدّج سولفولج عنها.. امتزج تاريخهم بتاريخها..الناس كامت تقول تزوج فلان بعد الثورة.. ومات فلان بعد كم سنة من راحت الثورة.. وانت تعرفين جانت البداية بعد النهاية بقصر الرحاب... بوزارة الدفاع.

كان الصراع بكل ارهاصات التحيز.. وعمى التعصب..وعدم فهم للرأي الآخر.لم تحاول أي من التيارات تصفية الاجواء لحل الخلافات..كانت هناك مسيرات وافراح..ولكن كل زعيم استغل فئة لضرب الفئة الاخرى.. وكانت هناك فردية.. فماتت الديمقراطية مشتته بين المصالح المتضاربة ، حتى قبل البدء ببنائها. فرحت البلدان التي لاتغيب الشمس عنها . فرح المتعصبون والذين ضربت مصالحهم. ولم يفكر احد بأنه كان من الممكن بناء بلد يحمل الكثير من المسرات والافراح والخير لأبنائه.. مات الامل في بناء برلمان وقانون لحماية مصالح الناس.. لم يفهم احد معنى الحرية الحقيقي والتي هي احترام الآخر والدخول في منافسة شريفة لبناء البلد ..فمات الكثيرون منذ البداية والنهاية في قصر الرحاب.. قصر النهاية.عاد الذين ضربت مصالحهم الى مواقعهم السابقة. قاطعته وهي تمسد ثوبها وتعدل شعرها الذي انسابت خصلاته فوق كتفها وطلبت منه ان يحدثها عن ابيها وعمها وجدها فتاريخها هو ماتريده. قال لها بتأني .. التاريخ؟ تأريخي وتأريخك ؟ نحن من يصنعه بمواقفنا وانتماءاتنا ومساهماتنا.. احداثه يمكن ان نبنيها من اشياء صغيرة تكبر فتصبح تأريخا للأمم.. نحن من يصنع التاريخ؟ وعلى الكل ان يفهم ذلك. وتاريخ جدنا هو في نفس الوقت تأريخ احداث هذه الارض ونخيلها المنبسط ومياهها.. فكل شيء ممتزج بنا.

قال لها وهو يقترب منها ويساعدها في تنظيف ملابسها وحذائها الملطخ بالوحل.. نقاؤها..حلاوة معطرة بانفاسها..بعد الثورة تزوج جدها مرة ثانية..فرح به الصحاب فهو يولد من جديد.اقواس والوان وبالونات ورقص واهازيج كانت حفلة عرسه. افراحه لم تدم طويلا فقد بدأت الامراض تهاجم زوجته الثانية.. فعاد الجد الى حفر بئره .كانت تفيض بالخير على الآخرين الذين يأتون الى شرب قهوتهم في مضيفه المفتوح.الملاك ترك القرية

وبنى له قصرا في البصرة. بعد صدور قانون الاصلاح الزراعي تذوق فقراء الفلاحين بعض الحرية فقد حصل قسم منهم على اراض صغيرة لكل منهم ولو بعد جهد.
يتأمل ساهر عينيها.. يشتكي للصمت ابتعاد مشاعرها ، عدم تجاوبها.. احاسيسه لصيق هذا الخافق كالوهم يمسك بها..متى تستفيق ، وتهتز دروب الوميض في افقها؟ .. سيرة عبد الكريم قاسم ؟ الكل متفق على معدنها الاصيل. لو كان القانون هو الذي يحكم العراق.. لو .. استمرت خطط اعماره... في وهدة الليل وحده معها.. صديقة له هي قبل ان تكون حبيبة.. ولكنه يريدها الآن ان تكون الاثنتين معا.. بعدم صبر حثته على اكمال كلامه لها فهي تجد دائما شيئا جديدا كلما تحدث . الحياة درب طويل. سيشعل فيها من روحه نورا يفرشه امام دربها وهي تسير نحوه.. فيتلاشى كالوهم ليل انتظاره. ويرتوي قلبه. ويطفىء نار اشتياقه في بحر حنانها.اقترب منها حتى لامس كتفها. تدور الذكريات عن جده وحياته وهو يجد فرحته بما يقوله لها. اشتد المرض على الجدة الثانية حتى ماتت بعد خمس سنوات. . ماتت الثورة وقتل عبد الكريم قاسم وأصحابه. ودخل مناصروه السجون وهرب من هرب. وكان ابو رند واحدا منهم. هرب الى الاهوار. اما الجد فأنقذته مواقفه الجيدة مع الشيخ بسيم وكيل الملاك والشيخ هزاع والد صارم. والاخير تصاعد نجمه بعد انقلاب ثمانية شباط فغدا مضيفه يزدحم بالزائرين. واصبح الفلاحين يرهبونه ويكرهونه ويتملقونه بعد ان اخذ يدير اراضي الملاك وهو ينوب عنه في كل شيء ..القوة والبطش انتقلا له من بعد سيده. ضعفه يختفي خلف الازدراء .ينثر الاموال للذين يناصرونه.
استكانت رند النصدر ساهر وهي تنظر له متفحصة لسبر اغواره.. الجد غطاء لأنفعالاته العميقة.لاتعرفه احيانا رغم معرفتها به. تخاف المغامرة بألاقتراب منه اكثر. كلما تحركت مشاعرها نحوه تلجمها بعنف كي لاتدع الحنين يمرح بظله فوق قلبها.كالمياه يعكس الضوء والاسرار وهو يرتد عن الجرف. لاينكسر بل يعود اليها . قالت وحرارة انفاسه تدفئها . وارتعاشه خفيفة حتى اقدامها :
- ساهر لاتقول لي انت تغار من بيت الشيخ هزاع وابنه صارم؟
انتفض . يشفق على روحه من همسات افكاره نحوها. مشاعره عارمة . كبح جماحها بقوة الكبرياء. يعشقها .. مد يده المرتجفة يلامس خصرها برقة كي لاتنفر وتبتعد.. في تلك الحظة لم يكن يتصور ان الشوق ممكن ان يصل الى تلك الدرجة من القوة..فقد توتر وانتصب كل جسده، بثقل اللهفة المحبوسة الى الحياة.. التصق بها اكثر.. يبحث عن الراحة والارتواء. انتشاء احاسيسه جعلت كلماته همسات..وكأنه يدافع عن نفسه:
- طبعا لا.. بس احاول افتهم الطرق الملتوية لكسبه لأتباعه.. فمرات اشوف طيبتنا تتحول الى سذاجة .. ومساعداتنا تخلي الاخرين يصعدون على كتوفنا ، فيستغلونا لأغراضهم.. لكن هو يعرف شلون يدور الاحداث لمصلحته وهذا...
ابتعدت عنه منزلقة الى باب الشواصي وكأنها تلعب بأعصابه:
- ساهر.. انت مثله تريد السلطة والتحكم بالناس...
قاطعها وهو يستنشق الهواء بسرعة ويشهق به.. اصاب الالم كل عضلات بدنه النافرة. ارتخت يديه ولم يستطع مدهما للامساك بها وشدها الى صدره ولو بالقوة. الرغبة بها كانت فوق طاقة احتماله. ولكنه اوقف موجة وجده بحدة كلماته نحوها:
- العيب مو بالسلطة ..فالسلطة هي وسيلة لخدمة الناس.
اخذت مشاعرها تهدأ .. وتيار الهوى المندفع نحوه .. وقلبها ووعيها، امسى له ..وكل كيانها ملك له . في تلك الساعة من ذلك الزمن اللانهائي من الانجذاب الى احضانه امسكت بزمام مشاعرها .. وغيرت تفكيرها :
- الناس؟ يامعود انت تتصور تقدر ترضي كل الناس؟
عاد اليه اتزانه ببطء.. حرك كفه وهو يحتضن صدره بذراعيه وكأنه يحتضنها هي. اعطاء حرية الاختيار للناس .. دون خوف والانصياع للاكثرية هو الحل ، كلها طرق لجذب الاكثرية .. المعرفة هي الاساس لكل انتصار.. اثناء المنافسة البداية قد تختفي .. ولكنها تعود.. دائما تعود.. الاول يكون الثالث بعد حين، والثالث هو الافضل. فكرت رند من كان الاول.. هو جدها وهي وساهر هما الجيل الثالث.ابعدت افكارها عن ولوج اسرار تعطشها لحب ساهر، والدخول في عالم الارقام السحرية.. هل يمكن للارقام ان تتحول الى مشاعر؟ السر والعلن. الظاهر

والمخفي. هل تستطيع ان تفهم نفسها في يوم من الايام؟ وهل ستجد الحلول لكل ما يحيط بها؟ ..الفرد ام الجماعة.. من المهم اكثر؟ كل واحد يريد لنفسه شيئا.. اهي انانية؟ ام هي كلمة انا موجود فأنا كائن.. فتصبح دروب الحياة معقدة وصعبة في الوصول الى هدف. لم يجب على سؤالها. فقالت في محاولة كاملة للسيطرة على احاسيسها وتحويل افكارها بعيدا عن ساهر ورغبتها فيه:

- لويش سكتت؟ كمل شنو صار بعدين؟

قال بسهوم وهو لايستطيع الفكاك من تأثير انوثتها وكأنه وقع في مصيدة حلوة لايريد الابتعاد عنها:

- عن شنو؟

قالت:

- شنو صار لجدي وابوي .. والثورة.. والنهاية..اريد اعرف كل شي؟

بغموض ونعومة اقترب منها من جديد.. يريد ان يوقظها .. يوقظ الاشتهاء فيها كما يرغب هو فالحديث طويل.. وقد انتصف الليل وعليهم الرجوع الى البيت .. غدا يوم آخر وسوف يكمل حديثه حينها قال:

- اذا قبلت تساعديني باجر .. من عيوني اكمل كل ماتريدين تعرفينه؟

قالت بأستفهام:

- هم تحتاجني بالليل؟ مثل هيجي وقت؟

امسك بيدها وضغط عليها ثم وضعها على صدره .. سأمر تحت شباك غرفتك .. فتأتين اليّ .. ونحوي .. ومن خلالي نصنع الحديث . عادت اليها الرغبات بقوة التلاوين البراقة لوجيب الاشتهاء.. ولكنها هذه المرة استجابت لها وضغطت على يد ساهر وكأنها تحتضنه كله من خلال اصابعه المتشابكة مع كفها..ما هو الحديث الذي تود ان نقوم بصنعه ياساهر؟ .. ستعرفين ذلك في حينه اما الآن فهي نهاية ليوم وبداية لغد .. سأوصلك واصل من خلالك.لم تسأل الى اين؟ فضباب رقيق من النشوة كألامواج كانت تنبض في احداقه وهويهمس .. هيا بنا الى الرابع الذي سيأتي بعدنا .. في الاحلام ألآن ولكن قد يصبح واقعا بعد حين.همس قلبه يدغدغ حواسها وهي تسير الى جانبه.رفعت احداقها بأتجاه تغيرات القمر الفاتنة، وضوئه الشفيف الذي يلاحق حوافي السحاب ويتشرب داخل الغيوم. قمر جدها وابيها القديم الجديد ، وما كتبوا فوقه من آلآف الذكريات..وملامح الوجوه والملاحم..ترحل ويبقى القمر.. بألالغاز يحكيها فيفهم من يفهم لغته،لحظات الحب والانتظار.. وملل الفراغ والنسيان.. صدحت يدها في يده وهو يتأبط ذراعها ويربت عليها بيده الثانية.. بكل ذاكرة الهيام بالوجود ..تركته يفعل ما يريد..فقد كانا قد وصلا باب بيتها في لحظة وداع الى لقاء.

عند مدخل الدار بعد ذهاب ساهر صدمها شخص كان مسرعا بالخروج من مضيف ابيها. التفتت الى الخلف.. انها تعرفه..اكان واقفا وخرج ام كان خارجا؟ وقفت امام باب المضيف..وحاولت الدخول ولكن بعض الكلمات اوقفتها..حديث ابيها عن شبابه..الى من موجه حديثه؟ فتحت الباب برفق.. تكره التسمع .. الجيش الخفي الموجود عند كل ناصية.. كل شارع..او خلف الابواب..عملية الايصال في سبيل بعض المال او المنافع..يؤلفون .. يدسون.. يضعون الكلام في افواه المتحدثين..عملية قاسية لامتصاص الضمير وقتل الذات.. وفقدان الثقة بأقرب الناس.. مثل السموم تقتل، وكألاشواك تجرح وتدمر..يعقبها تشفي الارواح المريضة الفرحة لآلام آلآخرين.. انفس حاقدة مشروخة بالغيرة والانتقام ولذة التعذيب.

قال ابوها:

- تعال خويا.. اقعد هنا ..

مؤخرا لا استطيع النوم الا بعد تناول قدح من العرق.. فكر الاب

- راح اجيب شوية طماطة وخس واللبن.. هذا كافي.. اعتقد رند راحت لغرفتها.

تقدم ابو رند نحو اخيه وهو يحمل كأسا مترعة ووضعها على الطاولة. ثم اسرع الى المطبخ يعد اطباق المزة.ببطء تحرك رغم انه لم يتجاوز السادسة والخمسين من عمره. يشعر بصعوبة تحريك اقدامه. كأن روحه منفصلة تنظر له من مكان آخر. يمشي بشكل آلي.. هل نامت رند؟ سأل نفسه بلاوعي وبدون مبالاة. يشعر انه مريض. منذ مدة وهو يعاني من الارق. حمل الاطباق واتجه الى حيث يجلس اخوه قائلا:

- انت جوعان؟
خيالاته تمتلك وجدانه فراح يحدث اخيه وكأنه يكلم نفسه .. اعرف.. في سالف العصور ابناء الارض لايجوعون.. في اذار تنطلق الارض والحياة تشق بطنها.. اما غدا فسنجمع ثمار البرتقال.. وفي نعمان نجمع التمور ..هذا هو دربنا.. سيكبر ابناؤنا كأخضرار اشجار الليمون .. رند وساهر..لاتقل شيئا فأنا ادري.. احلامنا الخضر اعرفها منذ الشباب..اتذكر بسمة .. الفتاة التي كنت احبها حين كنا في كلية الزراعة انا وانت في الخمسينات اول الستينات.. كانت تذكرني بشقائق النعمان..حبها كان جراحا.. هذا انا، احاول نسيان النهايات حين اصعد.. انزل.. حتى اصل الى فترة شبابي، وهناك بسمة تملؤه بشعرها الطويل وغموض سحر عيونها.. حدثتك عنها تلك الليلة حين صارحتها بحبي وطلبتها للزواج.. اتذكر..اتيتك باكيا..الريف قالت.. واترك المدينة حيث تربيت قالت..لايشدني نقيق الدجاج، ولا ذباب الصباح، ولسع البق والبعوض اثناء الليالي الحالمة.. بكيت..وجعني قلبي حين رفضت، وثرت حينها..كان ذلك سنة تسعة وخمسون اثناء اعياد الاول من ايار..مشيت الليل كله حتى الصباح . كنت اهتف مع المتظاهرين حتى اخضر وجهي، واحمرت شفتاي .. كنت اصرخ عذابي والمي مع افراح الناس..عشقي ولوعتي..هيامي وامالي مع عرس الجموع..نحو المستقبل امتزج كل شيء حيث الجموع كانت ترج شارع الرشيد .. هو الطريق..شعارات المطاليب المفرحة.. ومشيت احلم كيف ابني وأشيد في كل بلادي ، واغنيتي اصل بها.. ولكن كل شيء انتهى .. الموت..كثيرمن الموت حصدت تغيرات السياسة .. حصدت الافراح والآمال وخطط المستقبل. اتذكر محاكم المهداوي.. القافلة تسير ولا يهمها نباح الكلاب..في تلك السنوات كانت الصدامات تحدث احيانا، خصوصا حين تهدر الجموع، هي كالبحر لايمكن مسك زمامه..خمس سنوات هي كل حياتي.. لم اعش غيرها.. فوزا واندحارا..هدفا وانكسارا .. خروج ودخول.. صعود ونزول..حتى كان ذاك الشتاء في شباط . بردا شديدا كان حين قرعت انت بابي اتذكر..سمعت ضجيج الانفجارات..قلت لي.. اجل اتذكر ما قلته لي وقتها؟.. اهرب الى الاهوار لن يستطيع ابي حمايتك، سينكسر قلبه الكبير.. رفضت بعناد انا.. قلت لك لا..مكاني هناك على الطريق.. وانكسر الطريق..كنت تسير معي، لم تتركني كالحارس الامين واكبتني.. مشينا شارع الرشيد.. ثم دفعتنا الجموع نحو الكريمات، قرب محطة الاذاعة والتلفزيون بعد ان عبرنا جسر الاحرار الى الصالحية.. الجنود والدبابات خذلونا .. الرشاشات انطلقت.. اتذكر بأتجاه الاذاعة والتلفزيون ..وبأتجاه صدورنا..اتذكر كيف هاج الناس..ازقة الكريمات كانت ضيقة حمتنا ..خلف منعطفاتها وتحت شناشيل بيوتها القديمة. كان قلبي يخفق من شدة الانفعال ..ذات العيون السود جاءت لنا وتحت عباءتها السلاح..وحثتنا الاخرى على الصمود .. قالت الحياة الحرة هي مانريد..الديمقراطية هي هدفنا.اصوت المدافع ظلت تدق ابواب الليل كله..كان قلبي يهوم..ثقيل هو كان.. ارفعه عن نفسي.وانت الى جانبي ترافقني..وبسمة داخل الارض تنمو اخضرارا كالنبات.جلسنا على رمال شاطيء دجلة نراقب انعكاسات الضياء واحمرار الدخان المرتفع من وزارة الدفاع..امواج النهر الازليةترف وهنا، وتدفع اقدامنا الحافية. البرودة والرائحة الحلوة رغم الهدير تلسع ارتجاف ابداننا الفتية، وكل ما امامنا احتراق..انت ياالخي من فتح باب حريتي ، وعبث الكلام. ترصعت النجوم في السماء.سوداء داكنة تلمع كالدموع حين تلهث بالبكاء.. ورقم ثلاثة عشر اكرهه ولا زلت فهو يحمل دائما السوء.. وانعكاسات الحظوظ .. اتذكر خيوط الفجر تلك الليلة، والبيوت الغافية على الجرف؟ كم كان عددنا لااذكر على التحديد. فقد تجمع حولنا اصحاب الدور يسامرون الخوف قربنا..يراقبون.. كالفلم..كالحلم، كالكابوس يدق بمطارقه فوق الرؤوس . الهاوي كالوميض والصاعد رمادا كالحطام.. كاحمرار الشفق احترقت وزارة الدفاع امامنا. والطائرات تعلو من جديد. والهلع هو السيد.. تجمعنا ونحن ندق معا مسامير في الهاوية.. ونتساءل اهي النهاية؟ تعبت كي اصل وهذا الجسد لازلت احمله رغم النسيان.. لاشيء امامي ..والفجر اهو النهاية والبداية يمتزجان ويتواليان .. كحبل تعلقه الايادي للارتفاع وللهبوط .. نحو الثبات ، والى الصمود داخل ازقة الكريمات.. ولكن لم يبق شيء فينا حين التوى الشراع وتقافز اصحاب البيوت الغافية في الكريمات ، واختفوا داخل دورهم حين رجتنا امواج القنابل والرصاص ، وتطايرت في دجلة رشاشات المياه.. فرادا بقينا مع اثنين من السلاح. اتذكر كيف سحبتني الى بيت صديقك فلاح. كان قوميا اذكر، ولكنه يحب ابي ، جده من قريتنا.. ضرب صدره بقوة وهو يقول .. ضيوفي انتم.. ثم وقف بباب الدار يصد

الباحثين ، وهم يهتفون.. هي النهاية قالوا.. ثم اخذوا الشباب الى قصر النهاية.. اتذكر كيف وضعتني في احدى السيارات الذاهبة الى الجنوب وقلت للسائق، اوصلوه الى ابو ستار في الاهوار. هذا ما حدث.. لاتقاطعني يا ابو ساهر فأنا مدين لك بالكثير.كل حياتي هي من صنعك فأنت كنت دائما انت الكبير.. العاقل الهاديء. وانا المتمرد العاصي.

الهدؤ يلف الغرفة اكان يتحدث الى اخيه ام افكاره تهدر داخل عقله. أخذ رشفة من قدحه وصب لأخيه كأسا اخرى. كل شيء يهمس حتى الرذاذ . وصوته وهو يحاول التخفيف من كآبته التي تلازمه منذ زمن.. تحمل تصدع قلبه وبرودة صقيع الذكريات، وظنون ووساوس حاضره وماضيه. حتى ستائر النافذة والهواء يداعبها تشوش عليه تسلسل كلماته. استمر يحدث اخيه ويحدث نفسه.

كنت ولازلت انت الرصين العاقل يا اخي .. تنظر الى الاحداث من بعيد دون ان تنتمي لها . تعيشها دون ان تشارك بها او تصنعها. كان الجميع اصدقاء لك، يحدثونك عن مشاكلهم ويطلبون عونك وقت الشدة، وانت لاتبخل بما تستطيع تقديمه لهم وتبعد عنهم المخاوف، و تساعدهم في كل ما يمر بهم.. يثقون بك.. على مختلف آرائهم كانوا يثقون بك..عكسي انا عشت الحياة بطولها وعرضها.. اقفز الى كل الاحداث في الوسط. متعب انا الآن.. عيناي لاتريان ولاتبصران، واذناي لاتسمعان. اريد ان ارتاح مما كان وما سيكون .. ولكني لا استطيع فالذكريات تشدني ، وضميري يعود بي في كل مرة الى البداية.. ما هو الخطأ في كل ما فعلته؟ ولم اذا نبت في شيء دائما يموت؟ ..ألم الضمير لايطاق. احقن روحي بنبش المقابر والحطام. واهرب بعدها الى واحتي الخضراء دائما بسمة.. حبي الاول والاخير الذي امتلأ به دمي . اتذكر عندما سافرنا انا وانت الى بغداد لأستخراج بعض الوثائق الجامعية من كلية الزراعة؟. كان ذلك في اليوم السابق لليوم الفاصل بين زمنين. يوم سبعة شباط، جاءت بسمة ايضا للحصول على وثائقها. سلمت علي بلهفة .. اذكر ذلك جيدا.. قالت رغم اختلافاتنا وعدم توافقنا فأنا ارتاح لك ، وتتحرر روحي من مغاليقها ..واحمل الاسف الكثير ..قالت ..لأن طريقي غير طريقك.. ولكنها الحياة العراقية، بكل ما تحمل من حكم الذكورة، فأنا المدينة وكل ما فيها من زيف.. لن استطيع العيش داخل تواضع وبساطة القرية.. اغفر لي صراحتي قالت.. ورغم ذلك ثق بأحترامي العميق لك. وحسرتي لفقدانك .. قالت كلماتها وهي تداعب شعرها المتهدل على كتفها وقد عقصته كذيل الحصان فوق قمة رأسها. اذكر ثوبها الازرق الانيق بزهور ملونة صغيرة. كان حريري الملمس حين لامس كفي وانا اجلس الى جانبها في حديقة الكلية. قلت لها .. هو الوداع اذا..وهمت بنظراتي بعيدا ابحث في تفاصيلي الشريدة ، علي اجد تحت ضوء الشمس الراقص كلماتها.. ووميض تلك العيون في دموعها.. كانت عشقي الاول والكلام معها ينساب كخرير ماء الجدول، رقيقا.. قالت سوف اقدم اوراق تعييني كموظفة في وزارة الري ..ابي يعرف بعض الاصدقاء . هناك سأعمل في المختبر.. حاول ان تجدني كلما مررت ببغداد . قلت لها كنت اود ان ارحل عنها، وانا احمل جناحي طير للصعود الى الاعلى، ولكني لازلت احمل عطشي، واحتضن ليل روحي المرصعة بالنجوم حين تصرخ ، احن اليك.. قلت لها لاتأسفي ، فكل الاوقات ولهفتي للحضور وعدم الغياب عن الكلية كان انت.. وحنين بين ضلوعي يسيل. لن ابكي ولن ابكيك.. حتى حين تنأين.. ستبقى قصور احلامي تتوهج رغم السنين. واعدتها .. الوعد الاول كان في الصف الاول في ذلك الصيف القائض في حزيران سنة 59 ، جلست معها في نفس المكان، وبحت لها بحبي، وانا احدق في مقلتيها.. قلت لها اعرف انك ترفضين وجدي.. ولكني لن اكل .. وسأبحث عن لحظة فيها كل شجاعتي كي البسها وأقف امامك بكل كلماتي وهمس البراءة وهي تزهر . وضحكي وتفرسي وانتظاري.. بكل جوارحي ورفيف قلبي الى قلبك.. قلت لها سوف اصبر.. ومن بعيد سمعت خطاب الزعيم عبد الكريم قاسم وهو يهدر في كنيسة مار يوسف..كانت كلماتها وهي ترفض.. قالت لن نعبر المستحيل، وسوف ترى الايام وسنوات العمر حين تمر.. ستذكر هذه الكلمات فهي الصحيح. ان الموانع والحواجز ستغلب اشواقنا وتستنزف هوانا ولن يبقى سوى اليباب على ارصفة شوارعنا.. ستذكر قالت، ما قلته لك في اول مرة بحت لي فيها وكسرت رفضي..والآن وبعد هذا العمر الطويل ارى انها محقة. قرارها كان هو القرار السليم. فما كانت ستستطيع معايشة سجني وسنوات تشردي وعذابي .. ولكني يومها لم ار سوى توهج انكساري.

رشف من كأسه مرة اخرى. حنينه يقتل الغربة التي يشعر بها في حاضره. حتى الستائر تجرحه. ينظر لها بغيض. يرفع طبق الخس الى اخيه ويقدمه له ..وقت السمر وليالي الاحاديث الشيقة كلها كلمات لاطعم لها.. ويستمر داخل جدران الخلايا الرمادية لذكرياته وهي تطرح نفسها وحضورها معه.
اتذكر كم نصحتني بالتخلي عن حب بسمة ونسيانها . قلت لي دنياها غير دنيانا. وقد حاولت ان اعمل بنصيحتك .. فقاطعتها سنين طويلة، وخلال هذه السنوات لم ازرها ولا مرة واحدة. رغم علمي بأنها لم تتزوج حيث وصلتني اخبارها من بعض الاصدقاء . قالوا انها لازالت تعمل في وزارة الري. وانها كبرت ولكنها لم تجد ابن الحلال الذي يرضيها ويشاركها لياليها. ومؤخرا بعد حرب الخليج الثانية كنت في بغداد. اتذكر سفرتي لعقد صفقة مع تجار الفاكهة .. اجل اعلم انك تتذكر ذلك جيدا.. تصور انني جمعت شجاعتي وذهبت الى بيت ابيها في حي العامرية . قلت اسلم عليها فقط واسمع اخبارها. وحين طرقت الباب خرجت لي امرأة بثياب قديمة بعض الشيء، فقدت اناقتها، وازال الغسيل الوانها. امرأة كبيرة في السن. فسألتها اذا كنت استطيع التحدث مع بسمة. نظرت الي بأستغراب وقالت متعجبة... بسمة؟ قالت لايوجد في هذه الدار احد بهذا الاسم. فشرحت لها اسم ومكانة بسمة وبعضا من اخبار عائلتها كي اجعلها تتذكر .. ولكنها اصرت انها لاتعرف عائلة بهذا الاسم.. ولا تذكر فتاة مثل بسمة. عجبت للموضوع وركبت الباص الى مكان عملها ، قلت حتما سأجدها هناك. سألت في الاستعلامات.. وسألت بعض الموظفين.. كلهم كانوا غرباء ولا اعرفهم.. حاولت ان اجد احدا من اصدقائي القدامى .. زملائي في الكلية كي استفهم منهم عنها.. ولكن تصور لم اجد احدا منهم، ولم يعرفها احد او يتذكر فتاة بهذا الاسم او هذه الاوصاف عملت لديهم. وكأنما ابتلعها الزمن . لاوجود للفتاة التي همت عاشقا بها. ضاعت.. اين هي؟ اهي حقيقة كانت؟ بذرة لم تنبت واختفت داخل رمال الحياة .. وقفت طويلا بباب الوزارة. كل شيء كان غريبا علي.. وكأنني ارى بغداد لأول مرة. كان الالم ينبجس من كل ما حولي..فكل ما احاط بي كان ينز.. لا يولد شيء من لاشيء، هذا هو قانون الطبيعة الذي درسناه في علم الفيزياء .كيف اذا ولدت احلامي.. معاناتي ايام شبابي.. قمري ونجومي..واحاسيسي في لياليي شارع ابو النواس؟ وسهراتي مع الصحاب والاضوية الملونة وهي تخترق مياه دجلة.. ورائحة الشواء، لازلت احس بطعمها على لساني؟ تلك هي بغداد. المدينة التي قدستها كحبي لبسمة فهي فيها .. كل شيء فيها كان غريبا عني.. هل انا الذي شاخ ام هي التي شاخت وصبغ الشيب شعرها الزمني؟ كان الطريق الى الكلية اخضرا يعبق بالروائح العطرة خصوصا في الصباح الباكر .. ايام شبابنا في شارع ابي غريب.. لم يبق منه سوى الذكرى.. حلت على جوانبه البيوت المغبرة الكئيبة. وقد تساقطت عنها الالوان، وغابت خضرة الاشجار.ولفته حرارة لاهبة مكان اريج القداح وشبوي الليل، وورود الدفلة الحمراء، واشجار الكاليبتوس .. هل انا هو انا؟ وانت .. وهي؟ السنا حقيقين؟ يقال ان لاشيء يموت في هذا الكون، وانما هو في حالة تحول مستمر من شكل طاقة الى اخرى ،مثل المادة لاتفنى.. لانهاية للتغير..انظر يا اخي الى هذه الغرفة.. كانت مضيفا لأبينا .. هنا كان يشعل منقلته. فيحمر الجمر فيها .. وهو يخدر عليها قهوته في دلاله الثلاث فيغليها مع الهيل الى ان يحضر ضيوفه من الاقرباء والاصدقاء والمريدين له. فيجلسون فوق سجاجيده ومفارشه ووسائده، وهم يسمرون وتتعالى ضحكاتهم او ينصتون الى الراديو فترتفع تعليقاتهم على الاخبار. ودخان تبغهم يتصاعد دوائر بيضاء شفافة الى سقف الغرفة. كان بعضا منهم يغيب ، فيرنو الوجوم على الوجوه ، ويحتد النقاش ماذا يفعلون كي يحضر من جديد.. اما الآن..
وبصمت صب قدحا ثالثا له ولأخيه وأكل من الطماطة. الستائر تحمل معها برودة الرياح الماطرة مع الرطوبة وروائح سعف النخيل والاوراق الجافة للاشجار. الهدوء والصمت يشقه نقيق الضفادع واصوات طيور الليل. روحه مازالت مصلوبة هناك في الاهوار. يحمل على كتفه سنوات صليبه، فالمسيح يصلب كل يوم جديد.. والحسين مازال ينتظر اولاده. كل المسافات اصبحت منيعة. كل الطرق تحمل اسوارها، فقد ضاعت الابواب مع ضياع الزمن الفائت. وابو رند ما زال تائه مع ذكرياته.
اجل.. كل شيء غدا رمادي اللون في بغداد .. حتى اشرعة القوارب وهي تعبر فوق المياه. شعرت انني تناثرت. كنت اعبر الجسر وانا احاول لم النثار. ولكن كيف يمكن جمع الحطام داخل تلك القنوات الخارقة والتي تحمل ما يسمى ماء الحياة حين ينتفض القلب متدفقا بها ؟ لامكان ولا زمان للحقيقة حين ينتهي زمن المشاعر، ويتوقف

الزمن .. الاتحس انه قد توقف.. منذ وقت بعيد قد توقف.. ثم بدأ يرجع الى الوراء.. وفي كل خطوة يمحي الذكريات فتزول وتصبح خواء.. فراغ..لاشيء.. لم اعد انتسب لشيء. انها الهجرة القسرية للروح.. هو الضياع.. نحن ابناء تيارات الآبار.
خفت صوته واصبح همسا. ولكنه لم يصمت حتى حين اقتربت رند منه كي توسده الفراش.
غربة الروح القسرية .. احسد الذين ماتوا في سبيل عقائدهم. باقون هم . نحن هم المنسيون في الارض المنسية. المهمشون لنبض الحياة فينا. وروحنا مهاجرة. اسأل نفسي من انا؟ كي لا اضيع .. اسم لي لم اعد اذكره. بقيت انت وحدك يا اخي. لا تصنع الاحداث ولكنك تعيشها .. بسمة ..لاتغربي عني عودي.. فأنت كينونتي.. انت اسمي.. ضاعت ..لاوجود لها.. قالوا اضغاث احلام كانت.. قالوا هي من صنع تخيلك.. انهم يسرقون كل شيء.. لم يبق شيء.. حتى الذكريات.
اسكتته رند وهي تهدهد آلامه والدموع في عينيها:
- هش .. نام بوية .. باجر راح تنسى .. من تطلع الشمس راح تنسى.
ولكنه دفع الغطاء وجلس فوق سريره يحدق في الظلمة وهو يهمس..تعال غدا يا اخي.. يجب ان اخبرك .. بما فعلت هناك في الاهوار .. هناك ضحية لي.. يجب ان احدثك ، لعل الضمير يرتاح واجد الهدوء. يجب ان تأتي غدا .. فأنا متعب الآن.
رقد على سريره من جديد. غطته رند ثم عادت الى عمها حيث ودعته حتى الباب الخارجي. وكان هو الآخر قد افرط في الشراب، ولكنه كان مايزال متماسكا كعادته. رجعت رند الى غرفة الضيوف ووقفت ببابها وهي تشعر بالتعب، ولكن عليها ان ترفع الاقداح وتعيد الغرفة الى نظافتها. مرت قرب التلفزيون المعطل منذ عدة اشهر رغم المحاولات في اصلاحه.ثم القت نظرة على الراديو القديم ، كان جدها يعتز به كثيرا فمعه عاش الكثير من الذكريات. لذا بقى في مكانه حتى بعد وفاته. مررت قطعه من القماش فوق المائدة تمسحها بعد رفع الاقداح. ثم نفظت الغبار عن الارائك متحسرة. لقد كلح لونها خلال العشرين سنة منذ استخدامها. انها نفس الارائك التي اشتراها والدها حين زواجه. لم يبدلها. اصبح الآن من العسير تغييرها في هذا الوقت الصعب. انها لاتذكر ما كان عليه ديوان جدها، رغم ذلك تشعر انها تعرفه لكثرة ما تحدث والدها عنه ، وكأنها عاشت فيه طول عمرها. خرجت الى الفناء من الباب الثاني للديوان،ومرت تحت الرواق المحيط بساحة الدار الواسعة. في وسط الساحة نخلتان متجاورتان، وقد كانت ارضيتها مبلطة سابقا بالطابوق ولكن اباها استبدلها بالكاشي الملون. تحت النخلة انتصبت الحنفية والى جانبها الحب وهو مملوء بالماء. في الجهة اليسرى من الفناء باب يؤدي الى حضيرة الحيوانات حيث البقر والدجاج. وفي الجهة المقابلة له يوجد الدرج المؤدي الى الطابق الاول.والدرج متصل بالرواق ذو الاعمدة الجميلة الزخرفة.وتحته مباشرة الباب المؤدي الى السرداب بهوائه العليل المندفع من البادكير حيث رصت التنك لشرب الماء البارد . تحت الرواق بانت الشبابيك وابواب الغرف المرتفعة بدرجة واحدة عن الباحة وعددها ثلاث غرف للنوم وباب غرفة الضيوف متفرقة على جهات الساحة. الاولى كانت لجدها. والاخرى لعمها وزوجته قبل انتقالهما الى بيتهم الجديد المجاور.وبما ان الغرفة كانت بجانب المطبخ فقد تم تحويلها الى حمام فيه كل وسائل الراحة للحمام الحديث. اما الثالثة فهي غرفة نوم ابيها .اتجهت نحو المطبخ الواسع. ووضعت الاقداح في حوض الغسيل. ستقوم بغسل الاواني غدا فهي متعبة .وقد تعدت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. وتعبها لم يؤثر على انشغال بالها بكلمات والدها عن ماضيه التي ظلت ترن في مخيلتها. اجتازت غرفة غسيل الملابس والتي كانت تمثل الحمام القديم الذي كانت ارضيته تسخن مع خزان الماء بمرجل من تحت الارض، يقع خارج الدار.صعدت الدرج الى غرفتها عبر الشرفة المقامة فوق الجهة الغربية للرواق، وهي غرفة مريحة وانيقة تحوي كل متطلباتها من دولاب ملابس وكومدي ومرايا ، ومائدة تذاكر عليها منذ صغرها، ومكتبة مزدحمة بالكتب والقصص والمجلات التي يأتي بها ساهر ووالدها من البصرة. بالأضافة لسريرها المغطى بالمفرش الوردي نفس لون ستائر نافذتها المطلة على بستان ابيها. بيت جدها الكبير العامر الكل كان معجبا به عندما شيده. كان الفلاحون يتقاطرون لمشاهدته. يقال ان الاقطاعي اصابته الغيرة فبنى له بيتا اكبر منه ، يطل على النهر في الجهة القريبة من مدينة البصرة. ورغم تغير معاملته لجدها بعد خروجه من

السجن الاان كراهيتهم له ظلت متأصلة في نفوسهم، فهو الذي قتل الجدة. ولولا قوة وصلابة جدها لعاشوا في الفقر والعوز كبقية الفلاحين. الا ان صبر ومثابرة جدها وعزيمته وتعبه حول الارض التي استلمها من الاصلاح الزراعي الى بستان رائع عامر ، رفعه الى مصاف الملاكين. ساعده في ذلك عمها وابوها منذ الصغر.وقدبرز عمها بذكائه وهدوئه وتحمله للمشاق وغريزته السليمة في اتخاذ القرارات الصحيحة في حل القضايا المالية والتجارية، وكذلك في مرونته في مواجهة الاقطاعي ومحاولة التحايل للوقاية من شره والتي حمت العائلة من الهبات المؤلمة والسنوات العاصفة، خصوصا اثناء الحرب مع ايران وحرب الخليج الثانية.
رتبت رند سريرها. ومشطت شعرها وهي تستعد للنوم بعد ان غيرت ملابسها. تطلعت الى قامتها الجميلة في المرآة وشعرت بالرضى عن نفسها. ولكن سرعان ماعادت ملامح الجد الى وجهها.. من هو هذا الذي صدمها في الباب عند دخولها الى البيت؟ وهل كان يتسمع حديث ابيها وعمها.. اهو صارم؟ ولكن ماذا كان يفعل؟ وهل قال ابوها شيئا سوف يندم عليه. كتم الخوف انفاسها وشل الهلع عقلها.. صارم الكل يخافه. وجهدها تتحاشاه.. حين اغمضت عينيها عادت مشاعرها تحن الى ساهر.

الفصل الثالث

الظلام ورحلة الموت

الظلام الشديد جعل صارم يتعثر.همس بصوت الغيظ:
- قز القرط.. العن ابوهم اولاد القحبة .. موت الكرفهم .. خرفان
كارثة ، ودمار بطيء، يمهد الطريق لكل جديد، فكر صارم . الكون هو هكذا بدون مشاعر، لاحب لاضغينة . كالنجوم حين تنشطر وتتمزق وتنفجر وتنهار كي ينشأ مكانها عالم آخر، مليء بالحياة وهي تلم تبعثرها، وتعطي اشارة البدء بنشوء الكواكب فتسطع كشمسنا، وتشيع الدفء ..اما ان يدمر عقل الانسان فهذا هو الدمار الحقيقي. ابتسامة استهزاء رفت على ملامحه، اختفت بسرعة ودق قلبه . وتلاحقت انفاسه .. فقد شاهد شكلا تشكل امامه وسط سواد الليل. يؤمن بالصدفة ، هي من قوانين الطبيعة، ولكنه يخافها. في كل حدث تندفع المشاعر اولا ثم غريزة البقاء. وبعدها يأتي العقل. يعرف هو هذا، ورغم ذلك لم يستعد توازنه .. من؟ قال بصوت خافت واهي:
- منو.. انت منو؟
- هش.. ماعرفتني؟ قال الصوت
- ها.. هاي انت .. وين جنت؟ من مدة وآني انتظرك...
- لا تصيح .. يمكن يسمعنا احد.. جنت في كربلاء ! .. والبصرة! .. قال الصوت
اتذكرها في آذار.. يرجع الزمن الى الوراء .. عادت الاحداث في كربلاء.. والناصرية!! ...توسعت الغيوم وانفصلت وهي تعبر لاهثة. فأنفسحت فرجة صغيرة ، وكان الضوء للقمر، فتشربت حوافي السحاب بفضته. وبرقت النجوم تومض في العتمة لترسم شبحا لشكل انسان. ضعيف طويل مفتول العضل.. غابت ملامحه في السواد. للحظات كبر شكله وتضخم. خلفه هناك في الافق البعيد لاحظ صارم شيئا يتحرك بين النخيل.. وقبل انطفاء ضوء القمر حدس انهما طفلان يتراكضان. اختفيا فجأة كما ظهرا خلف الجذوع.. من هما؟ وقبل ان يتعرف عليهما عادت الظلمة كالدياجير .. وامسى لايرى فيها شيئا.. جاءه صوت صاحبه واضحا:
- طول الوقت جنا مشغولين بمهمة سرية.
برقت عينا صارم بغيض، واحمرتا وهو يسأل:
- وين؟
عاد يرى الطفلين وهما يركضان بين الاشجار. تملكه فضول اشبه بالهوس.. من هما؟ وماذا يفعلان وسط الليل بين النخيل؟ اجابه صاحبه هامسا وهو يقص عليه القصة بالتفصيل:
- صدر النا امر نروح الى مكان ما ..
.. ليس الاسم مهما. فكل العراق مثله.. كانوا ثلاثة واهلهم.. صرخنا بهم .. لن تخربوا البلد بعد الآن.. ومن النوافذ تساقطت الكراسي والأدوات المنزلية نحونا.. فلعلع رصاصنا ليمحي من الذاكرة كل ما يمت بصلة لهم.. انها وظيفتنا وانت تعرف ذلك.. كانت الجثث كمهرجان احمر حين قمنا بواجبنا، ونحن نطلق الرصاصات الأخيرة .. افواههم كانت مشدوهة..وعيونهم مدهوشة زجاجية مرتاعة تحدق في زمن بؤس الموت. ورائحة الحم الطري الثقيلة تتدحرج فوق ارض النسيان والجحيم، وهي تفتش عن مخبأ.. تمازجت رائحتهم بجسدي..فشعرت بموتي.. موت الحياة السابقة لي..والتي كانت تعج بعطور الزهور والنساء وحتى الرجال. بعد ساعات وقفنا منهكين حين اختفوا تحت التراب وروث البقر. وتطاير الدجاج وهو ينقر الحب من فوق مستنقع الارض المحفورة حديثا. . هذا هو واجبنا كنا نقوم به. في النهاية صرخت اين الثلاثة؟ قالوا فروا من السطوح. ركضنا بالسيارة. وجدنا الاول في نهاية الطرف الاخير من الشارع .. قلت ساخرا نحن للصيد ذاهبون..قهقه

الجميع. كالأرنب المذعور طار فوق ساقيه. وبضمير كالبرق الخاطف اسرعنا خلفه. حادث سيارة لو دهسناه، لاشيء كان.. وقلبي يصر على الضحك..فزع هذه المخلوقات التي تدرك وحدها ان في داخلي ذئبا يعوي من الجوع.. اكره الارانب بعيونها المرعوبة.. سديم مائع اصبح حين عبرنا فوقه. كمطر من لعاب الجحيم الاحمر رشنا. ورنين كالنواقيس دقت المطارق في رأسي، حين اخذ الموتى يرقصون في سفر الكينونة التي غدت هباء.. وتفككت احجية الليل بنار السخام . وانفجر البكاء. ولكني تمردت على الزوايا المشتعلة في ضميري. ودست على عجلات النسيان بسرعة، اغلقها على هيكل العاصفة، واسرح في ردهات السكوت. كانت هناك اثار حمراء طويلة متمددة بليونه. ذكرتني بدكاكين القصابين وروائحها لما خلعنا كل جزء من جسده من اسفلت الشارع. كان كتلة ممزوجة بألم الصمت. وخواء الصحراء تطل من عينيه المفتوحتين بالقسوة. رغم انعدامه ارتجفت منها. كانت تحرقني كأنها مشتعلة بنار تتبعثر. رغم شرعية ما نقوم به.
ركضنا الى الثاني وكان في اطراف المدينة. حين عرف بنا.. كأنه يملك اجنحة الجن الفظيعة في بحار اللهب رقص فوق الخراب والخذلان. مروعا كانت تطاير شرار الرصاص وانين النساء المولولات. شتمتهم وغبار سقوط الجدران يمر فوق بدلتي. تفحصت جثثهم، احداهن حملت جنين الضنى. هناك دائما رفيف للطيور الهاوية بعد صيدها، وهي تخب الى القبر. كانت تحمل الطفل الى صدرها. وعيناه تحدقان في الهواء كأنها من احجار الابنوس حين تتلون النهايات. جثث تزدحم للرحيل. واطياف اخرى تستحم تحت سيل من الدم. هرير من اسنان اصطكت وهي تنشد قصائد مجنونة. جرأة رهيبة من امرأة ثانية. كانت مبهورة. ترفع انظارها نحو الاعلى الى اعماق الفضاء . مبهورة بشيء لم تستطع اكمال رؤيته . كأنها تجوز الى كل ما هو ازلي. كان عالمهم يبدو غريبا، ابديا. يقول كل شيء بدون كلام. وجوه لا نجسر على مواجهتها الا في احلامنا السرمدية. اما الثالثة فكانت بيضاء لامعة الصدر. لازالت صورتها ترعد في فضاء تلافيف عقلي وتمنحني حرية الشبق المجوسي للنار. في لحظة النهاية تدحرجت وكشفت عريها، وسر الموت. وكأنها تحركت من فضاء الى فضاء آخر. كان الطفل الى جانبها ، وصل الى اللامنتهي وحافة العالم الآخر، وكأنه ينادي امه للقيام من لغزها. يده فوق ازرار قميص نومها. شفته رصاصية من البرودة، جمدت فوق صرخته الاخيرة.. انهم يدخلون.. وقفز الى اللقاء ، وفي قفزته.. في نفس اللحظة كانت نقطة الهروب الى الابدية. حاول ان يقبض على صورة للحياة في عينيه وهو يتعلق بعنقها، كأنه يتوسد نجمة هناك بعيدا حيث تموت الذاكرة.. ودع الزمن خلفه حين صفقت الرياح احدى النوافذ المفتوحة. ارتعشت يده وهم يضعونه قرب هامش الحدث. ولم يتألم من رصاصة الرحمة.. احداقه شكرتني.. وقالت ياسادتي كل شيء يفنى حين لايولد فيها ذاك الذي يقود.. ايتها الارض الخائنة، لا تنبتين سوى القمل. كانوا حوله صامتين اثناء رحيلهم، وهم يحملون كل آلام العالم واوجاعه. لم يفه احدهم بكلمة ونحن نجمع الباقين منهم للوقوف امامنا هدفا لرصاص التصفية. تمسكوا جميعهم بالموت اطفالا ونساءا وشيوخا حتى الثمالة.. مسبحة وسورة قرآن كانت للجد.. علقناه الى شجرة قريبة كي يعترف.. من القدمين عاري الرأس كان غريبا منظره بشعره الاشيب الطويل، وظل ابتسامة في وجهه المشوه بالألم. في سكون تألم.. زبد من فمه بصق على معذبيه.. ثم بات يعجن كلماته بثقل اللسان.. لا اعرف.. لا علم لي قال.. هم خرس.. ببلاهة ضائعة رفرف في سمائه وهو يثأثيء. قد تموت الكلمات في الصمت حين يأتيكم خجل الضمير قال.. في منتصف الليل وكلما تمدون ايديكم نحو اطفالكم ستنطبع صورتي على وجوهكم، وتزمر في سماء احلامكم الليلية. سأكون كالجمر يضج فيه فراشكم الوفير. وتسمعون انيني في خرابة نفوسكم. لم يكمل جملته حين اجهزنا عليه. سقط فوق الازبال المتسخة على الارض الموحشة الرطبة، حيث نسجت العناكب شباكها وسرحت بحرية الصراصر السوداء.. هكذا انتهى الثاني.. وانت تعرف انها شرعية ما نقوم به.
سكت صاحبه وابتسامة واجمة تلوح تحت السحب الفضية لسماء العاصفة المنتهية ورطوبة المطر الراحل منذ ساعة. رائحة ورود برية يعبق بها المكان الملوث بكيمياويات تنزل مع الهواء نحو الارض وتمتزج بها، رغم مرور السنين على عاصفة الصحراء.. لايزال الجو ملوثا ينمو داخل اجنة النباتات الخضراء ويدخل اجسام الملايين من ذوو البطون الخاوية. . الجائعون.

قال صارم وهو يحثه على اكمال الحديث دون ان يحيد عن مراقبة الطفلين وهما ما زالا يركضان مبتعدين خلف جذوع النخيل بأتجاه النهر. تحت خيمة الليل المظلمة.
- والثالث ..شسويتو بي.؟
استمر صاحبه يقص ويصف:
- الثالث جان مصيبة..دورنا الى ان عرفنا وين هوه.
الثالث لقيناه في اليوم الثاني.. بيت تحت اشجار النخيل. مختفي بين اشجار البرتقال. تطايرت الثمار ، وطيور الحمام. رغم ظلام منتصف الليل، كالهاوية بين الهرير الاصم لزخات العاصفة، في نشيد للتلاشي داخل مملكة النسيان ذات الذاكرة المخيفة. كالاساطير فوق الحصن المجنحة تراكض معه الآخرون. صعب الامر علينا.. رغم الاقتحام للمسافات. فقد اتخذوا من جذوع النخيل دروعا لهم ، وتخفوا داخل الاحراش وكثافة اشجار الفواكه. زاد في ذلك سوداد الزوايا رغم المصابيح اليدوية الكاشفة. قهر الخذلان آلم ظهرنا. فجئنا بكلاب الحراسة. وانهار الصمت بعويل ممطوط حين شقت النساء ثيابهن الملونة. وفاحت روائح البخور وهن يجرجرن اطفالهن الاحداث، بأصابع متخثرة، واذرع اهتزت بنشيج الموت النهائي لزمن الرهبة والرعب والهلع. هول المفاجأة رسم ملامحه على وجوههن مع خطوط الذهول وعدم التصديق. وعلى شفاههم سؤال يرفرف مع الغضب المتنافر.. لماذا؟ لا زمن للثأر الفاني، ومع خيوط ضياء المصابيح اليدوية تشابكت ألسنة اللهيب اللولبية لدورهم المحترقة، وضجيج الهاربين.. وصياح افواه معوجة بالهول.. لماذا؟.
الى الحائط الخشبي للسور وقفوا هناك واحدا الى جانب الآخر. ايديهم المرفوعة خاوية بيضاء مرمرية. وشعور رؤوسهم الصقتها رطوبة العرق اللزجة. وحين انتهى كل شيء، حملت المشعل في وسطهم، والتهبت النيران ملتهمة رعبهم السرمدي . اما الكلاب فأنطلقت تصطاد كل شيء يتحرك مع نشيد الرشاشات المميت في مهرجانها الدموي، وهي تحصد ارتعاشات الدجى المحتضر، كأرتعاشات احلامهم الخاوية حين تدفنها الرمال. وحين ينعدم الوعي تطفو المعاناة الى السطح. ماتوا والهواء يرتفع من كهوف صدورهم ويتزاوج متعثرا بثقل القلوب. ماتوا لأن الشجاعة والمواجهة هو مايجهلون، لذلك يسقطون متخاذلين في الخواء والعبث واللاجدوى. ضاعوا بين طيات اليأس والجفاف والفشل. فقد تداعت قناعاتهم و مساعيهم لأثبات وجودهم. امسكت انا بأحداهن امامهم.. تصور.. مزقت ملابسها، لامست عريها.. عوت واصطكت اسنانها.. تصور امامهم ادخلت فيها الزجاجة. لم اشعر بلذة مثلها في حياتي.. الجوع الوحشي للجنس مزقني كأرتجافات برد الشتاء، حين سقطت هي فوق يديها المربوطتين. شعاع من الضوء الخاطف انطلق، سكنت بعدها. احتضنت نفسها العارية بركبتيها واستكانت بهدوء بعد شهقة قصيرة هامسة واحدة، كلهفة الروح الى العبور.. انها شرعية ما نقوم به. اما الآخرون فقد جعلتهم يرقصون بالمقلوب فوق الحبال. ايديهم افعوانية صاعدة هابطة. ثم نفخنا في بطونهم، وشفطنا عيونهم.. اتدري ان لها سوقا غالية في دكاكين بلاد الآخرين.. والكلاوي.. ستصلنا الكثير من الاثمان.. لاتخف سأحصل لك على بعض منها.
امتدت قامته، واستطال خياله حين التف حول البيوت متلويا، وحجب ضوء القمر. صارم ما يزال مستمرا في مراقبة الطفلين خلف ظهر صاحبه. كانا قد وصلا الى نهاية البساتين وعرجا في الطريق المؤدي الى النهر. ايديهم تهتز ببلاهه وغرابة. كأنهما يرتجفان. كانت دشاديشهم قصيرة.. حفاة.. والبلوزات الصوفية التي يلبسونها ممزقة عند الاكمام. رأساهما ككرتين سوداوين تتحركان فوق رقاب نحيلة. نباح كلاب القرية يمزق انسيابية الهواء. واصوات الديكة تعلن تجاوز منتصف الليل. رن هدوء وسكون. فكر صارم يجب ان ينام قليلا قبل ان يشق النور دكنة الظلام. ولكنه تابع صوت صاحبه الذي استمر يحكي ويسرد ما مر به:
- كان احدهم يركض وسط الظلام بين الاشجار كالارنب المذعور. قلت يجب علينا اكمال مهمتنا على احسن وجه. اطلقت الكلاب طائرة خلفه. اختفى فوق احدى الاشجار في محاولة مريرة للوصول الى النهر. ومحاولة لتجاوز الزمن المتلاشي بسرعة. هاجسا شق صراخنا. استطالت قامته وهو يرشنا بسلاحه. متهاوية كانت شجاعته. وكان النباح يوقظ الاموات من القبور. ذاكرة الوجدان تلونت متشنجة حين نهشته الكلاب. رائحة لزجة ممتزجة بهلامية اللحم الطري. تدفق مجنون لأنتهاء الحياة الذاوية.ونظرة اليأس الاخيرة لهلع الموت المتكشف

تحت الخيوط اللازوردية للقمر الداخل بين سعف النخيل. روحه عرت كآبة الخروج من عينيه في ظلام من الويل مسرعا نحو الزوال. ان الهزيمة مريعة حتى اذا كانت في مواجهة الكلاب. عندما وقفت انظر لهم وهم يلحسون السائل اللزج من فوق رقبته ارتجفت ركبتاي، والتصق حذائي بالطين الاحمر. وفجأة كأن ولادة جديدة انبثقت من بين الدمار وقع علي ظل قامتها. ملتفة بوشاح الضباب، ولون السماء المخملي، وهي في لحظة اختراق لأزيز الرصاص. تلفها لعنة سحرية للخمول في دجى متلبد بالمصاب، والذل حين يأكل الارواح. انشق عنها الهواء لادري كيف؟ قدماها لاتمسان الارض الحافية المبللة. من بين نخلتين تطاير ثوبها الاسود الملطخ بالوحل وتطايرت فوطتها السوداء. لم تتعد التاسعة عشر ربيعا. انحل شعرها خلف ظهرها. رمت نفسها بين الكلاب فوقه.. اخي رددت.. مسدت شعره وهي تدفع انياب الفناء. ثم رفعت رأسها جاحظة العينين لفرط انحنائها. دفعت ركاب المنايا. ومدت يدها.. كفها مبسوطة بالسؤال تستجدي له.. كيف يمكن ان يصل الاذلال والمهانه الى صرخة مرثاة. ارتجفت الاصابع المقشعرة. وتهدلت الشفاه والوجنات. حتى الحياة امست منة الى من يستطيع منحها. قفزت نافرة بأتجاه الخطر، الذي اعطى اصابعها صلابة الحديد حين غرزتهم في وجنات وجهي. دفرتها في خاصرتها. قدمي غاصت في اللحم الفتي. مس حذائي نهدها النافر، فرفسته وكأني اداعب ملهاة لي. خسئتم .. قالت.. لماذا؟ انا حتفكم. سألج بيوتكم. في درب نهاياتكم. جلجلت رنات ضحكي. التلاعب باللحظات الاخيرة لعمر شخص ما، هي لعبة القوي بين يديه الحكم في نهاية الضعيف. اطلت تلك الدقائق الاخيرة. بنشوة الاعبها، لعبة اعرف فيها انها ستكون هباء بعد قليل. كينونة تنتهي.. اتعرف انها اجمل لعبة.. لعبة الحياة والموت هذه.. انا افهم نيرون حين احرق روما وهو يغني.. انا افهم جرأة الفرسان، وصراع العبيد داخل ساحات الملاعب الرومانية وهم يموتون.. تلك هي الدقائق الاخيرة.. وهي كانت تعرف.. وانا اعرف.. ولكنها لاتريد التصديق. تكذب صدقها. شفتاي الضاحكتان، في موعد مع الموت. انفلت الذئب داخلي.. يقودني.. اتعلم انه كأدمان الحشيش.. لاخلاص منه حين ينفلت من عقاله. لن يرتاح حتى ينال غايته. والهدف هو اخماد نبض دافء مرتعش يتلاشى ببطء...ببطء تحت كفي وساقي.. لحظتها اشعر بالتحرر والانطلاق والخلاص من هنة الترقب، وانتظار لحظة الواقع للمرور بين خط عالمين.بعدم تسرع وضعت كفي فوق رقبتها وضغطت وانا اراها تغادر.. وضغطت.. وضغطت.. وانفاسها تضعف ويداها ترتخيان من فوق صدري الدافعة له. ويخمد جسدها حتى الجمود النهائي للعينين. انها لذة لاتعادلها حتى مضاجعة امرأة. والاحلى من ذلك شعور الامان...فلدينا ورقة سماح بشرعية ما نقوم به. فهو واجبنا نؤديه.. بل ربما سنقلد وساما او جائزة. كانت اللعبة كالقط حين يتسلى بفأر بين يديه. تحدتني في لحظة اندفاعها نحوي.. كأنها تنافسني تريد الفوز هي .. تريد حياتي انا.. ولكني اعرف، وهي تعرف انها الخاسرة، فأنا احمل امرا بشرعية ما اقوم به. قتلها يفرق عن قتلي انا. ولكنها لم تبالي. كأنها تريد الانتحار. تتحدى فوزي عليها.. موتها ثورة دون صرخة او احتجاج.. انتصرت عيناها حين قالتا.. هذا ما اريد.. مرافقته في خط النهاية.. واستهزأت بي نظراتها بأحتقار. وهنت يداها وهما تتراخيان. لم اعد اؤمن بأي شيء.. حين انتهت نشوتي. انتهي انتصاري، وعاد السؤال أ أنا مسؤول عن جيلنا واغتياله امام التاريخ؟ وهل انتصاراتنا هي عجزنا المزري، وانسحاقنا داخل الكارثة المكبوتة.. وكذلك داخل كهوف ذاتنا. كبرت ونمت في رأسي بعدها اللاجدوى، حين تهاوت جثتها. وكي اقضي على ما شعرت به، ارسلت مشاعلي المحرقة في كل البساتين المحيطة، كي يعود الي اطمئناني.وتعود لي مقاييس الوعي بما نقوم به لحماية ما نؤمن به، والنفس والروح. ولم يبق فيّ سوى الامتلاء المادي وشرعية ما نقوم به حين حصدت نيراننا بيوتهم واشجارهم. وتطاير السخام، وشق ضوء السحر طريقه نحونا. واعتقدت اننا انتهينا.

ولكن هزتنا مفاجأة جديدة.. فشخص مجهول اندفع من بين الاحراش المحترقة يروم النجاة. شاب آخر لا ادري اين كان يختفي، ربما قرب حاجز الماء.. ظننته حيوانا في البداية. كان يركض على اربعة بين السنة اللهيب وحافة النهر. كشف رأسه المغطى بسترته ثم انتصب. شاهدته رجل في الثلاثين من عمره. لم اتبينه جيدا هو حتما واحدا منهم رمى نفسه داخل الامواج وهو يحاول العبور. عدونا خلفه للحاق به. ولكن لسعات النيران اوقفتنا. فركبنا السيارة ونحن نتابعه الى اقرب فسحة بعيدة عن النيران وقد قفز الى الماء واخذ يطفو فوق التيار. لم نجد قاربا بالقرب منا. فرمى احدنا بنفسه الى الامواج وانا كذلك، واسرعنا نسبح خلفه. انفاسنا لاهثة، وبرودة

الماء والمجرى السريع اعاقانا. ارتجفت واصطكت ركبتاي.. ولكني سبحت بأتجاه رأسه العارية التي كنت اشاهدها تبتعد كلما اقتربت قليلا منها. الهواء ينفخ انفاسه الصقيعية في وجهي. واغوار المياه تجرني نحوها، فأفترشها وانا اضربها بكفي ثم اتوسدها مرة بعد مرة برتابة. تجمد اطرافي خفف من حدتي فلم اعد ابالي ان كنت وصلته ام لا، فقد غدوت ملتقى للرياح، تعصف بي كعصفها بالقلاع. نظرة تائهه القيتها على شحوب يدي. وصوت الموج كحمحمة الخيول وهي تخب في هروب نحو القاع. فزدت من احتدام حركاتي والرقص مع اللجة وهي تفيض على جسدي ، وشهقاتي تقربني من غياب وعي، عالجته بالصراخ على الواقفين على الضفة.. لم يسمعوني.. جمعت حفيف صوتي ودمدمة معاناتي والهوة العميقة بين موجة واخرى، واستدرت احمل خذلاني. نظرت الى السابح كان قد عبر نصف النهر وهو يغطس ثم يعلو، وكأنه يترك نفسه للتيار يحمله دون مقاومة. واتته الرياح وهو يدور داخلها. كان الليل مسيطرا ما يزال على الجهة الثانية للضفاف حيث الاشجار والنخيل والبيوت ساكنة يلهو بها الصمت. وكأنهم لايرون لهيب النار امامهم. فالليل ابقى لمن يخفي رأسه في التراب. ما زال امتداد يديه حاضرا في مخيلتي . واوهام نفسي تتسرب مع قلق الطفولة. فتحضرني صورة قصاص ابي حين اخفق في الوصول الى الانتهاء من شيء. لذلك بقيت اقاوم الانسحاب والاستسلام. فهو خراب بيتي سيكون. ولكن غلبتني قدسية ان اكون.. قدسية الحياة.. وكان النهر لايمل التزمير حولي بصخب. فرحت اتجول في ازقة رجوعي الى الضفة فاشلا. لم اعد ارى رأسه الطافية من بعيد، حتما اخذه المجرى الى الاغوار. ارتفعت اطفو. واتخذت تيار عودتي الى الجرف. خفتت النيران حتى الهوام هرب من وجه الماء.لفتني الخيوط التي نحوكها للاسئلة الهامسة والعذاب. لاحيرة هنا . لا يوجد جواب فكل شيء يقع ضمن شرعية ما نقوم به. اما هو فقد غاب الى الاعماق .. والصمت دائما من ذهب.. قلت لهم لاوجود له.. لانعرف من هو.. لتبقى الاسئلة معلقة مع ظلال الشكوك فتسقط قاتمة مكسورة. لقد مات ايضا ما الفرق بين النار والماء. ولكن احدهم شكك في هويته. فقال انه يشبه طبيبا يعرفه في البصرة اسمه الدكتور عادل. ولكن لايقين هناك فالمعرفة كانت من بعيد. غيرت ملابسي وتركتها تجف قرب نخلة تحترق. بسرعة جفت. ولم يكن الفجر قد جاء بعد.

توقف فارس عن الكلام، كثف من توجس صارم. قلق وخوف تداخلا بين ضلوعه ..ماذا يريد منه بفضحه لتلك الاسرار؟ علمه بها سيدخله في متاهة الشك والريبة . لايريد الرجوع الى الوراء. يكره الفقر. طفولته بين الاوساخ وقاذورات البيت الطيني، بيت ابيه بداية الستينات. لايريد عودة تلك الاوقات من الاحتيال والسرقات والكذب. تفحص النخيل البعيد هناك حيث غاب الطفلان بأتجاه حافة الجرف. يذكرانه بما كان عليه هو. التسكع في دروب القرية ومعاكسة الجميع خصوصا كبار السن. عبثه ولهوه وشقاواته، ومهارته في الاختباء، وهروبه من معاملة ابيه له. كالخادم كان يتحمل المهانات. انقطاعاته عن الدراسة ورسوبه. ومعاركه الضارية مع المدرسين. يحمل الكراهية لكل ما هو مستقيم.. هي السذاجة.. ففي رأيه الحياة تعطي فقط اذا اخذت بالقوة، وليس ببذل الجهد ومقدار العمل. نزعته الجنونية للسيطرة والغدر. انتماؤه السياسي كان لأنه الطريق الى الاعلى حيث الحصول على المال اسهل وبجهد اقل. بأعطاء الشرعية لكل ما يقوم به في الحصول على الوجاهه والاحترام، وزيادة اراضيه يوما بعد يوم. تهجس صاحبه شيئا في صمته فأستمر يقول:

- بعد ما خلصنا من عملنا كلشي صار تمام.. خفنا بلاول يمكن تحدث قلاقل.. بس الحمد لله كلشي ما صار.. والهدوء غطى مناطق العمليات.. واحوالك انت شلونها ؟

هز صارم رأسه وهو يخزن في صدره كل المعلومات. انها معلومات ثمينة سيعرف كيف يستغلها لصالحه في الوقت المناسب. علمته الحرب مع ايران ثم حرب الخليج الثانية كيف يلعب اوراقه ، وما يصله من اخبار هي سلاحه الناجح. قال وهو يحسب كل كلمة يقولها:

- الليلة الذئآب هاجمت القرية.

سكت ينتظر رد فعل صاحبه، الذي قال بهمس:

- اكيد الحصار والجوع..خلاهم يهجمون .. يعني انتو بحاجة للسلاح؟

قال صارم بنفس الصوت الخالي من أي تعبير:

- ما ادري اذا تقدر تساعدني بهل الموضوع؟

قال الصوت:
- لا تقتل الذئآب .. خليها تصير عذرك للحماية والسيطرة على القرية.. درّب جم فلاح حتى يخدموك.. وآني اجيب لك الفلوس والسلاح.. بعدين نزيدها اكثر من نحس بالمكاسب من شغلك. وبالخصوص استتباب الامن.
وافقه صارم وسأل ان كانت المساعدة ستأتي عن قريب؟ ولكن صوت صاحبه كان قد اختفى في الظلام وتلاشى كالسراب.
اثناء الحرب تمرن صارم على المواجهة في سبيل الحفاظ على نفسه، وليس الدفاع. ان تواجه الهجوم بهجوم اقوى للاستمرار، هي شريعة الغاب وقانون الطبيعة التي اثبتت جدواها. فالبقاء دائما للاقوى. بعد ان اختفى صاحبه فارس وصل الى البيت الذي بناه لنفسه نهاية الثمانينات. وهو بيت حديث بغرفة ضيوف واسعة وبهو، مع مطبخ وعدة غرف للنوم في الطابق العلوي مصحوبة بحمام حديث. حين بناه فكر كثيرا بالزواج ولكنه لحد الآن لم يجد الفتاة التي يقتنع بها. كان بيته يدل على رفاه صاحبه وحبه للحياة المترفة. تحيط به حديقة احسن تعبان الفلاح في العناية بها. في الكراج كانت تقف سيارته البيك آب . وبجانبها دراجة هوائية. اخرجها بهدوء وبدون ان يضيئها امتطاها. واندفع يقطع البساتين المحيطة بالبيوت الطينية، بأتجاه النهر. يجب ان يعرف ماذا يفعل الطفلان في هذا الليل والذئآب محيطة بالقرية؟
سكون الليل. والسحب المتدافعة في عراك لابتلاع احداهما الآخرى، ذكراه بمعارك قاطع البصرة التي شارك فيها عدة سنوات. وبعدها في الفاو. هذه المعارك جعلته دائم الاحساس بالخطر حتى بعد ان انتهت الحرب. حين كان في الثانية عشر من عمره كان يحب هذه الارض بل يعبدها. انها ملك له. كذلك الوطن. شيء عجيب عمر الثانية عشر . احلام البطولات والشهامة. وحين حمل البندقية كل شقاوته وشقاء طفولته تبخرت. لن يدع احدا يأخذ شيئا من ارض وطنه، ارضه. جاء ليقاتل وهو يعرف كيف يقوم بذلك. علوا فوق الانسحاق يريد. مسؤوليات تنفذ، تعطي الثقة بالنفس. شعور بالتكبر، زهو وجبروت. حتى وصل الى خنادق الجنود. وهناك وهو يحتمي من المطر ويرتعش من البرد بدأت قناعاته بألاهتزاز. فقد تبخر كل غروره. رعب .. حين خدم في الخطوط الامامية. اصبح يقاومه بالتظاهر بالشجاعة امام الآخرين والرؤوساء. وحين يقع بين فكي المآسي كان له مؤشر حساس غريزي يقوده الى الاختباء. قدرته العجيبة في ايجاد اماكن آمنة لنفسه ساعدته في الاوقات الحرجة على تلافي الانتهاء والتلاشي، وعدم الوقوع في شرك بطولات الواقع المزيفة. حظه الحسن هي شحناته الجيدة للاستمرار. حتى الموت كان صدفة، وعدم حذر واحتراس. كان ظل الموت هائما دائما فوق رؤوسهم السمراء العيون. الوقت والزمن امسى دهرا. يتقلى كي تعبر وتمر الثانية. احلامه بأبتسامة انثى هي السراب.. سراب ابنة العقيد تمر بذهنه الموجع بألاسى. تؤنسه بين خيبات الامل. وحزنه لفقدان صديقه سلام.. سلام المهندس الشاب. حميمية صوته، دفء نظراته. كان اول من تعرف عليه داخل ساتر الجنود ، تحت السمتيات. ومطارق المدافع المضادة للطائرات. والسنة لهيب الرشاشات المبرقعة بالهلع. ورحلات الاقتناص. وهرير اصوات الجنود ببساطيلهم المغروسة بالطين. وقعقة الدبابات الزاحفة والمتقهقرة والراكضة نحو الامام. وانفلات دورات الحياة عند الانتهاء. مع انين الجرحى المتزامن مع هدير عجلات سيارات الاسعاف. ولم اعضاء القتلى المتناثرة. ومزيج الطين الاحمر بالرمال وهي تتشرب لزوجة الدم. واوهام الشجاعة، والكلمات الثائرة لأمتصاص الفجيعة وبشاعتها. بين لحظات الصدق مع الروح والنفس الاهثة للنجاة، هناك طفل يتساءل، وام ثكلى، وزوجة حيرى، واخت تشق الثياب. كان سلام دائما الى جانبه. ضحكاته المغلفة برجفة شفتيه. خوفه من الحشرات، لايقتل حتى ذبابة فكيف بأنسان. الهندسة هي كل احلامه. ان يبني جسرا عظيما او جامعا يشار له بالبنان او مستشفى واسعة تسع جميع المرضى بكل هذه الاموال التي تحرق. لو انها للتعليم، للفقراء او للجياع هي كل امنياته. كان يقول كم كنا سنصبح اغنياء لو عم السلام. وهذه الاموال تذهب للبحوث، للصحة، لتكثيف الغابات لاستصلاح الحقول الخضر، لضياء الشمس وطاقاتها في البناء، للجبال ومياه الانهار، هذه الاموال لو تجمع.. لو عم السلام.. للقصور الشامخة ستكون.. هذه كانت احلامه.. ان يبني قصرا منيفا يسكن فيه مع حبه الاول والاخير. قصصه عن الفتاة التي يحبها، وحفلة زواج فخمة، وليلة عرس لا مثيل لها، واولاد سوف يفتخرون به ويقولون كان ابي. اسماؤهم سيختارها مثل اسماء القدماء الاولين وفرسانهم الشجعان، كي يعيدوا احياء قصص عشقهم

العذري، واساطيرهم وهم يشقون القبور مثل حزام وعفراء. وشجاعتهم المتناهية في سبيل ما يؤمنون. ويقارنهم بغموض ما يقتلون هم من اجله. يحدثهم عن موائد تقام خلف السواتر. وعن لحم وقود للمدافع وضريبة دماء تدفع. العدو من امامكم ان لم تقتلوه سوف يقتلكم.. هو انسان كذلك.. وانا انسان.. لماذا؟ نريد ان يوقف نهر السيلان هذا..كلمات يرددها بأستمرار. كان سلام ودودا محبا للاصدقاء. يتحدث عن حبه بغير حدود لأمه، عن اخواته المتطلعات نحو المستقبل، والخارجات عن رسوم الماضي. هن بنات الانا الجديدة الحديثة. ثم يصف بأعزاز اخوته الصغار وسؤالهم الدائم اين سلام؟ ركضهم حين عودته في اجازة. كركراتهم الضاجة بالحياة ولعبهم، مرحهم، وشيطنتهم حين يعاكسونه او يغلبونه في لعبة ورق وهم يغشون، ويتسترون على الاحتيال. كانوا يضحكون لضحكه، وقهقهاته المجلجلة. مليء بالحياة وبكل ما هو جميل. يعشق الجمال رغم معاكسات الملازم له. لم نعرف ابدا سبب نفور الملازم منه. كل المهمات الصعبة توكل لسلام. كل مزالق الموت يرسل لها سلام. اليسار واليمين يقسمان كل الجوانب لا وسط هناك، ادفعوا بهم الى الخطوط الامامية جاءت الاوامر. وهذا ما جاء به الصوت الخفي من الاشاعات ، موتهم انتصار لنا.. سنبكيهم بكاء الابطال الشجعان حين نفقدهم. حنكة الحرب هي ضرب عصفورين بحجر. الاعدام للهاربين. لا مخرج هناك سوى البقاء وطاعة الرؤساء. حماية الوطن ، ثقله على كواهلنا. من شن الحرب على من؟ من بدأ الهجوم؟ اسئلة ممنوعة. خاطر يجب ان لايعبر رؤوس الناس. لا يفكرون هم يقادون فقط.. لأنهم لايعرفون الخطأ من الصواب.. حياة الجنود هي لخدمة القضايا الكبرى التي يخطط لها خلف الستار. هم فقط لخدمة الاحداث.. اما القرار؟.. الجنود لايصنعون القرار هم يدفعون الثمن فقط. هل هناك من استشارهم؟ طاعة الرؤوساء واجبهم هنا.. لامحل للنقاش، الرأي الآخر هو الموت. سيدفعون هم.. وسوف يحاسبون اذا تخلفوا عن الدفع. الموت يسورهم، وهو باب الانطلاق للخلاص. منفذ آخر للضوء، للنور. الموت احيانا هو الخلاص.فالتحمل ابشع من الفناء. الركل، الضرب، الاهانات لمن يتخلف عن اداء الواجب او يختفي بجبن. السجن الانفرادي والتعذيب، وبعدها الاعدام، يعقبها الخبز اليومي من الكلمات لدفع اوهام الجزع والكوابيس تحت هدير المعارك الضارية لدفع الاعداء.

صواريخ ارض ارض حين تنطلق ترج اليابسة وترفع امواج الرياح. تصك الآذان. يصيبها الصمم لدقائق حتى تعود لاستلام الاصوات من جديد. فوهات المدافع العملاقة هي الحد بين الاندحار والانتصار، والجنود لحم حصادها والوقود.طائرات الميج وهي تحمل القنابل تعود بعد ترك ركام من الاشلاء المتناثرة. انفجارات الالغام يقود قطيعا بعد آخر. خوذ الجنود المترامية دلائل لأرقامهم.من مات ومن بقى. هم ارقام فقط في سجل النسيان. لم يفضل من سلام سوى خوذته وجزء من بسطاله، مع كتلة طرية من اللحم بعد انفجار اللغم. لم تسلم حتى جثه ترسل الى اهله. صارم هو من سافر الى بغداد مع التابوت الحديدي فقد استطاع بقدرته الرهيبة على الاقناع ان يحوز على رضا الملازم والعقيد. خصوصا ابنة العقيد سراب، في مدينة البصرة وهو يقدم خدماته المختلفة لأهل العقيد.

رفرفات لسعف النخيل حين مات سلام. كان رفاقه يسمعون انين وتأوهات اشجار البرتقال. مياه شط العرب لم تردم جراحهم. كألاثير كان هديل الحمام وهو ينوح. شفافية انوار القمر وهي تنساب، وتختفي وراء القذائف. بكوا كألاطفال. كل تلك الامنيات راحت هباء. كل ذاك الصخب والضحك راح هباء. كل تلك الحياة الضاجة المرحة راحت هباء. اصبح رقما في سجل يلهو الصمت بذكراه. لاقته امه بالعويل. شقت الثوب عنها. كما خلقت من رحم امها. نادت وهي تلطم..اليّ..اليّ .. انا التي يجب ان تموت.. دعوا التابوت.. لاتأخذوه.. هو التذكار. بللت الدموع نهديها. منهما رضع سلام.. الى ان اموت صاحت لن اشيع الحزن عليه. حلت اختاه شعرهما المظفور بالحناء. تهدلت الخصلات الى النحور.. ودار الرقص الازلي حول باحة اللطم والعويل. امواج اسى الخدين وهما تدميان ضربا بالحسرة.. حين تدمر الاحلام في السواتر الامامية. علو السماء ووسع الارض كان ألم امه. ككوارث البحار حين تطلب الانطلاق امواجه. رفرفت الحمامات فوق المقبرة، هناك حيث يرقد سلام. اخضرت الاعشاب الآن ونمت الزهور. كان انسانا ولم يعد. عشقته آلهة الحرب فأخذته قربانا على مذبح يجب ان نؤدي الواجب في الدفاع عن الوطن..ولكن من اشعل النيران؟ صاحت اخته من استشارنا في حريقها واطفائها .. من قال لنا؟ تلك هي الاسرار. ولحظة صدق مع الضمير.. اين الضمير؟ صرخت الأخرى .. من يقبل بما

يحصل لنا مثل ما يحصل الآن؟ لسنا سوى ادوات نموت لا نعرف لم نموت ويموتون؟ محرقة هنا قال ابوه.. فردوا عليه..كلها اخطاء.. اذا سلام راح هباء في قبور المنسيين.. والسنين تمضي وتكسر كل الاحلام التي ذهبت مع الاثير تنساب في سيلان الدم المستمر.. ولهاث رميّ الى البحر. وليمة للكبار.. النائمون ملء الجفون. والمتكئون على وسادة الجراح. ينثون نارا بالويل والثبور لمن يطمح بالسؤال عن سلام والآخرين. هل يولد سلام من جديد؟ وكان مثله كثيرون خصوصا في مدينة الفاو.

اصطدم صارم بأغصان الاشجار وهو يخترق البساتين وينحدر بدراجته الهوائية بأتجاه النهر. لامست وجهه برودة الهواء فأرتجفت شفتاه وقشعر بدنه حين شم رائحة الماء الزنخة. لازال لحد الآن لايتحملها نفسيا. تعود اليه كآبته. كأنه ما زال يخوض امواجها للهرب والنجاة. اجل .. هناك في مدينة الفاو كان صديقه رعد السباح الماهر. تعدى العشرين نضرا يانعا قويا. هادرا حين يغضب بعنفوان شبابه . عنيفا يصرخ .. يبوح بآلامه. لا يكف عن الكلام وارسال اللعنات. يخافه الجميع لسلاطة لسانه. اثناء اوقات الاستراحة كان يغري صارم للدخول في امواج بحر الخليج. حتى في الشتاء القارص لا يتوقف. وفي الليل وحين ينام معظمهم ينطلق هو الى البحر يداعب رياحه، يتمدد ويفترش تياراته.. كلماته لاتنتهي..عندما اتسرح من الجيش سأفوز بجميع مسابقات السباحة.. عندما تنتهي الحرب؟ وقرب الفاو سكن الصمت.

في تلك الليلة المرعبة ساد ظلام دامس رهيب. سكون غريب كان يسبق العاصفة. حتى الامواج تهامست فيما بينها وهي ترش السواحل بالملح والماء.تلطمها برفق. تربت على رمالها ، تداعبها. زبد المياه تناثر هنا وهناك فوق الحصي. لمعت بين الغيوم اشعة المطر. والليل يأكل نصفه قطعة بعد اخرى. انصت رعد..اصوات المدافع البعيدة. وطائرات الميج وهي تعبر. وقال انه قاطع البصرة يضج مرة اخرى. تشتعل فيه النيران. كان يجهل ما يجري هناك. لم يكن جميعهم يحس بالخطر. جاءهم الموت من البحر بغفلة عنهم. قوارب محملة بالجنود عبرت من هناك. حجبها سواد الليل. لم يشعروا الا وهم محاصرون والرصاص يحصدهم. تسلل واختراق من العدو الى مدينة الفاو. دامت المعارك. الدفاع كان ضاريا. وصارم وسطهم بجانب رعد. بعد اقتراب المعركة من الانتهاء لكزه رعد قائلا.. خلف الكثبان هناك.. اسرع الى هناك..ومنها بخفة نحو الساحل دفعه رعد. رعدت ولعلعت الرشاشات خلفهم بلا توقف. هدهم التعب واللهاث واستمروا يركضون. هربت حتى الاسماك والارانب والحيوانات. كان الصمود رائعا. تناثرت الاشلاء. والموت يحوم سيدا للمعركة وهو يحرم الاحياء من خيرات هذا الكون. كرها غمره. حقدا وغضبا وجنونا. اراد الرجوع ولكن رعد امسكه من كفه. هناك النهاية هي الامير المطاع. قفزا معا الى الماء.رشتهما زخة رصاص وازيز جاءهما من الخلف. واحدة اخترقت كتف رعد. رغم ذاك وبيد واحدة ظلا يسبحان تحت الماء ويخرجا الى السطح فقط لأخذ الانفاس.وخلف احدى الطوافات اختبئا وهما يغطسان كلما شعرا بشيء يقترب منهما. ظلام الليل ستارة داكنة التحفاها. رائحة الدم من جرح رعد اصابته بالغثيان. وجعلت الاسماك تحوم حولهما. ولكنه تمالك نفسه واسند صديقه كي يرتفع اكثر. مزق قميصه المبلل وربط به الجرح. بقى رعد ساعات طويلة كالدهر يتألم..يأن يهذي وصارم وحيد معه. يمسك بألاوهام..يقتل الزمن وهو يحدثه عن ابنة الجيران. ضحك رعد رغم المه يصف له صحوات الفجر حين يصعد الى السطح العلوي..البيتونة، كي يسترق النظر لها وهي تنام في الصيف. احيانا وفي الليالي الحارة كانت ترمي الغطاء. وتنام وقد ارتفعت ملابس نومها حتى خصرها.كان يخبيء رأسه كلما احس بحركة من اهله او اهلها او بأن واحدا منهم ينوي النهوض من الفراش. يضحك صارم معه، يجاريه في الحديث عنها..ويستفسرمنه عن اسمها؟..اسمها احلام..يغرقان في الضحك من جديد حتى علت كركراتهم، فقطعاها فجأة، لئلايسمعهم احد من هناك..استطرد رعد يتحدث عن السيقان العارية احيانا، واحيانا اخرى فتحة العنق..ونهديها اثناء تقلبها ..كعثقان من الشبق، ومغناطيس للاغراء تتنبه الغريزة العمياء وتنبثق للمس التفاح المحرم. تذوب مقاومة الاشتهاء مع الانفاس الوردية في صبحيات الصيف ذات النسمات العليلة. رذاذ الندى وهو يروي اشواق الاوراق والزهرات في تناغم مع اصوات لصدى اغنية لفيروز تنسج مع الخيال..او لماجدة الرومي.وتتسع الانوف لشم الرائحة الانثوية. ورحيق عسلها وهو يجذب الذباب فيقرصها اثناء نومها..اراها قال..وهي تحك جلدها..الوان ثوبها تتماوج مع الوان شراشف فراشها..فيتوه عقلي..واحلم بليلة في احضانها، امزق فيها كل استارها وامتص

الرضاب من شفتيها. الف ساقي حول ساقيها، ويديّ كالثعابين تدور حول كتفها وصدرها.واقطف كل الرغبات العارمة من بتلات ورودها. اصلب وحشية رجولتي داخلها. وامتص كل اطياف حنانها المختفي داخل اصداف لؤلؤها.واطرب وارقص، للأزلية الخالدة وللحن رفيف اجنحة الفراشات داخل قلبي. وهيجان دمائي. ارفع ثوبها ببطء بنظراتي واحدق هناك.. وأُلامس انحناءتها المدورة، وهي تشع عميقا في ظلام روحي..
تهدلت ذراعا رعد وهو يهمس كلماته . يهزه صارم بقوة يدعوه للصمود هاتفا به ان يكمل.. ان يفضح هل عملها معها حقيقة؟ يرتد الوعي لرعد، ويستند بقوة اكثر على ذراعيّ صارم ويردد وهو يطفو الى سطح الماء المالح.. اجل مرة واحدة:
- جانت تزور اختي. حاصرتها في ركن الحديقة ودفعتها الى جذع نخلتنا يم السور. حاولت المقاومة. بس .. تعرف انا اقوى منها. لم تستطع الصياح، لأنني اغلقت فمها بقبلة من نار..تراخت وتركتني احتضنها واجوس بيدي فوق نهدها..وانا التصق بجسدها. ما ادري من اين جاءتها القوة فدفعتني بكل ما تملك وما لاتملك من الدفاع..فبعدتني وهي تلهث وقالت.. اذا كنت تريدني اطلبني من ابي.. ثم ركضت الدارهم. في نفس اليوم فاتحت والدي.. فقال بعد ان تنتهي الحرب وتلاقي عمل يليق بك نخطبها ألك.
كانت الامواج السوداء تعلو كتفيهما وهما معلقان الى الطوافة يرتفعان وينخفضان معها. الجموح للخلاص . والجزع من البقاء محصورين الى جانبها. وتوقع المجهول، ثم الاهتمام بمراقبة الساحل وما يدور هناك من مجزرة جعلا الصمت يخيم عليهما مرة اخرى. شعر صارم بفقدان بسطاله فقط حين بدأ شيئا ينقر في رجله العارية. تكور رعد حول ذراعه الجريحة. فربطه صارم بقميصه الى خصره كي لايغوص، وكي يسهل عليه حمله. كانت الطوافة كبيرة الحجم مدورة لها حافة بارزة. فتش فيها عن فجوة او ثقب يربط رعد اليه، ولكن الظلام افشل محاولاته، فبقى يحتضن صاحبه بيد وباليد الاخرى يمسك بالطوافة، وهو يحاول جهده ابقاءه واعيا بالحديث معه ، وبجس نبضه بين حين وآخر. حام حولهما شيء ما كأنه سمكة كبيرة ولكنها لم تقترب منهما. كان كلما وضع يدا رفيقه فوق الطوافة تعودان الى السقوط في الماء. فبذل جهدا جبارا ورفعه الى ظهرها وارقده هناك. استمر رعد بالونين وقد تدلت قدماه داخل الامواج. ومن ارتجاف شفتيه ، واسنانه المصطكة بالبرد والحمى اخذ يتوسل الى صارم بأن لا يتركه.. وان لايدعه يموت..امسك صارم به بقوة وهو يطمأنه ..لن تموت يارعد.. انا هنا بجانبك..استرح حتى تأتي النجدة لأنقاذنا..لاتدع اليأس يستولي عليك.. حتما هناك من سوف يأتي لنجدتنا..ودمدم رعد وهو يلعن الحرب..
-صارم اتريد الحقيقة..آني رفضت هذي الحرب بقوة..ولكني مجبور عليها..يقولون عليها حرب عادلة،ولازم ادافع عن وطني.. بس الواقع آني اموت من اجل حرب ما مقتنع بيها ولا اريدها.. قال ذلك رغم محاولات صارم لأسكاته..واستمر مدمدما ..
- ياصارم انت تعتقد بحق هي حرب عادلة.. لو احنة كاعدين نموت من اجل لاشيء بعيد عن اهلنا واحبابنا. من التحقنا بالجيش امرونا ان نقتل اكبر عدد من الايرانيين..وطلبوا منا ان ندمر اقتصادهم ومدنهم.. والايرانيون يقومون بالشيء نفسه ضدنا.. هو هذا اسمه الدفاع عن الوطن .. التدمير؟
احتج صارم:
- لا مو هذا..موبس هذا.. هُم يحتلون اراضي عراقية ويسلبونها منا .. وهذا ما يجب ان ندافع عنه.
- شلون تفسر بهل الحالة احتلالنا لأراضيهم في البداية.. منو منا على حق .. حربنا هي العادلة لو..حربهم؟ ولو ردت الحقيقة فصدقني ياصارم ماكو حروب عادلة .. الحرب هي دائما حرب، ومعناها قتل وسلب ممتلكات الآخر ..مو بس ماديا، ولكن تحطيمه ايضا اجتماعيا وروحيا.
- من الاسلم النا تجاهل مناقشة مثل هذي الامور.
- احنه نموت من اجل لاشيء.. لو من اجل نزاعات وخلافات كان من الممكن ان تنحل سلميا..واني اشوف تر بهذي الحرب لا ناقة النا بيها ولا جمل..جنا سابقا .. قبل الآف السنين مهد الحضارات.. بس احنه هسه نسير في آخر ذيل البلدان المتحضرة..ولا تسألني ليش؟ فبصراحة هذا الجواب يوصلني الى الرد الوحيد وهو ان الحكومات هي المسؤولة عن تأخر بلداننا ..فهي لاتهتم بالناس بقدر اهتمامها بالحفاظ على بقائها في

الحكم..بواسطةالاعتناء بالاجهزة الامنية.. يعني احنه نموت من اجل هل شي.. وما اتفهها من نهاية.. الوطن والحكومات مرات ما نستطيع الفصل بينهم فيصبح الموت صعب خصوصا من نشوف ان استشهادنا كان الوسيلة لنصب التماثيل لقوادنا بعد انتصارهم.. لكن احنه نبقى مجهولين.. ويمكن نقبر في بلاد غريبة عنا.. صارم .. اني ما اريد الموت..اريد اعيش..

واصوات المعركة دائرة بعنف على الساحل، والطائرات العراقية تقصف بكثافة. والريح تحمل روائح الخراب. والهاوية تفتح شدقيها كي تبتلعهما وتمتص ما بقى من قواهما. والافق مشتعل باللهيب وتصاعد دخان المدافع والرمال . وزعيق الغرقى الذين ابتلعهم البحر الهائج..شلالات من ضياء الحرائق تتهاوى مع امواج الكارثة. وعويل قلوبهم المكلومة بالعذاب. والتخيل المرعب للحواس الموجوعة. كم هو هش هذا الانسان المتكبر.كانت تعاويذ الابتهالات تعرك لسان رعد المتشنج بالصقيع وهو يرتعش. مطارق ومسامير مغروسة في صدريهما والوجدان. تمسك صارم برعد يحتضنه..فصديقه يموت ببطء.سأل نفسه مرات ومرات هل يعود به الى الساحل هناك حيث الاسر والرمي بالرصاص؟ ام يبقى مختبئا حيث هو .. هنا؟ ورعد يرحل. دمه يسيل قطرة بعد اخرى.. لو يوقف النزيف.. ارعبته اكثر فكرة الرجوع. انها نكبة..الاسر معناه فقدان كل ما كان وما سيكون من احلام..بستان كبير..بيت جميل في ظلال النخيل. مائدة تمتد وقت الظهيرة لأشعة الشمس الذهبية الزاهية ايام الشتاء الدافئة..هناك حيث قريته وبساتينها. ولكن الضمير والوجدان اوجعاه. كان يراقب المقاومة وقد خفت على الساحل..زوارق جديدة محملة بالايرانيين تصل. حوامات بدات تهبط. يعني انهم احتلوا مدينة الفاو. دموع نزت من مآقيه..كالعلقم في رحلة اللاجدوى..وعاد السؤال..من اشعل النيران ولماذا؟..ماذا حصلنا؟ ولم يموت الالوف..ومن اجل ماذا؟ نظر الى رعد وفكر بنفسه..نحن من عبر افق الردى.. نرسل زفرة حسرة لسلام..واخرى للآف غيره..قوافل حزن ووجع المخاض..والمآسي كثيرة..بيوت مهدمة. بساتين تحترق.هواء ملوث بالبارود. تموت الاشجار منكسرة على الدروب الملتوية للسياسة.

بدأ الخوف من المجهول يمزقه.ضياع الامل. مرارة الهزيمة..ثم الحساب.. خوفه اكثر من المحاسبة التي سوف يواجهها . عند السحر امسى الماء زمهريرا يتشرب في خلايا جسده..كان رعد ينتفض من الحمى فوق الطوافة.جز على اسنانه وظلوعه ملتصقا برجل صاحبه الساخنة. السهر انهكه..وجرح في اقدامه حفرته الاسماك وهي تنقر في كعبه ، جعلها تتجمع في موكب وليمة وهي تطوف مع مرارة محنته.كانت الجثث تقترب منه فيصدها برفق..عرف بعضا منها.. هذا احمد وذاك علاء..كانوا جميعا احياء قبل ساعات. أي حظ نحس قذف الايرانيين الينا واي مأساة. فكر صارم بصاحبه..وتمسك بساقه المتدلية تحميه من السقوط فيضيع في هشاشة الامل..جاء الفجر يحمل رائحة البارود والجثث السابحة.. واخذ يراوغ الحياة.. حتما سيأتي زورق ما عراقي لأنقاذهما .. اين هم لحد الآن؟ لماذا لم يأت احد منهم؟. والهزيمة كالعصا تلذع الضمير الملتاع بالقهر والسهر والحمى. الاندحار نشيد للضياع، واكفان، وشعر يشيب في ساعات، ونجوم ظهر. غدت السماء تزيح الكواكب وتزيد من شقاء صارم وخوفه من ان يراه احد القناصين. كثرت زوارق الايرانيين في رواح ومجيء وتعزيز للمواقع والسواتر، ونصب المدافع.. في صباح كان اكثر اسودادا من الاحتلال.

كل دقيقة تمر عليه كأنها دهرا..كالجلوس فوق نار. ومضاضة الاستسلام كجرح يشق لجين البحر..وحطام روحه كأنها خارجة من القبر. جفت دموع العناء فوق وجهه. وانتابته رعشات خوف وبرد وجزع لمجزرة الصحاب الجماعية، وقد وشمت صدورهم بالرصاص وجهود الهباء. انهال السائل المالح يرش رأسه ويختلط بدموع خجله وهو يبكي الماشين معه على الدرب. جندي هو في مرثاة للحق الطبيعي في الحياة والحلم والبناء. من استكثر عليهم حق الاماني.. وحتى الهواء. تمر الساعات ويسطع ضياء الشمس . يعود الوعي قليلا الى رعد فيهمس.. الازلنا هنا؟ فداعبه صارم .. وسوف نرحل من هنا.. لاتخف.. تحب السباحة انت.. ولكني لا اعتقد انك سوف تفكر بها بعد ان ننجو.. ابحث لك ياصديقي عن مهنة احسن.. بكى رعد. كان جرحه متورما ومتقيحا ينز دما. لايستطيع تحريك يده. ماتت قبل ان تموت روحه. ظهر التعفن واضحا على صدره ورقبته. رائحة الجثث جلبت اسماكا اكبر حجما من التي تنهش قدميه. الموت المتسارع داخل قوقعة من العذاب المؤلم والاوجاع . والروح اللائبة حين تطوف وهي تمسك برمقات لها من ثواني ودقائق وساعات.. بأنتظار النجاة. فقد رشاشته

هو ورعد حين قفز الى الماء. ارسل صلاة حارة الى السماء داعيا ان لايراه احد من المنتشرين على طول الساحل، بزوارقهم المتجمعة في الافق البعيد. شاهد سفينة نقل تشق عباب الامواج متجهه الى البصرة. جزعه من افتضاح امره الجمه فلم ينادي. بكى من جديد. اما من نهاية لحالة العذاب، وكيانه المفجوع، وجهوده المهدورة في اروقة الجحيم ولسعات ضمير الانتظار؟ يتقلب يتشظى داخل موجات الماء. رذاذاته تمسد شعره بلزوجة، وتقطر من اذنيه، وفوق حواجب عيونه المعلقة بأتجاه نور الشمس. ينشطر بين التواري في الظلال وطلب الدفء تحت اشعتها. يختفي في لفائف النزع الاخير لرعد وهو يراقب افتراق اجفانه بتوءدة وقد غابت الطراوة عن جسده الضعيف. لم يبق سوى انشداه لزحف هنات واهنة من انفاسه وهي تذهب بعيدا في المجهول. وشفاه يرف عليها اسم احلام ابنة الجيران ، وامه وابيه، واخوته الصغار جميعهم ينتظرون عند باب الحديقة. وصوت نداء .. متى يأتي رعد لنزفه الى احلام؟ ترفرف الروح برفق كأجنحة ملونة للوداع. هناك في صبحيات الصيف الندية، ورائحة الزهور، فوق السطوح كان يحوك من آماله رداءا شفيفا لأيام مستقبله المضيء. هناك حيث تطير الحمائم مرفرفة فوق اسرة النيام وهي تهوم في الفضاء.. فضاء الانطلاق، كان الوداع. اطياف احلام ما زالت معلقة داخل احداقه الذاهبة لعبور المجهول..اماني لأنسان تعلقت في لحظة وداع.

تعرت السماء عند الظهيرة. بدأ صارم يغيب عن الواقع. نومه يسهل عليه الانتظار. تلامس يده ساق رعد المتخشبة فيفز من غفوته. لا يعرف اين هو وكم بقى عليه كي يتبع صاحبه. حتى الاسماك لم يعد يدفعها عن قدميه. تقاطعت في عينيه الاضوية بين الاسود والابيض. كانت كينونته تحلق في شرود بعيدا عن عالمه الساخط عليه. ولا افق خلاص يلوح له . يتأرجح باليأس ويوقظ الارادة بصمود اعماقه واغوارها العجيبة المحصنة ضد الفناء. اصبح يبتدع اشياء لاوجود لها .. يخاطبها، يحادثها وهو يمسك برجل صديقه المتخشبة.. شوارع..جدران..وجوه تصرخ به..لاترحل..كألاخطبوط تشده نحو القاع متاهة اللجج الرمادية. فيحتضن الى صدره قدم رعد..يفتح احداقه..لقد سمع هديرا يقترب.. انها سمتية. اشار بيد متراخية وهو مغمض العينين. لايدري هل رأوه ؟. طارت .. وعاد الشروده وهو ينزل الى الاغوار ويغيب عن وعيه.. يد تهزه وصوت.. صوت غليظ:

- بعده عدل.. بس الثاني ميت..

سمع صارم الكلام فثار واخذ يدفعهم بيديه. عقله الباطن يقول له .. انه الاسر.. انهم الايرانيون وقد وقع في ايديهم. اكف قوية تمسك به وتوقف انتفاضته. صوت يصيح به برفق وهو يهدئه:

- لاتخاف.. لاتخاف.. احنة ترة جماعتك

يغيب مرة اخرى وتهمد حركاته.ليفتح عينيه على غرفة واسعة مملوءة بالضجيج وبياضا يسطع في كل مكان. يحيط به بعض الرجال بالملابس البيضاء. يدورون حوله هنا وهناك.. واسئلة.. كثير من الاسئلة.. متعب هو. قدماه ملفوفتان بالشاش.. انها مستشفى قالوا له.. لقد كان انقاذك معجزة فقد قضيت اكثر من يومين في الماء وانت تطفو فوق سطحه غائبا عن الوعي .. اخبروه انهم عندما وجدوه كان مشتبكا بقدم رفيقه الميت..وان المعجزة هي ان قدم صاحبه هذا انقذته من الغرق .. فقد كان قميصه ملتفا حولها.. وكان معلقا كالمشجب عليها. لم ينقذ هو حياة رعد. ساق رعد الميت هي التي انقذته هو الحي.. يالسخرية القدر. بقى في المستشفى عدة اشهر كان يعالج جراح ارجله التي نهشتها الاسماك.

بعد شفائه رجع الى البصرة .وزار اهل رعد. تجمعوا قربه.. هذه اخته.. وذاك اخوه الصغير. وتلك الجالسة هناك هي احلام ابنة الجيران. كان الغضب يفور في احداق الاب اخذ يشتم كل مشعلي الحروب. حدثه صارم عن بطولات ابنه.. هو واجبنا قال لهم.. رغم خسارتنا لمدينة الفاو.. ولكن الجميع استشهدوا ابطالا في الدفاع الضاري. قلة من المحظوظين فقط بقوا احياء ومنهم صارم.. لم يقتنع الاب.. كانت الام تجلس على الارض وتضرب فخذيها بكفيها ودموعها تغسل خديها وعيونها الكابية تتحسس فوطتها وهي تلعن كل الاقدار المسخمة بالحروب. وظلت تنوح في نحيب الجم الجالسين. صرخات بائسة لأم منكوبة بالموت. تمسح بأطرافها الواهنة ترنيمة الاختناق. رأسها الرخي تسنده بيد وتلطمه بلآخرى بحرقة آلامها المغلولة داخلها. اخته تشاركها حركاتها وهي تنثر الالم المكتوم داخل عبراتها الصامتة. قاطرة الاحزان تنفث دخانها فوق الجميع، فضجوا بالبكاء.

كانت الغرفة بسيطة الاثاث تدل على فقر اصحابها. حافظ صارم على الهدوء كل الوقت، كأن الامر لايعنيه، لاعلاقه له به. الكلمات العاطفية هي ابتزاز للمشاعر هذا ما تعلمه مؤخرا. هذا الشعب صانع الحضارات.. الى اين يقوده المصير؟ تعلقت الحروف في اجواء الغرفة الخاوية الجدران.كان صوت رعد يرسم علاماته فوق حيطانها النائمة على اسرار كينونته والنمو منذ صغره. لم يتأثر صارم. سعيد هو بنجاته فلم يهزه نواح وبكاء اهل رعد. اصبح احساس اللامبالاة والخيبة والمرارة وفقدان الثقة بكل شيء هو ما يكتنف كل ما يحيط به ويعتصر روحه. وغدت قيم الشهامة والنبل كلمات لاقيمة لها، اختفت خلف بشاعة الحرب. حياته الجديدة هي ولادة ثانية عندما انقذته المعجزة مرة اخرى وتم نقله الى قاطع البصرة ولكن في الخطوط الخلفية. فعاد الى خدمة العقيد وابنته سراب التي امست مهندسة وبدأت العمل في احدى الوزارات الحكومية. ومرت الاشهر اكثر امنا واسرع قليلا. حتى جاءه العقيد في يوم ما واخبره ان هناك وفدا سوف يسافر الى امريكا لشراء بعض الهواتف النقالة للجيش، ووقع الاختيار عليه ليكون مرافقا لاعضاء هذا الوفد. لم يصدق صارم. الدنيا لم تسعه من فرحته. كان مستعدا لتقديم أي شيء للعقيد الذي اردف يخبره وبشكل عرضي بأن هناك فقط خدمة صغيرة يود منه القيام بها لرد الجميل. وبغمرة فرحته اكد صارم للعقيد بأنه مستعد للقيام بما يطلبه منه . فأفهمه بأن هناك رزمة سوف يسلمها له عمه في بغداد ويريد منه ايصالها الى ابنه عبد الغني في امريكا. بحماس ودون تردد وافق صارم.

كانت ثيابه الجديدة انيقة عندمت وصل الى العاصمة بغداد. جيوبه منتفخة بألاوراق النقدية. يده تتحسس الباسبورت الاخضر اللون في جيب سترته الداخلية قرب صدره. يربت على قلبه فوقها بين الحين وآلاخر . لايصدق ما يمر به. انه حلم. هو مسافر الى امريكا. ماذا سيقول شباب قريته حين يعرفون بالحدث. سوف تأكل الغيرة قلب اخويه روبد ورافد..كلا لم يخبر احد برحلته فقد بلغوه ان سفرته يجب ان يتكتم عليها لأنها مهمة عسكرية. استأجر غرفة في فندق مريح من الدرجة المتوسطة ثم توجه الى عنوان عم العقيد. بعد ان اخفى نقوده جيدا وعدل من هيئته. وصل الى بيت السيد زهير بواسطة تاكسي. استقبله ابو عبد الغني عند الباب مرحبا. كان بيته فخما في منطقة المنصور، تحيط به حديقة واسعة. اثاث البيت فاخرة تدل على البذخ. لم يسأله كثيرا ، واقتصر الحديث على القضايا العامة الرسمية. فمهمته فقط توصيل الحقيبة التي سلمها له الى ابنه في امريكا. مهمة سهلة. فالابن سوف يستقبله في المطار حال وصول الوفد بحيث لن يثقل عليه في نقلها. فعبد الغني سيساعدهم في تسهيل مهام الصفقة. عاونه العم في حمل الحقيبة الى السيارة الفارهه الواقفة امام البيت. ثم اوصله بها الى باب فندقه ومن ثمة الى غرفته. وبعد احاديث متنوعة خرج العم زهير وهو يوصي صارم بالحفاظ على الرزمة مؤكدا له ان الحقيبة مقفلة، ولن يفتحها احد حتى يصل بها الى امريكا، ولذلك لن يحتاج الى مفتاحها، فلن يفتشهم احد في المطار. اصر ان لاشيء مهم في داخلها ولذلك، لاداعي للخوف، انها فقط حاجات خاصة الى الابن. هز صارم رأسه مطمئنا، وودعه عند الباب، ثم عاد الى الغرفة. جلس قرب النافذة يتأمل انوار المساء المنتشرة فوق الشوارع الاخطبوطية السوداء، والتي زاد التعتيم من وحشتها. فضل عدم الخروج من الفندق زيادة في الحذر وحرصا على نقوده. ادار نظره في الحجرة الواسعة المريحة. فوقع بصره على الحقيبة المقفلة. شيء ما تحرك في خياله، ظنون عادت تلح عليه. ماذا في داخل الرزمة؟ لماذا هذا الاحتياط الكبير؟ ان عائلة العقيد وعمه زاهر في حالة مادية جيدة جدا.. لماذا اذا لم يرسلوها بالبريد؟ لماذا رفضوا تسليمه مفاتيحها؟ لماذا يصر العم على ان الامانة لن يفتشها احد في المطار؟ لعب شيء ما في لبه. يجب ان يعرف محتواها. اقترب منها وداعب قفلها. تحسسها بيديه ورفعها عن الارض. كانت ثقيلة جدا وكبيرة نوعا ما. اخرج مفاتيحه وبقوة عالج القفل حتى فتحه. وجد داخلها حقيبة جلدية اخرى وقد وضع حولها نشارة خشب وقطع قطنية . خمن ان ما بداخل الصندوق شيء ثمين يخاف عليه من الانكسار. حرك قفلي الحقيبة، الا انها كانت تفتح بالشفرة . زاد ذلك من ريبته واصراره على معرفة ما تخبئه. وضع مفاتيحه وجربها يمينا وشمالا ثم اخرج سكينة صغيرة وعالج القفل ولكنه استعصى عليه. زاد فضوله اكثر بمرور الوقت وصعوبة فتح الحقيبة. تسارع خياله كالحمى وهو يجرب مختلف الارقام التي طرأت على خياله حتى بدأ اليأس يتسرب الى قلبه. فشله جعله يتوقف ويستريح على الفراش وهو يفكر ما هو الرقم الذي يفتح حقيبة كهذه؟ وفجأة خطرت له فكرة ، انه تاريخ

ميلاد سراب. منذ سنوات وهو يوصل الهدايا لها في يوم عيد ميلادها. قرر ان يجرب تلك الارقام، حين احس ان القفل قد تحرك، وقفز وهو ينفتح. كانت نشوته وسعادته لاتوصف.اولا لذكائه في حل اللغز. وثانيا لكونه سوف يكتشف سر الصندوق. وبتأن رفع النصف العلوي. الجمته الدهشة. نشارة الخشب تملؤه، مكبوسة ومربوطة بأسلوب فني. ادخل اصابعه داخلها وهو يحرك ابهامه وسبابته، فأصطدمت بشيء صلب جدا. خمن انه قطعة طينية من الملمس الناعم لها..انها تمثال او مزهرية. احتكاك اصابعه بها كان غريبا جدا.. وبمهارة ازال نشارة الخشب بحيث لايتلف تماسكه، وصنع فجوة في وسطها حتى وصل الى الجزء الصلب. زاد عجبه اذ شاهد شيئا ملونا كأنه حجر مخطط بألوان باهته ومطلي بالذهب. تحرك في كرسيه وهو يوسع الفتحة. ثم نهض ليتأكد من اقفال باب غرفته. فكل شيء توضح الآن. بداخل الحقيبة يوجد تمثال قديم مطلي بالذهب لرأس امرأة. صعقته المفاجأة. فقد عرف فيه واحدا من التماثيل السومرية القديمة جدا. تذكر انه شاهد صورا له في احدى المجلات. نهض من مكانه وهو لايستطيع التقاط انفاسه، فقد ثقل عليه صدره. راح يسير ذهابا وايابا داخل غرفته وهو يلملم اشتات نفسه. وبجهد وقوة ارادة عادت افكاره الى الانتظام.. ان مايحمله هو تمثال اثري ثمين جدا..من الآثار السومرية.. أي مغفل هو؟ كيف لم يتبادر الى ذهنه سبب ارساله مع الوفد. هو الجندي الفلاح القروي من الريف يتم اختياره لمرافقة وفد مسافر الى امريكا.. لماذا؟ لقد فهم الآن فقط... لم يكن سوى ساعي بريد يوصل وديعة ثمينة سعرها يتعدى مئات الالوف من الدولارات دون ان يعلم...اي سذاجة جعلته يثق بصدق كل ما قيل له عن ذكائه، وعن اجتهاده وعن شجاعته..كلها لم تكن سوى معادلة لتغطية المهمة الرئيسية وهي تهريب تمثال اثري الى امريكا بين اغراضه، كي تقبض عائلة العقيد الثمن.. اذا هذه العائلة هي عصابة من المهربين..خوف ورعب وهلع ارجف ساقيه وهو يتخيل نفسه في مطار نيويورك والشرطة تفتش الحقيبة..ماذا يفعل؟ كيف يخلص نفسه من هذه الورطة؟ هدأ اولا. ثم جلس على الكرسي وهو يرتب الامور في عقله.. هل يستطيع تحويل هذه العملية لصالحه؟ سأل نفسه هذا السؤال. لقد اخبروه بأنه في امان ولن يفتشه احد. في هذه الحالة.. اليس من الافضل الاستفادة والدخول في اتفاق مع هذه العائلة قبل تسليمهم الامانة؟ استقر قليلا..ثم عاد الى الحقيبة واعادها الى حالها الاول واغلق الصندوق برفق كما كان عليه وتركه فوق الكرسي، وابتعد عنه بأضطراب، وكأنه ملغومة بين يديه، ثم خرج من الفندق الى اقرب مخزن لبيع الخمور، واشترى قنينة عرق مع بعض المواد الغذائية، وعاد الى غرفته، بعد ان طلب من عامل الاستعلامات ايقاظه في الصباح كي يلحق بالطائرة الى امريكا. كان فؤاده يدق بعنف المغامرة التي سوف يخوضها. وحين اخذ النوم المخدر بالكحول يغلق اجفانه.. زارته كوابيس العتمة، كمومياء محنطة بالشاش الابيض وهي ترقص فوق مياه الخليج هناك حيث مات رعد.

استيقظ عند الفجر وجلس على حافة فراشه ونكس رأسه، واحتضن كفه بيده الاخرى. ينظر الى الصندوق بغيض وحنق وغضبه يتعالى داخل نفسه الموارة بكل الانفعالات. فهو على مفترق طريق. وعليه اتخاذ قرار ما. هل يفاوضهم ويصير فردا من افرادهم؟ او يفضحهم؟..ام هل من الاحسن ان يتعامى عن الموضوع كله وكأنه لايعلم ويوصل الهدية الى صاحبها، وكأن لاشيء هناك؟ الحل الاخير لم يعجبه. لن يكون ابدا الصبي المغفل الذي يقدم الخدمات وبمثل هذه الخطورة مجانا. الحل الثاني هو ان يخبر الحكومة وهذا معناه فتح تحقيق والغاء السفر. وقد يتهمونه هو بالقيام بالتهريب، وستكون كلمته هو مقابل كلمتهم، هم العائلة المعروفة ذات الثراء والمكانه الاجتماعية الرفيعة. ولا يمكن التغاضي كذلك عن معارفهم ووساطاتهم.. هل ستصمد كلماته امام مثل هذا الطوفان؟ ام سيتخلصون هم ويقع هو في المشكلة؟ بهذا المنطق اسكت ضميره.. اسكت ولاءه للحكومة..اسكت صوت الاحساس بالقيم الوطنية التي كان يؤمن بها. يجب عليه ان يتحرر من كل هذه الالتزامات..من كل ما تربى عليه، وان يكسره..يصمته كي يدخل معهم في اتفاق. انه المال والجاه الذي سيحصل عليه اذا استطاع لعب لعبته بشكل صحيح واشترك في تنفيذ هذه العملية.. انه درب جديد له.. ولادته الآنية مع قيم اخرى، اهمها الغنى . هو يعرف وعلى ثقة انه عند دخوله معهم سوف يستغلونه في عمليات مشابهه ربما اخطر، وعليه ان يكون كفئا ويسكت. فهم في وضع يستطيعون بواسطته ابتزازه وتهديده اذا رفض، فستكون لهم اليد العليا.وهذا يعني ان يصبح الخادم المطيع لكل رغباتهم.. ونهاية لكل ما عرفه. وتغيير للضمير

والمسؤوليات التي كانت تسير حياته بما يتناسب والوضع القائم.. فكر بعائلته.. ابيه وامه وعشيرته..ماذا لو عرفوا؟. القيم الجديدة تقول اختر نفسك حين يكون هناك اختيار. ومن اجل المال عليك ان تدمركل المثل القديمة. فجميع الاغنياء في بداياتهم كانوا افرادا اقوياء استطاعوا استغلال الفرص لصالحهم، وهم لايؤمنون بالصدق او الامانة او النبل والشهامة والكرم. كل هذه المبادىء لاقيمة لها امام الربح، هو الهدف ولا تهم الوسيلة او الطريقة للحصول عليه..وهذه فرصته كي يغدو غنيا ، وعليه اغتنامها والا سوف يندم على ضياعها.كثير ما قرأ ان الدنيا تؤخذ غلابا. ورغم ذلك صوت داخله يحذره ويمنعه، حاجز ما لم يستطع عبوره..اهي الاعراف التي ربي عليها؟ ضاق صدره، وعرف انه في صراع مع ذاته، ومع الهلع القادم، والخوف مما سيكون..لبست نفسه مختلف الاقنعة لتزيل انعدامها، ولوقف ذوبانها امام جبروت الحدث او شدة الاخرين الاقوى منه. صار يحوك داخل روحه شبكة يغطي بها لحظات الصدق معها. الحجج القوية المعاكسة لما هو مألوف. ان نحب ما نقوم به حتى لو كرهه المحيطون، وحتى لو تتلاشى بسببه الخيوط الشفافة للمحبة بين النفوس. الاسراع بالاحتماء والاختفاء تحت دروع الواقع المرير الذي يعيشونه ..والعذر دائما ظروف الحصار. هذا الصراع يشكل قيادة للرغبات بما يناسبها، ويوقف هروب الذات وتصليبها حين المواجهه للسيطرة على مواقع القوة والعيش بسلام معها، لتحويل السيء فيها الى منافع للانا.. الصوت القادم مع ذاته الجديدة.

بقى صارم تحت تأثير كينونته الجديدة هذه طول الطريق بالطائرة مع الوفد. كانوا ثلاثة. تحاشى الانسجام معهم وحاول لبس قناع المودة والاحترام، يستر بها عدم مبالاته بهم، وانشغاله عنهم. على الرغم من المودة والتوقير الذي عاملهم به العاملون بالمطار الا ان باله ظل مزدحما بالافكار. السماء والغيوم، ومياه المحيط الرمادية وغروب الشمس الطويل فوق لجينها، سار الوقت متلاحقا معها ببطء. يراقب جماعته..يراهم مسرعين اكثر من سرعة الطائرة. ظلوا غير منتبهين له. فغاص بين تلافيف اعماقه، وصراع روحه الذي لاينتهي، رغم اتخاذه لقرار الأنتفاع من هذه الفرصة. الفزع الذي لم يعرف من اين ينبع.. هوبحر جارف بالاحاسيس المتأججة والمتلاشية، والتي تروح ثم تعود لتومض من جديد، كالحمى والهذيان، رغم محاولته للعبور فوقها في تواصل مستمر مع الساعات حتى نزولهم في مطار نيو يورك.

عبد الغني كان في انتظارهم هناك. ساعدهم على استلام حقائبهم ورحب بهم بجفاف وبرودة، وبصوت سلطوي سأله عن الامانة. تلافاه صارم وشغل نفسه طول الوقت بأشيائه يحملها ويدفع بها. وعبد الغني ظل له. الغيض مرتسم على وجهه وهو يتبعه في كل مكان حتى اوصله الى غرفته المحجوزة في الفندق . وصارم لايجيب على اسئلته، ويغير الحديث كلما اقترب من الموضوع المهم وهو تسليم الامانة. لم ينقطع كلامه عن بغداد وقصصها وحكايات اهلها وعن الحرب وعن البصرة. عن كل شيء بعيدا عن زوايا كهوف الموضوع..والسؤال الحائر بين السطور. اجتاز صارم اول خطوة في الامتحان حين اختلى به عبد الغني في الفندق وهو يلح بقوة لأستلام الحقيبة التي ارسلت له. حينها دارت اللعبة بينهما. لمح صارم اليه عن اثار سومر الثمينة، وحضارتهم العظيمة. في تلك اللحظة حدث ما توقعه..ارتبك عبد الغني واحمر وجهه من الغيض.. وظهر التوجس عليه، ثم صمت طويل. ولكنه تمالك نفسه بسرعة..اجل في تلك اللحظة عرف صارم انه كسب المعركة، فقد لبس صاحبه قناع التواضع والاحترام وهو يخبره بأنه ليس وحيدا. وعليه استشارة الآخرين.. وان على صارم انتظار الجواب في اليوم التالي.قال صارم:

- آني راح اكون خادمكم المطيع..مثل ماترغبون.. مثل ماتريدون يصير.

لكل شيء درجاته، حتى التحاور مع النفس له مثل تلك الدرجات. فبعد ان خرج عبد الغني صعدت حرارة مايدور بخلده. هزه انفعال قوي الى درجة شوشت عليه افكاره. اسرع الى الحمام يغسل وجهه وتوقف فترة مستندا الى الحوض وهو ينظر الى وجهه في المرآة. ضرب الكرسي القريب من سريره بقدمه ثم اندفع مسرعا الى بهو الفندق ليجالس زميليه الآخرين ويستمع الى خطط الاتصال بالشركات لعقد الصفقة التي جاءوا من اجلها. وبين الجمل كان الاثنان يثنون على عبد الغني وجهوده الكبيرة في عقد مثل هذا الاتفاق. بعد مضي فترة من الوقت هدأت هواجسه. فأعتذر منهم وعاد الى غرفته حيث حمل الامانة ونزل الى الاستعلامات واودعها في احدى صناديق حفظ الاشياء الثمينة. وزيادة في الحذر قرر ان لايجلس لوحده. وطلب تغيير غرفته بعد ان

تذمر من الضوضاء الآتية من شرفتها المطلة على الشارع، فحصل على غرفة اخرى ضمن فيها أمانا اكثر.ضجيج افكاره يعلو كل ما خاطبه احدهم، ظانا انه تلميح يدل على معرفتهم بما يدور بينه وبين عبد الحميد. صار يحلل الاحاديث وكل مايراه او يسمعه. ورغم الحمى زاد تحديه وصموده،وارادته بعدم الذوبان بين ما يحيط به، وبدأ يلج اناه الجديدة ببطء وهو يفاضل قراراته في لحظات واعية دون مراوغة. شعر ان نقاء سريرته قد ذهب الى الابد. وتبدل الى شك وعدم تصديق بكل ما يحدث امامه. فالجميع كاذبون ومراوغون ويخفون كل مايعرفون.لم يعد احد يراه الابوجه جاد صلب. البحث الدائم عن الحقيقة سيحميه من احتمال وقوعه في خداع جديد. الازدواجية بانت في كل شيء. والكلمات صار لها معنى آخر مستور. حتى الضحكات تحمل رائحة الهزء به واللمز لشيء ما مجهول. كبت تعطشه الى دفء الصداقة والفرح. ففي تلك الساعات كان قد ودعهما ، فهما السبيل للافضاء والصدق والحنان.. وكل ذلك هو قسم من السذاجة وفصيلة الطيبة التي تم اغتيالها في قلبه. فلا فضاء للطمأنينة والثقة بالاخرين بعد الآن. سد كل الابواب، وحشر روحه داخل اسرارها.كل خطوة ستصبح منذ الآن محسوبة ومدروسة. يجب ان يروض الحروف والكلمات لتصير جدرانا للرغبات الجديدة. المال هو الاستمرار والبقاء يعبر به الى الحياة الافضل. سيحب الطرق المؤدية اليه فقط. وزمن لاينتهي من الخطط في رحلة مضمونه ماديا. كانت الساعات تمر. وجميعهم في انتظار عبد الغني. اجتمع ثلاثتهم على العشاء في مطعم الفندق وهم لاينقطعون عن الحديث حول اسعار الهواتف النقالة واللاسلكيات. المطعم والبهو مزدحم بالسياح. النازلون منهم والصاعدون . ومن الباب الدوار كان صارم يراقبهم في الخروج والدخول. اصص النباتات الخضراء تغطي المدخل الى الشارع العام، الذي يعج بالمارة وبطوابير السيارات. تناولوا وجبة طعامهم على انغام موسيقى هادئة تعزفها فرقة موسيقية بين حين وآخر. كانت اكثر الموائد مشغولة بالرجال المتحدثين بصخب مع بعضهم باللهجة الامريكية التي لايفهمها صارم جيدا. غير ان زميليه يجيدانها بطلاقة. رغم تأكيدهما له ان عبد الغني سوف يقوم بدور المترجم اثناء عقد الصفقة. كان عزيز وسعيد مهندسين في الهندسة الآلية في الجيش. من حديثهما شعر انهما على صداقة مع بعضهما ولكنهما يخفيان ذلك. ومن التلميحات خمن ان تلك الصداقة تمتد الى اكثر من عشر سنوات حتى قبل الدخول الى الكلية العسكرية، ولكن لأسباب لم يكتشفها كانا يتظاهران بعكس ذلك. قبل ان ينتهوا من وجبتهم جاء عبد الغني. طلب طبقا من الطعام دون ان ينظر الى القائمة، وكأنه زبون دائم لمثل هذه المطاعم الفخمة. دار الحديث بصورة عامة. خلاله لم ينظر ولا مرة واحدة الى صارم وكأنه لاوجود له. هذا التصرف افزع صارم. فلم يعرف كيف ومتى اغمض عينيه في سرير نومه تلك الليلة. كالكوابيس لسعته نظرات عبد الغني وتجاهله. لم يدع له فرصة حتى للمشاركة في الحديث. فكلما حاول ابداء رأيه تعالى نقاشهم مع بعضهم، فيصمت. استمر تهميشه عدة ايام. قضوها في التعرف على العقود التي قدمت لهم من قبل بعض الشركات. حتى حل ذلك اليوم في الاسبوع الثاني لسفرتهم، حين قرأ صارم حول متحف الاثار القديمة في نيويورك. في مساء نفس اليوم بدأ يحدثهم بحماس عن ذلك المتحف.وانه تعرف هناك على احد المسؤولين الذي تذمر من قلة اثار وادي الرافدين لديهم. سكت الجميع يستمعون الى ما يقول. وفهم عبد الغني الرسالة ببيع التمثال الذي يحفظه. في الليل بعد العشاء جاء لزيارته في غرفته. جلس على الكرسي بطريقته السلطوية واخبره بوجود بعض الصعوبات للاتصال بجماعته، ولم يتم التحدث معهم الا امس فقط. حيث بلغوه بأن مثل هذا الموضوع صعب بدون ذكر الاسباب. ساد الصمت بعد هذه الكلمات. وعبد الغني يمارس طريقته المعتادة بتحريك كفه، حيث يمر بها فوق خصلات شعره الاسود الكثيف، ويرف بأجفانه. ثم يلوك الكلمات بلا عاطفة او مشاعر وكأنه يستصغر من يحدثه وهو مستمر في كلامه لأعلام صارم بأن هناك حلا آخر يقترحه عليه وهو الدخول معهم هم الشباب في صفقة اجهزة اللاسلكيات التي سيعقدونها بعد ايام.. فهناك نسبة من الاتعاب للوفد تدخل ضمن الصفقة. غمز صارم له بسرعة تدل على موافقته. فأنبسطت اسارير عبد الغني وطلب منه تسليم الامانه. ولكن صارم رفض ذلك.. فالامانه ليست حاليا بحوزته.. ولكنه سيسلمها له يوم الرجوع الى العراق. كان صارم حذرا جدا. وقال كلماته بتأن تام ورصانة واحترام ظاهر، مع امتنان على قسماته. ورغم الانزعاج الذي بان على عبد الغني الا انه رضخ للامر الواقع بسرعه مذهلة ولبس قناع عدم المبالاة وهويساومه في قضية الاشتراك معهم في الصفقة. ولكن اصرار صارم على موقفه اجبره على الموافقة

في النهاية. فعناده لايستهان به. ولاحظ عبد الغني انه خصم لايستهان به. وقد يثير المشاكل. اخبروه ان حصته سيكون مقدارها 2% من ارباح العقد وستصل الى حسابه في البنك حين يسلمه الوديعة. وافق صارم بفرح. بعد خروج عبد الغني ، دار في غرفته بخطوات سريعة محاولا تمالك اعصابه الهائجة. سرور لايقدر كبره وانطلاق. قفز بسعادة غامرة عدة مرات في الهواء. ورغم انتصاف الليل وقد تجاوزت الساعة الثانية عشر هرع الى بار الفندق وطلب قنينة ويسكي مع بعض الفستق، ثم جلس الى مائدة منعزلة يراقب الجالسين وقد خلا البار تقريبا من الازدحام الذي كان يعج به قبل ساعات. كان يضحك كالمعتوه. تصلبت ذاته. عادت اليه ثقته بنفسه. كل شيء حوله يرقص مرحا مع هنائه. جاءت احدى بنات الليل تجالسه. عزمته على غرفتها، ولكنه رفض. بدلا من ذلك طلب منها ان تأخذه في تاكسي. قالت:

- الى اين؟

قال ضاحكا بكل خلجاته وهويسخر :

- الاتعرفين الى اين؟ الى تمثال الحرية طبعا.

غاب ضوء القمر خلف احدى الغيمات وصارم في مخبئه يراقب الطفلين الواقفين قرب جرف النهر. تحرك يعدل من جلسته بعد ان ايقظته من افكاره حركة وصوت مجاذيف. كان مستترا بالاحراش وجذع نخلة يراقب ما يحدث. ركض الطفلان على طول شاطيء الجدول العريض لملاقاة القارب المقترب منهما شاقا لجين الماء الفضي المرتجف بفعل ارتداد الامواج وهي تلطم رمال الجرف. ورائحة الماء النفاذة تدخل نخاع عظامه وتجعل دماغه يفور بسؤال.. ماذا يفعلون تحت ستارة الظلام؟ وقف القارب قرب الساحل. نزل رجل قصير القامة نحيف كأنه الشبح.. رآه صارم وهو ينحني نحو الصغيرين ويتحدث معهما همسا. يدافع الصغيران عن نفسيهما بأصوات طفولية:

- والله العظيم جذب.. لا .. لويش..ترة هو لئيم.. اسأل ابو..

- .. آني اقول .. عقلة ترللي..

صاح احد الاطفال:

- جذاب..لاتصدق.. هو الحرامي.. حيال

- قال الرجل بلهجة غضب:

- زين..زين.. خلص.. اخذوا..

وبعد عدة كلمات نزل من جديد الى القارب وعاد وهو يحمل صندوقا اعطاه لأحدهما ثم رجع ممسكا برزمة سلمها للآخر وهو يقول:

- اريد همتكم لما ارجع..لازم كل شي يكون جاهز..لاتخلون الاشياء تصير ماصخة..ديله روحوا..

عدل الطفلان من وضع احمالهما على كتفيهما وهما يشيران اشارة الوداع ثم يركضان بين الاشجار والجذوع. تبعهما صارم على اربعة. شاهد البلم وهو يبتعد.اتعبه الانحناء فاستقام متأنيا في خطواته. وقف احد الاطفال على الطريق الترابي واستدار بأتجاه صارم.. ضوء القمر انار له وجهه.. انه فرات ابن كاصد.. اما الآخر فهو عطشان ابن مشعل جيرانهم. ركام من الخوف فوق ملامحهما وهما يتجهان صوب بيوت القرية. ضوء السحر شق السحاب، وهو يعري هروب النجوم من على صفحة السماء. اقترب صارم من بيت ابو رند في طريقه الى بيته وقد لف السكون البساتين والحقول الا من نباح الكلاب وصياح الديكة ونقيق الدجاج. وكأن الحيوانات توقظ الحياة في ما حولها. شاهد رند وهي تخرج من باب بيتهم ثم تتمطى وهي تربط شعرها بربطة ملونة. ثم ترفع سطلة بيدها وتسير بأتجاه البئر لجلب الماء. اشتهاء تملكه وهو يراقب قامتها الشطبة واهتزاز نهديها وتمايل ردفيها. عينه عليها منذ مدة يطاردها بخلسة ويتسمع كل الاخبار عنها.. لا يذكر منذ متى؟ عجيب انه لم يقترب منها لحد الآن. لم يتخذ قرار. يود سبر اغوارها .. كنه شخصيتها. لايحب اباها وعمها فهم كل شيء يكرهه خصوصا اعمالهم وما يؤمنون به. يتقصى اخبار حفرهم للبئر.. فهو يعلم بالممرات الخفية. وسيأتي يومه،

وستتحول الامور لصالحه.. فكل يوم جديد يأتي بالجديد. شاهد رافد وهو يقترب من رند ثم يمازحها ومن مكانه سمع ضحكاتهما وبعض الكلمات:

- النور.. وحيدة انتي هنا قال لها

- امتع نفسي بالنجوم الشاردة.

صارم لايحب ذلاقة لسانها.. رد رافد

- شعر جديد؟

ضحك

- ورا ليلة البارحة.. اكو بعد شعر؟

يرفع رافد يديه ويريها جرحه:

- شوفي وين عضني الذيب.. شوفي شلون خرمشتني..هواية من عدنا تجرحوا ..ما بقى احد ما نزف..

جاوبته رند

- مثل المجرش.. من زمان ندور وياها.

- انت شجاعة.. سمعت اليوم راح تحوشون البرتقال من بساتينكم؟

هزت راسها موافقة. شاهدها صارم وهي تترك الدلو قرب البئر ثم تطلق ابصارها فوق رمال الصحراء خلف القرية. برودة الارض تتغلغل داخل اقدامه، شعر ان السماء قريبة منه لو رفع يده لأمسك بها. تملكه ولأول مرة في حياته شعور غريب بالصفاء. ما اوسع الدنيا وما اصغرها. راقب انبثاق النور من خلال السحر وهو يشق سواد الليل والفجر وهو ينطلق. فتوارت النجوم متهاوية واحدة اثر الاخرى. توضحت ملامح القرية الفقيرة ذات الصرائف الطينية. والطريق اليها ترابي مليء بالحصي والازبال. تعالى صوت ثغاء الدواب وصهيل الخيل وحمحمتها، يرافقه نقيق الدجاج، واصوات الطيور.عواء لبعض الكلاب. رائحة دخان لتنور تندفع الشرارات منه.كل شيء مرسوم بالعوز. ولكن من السكون اخترق الصوت الهامس للحياة جدران ما يحيط به من هدوء.خرير النهر من بعيد ورائحتها الرطبة سعف النخيل يهدر مع الريح ملوحا للنور العابر داخل افكاره. ليس هناك سمو في تيهان الذات حين تكون هناك عقبة ما، او مشكلة خاصة. المهم هو الثبات كي لايقع في الفراغ او ربما ما هو أسوء..اللاشيء.. اجل الفراغ واللاشيء هما ما يخافه صارم..ان يصبح لاشيء..ان يهمش..كلمات رددها وهو في طريقه بخفة نحو بيته. واسراب للحمام تتطاير فوق سماء القرية. راقب رفيفها بنشوة.

كان تعبان في الحديقة الواسعة يعدل من بعض نباتاتها حين اطل صارم من شباك غرفة نومه صباحا. لم ينم طويلا ساعتين او ثلاثة. وطول فترة نومه كان وجها الطفلين فرات وعطشان يتمازجان مع وجه تعبان داخل احلامه. فتعود ذكرى ما رآه في حلبجة نهاية الحرب مع ايران تلوح له.منذ ذلك اليوم الذي ارسله العقيد في مهمة سرية الى شمال العراق لم ينس ما شاهده هناك. تلاحقه الصور كلما مرت عليه صعوبات الحياة اوخوف وتوجس من المستقبل.يبعدها دائما عن مخيلته ولكنها تعود. لقد علموه في الجيش ان الحرب كانت قدرا لابد منه. وهي اكبر واعمق مما يراه امامه، ولايحق لأحد التساؤل عن اسبابها او حولها او التشكيك في مقاصدها النبيلة واهدافها. فكل احداثها هي صراع من اجل بقاء واستمرارية ما وصلت اليه ذاكرة التاريخ، لأثبات كيان هو مجد للعراق..وامجاد الوطن هي في الانتصار على العدو. واحقاق الحق. وهو لم يسأل نفسه عن الحق الذي اخبروه عنه؟ واعتبر ان الدفاع عن الوطن هو ذاك الحق. ولكن جنود العدو يدافعون عن بلدهم كذلك.. رفض هذه السخرية.. وابعد هذه الافكار عن نفسه. اليس من الافضل له ان يفكر برند مثلا ستكون زوجة صالحة له. ورغم ذلك لايريد البدء بالتقرب منها.فهناك ركام من الابهام يدور في طريقه نحوها. وهي تنزلق دائما بعيدا عن قبضته كالوهم او الضوء الخاطف داخل صمم الاصوات الآتيه من المحاور التي تعبر على الامكنة والازمنة التي خاض غمارها، بكل جحيمها وسخريتها. رند فتاة يرفضها ضميره الذي يريد منه الوصول الى المطلق.. اجل يتمنى ان يصل الى الجمود الذي لاتحركه المشاعر.. ولكن هل رافد يريدها لنفسه؟ لديه خطيبته التي خطبوها له منذ الصغر. حرك ذلك من شهوته، حفز ذلك رغبته في الحصول عليها لأغاضته ، ان ينتصر على اخيه في المنافسة شيء ممتع حقا لحظة الفوز هذه.

من نافذته يرى سطوح الاكواخ الطينية. وباحاتها المغتسلة بالاشعة الباهته لنهوض الصباح. في طرف القرية بيت صبرية ام صابر والتي تدير له بيته. رآها تقف امام تنور الخبز وقد شمرت عن ساعديها ولفت الفوطة حول صدغها، لتحتمي من الشرار المتصاعد مع اللهب الاحمر من فوهته. وذاك رافد وهو يخرج الغنم الى المرعى القريب. اما رويد فكان يقف امام الاسطبل وهو يحمل علف للجياد التي يملكونها. بالقرب منه تقف زوجته عواطف وهي تحمل دلوا مملوءا بالحليب الطازج. في الطرف الآخر بيوت مهدمة بفعل الغارات الامريكية، كانت تسكنها عائلة مشعل الفلاح ابن عريان والمتكونة من الاب والام وولدين وفتاة صغيرة لايذكر اسماءهم، فجميعهم دخلوا مرحلة النسيان. اما الجهة القريبة من النهر فهي بساتين الملاك مالك. كان بيته فارغا. فبعد ان بدأ معظم افراد القرية بالنزوح الى المدن ولم يبق سوى بعض اكواخ فقراء الفلاحين. انتقل مالك الى مدينة البصرة وسكن هناك. وتزوج اولاده. يأتي احيانا الى بساتينه حسب متطلبات العمل فيها. في نهاية اوبداية بساتينه امتدت بساتين ابو رند وابو ساهر. بيتاهما متجاوران كبيران متميزان بالبناء الجيد الواسع الذي يدل على النعمة والرفاه. في وسط الحزام الاخضر لبساتين القرية يدور جدول عريض متفرع من شط العرب. على ساحله طريق ترابي مظل بسعف النخيل المتشابكة على جوانبه يوصل القرية بأبي الخصيب. قرية ام السعد قرية صغيرة ضائعة وسط امتداد لرمال الصحراء. الدخان المرتفع من تنانير الخبز اثناء الفجر والمتبدد تحت صفحة سماء زرقاء عريضة يمنحها رائحة خاصة، تجر اليها الطيور واسراب الحمام لتحوم فوق خضرتها الوارفة الداكنة الظلال. همس واهن دائم لخرير امواج النهر الملتف حولها وهو في مساره الازلي والذي يمنحها مرحا وبهجة احيانا ووجوم وحزن احيانا اخرى حسب امزجة الذين يعيشون بين جدران تلك الاكواخ. خلف تلك الضفاف ورغم جمال الطبيعة تمتد الصحراء بكثبانها الرملية النابذة للاخضرار باعثة غربة وقلق في الروح تلف القلب. وسط القرية ساحة صغيرة فيها حنفية قديمة انقطعت عنها المياه منذ سنوات حرب الخليج الثانية. احيانا يقطر منها خيط واهي من ماء الشرب المعقم فيخف الجميع للحصول على دلو منه لملء الحب داخل البيوت. بالقرب من الحنفية توجد بئر للتزود بمياه الغسيل والطبخ. اما مياه النهر فهي للبساتين والحيوانات ولغسل الاواني والملابس. هذه المياه لم تعد صالحة للشرب بعد ان غزت الاشنات الخضراء سطحها خصوصا قرب الجرف . والنهر في انحسار دائم سنة بعد اخرى. وفي الصيف يصل الانحسار الى درجة امكانية عبوره مشيا. حينها تكفهر وجوه الفلاحين، ويدور الحديث عن الكارثة المرعبة التي سوف يواجهونها حين يجف النهر فتقل البساتين وتموت الحيوانات. كانوا يؤكدون ان نهرهم يحتضر. لذلك من واجبهم البدء بحفر الآبار للاستفادة من المياه الجوفية.

وصل الى سمع صارم صياح بعض الاطفال وهم يندفعون نحو بستان ابو رند..فتمتم..الايذهب هؤلاء الصغار الى المدارس؟ ولماذا يندفعون الى جمع البرتقال؟ ثم تذكر ان اليوم هو الجمعة. واهل القرية ينتظرون مثل هذه الايام للحصول على اجور زهيدة مقابل العمل الذي سيقدمونه ووجبة طعام وبعض الفواكه، فلا يمكن تفويت مكسب كهذا. افراد القرية كذلك في تناقص مستمر. فالقرية تسافر مع موت النهر. اثار لبعض الاكواخ التي تركها اهلها. واكواخ اخرى دمرت بعد القصف الذي حدث اثناء حرب الخليج الثانية. ولا زال الفلاحون في فزع من حدوث قصف جديد. فالطائرات تحوم كل يوم، وحين تعبر يضعون ايديهم فوق عيونهم وهم يراقبون مساراتها واتجاهاتها، ثم يتحدثون عن القصف الذي اصاب دار مشعل وقتل عائلته. يصفون تطاير سعفات النخيل واحتراق جذوعها. ثم الهلع الذي خلفه هول المصاب.خرس الجميع. الم عميق في جرح له اشعة من نار ولهيب اصابهم بالشده.. كان الحر قائضا حين انطلق الحريق.غيظ دفين صب في عروقهم كبتوه مع بذور الجزع فهناك خط واهي بين بيت وبيت والدمار والخراب هو اقل من شعرة وباقل من ثانية ممكن ان يقع بيت آخر. فهموا الرسالة وحقيقة ما يدور.. فلا زالت الحرب تحصد.. ولم تقف رغم انتهائها. رحة تطحن تخض وتنثر الخراب. لم يعد اليوم كما كان بالامس. حتما هناك انهيار وشرخ، وشيء عميق اندثر. الوعي والروح الثورية..والعلاقات الانسانية حتى مابين الجار والجار..لم يعد مما مضى يشبه حاضرنا الآن..ما عاد الامس مثل اليوم ولا الحاضر مثل المستقبل المخطط له. والفلاح يموت ولا يدري لماذا يموت وتقصف اكواخه؟ وعندها تنهمر الدموع الغزيرة.على الذاهبين بدون عودة، والجثث التي يخرجونها من تحت الانقاض الايلة

للسقوط فوق الاحياء. لازالوا يذكرون ليلة التراجع والخروج من الكويت. ففي اليوم التالي لأنتهاء الحرب انحدر سيل للجموع المتراجعة بعد العاصفة. وكان هناك سيل آخر انطلق هادرا بالغضب والرفض..وسار بعض الفلاحون معه وهو يقودهم الى شطآن كانوا يحلمون بها منذ ثورة الرابع عشر من تموز. امسى كل ذلك قصصا تقصه الجدات على احفادهن عند النوم عن الذئب وقطيع الذئآب..لم يعرف صارم من كان في خضم الاحداث ومن مشى مع التيار ومن لم يكن..فقد كان مختبئا في البصرة حينها. خوفا من ان يصله شرار منها. يود لو ينسى تلك الاحداث.. طعم الموت ورائحة العفونة وهو يجمع الجثث من الشوارع بأمر العقيد. النتانة والروائح الكريهه.. واجساد اوصدت نوافذ اليقظة وهي تدخل الموت بعدم تصديق في آخر لحظات حياتها. وحين استسلمت مدن الجنوب للخراب والتدمير.. كيف يمكن ان تعود الحياة الى مجاريها. كما كانت بعد تجربة نهاية كهذه محملة بدوامات الهجمات الشرسة. وقتها حدث لديه انفصال ذهني عن كل ما كان يؤمن به. وادار الفلاحون وجوههم عنه خصوصا كبار السن. والآن وبعد سنوات قالت الجدة ام شعلان بعد موت ابنها واحفادها للاطفال وهي تصف ما حدث حينها..اندفع السيل هادرا يصب غضب الرفض للخنوع..غطى شمال الارض وجنوبها..ضباب ودخان وثورة..لم يصمد الانكسار امامها.. اعقبه قصف بالحوامات..هجوم وانسحاب..ثم رجوع ورقصة للرمال مع القادمين من عاصفة الصحراء. وراء الخطوط كانت المأساة. وفشلت جهود الاسناد فكان الانصهار حيث اكتمل الدمار حين دقت الابواب مخالب الذيئآب..وصياح بذبح الغوغاء. الالوف شدو الرحال يجوبون البيداء والفيافي والقفار الى المدن المنسية. فتحولوا الى منسيون بين جدران الغربة. فروا من فرن يحاصر نيران الغضب العاصف..هربوا من قضبان الجوع الفولاذية وهو يزحف فوق قضبان المرض المزمن للنصف الميت . قالت الجدة وهي ترفع عصاها للاحفاد افتحوا عيونكم لأفق نجيع الدماء والوحدة والانعزال.. ولكنها لم تتم قصتها فقد جاء من اكل الجدة ايضا..لم تبق اساطير للصغار..ماتت حين انتفخت بطونهم بالسرطان.. وازرقت وجوههم من الحرمان.. لم تكمل الجدة حكايتها..ولم يسمع احد اناتها..وكان صارم مختبئا في مدينة البصرة. ثم خرج ليكنس الجثث من ازقة البصرة القديمة. سمع عن دمار دار مشعل حين عاد الى القرية. شاهد جدران الكوخ الطينية الملوثة بالدماء داخل الحفر الآسنة التي نقعت بمياه المطر والازبال. كانوا اربعة اشخاص مات معهم آخرون.. وصدح الراديو بالاغاني وقال ثم قالوا لقد فزنا.. وانتصرنا.. وهناك تحت اعمدة الخيمة كان الاقتسام لغنائم الحروب. وفرض على العراقيين دفع ثمن الاسلحة التي تم تدميره بها. ولكن لم يكتب احد ولا كلمة على اوراقه عن تلك الاساطير.. عن بيت مشعل وابناء مشعل، وعن الاجيال الآتية بعدهم..لم يدون في السجلات عن هضيمة الجدران الحديدية لأطفال بالصمت شاهدون على ما كان وما سيكون..بل هم الدليل حين تدور الامهات داخل ردهات المستشفيات. رغم السكوت والتجاهل. فما اهمية صراخ طفل مفزوع في الظلام. وارامل تهز المهود بيد وباليد الاخرى تفتش عن دواء. لايسمع احد الصوت المهدهد حين يصاب الجميع بالصمم. حتى الصراخ هو رجع بعيد لصدى اللامعقول وملتقى لكلمات تقسيم الالم والمرارة ولا من مجيب. انها موازين الاحتواء والكيل بمكيالين تطحن داخل مجرشة النيام. ففقوا بخشوع لهذا الصمود. واحنوا هاماتكم حسرة على الذاهبين بدون عودة. اولئك هم جنود الخنادق الذين ماتوا بسموم القنابل لليورانيوم المنضب الحديث. واسلحة الدمار.. اولئك هم الذين بقوا داخل دباباتهم جثثا هامدة وقد بقيت اجسادهم سالمة خير دليل على ما وصلته التكنولوجيا الحديثة من نبوغ. كان صارم في الكويت بأمر من العقيد يلازمه ويخدمه بأخلاص.يسمع تذمره من قلة الذخيرة وسوء توزيع الاغذية، ولا يتكلم بل يهز رأسه .. نعم سيدي. وكلمات رعد وسلام تمر بأذنيه، عن الحروب العادلة والجنرالات والجنود المجهولين.. والحرب هي الحرب. المهم لديه هو حماية نفسه من الخوض فيها واراحة ضميره، والقيام بواجبه في حماية الوطن. فالانتماء يحتم عليه ذلك، ولا مسؤولية له في ما يجري..ففي الحرب يصبح الافراد مجرد ارقام وهو واحد لاهوية له.. انه مجرد رقم. هذا ما نجاه حين قصفت القوات الامريكية كل جزء من اجزاء العراق..شاهد امواج الجيش المتراجع وهو يعبر الحدود وقد سبقه قادته. بعضهم كان من اصدقائه . لوحوا له وهم يدفعون بعضهم في سباقات الانكفاء..جموع تسير..امواج من البشر سيرا على الاقدام. وقد هجروا اسلحتهم مرمية في الخنادق وخطوط الدفاع. والجيوش الاجنبية خلفهم تسيطر على كل مكان وتقطع اوصال القوات العسكرية العراقية. فمات من مات تحت الشرعية

الدولية للحرب.. انها عاصفة لم يستطع احد الوقوف امامها. فلم تكن حربا عادية كانت حربا للتكنولوجيا الحديثة. حيث دمر كل شيء دون رحمة. ثم فرض الحرمان لسنوات طويلة من اعوام العزلة الرهيبة. ولكن بعد مرور السنوات واستمرار الازمة، وانسحاق الطبقة المتوسطة تماما. والرجوع بكل مرافق الحياة الى الوراء. وقف الاحفاد امام الجد ابو مشعل الوحيد الباقي من بيت مشعل الذي تم تدميره. قال وهو يحدثهم عن اسطورة الجندي والدبابة..كان هناك جندي ودبابة..اطلق الجندي طلقته الاولى نحو الصورة.. فتمزقت..بهت الناس..وردد الاحفاد السؤال..ماذا حدث بعد ذلك ياجدي؟ قال الجد..وقف الناس حائرين وسألوا الجندي..ماذا بعد هذا؟ قال الجندي..نريد تعددية..نريد مسارات لمياه الآبار المختلفة..نريد عراقا جديدا..عراقا ملائما للعيش فيه..عراقا نحبه ونرغب بالبقاء فيه.. وبنائه للاجيال القادمة تحت نظام صحيح. وافق الناس واتفقوا بأنه الرأي السديد..وهو الصواب، فبالنظام الجديد سيتحد الطيبون وستكون جهودهم قوة اكبر في بناء البلد كي يعم الخير على الجميع..ولن تنمو الوحوش في المراعي. ولن تحصل اخطاء او حروب...وماذا حدث بعد ذلك ياجدي؟رددالاطفال. استمر الجد في قص قصته وقال..لاحقاق ما فكروا به قرروا التخلص من وضعهم وتغيير ما يحيط بهم، فأنتفضوا..واحتشدوا في الجنوب والشمال وحتى في الوسط. نهض الاطفال ورفعوا العصي وهم يهتفون..وماذا حدث بعد ذلك ياجدي؟ لم يتوقف الجد عن الكلام رغم المحاولة في اسكاته، ووصف للاطفال كيف سار الناس بحماس وهم يحملون كل مالديهم من سلاح. ونجحوا في احكام قبضتهم على البراري والسهوب..ولكن آلهة الحرب شعرت بهم ودفعت بكل اسلحتها لمقاومتهم..والعارفون واقفون يتفرجون، ولم يتدخلوا. وتاه الناس..وضاعت مبادرتهم في الوصول الى جوهر الاشكال لتبديل مصيرهم..وتم ضربهم وقتلهم وتشريدهم..وهز العارفون رؤوسهم..ولاموا الناس على ضعف صمودهم..هز الاطفال رؤوسهم وعيونهم تسأل بعد ان اندحر وفر الجميع ماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟ اكمل الجد وصفه كيف تم اطلاق الرصاص على الناس حفظا على الامن ..وبقاء لما هو موجود. ومرت سنوات عجاف واخريات ساد فيها ما ساد من جوع وقحط..وتفشت الاوبئة والامراض الخرافية بين الناس ومات الاطفال في اسرتهم ببطونهم المنتفخة وكثير من القيح والاورام. وباعت النسوة اعراضها لشراء الطعام. وسرق اخرون ثمارا ليست لهم في بساتين احترقت اشجارها. ودفنت الاهوار. وماتت انهار. وشحت المياه. وزحفت الرمال والصحراء تقتل كل ما نما وينمو بالقحط والهجير. وعلت الاصوات بالويل والثبور. وتعالى نشيج الارامل، ونحيب الصغار. وسفحت الكثير من الدموع حسرة وألما وندما. وصارت الهمسات صراخا.. والعارفون يتفرجون وتحرسهم قطعان الذئآب..الخ الاطفال..وماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟ قال الجد.. لقد ادركنا الصباح ويجب ان نسكت عن حدود الكلام المباح. تفرق الناس الى بيوتهم وهم يهمسون بما كانوا يسمعون حتى وصلت تلك الاسرار الى صارم ..فثار غضبا وكسر كل ما امامه..وطلب من الشرطة ان يذهبوا الى الجد ويضعوه خلف القضبان فهو ينشر الفتنة بين الناس.. وهكذا كان. واختفى الجد ولم يسمع عنه اويراه احد بعد ذلك.

افاق صارم من افكاره وهو ينظر من شباك غرفة نومه. راقب تعبان وهو يرتب ازهار الحديقة ويرشها بالماء. ثم جاءت ملاذ ابنته وحدثته بشيء ما، ورجعت صوب بستان ابو رند. شاهدها صارم من نافذته وهي في طريقها. ورأى اخاه روبد يخرج من اسطبل الجياد ويسرع نحوها. اوقفها وهمس لها شيئا في اذنها. ولكنها دفعته عنها. فأذا به يمسك ذراعها ويجرها الى الحائط خلف الاسطبل وقد شل مقاومتها وهو يلتصق بها.ووضع كفه فوق فمها. وفي تلك اللحظة وقعت انظاره على صارم. فتراخت قوته حيث انتهزت ملاذ تلك اللحظة وجرت راكضة بأتجاه بستان ابو رند. هز روبد كتفه دون مبالاة وبأستهجان فهو يعرف ان صارم يسميه مغتصب النسوان. فلم تسلم ولا واحدة من فتيات القرية من تحرشه بها، رغم زواجه ورغم انجابه لولدين. وكان روبد يعير صارم بأنه فاقد لرجولته. ولكنه يخافه. فهو لحد الآن لايعرف كيف استطاع صارم بين ليلة وضحاها ان يتحول من الفلاح الفقير الى هذا الجاه والغنى. بالاضافة الى الاسرار التي تحيط دائما بحياة صارم والتي لايعرف عنها احد شيئا. فهو يغيب احيانا اسابيع ثم يظهر فجأة دون سابق انذار. راقبه صارم من شباك غرفته وهو يضحك:

- مغتصب النسوان.. ادب سز..حيوان..ابو العنتريات والمكسرات واللغاوي..شلون يتحارش بملاذ..ملاذ بنت تعبان ملكي آني..آني جبتهم من حلبجة بعد المشاكل اللي صارت هناك..جانت حتى عربي ما تعرف تحجي لا هيه ولا ابوها..جان عمرها تسعة او عشر سنين لما سكنوا بالقرية.
منذ صغرها وعيناها الخضراوان الرائعتان تثيران انتباهه.زاد جمالها الاخاذ بعد ان نضجت بشعرها الكستنائي ذو اللون الغريب. كيف شبت بهذه السرعة. لقد تجاوزت طفولتها بلمح البصر. ومنذ فترة وهو يتحين الفرص للحصول عليها..انها يتيمة ماتت امها واخوتها هناك في حلبجة. تنفس بعمق وغضبا تصاعد وهويشاهد اخيه يحاول اغتصابها..هل سبقه؟ سيقطع رجولته ان فعلها. صاح على تعبان من شباكه بصوت كله استصغار وتكبر:
- انت .. تعبان..وين راحت ملاذ؟
- راح يم رند..اليوم يحوشون البرتقال.
- اريدها من باجر تجي عندي تخدمني، وتساعد ام صابر بتنظيف البيت.. وكل شهر ادفع الها اجرة.
تظاهر تعبان بالشكر:
- اشكرك سيدي..راح اقولها..تجي باجر للخدمة.
هناك محنة قادمة فكر تعبان بأمتعاض. ايقظ ذلك الشعور الكريه لديه نبرات صوت صارم. فقد كانت مسورة بالانانية ورغبات المطامح السرية. تلوح فيها رائحة الشهوة للغرائز المحبوسة داخل مكائد الذات..هل بقى شيء بعد الاهوال التي مر بها هو وابنته يمكن ان يهزه الآن؟ طعم الحسرة عالمه الحاضر على عالمه الماضي البعيد. هجرته القسرية داخل تلك الدروب الحلزونية لسنوات ضاع فيها عمره. ولا زال التلاشي مستمر. الحقول الخضر والجبال والمياه الحلوة والشلالات هي ما بقى له في الذاكرة. انه الآن هش ضعيف لا يسنده شيء. اين ذهبت ملاذ؟ هناك على ارضه البعيدة في الشمال كان اسمها فيان. ولكن صارم اطلق عليها اسم ملاذ وسماه هو تعبان بدل سردار.. تألم تعبان.. انه اسم فقط وتغييره لايهم.. فلماذا يؤلمه ذلك كل هذا الالم. ما اصعب ان يتحول الانسان عن جذوره لينمو بشكل مختلف عن الاصل ولما كان عليه.. ان ذلك يوجع بشكل مخيف..اين هي فيان؟ انها كل ما بقى لديه ولولاها لما استطاع الاستمرار في الحياة. انه يخاف عليها خصوصا حين يشاهد نظرات الشبق في عيون الرجال حين تمر امامهم. كثير من الافكار تشده للرحيل وترك هذا المكان ولكن عجزه عن فعل ذلك يزيد من كراهيته لنفسه ولكل ما حوله. يتمنى ان تحصل معجزة تحركه..ماذا يريد صارم منها؟ هناك حتما اسباب اخرى غير خدمته هي ما دفعه لطلبها للعمل عنده؟.

الفصل الرابع

الدروب الحلزونية للذات

قالت ملاذ لرند:
- اجيت اساعدكم.
فرحت رند ونظرت الى المنتشرين داخل البساتين وقد حملوا الزنابيل تحت اذرعهم، واكفهم المعروقة بالشرايين النابضة بالتعب تقطف الثمار من اشجار الفرح الزمردية. شيء ما كالسحر الخاطف مرق بين حناياها حين وقعت ابصارها على ساهر بين القاطفين.تمالكت نفسها، الوقت الآن ليس للحب والغرام انها لازالت صغيرة، ولديها طموحاتها في تكملة دراستها في كلية الطب والتي ستبدأها السنة القادمة. الزواج يأتي بعد ذلك. دفعت بملاذ بين الاشجار وابتسمت سعيدة مطمئنة وواثقة من نفسها. طلبت من ملاذ ايجاد مكان لها بين القاطفين، واسرعت الى ابيها تساعده في اعداد الاقفاص لجمع البرتقال. اتجهت ملاذ نحو ساهر ووقفت قربه بين الاحراش تساعده. انحنت الى الارض تجمع ما وقع من الفواكه تحت السعف المقدس والمرفرف بالحنان. كانت حياة الثمار تموت تحت الاصابع المرتعشة للعاملين. والاغصان تضرب وجناتهم وظهورهم واكتافهم بقسوة. حركات رتيبة متحررة من ركوع الجذوع الخافقة بالهذيان، وهي تأن لمجزرة القطاف ساعات النهار كله في جوع الى احتضان ما انكسر وما تكسر من تلك الفروع. والناس لاتسمع انين الجراح. بل ارتفع صوت احدهم بالغناء. شاركه الاخرون مرحه. وساهر لايبالي بأقتراب ملاذ منه. واحتكاك كتفه بكتفها. فعينيه تتسلق قامة رند الشطبة وشعرها المتطاير من ضفيرتها التي انحلت الى النصف على ظهرها تحت الربطة الملونة.همست ملاذ وهي توشم ذراعه بوخز الشوك، بان بطون الفلاحين خاوية وسيلتهمون اكثر البرتقال..ثم رددت ان كان يريد المعاونة؟
هذا زمن الجوع والحرمان اكد لها ساهر ووميض في احداقه، وانه لايضرهم ذلك..فالشبع هي كلمة سحرية للدفء.ثم طلب منها وهو يصعد الدرج الى قمة احد الاشجار ان تساعده في لقف الثمار الساقطة. جمعت بعضا منها ووضعتها في قفتها، وهي تلملم صدأ الكلمات وتملؤها بروحها الجريحة للشوق الوحيد اليه. امواج من العنفوان لتهشيم روائع الطبيعة هو الانسان. ضعيف هو في مواجهة قوة الاشتهاء وانهيار النفس التي تعج بالرغبات والغرائز. تفحصها ساهر من اعلى درجات السلم وابتسم حين رأها تصغر امامه وهي واقفة بالقرب منه. لايوجد تسامي لخفق الدماء في القلوب حين يخص الامر مشاعر الحب والطعام والشراب. اما الارض فهي الذات والانا التي تنطلق من شق بطونها فتنمو كجذور واغصان وارفة تداعب زرقة السماء، وابواب الضياء، ثم تهمس لنور القمر بالعشق والوجد لكل الوجود. بعد ساعات من العمل المرهق نزل ساهر. واستطالت قامته وهو ينهض من الانحناء وهمس لنفسه.. اعشق هذه الارض المعطاء، ولن اتركها حتى دفني في ترابها. فهي جنوني، ورائحة بخور اهلي ونسمات كياني، وسأظل ارفرف فوق انفاسها حتى نسيان كل قهري الذي لايراه الآخرون. ساهمة كانت عيون ملاذ وهي ترى انشغاله عنها. وضعت حملها الثقيل داخل قفة الخوص المعلقة في ذراعها. ذاكرتها تتواصل هناك بعيدا حيث الربوع الخضر والجبال. غائرة في صدرها براعم الزهور رغم حروفها الباهتة. تسمع احلامها كل ليلة وهي تهتف بها عودي. فيتغير اليأس الى كرامة فوق اثواب الحداد. مسدت ملابسها المتهدلة القديمة.وهي من اثواب رند التي ازال الزمن الوانها. لجمت خوفها حين دارت مخيلتها حول رويد. قلبها الصغير يتلوى كالحلزون داخل الضمير المتعقد حين تنصهر الذات تحت اضطهاد الآخرين. صغيرة هي لا ام لها تلوذ بها. وحيدة هي ، والمشكلة اكبر منها. والدها ضعيف حطمته الكوارث لاتستطيع ايلامه اكثر. تذوي قوتها. كالطفلة المنكسرة في انوثة مبكرة يشلها زحف الرجولة وعجزها في

المواجهة. جسدها الصغير يرتجف كلما مر خياله ببالها. وسؤال يدور كيف تبعد هذا الحيوان الشرس عنها..ووحشية قوته؟ كالثور هو. وهي بذراعيها الواهنتين وضعفها وخوفها . لسانها يجف في داخله الصراخ. وساقيها المرتخيتان بخواء روحها المشمئزة منه. تقترب اكثر من النازل الصاعد ساهر كأنها تنشد الحماية. فيتفتح فؤادها لرعشة لذيذة، كأنما تتمنى الولوج الى عالمه، بدخولها ملتفة داخل جسده هو. ولكنه يبعدها برفق وابصاره تلاحق رند. تفتح في وجدانها نافذة للكلمات الدافئة علها تشده اليها فهي لا تفهم لماذا يبعدها؟ تستجدي لمسة اصابعه، رائحة رجولته. وفي لحظات تشب فيها لواعج تفتش عن الانطفاء. تستجمع انفاسها وهنا وتهدهد الدفء المنبعث من نهديها حين تلامس كتفه برفق. ترسم ابتسامتها في نظرات وادعة وهي تهمس برقة طفولية معتذرة عن تصادمها معه. وتحاول الاختباء داخل قوقعة النشوة المستترة برداء الوجل. تريده كالشبق حين يعشعش داخل احشاء الصخور المبللة بمياه النهر الساري نحو مصيره. يجرفها حزن وهو يبعدها برفق. تدفن ارتعاشاتها. كيف يكون ويستمر الوجود حين تتدفق دموع العاطفة بدونه. كأن يأسها رحلة الى الاسفل تصلها بالارض الباردة تحت اقدامها. فتخمد ابتسامتها، وتعود الى واقعها المرير المقطوع من كل الجذور والمشتعل بالسراب، والفراغ، والعدم. تحس كأنما هناك من يستغفلها، فتجزع للخواء القاحل في صحراء كينونتها، السارحة في تيهان السهوب، وثلوج الجبال الشاهقة القابعة فوق وديان الغابات. وهبوب رياح تداعب حقول القمح الذهبية المتفتحة وقت الحصاد. متى تعود الجراح المتقيحة نحو اخضرار الشفاء الحلو المذاق؟ للجوز، والكستناء، واللوز، والتين، وقطاف الرمان والتفاح؟ متى تعود هي الى نسمات الصباح، والقطرات العطرية لأمطار الربيع؟ متى تعود الى موسيقى الشلالات الدفقة، وقوس قزح في نثار رذاذها. ارتفع صوت لناي يعزف. كان هينا خفيفا واطيا يتدحرج بين القاطفين بخجل من فقرهم.. وحنين الى سعادة لايمكن الوصول اليها. وشوق الى شيء جميل نظيف يتحول الى حزن مجهول مطلق بواقع مر. مع امتداد نغمات الناي..تحوك افكارها كغلالة. حزينة هي رغم كونها صبية صغيرة متفتحة. حزينة هي رغم هشهشة اوراق الشجر وتلاعب سعف النخيل. تعب وكدح واستغلال هي حياتها. وارتفع صوت احدهم يغني مع صوت الناي..متى..نحن البؤساء سنطوي اشرعة قواربنا ونرسو الى ميناء الاحباب؟ ..متى تعود الى شفاهنا الكلمة السرية التي لن نبوح بها. كلمة الالهه حين ارسلت قوانين الحق على يد حمورابي ومفتاحها..المدنية والمكان والذكريات؟. ايتها الاساطير العريقة بالتراث اما آن لك الآخذ بأيدينا نحو ما نطمح اليه؟.

قطفت ملاذ الثمرات الصفراء وهي تترك الخضراء للايام القادمة، ثم مالت بحملها نحو اقفاص القصب حيث تجمع. شاهدت رند وهي تتحدث مع رافد، وتساعده في جمع ما سقط على الارض من الليمون وهي تتحاشا جهدها نظراته. سمعت ساهر خلفها وقد تغير صوته، خنقته بحة غريبة. رأته وهو يسرع نحو رند ليحتل مكانها في تحميل الصناديق فوق سيارة البيك آب المستعدة للانطلاق الى البقالين في اسواق البصرة. ابعدها برفق عن رافد وهو يبادلها النظرات. غضت رند ابصارها. منذ الامس لاتعرف ما بها؟ شيء يناجي وجدانها. عينا ساهر المعفرتان بغشاء من الدموع تناديان روحها بصمت. ارتعشت، ارتجفت، ضعفت ساقاها، بشفافية فاضت عواطفها. سابقا كانت تسيطر وتستعيد انفاسها بسرعة.. اما الآن فهي تريده. اقتربت منه اكثر. كالجاذبية لافكاك منها تتدفق نحو اعماقها، وهديل شفيف، وبوح في احداقها، تجعله يمر بأصابعه بأرتباك فوق ظهرها وهو يلملم جدائل شعرها. تتسارع لسعات ايقاع قلبها. زنابق افراح ورقصة، تهلل لبشائر توقد اندفاعاته. تدنو منه اكثر..كحلم رائع امسك ساهر بالمحبة البيضاء. كورود اشجار الخوخ حين تزهر. اولجت اصابعها داخل اصابعه بصرخة اشتياق. تشبث بها. فسالت اصابعه ليونة مخضبة بلمسات خفيفة كألاثير. ترف يرفرف نحو جسديهما ويلفهما بالتيه الذي شق نفسيهما معا. منك ولدت الابواب المفتوحة نحو الضياء. انا هو من يريد العبور نحوك. ايتها الحقيقة.. ولع العمر.. النشوة المشتهاة بها تتسع الاماني..متى؟ تلف السنين ذراعي حول خصرك المستدير نحوي، فتوقظ في الجسد الانبثاق. ترفع رند ذراعيها الى اقفاص البرتقال تعدل وضعها في السيارة.. يضع يده تحتهما قرب دفء ثديها النافر تحت اصابعه، فيذوب كل جسده اشتهاء.

لمح رافد اللمسات الرقيقة ليد ساهر وهي تتخفى فوق جسد رند. فسرح الوجع فوق فؤاده الضيق والتعب. ورياح كنصل السكين تجول في ازقة صدره. وبحركة سريعة اسقط كل ما يحمل من ثمار البرتقال. تدحرجت بعضها

وتشقق البعض الآخر، والعصير يسيل منها، كالحياة تذوي قطرة بعد اخرى وعصارات داخل سيلان الموت. تراكض الصغار يجمعون التبعثر وهم يتصايحون ومعهم ساهر ورند وملاذ وفرات وهو يجول بينهم صائحا:
- هناك .. هناك وحدة ثانية.
ثم يركض لالتقاطها وحملها الى ساهر. في تلك الدقائق وصلهم صوت ام ساهر القادمة وهي تحمل اواني الطعام تساعدها ام حسن الاعرج وام كاصد. رفعت ام حسن الاعرج فوطتها. وشمرت ام كاصد عن ساعدها. وتقاطر الاطفال حولهن لملء الاواني بالرز واللبن الرائب طعاما للحاضرين. سارعت رند لمساعدتهن في توزيع الاكل. مد ساهر جذعه نحو الامام وهو يحمل قفص البرتقال تعاونه ملاذ، ووضعه فوق الاقفاص الاخرى داخل السيارة. ورافد يراقب كل ذلك بدقة لايفوته شيء. وفجأة لمعت في خاطره فكرة حين لاحظ نظرات الوله الى ساهر والتي ترمقه بها ملاذ. فأقترب منها وهو يحمل اناء الرز وقال:
- الله يساعدج.. تعبتي اليوم.
قالت وخوف غامض في عينيها، كالطريدة وهي تتلافى المطاردين، وتتلوى بين ايادي القانصين:
- آني احب الشغل..الشغل ما يتعبني.
قال وهو يتظاهر بعدم المبالاة، وكأن ما يقوله لايعني له شيئا:
- تحبين الشغل في بيت ابو ساهر..ها؟
قالت بحذر وعدم ثقة:
- بلي.. همه ناس طيبين.
- آني اشوف ساهر يساعدج هواية.. اظن هوا مهتم بيج..
قال ذلك بمعنين للجملة. وبعفوية وطفولة ابنة السابعة عشر ظهر الاهتمام والجد على وجهها. وقالت :
- ما ادري صدق هذا الحجي لو جذب... زين لويش انت تسأل؟
قال بتكتم وهو يهمس في اذنها:
- لأن هو قال هذا الكلام قبل يومين.
فرحت .لمعة قفزت من عينيها بأشراق. وقالت:
- احلف.
قال:
- والله العظيم... يعني قابل كاعد اجذب عليج.
توقفت قليلا عن ازدرار الطعام. انها تعرف انه لئيم. ولكنها في تلك اللحظات نست ذلك. ولم يتبق في خيالها سوى لهفتها لسماع ما تحب سماعه. وما اهمية انه لئيم ما دام يخبرها بما توده وتريده. قد يكون كاذبا .. ولكن لماذا يكذب؟ وما هي مصلحته في ما يقوله لها؟ ابعدت بسرعة الفكرة عن بالها. وطغت فرحتها الطفولية على كل افكارها. وامتلأت بذلك الكسل اللذيذ في سماع ما نحبه وما نرغب به. فتراخى حذرها. رغم ان الكثير من الشبهات تحوم حوله. خصوصا في تعامله مع خطيبته. وحين يلومها على كل كبيرة وصغيرة.فذكاءه متمركز في ايجاد العيوب لأنتقادها في غيابها وحضورها. انه نوع من الرجال الذين بهذه الطريقة يصلون الى اهدافهم ودلك بوضع الآخرين في دفاع المستمر عن نفسهم.اما هو فيتملص بسهولة وينزلق عبر الحدث. وهي كثير ما تحدثت مع رند حول هذا الموضوع. استمر رافد بالكلام وهو سعيد بكشفه لحقيقة مشاعرها اتجاه ساهر :
- بس هو من نوع الناس اللي ما يكشفون مشاعرهم.
قالت بتعجب وهي تشغل نفسها بالطعام وتعاود تناوله ببطء:
- لويش؟
حرك الملعقة ثم لعقها متلذذا بما يأكله ويشعر بنشوة التلاعب بمشاعرها:
- لأن هو خجول وكتوم .
اسندت جذعها الى النخلة وهي تجلس متربعة فوق الحشائش وعينيها خلف ساهر المشغول بالحديث مع ابيه عن اجور العاملين وقالت:

- زين.. يعني شسوي؟
قال والخبث يخفيه بمهارة فوق قناع الجد:
- لازم تشجعينه حتى يصارحج. لأن تعرفين الرياجيل ما يعجبهم الركض ورا النسوان. الرجال يفضل المرا اللي تحبه وتركض ورا..المهم ان تتقربين منه اكثر. وبعدين تلمحين بالكلمات والاشارات حتى يعرف انتي تحبينه وتصير عنده الشجاعة للاعتراف بحبه.
الانتفاض على الضعف وتوهج الارادة. وبريق، وشعاع من الفرح والسرور والارتياح طافت فوق لمحات وجهها وشعت فزادت من جمال عينيها الخضراوين واشعلت الغيرة في قلب رافد..ماذا يحببن في ساهر؟ ان النساء غريبات ما الذي يجعلهن مغرمات به بهذا الشكل؟ فتاة مثل رند او ملاذ ما الذي يجذبهن في ساهر؟ نهض واقفا وهو يعدل من شعره الاسود الكثيف ومن سترته فوق ثيابه. ثم ابتعد ليقترب من رند. كانت تلم الاواني بمهارة وتصفها لتذهب بها الى النهر للغسل. فاجأها حضوره فأبتسمت له بترحاب قائلة:
- انت جوعان؟
ابتسم وملامح من الهدوء المصطنع فوق وجهه. لو يستطيع ان يحرك الشكوك في اعماقها. مد يده يساعدها بسكون وكأن هناك ما يلجمه. امامها تصبح شخصيته سطحية وضعيفة، كأنه خرقة. تماسك بقوة وهو يشد على ما يجمعه من اواني. شيء يشله ويوقفه عند حده. يحاول ان يلملم نفسه. ربما في يوم ما سوف يقضي على هذا الضعف. فهناك شخص آخر داخله اقوى يحاول التحرر من العقد النفسية. يجب عليه اولا التخلص من الكراهية والغيرة. هو ينشد الاحترام والاستقرار لروحه المتقلبة سمع صوتها:
- شبيك رافد؟
كم يحسدها على قوتها ويتمنى لو يملك مثلها قوة الصراحة قال:
- مرات احس آني محتاج اختلي بنفسي وابتعد عن الناس.
- كل انسان يحتاج الى اهتمام الآخرين. بس لازم يكون كفء للحب والاحترام.
لو يستطيع ان يهز ثقتها بالآخرين ان يزرع الشك فيها. سيكون ذلك جواز مرور الى زمن الاحداث ومستقبل للسيطرة ومسك زمام لأمور يود لها الحدوث..اي ناس هي تتحدث عنهم..هؤلاء الشيوخ القابعين هنا منذ الوف السنين لايتحرك عقلهم للزمن الحاضر والمستقبل، لايعرفون غير شيخ العشيرة مالك واسعار المواد الغذائية؟ اسعار الخرفان واسعار التمر والعنب والسكر والقمح. مجالسهم خيوط متعاكسة متشابكة كشبكة العنكبوت، لايعرف لها بداية ولا نهاية وهم يسبحون لثقوب الامل في الحصول على رضى تاجر لشراء خروف او بعض الخضار. وجذورهم أجساد تتدلى ارجلها كسلا وكل احلامهم مضاجعة امرأة اثناء الليل والهروب من هباب الشموع وسط عواصف الحياة. أي ناس تتحدث هي عنهم. شيوخ يريدون للدنيا ان تأتي لهم دون ان يحركوا اصابع اقامهم المتربة. وعقولهم مخزونة بسموم التقاليد المتوارثة منذ اسوار بابل وآشور. اناس لاتوشوش في اغصان انفسهم أي رغبة او طموح نحو الافضل. رفع صوته قائلا:
- على منو كاعدة تحجين..منو همه الشباب؟ صارم لو رويد لو هذا المأفون ساهر اللي يركض ورا ملاذ.
سكت بعد ان اسقط جملته الاخيرة متعمدا وهو يحاول ان يلاحظ رد فعلها. اصفرار على ملامحها. قبضة فراغ للتساؤلات. انسلت خيوط الكآبه وبدأت تلف قسماتها بالانكسارات. قلبها ركبه الهلع فجأة، كما لو انه وثب من سكون الفرح الى دوران دولاب العشرين سنة هو كل عمرها. وحش اسطوري اكل كل ما خزنته من محبة. هي جملة واحدة ولكنها كقذيفة مدفع دمرت كل موازينها. جملة دمرت كل ما بناه الآخرون في نفسها من ثقة وود. وجعل مشاعرها كرات مهشمة متدحرجة نحو اللاشيء كالفقاعات. لماذا يقتل الفرح بهذه السرعة؟ ثمة صراخ صامت مفزع عوى في سماء عشقها وهو يغرب فجأة. لايسمع احد هديره. لايراه الاخرون رغم دويه داخل اغوارها. الشك، وفقدان الثقة..ان يضحك الآخرون علينا..ان يستهزىء شخص ما بمشاعرنا.. هو ذلك الشيء الذي يلتهم كل ما امامه دون ان يختفي. يبقى معلقا مرا ثابتا فوق صدور الذين يعيشونه. كالثعبان الاعمى يزحف ببطء بين تلافيف الاغشية الرمادية لتعرجات الدماغ. التفتت نحوه بتمهل وقالت:
- شنو قصدك؟ ساهر يتراكض ورا ملاذ؟

نوافذ معتمة تفتحت في صدره. لقد اصاب الهدف. فعل فعلته بعدم اهتمام وبسكون. واستمر يسير على الطريق المعطوب الذي فتحه نحو زمان الالم والصمم. لقد زرع بذورا لموت شيء نظيف جميل وصافي. والهدف هو وضع الحواجز لمنع الاستمرار فيه. اهتز وهو يرى امل الفوز على غريمه وقال:
- يعني ما تعرفين؟ ظنيت ساهر يمكن سولفلج على غرامه بملاذ، فهو دائما يحجيلج على مشاكله، ويستشيرج بكل شيء. شفتي هذولة همة الناس اللي قبل شوية جنتي تسولفين بيهم. كلهم ناس خائرين العزيمة وما يفكرون بغير الفلوس والسفر للخارج. شوفي الاطفال شلون الجهل تفشى بينهم، ماكو لامدارس ولا علم. بس جهل وامية وعميان عيون.. شوفي خطيبتي رغم جمالها ما تفكر بغير ثوب جديد تشتريه.كلهم صايرين مثل المجادي. وين كبرياؤهم. وين راحت انفتهم واباؤهم؟ كل احاديثهم بس عن الماضي وعن امجادهم وشجاعات ايام زمان.. وكلها من صنع الاساطير.
قاطعته رند بحدة.. وقد تبخرت كل شفقتها على الآخرين:
- اللوم مو عليهم.. اللوم على الزمن اللي نعيشة واللي وصلهم للحالة هذي. ومن زمن الحرب ماتت كل طموحاتهم. هذي هي نتيجة للحروب والحصار. اتريدهم يفكرون بالازهار والحدائق وروائح العطور.. انت ما كاعد تشوف همه ما بقى الهم شيء غير الكلمات يسولف بيها الشيوخ اللي عاشوا سنين العز. جيلنا ما بقى له غير القهر والتعب والمذلة.
رنت كلمات ساهر في مخيلتها. في كل مكان العالم مقسوم الى المسيطرين والمسيطر عليهم. اغتاظت رند. سحب تلتهم كبدها. اجل في كل مكان في الدنيا هناك الاقوياء الذين يغلبون، وهناك الضعفاء المغلوبون على امرهم والذين لايستطيعون ادارة الدفة لتصبح في صفهم. القهر يسيطر كالجمر ويسري في عظامها. تصبه في غضبها على ما يقوله رافد، رغم قناعتها بواقعية ما يقول. فهو مس مواجع الاشياء والاحداث. تراقب ساهر وهو يساعد ابيه في توزيع الاجور على كل العاملين. ثم تنقل احداقها نحو ملاذ الجالسة وحيدة تحت النخلة. شيء ما في نظراتها نحو ساهر.. اجل شيء ما تفهمه المرأة، شيء غامض جعل رند تشعر انها في صف المهزومين وليست في صف الناجحين الاشداء.. ابصار ملاذ اوقدت اشارة حمراء في غيم عيونها هي.. فقد كانت لاتحيد عن ساهر..وفي حقولها الخضراء رأت رند النداء الازلي للانثى حين تطلب الذكر. اوقفت بقوة عارمة مشاعرها، وتحولت بضيق تنظر الى ام كاصد الراكعة قرب النهر تغسل الاواني وفرات الى جانبها يساعدها. وهي تحتضنه وتقبله بين حين وآخر. قامت رند وابتعدت عن رافد بصمت واتجهت نحو فرات الذي اسرع يركض نحوها. فمدت له ذراعيها وامسكت به وهو غارق في الضحك والكلمات تتعثر على لسانه:
- رند .. رند.. شوفي بيبيتي شلون انشقت عبايتها من ورا.
لم تضحك رند، وانما اقتربت من ام كاصد قائلة:
- تعالى وياي للبيت اخيطها الج.
تلجلجت ام كاصد ولكنها تبعتها بعد تردد قائلة:
- يمة رند الله يخليج ويحفظج..اجي وياج اساعدج بشغل البيت؟
قالت رند:
- تعالي ام كاصد..آني محتاجتلج.. وباجر هم تعالي عاونيني.
كانتا قد وصلتا الى البيت حيث جلستا في باحته، وجاءت رند بالخيط والابرة.ولكن ام كاصد اخذتها منها وبدأت بالخياطة. عندها شرعت رند بالحديث:
- ام كاصد.. البارحة شفتج انت وملاذ بالليل يم المقبرة.. وين رحتن؟
بان الحزن على وجه ام كاصد ونزلت دمعتان، تخطان من النواح على وجهها النحيل مأساتها وهي تقول:
- يمة رند.. انت تعرفين قصة البير.. الناس قالوا شافوا زينب اخت الحسين طلعت الهم منها.. بعد عيني.. آني رحت هناك قلت اترجاها بلكت ترجع لي كاصد سالم غانم.. كعدت هناك آني وملاذ الى ان طلع الفجر.. بيني وبينج ابو كاصد سمع من ناس قالو له كاصد اسير بايران.. قلت بلكت رب العالمين يبشرني صدق هذا الحجي.. ويرجع كاصد سالم.

اغرقت عينا رند بالدموع وقالت:
- الله ينطيج اللي بقلبج يا ام كاصد.. يعني كعدتي هناك جوا المطر وما خفتي من الذياب تجيجيج بنص الليل.. طول الليل وانت كاعدة هناك؟
فقالت ام كاصد وهي تنوح:
- يمة رند.. ليش آني ادري شصاير بالدنيا؟..آني انطي روحي لكاصد لو اعرف يرد لهنا.. والحمد لله.. رب العالمين خلة القوة بقلبي وما خفت.. والبت ملاذ الله يستر عليها جانت وياي.. بس اشكد نطرنة.. ولكن ما شفنا شيء.. ووكت صلاة الفجر رجعنا مبللات.
عدلت ام كاصد من شعرها وفوطتها الغبراء ثم عادت ربطها . فأغتنمت رند هذه اللحظة وقالت:
- زين سويتي اخذت ملاذ وياج.
سكتت ام كاصد قليلا ثم قالت بتذمر:
- ليش هي البت ملاذ راحت وياي لله! .. اجت وياي لأن قالت عندها مراد.. ما اعرف فرد حسبة.. تقول اتريد ترجع هي وابوها لديرتهم، لو صارم يخليهم يروحون.. بس آني اظن مو هاي الحسبة.. هي عندها بقلبها فرد شيء ما تريد احد يعرف بيه.
اغتمت رند من جديد وانخطف لونها وهي تقول:
- ما قالت شنو؟
ردت ام كاصد وقد شعرت بأهتمام رند وحدست ان هناك شيء، فترددت ولكنها قالت بعد برهة:
- بظني تحب واحد.. بس ما قالت منو؟
برودة جعلت رند ترتعش فأسندت ظهرها الى العمود. كان الوقت قد اقترب من الغروب حين انهت ام كاصد اعمالها وتركت رند لوحدها تعد الطعام وقد عاد والدها الى البيت. بعد تقديم الاكل اسرعت رند الى النهر لغسل الاواني. جلست متصلبة على الجرف. كان الاصيل يتوج اطراف سعف النخيل بأطياف الوانه. والشمس تنأى ساحبة خلفها دفء اشعتها. ولجين الماء الفضي يتراقص مع رفيف اجنحة اسراب الطيور المحلقة فوقه، والامواج تترادف مع السريان البطيء لتيار النهر. والافياء تشابك اغصان الشجر وهي تحتضن هفهفة الرياح الهابة مع البرودة. بدأت اضواء الغسق الشفيف تتوهج بالاحمرار، وترسم الوانها فوق غموض المياه. وغابات البساتين تتحرك في رقصة على آفاق السماء الزرقاء العريضة. خلفها السهوب وقد انتشرت عليها النباتات الشوكية والرمال. خفت بعض الحيوانات في ركضات سريعة الى الصيد او مخابئها في جوف الحفر. كانت الطبيعه في اوج جمال الخريف والوانه. فتساقطت الاوراق الخضراء والصفراء والحمراء، وهي تعري الاغصان برفق نحوحضن الارض الرطبة. والهواء يدفع بعضها بدوامات صغيرة تتلاشى بعد حين راكدة بأستكانة وصمت. الهدوء لايرافقه سوى اصوات الحمام ونقيق الضفادع ونعيق الغربان ونعيب بوم من غور اعماق الايكة على الضفة الثانية للنهر. وقد استيقظت حياة الليل بكل اسرارها. ورند لازالت جالسة على بوابة السكون ويدها فوق خدها بدون حركة، لايهمها مما حولها شيء. مدت يدها الى الماء تغسل الاواني بآليه بليدة ميتة. تحاول التخلص مما تحسه من ألم لفقد آمالها وأحلامها، والتي كانت تملء صباح يومها وتنشر روائح توردها وانبثاقها. مات شيء عزيز عليها. ودعته ودفنته في اعماقها منذ ان سمعت كلمات رافد حول حب ساهر لملاذ.
حركة خلفها جعلتها تجفل وعصفت بكل الهدوء الذي حولها. فأمسكت بأحد الاواني والتفتت مسرعة نحو مصدره وهي ترفعه في الهواء، وقد تشققت شفاهها من برد الهلع. وتخشبت قدماها واهتزت مفاصلها وهي تطير في قفزة الى الوراء اثناء استدارتها لمواجهة ما خلفها.كان هناك شبح لرجل ظهر ببطء من بين الاشجار. كان طويل القامة ناحل البدن واسع العينين تجاوز منتصف الثلاثين من العمر. بدأت بعض خيوط الشيب تتسلل الى رأسه. كان يلبس اسمالا بالية نظيفة تدل على ان صاحبها ليس شحاذا، ولكنه من الذين انزلقت بهم الدنيا من العز الى الفقر. حين شاهد قفزتها والاناء في يدها مرفوعا للدفاع قال بلهفة وسرعة:
- لا تخافين..لاتخافين..

ثم توقف وهو يتراجع الى الخلف رافعا يديه عاليا ليطمئنها وهو مستمر في الكلام:
- لاتخافين يا بنت الناس.. آني صديق..لااريد لك الضرر.. ولن امسك بسوء.
انزلت رند يدها بحذر وبقيت واقفة حيث هي وقالت بصوت عالي وكأنها تود ان يسمعها احد ويأتي لنجدتها:
- منو انت؟ شتريد مني؟
قال وهو ينظر لها بهدوء ويرفع كفه علامة الاستسلام والاستكانة وهو يقول:
- آني ضيف غريب على هذي الديرة.
استنكار سريع غطى قسمات ملامحها وتوقدت عيناها بالتساؤل قائلة:
- اذا جنت رايد فرد شيء.. فلوس ؟ تره آني ما بجيبي ولا بارة تسرقها.. وبيت اهلي قريب..كافي اصرخ واخليهم يلتمون عليك وينجدوني..فأحسن الك لاتقرب مني.
حرك يداه بقوة وبسرعة وهو يقول:
- لا..لا رجاءا..لاتصرخين..صدقيني ما اريد شيء منج..جنت بس اقضي حاجتي بين الاشجار.. وثقي ما راح امد ايدي عليج..بس خليني امشي بطريقي بسلام..آني خايف اكثر منج..فعندي اعداء ما اريدهم يكشفون مكاني هنا.
ما ان اتم كلامه حتى سمعت خطوات مسرعة من جوف البستان ظهر على اثرها ساهر خلف الرجل، وهو يقترب منهما بلهفة وموجها حديثه الى الرجل:
- عادل .. عادل..لويش طلعت من مكانك؟
قال الرجل بخجل واعتذار وبصوت انسان مثقف:
- الحمد لله..يمعود هم زين اجيت حتى تخلصني من الورطة اللي آني بيها..فقد خرجت البالبستان لأتمشى قليلا. وكنت اعتقد ماكو احد هنا وقت الغروب. بس تفاجأت بهاذي الشابة الخايفة مني.
اسرع ساهر يأخذ الاناء من يد رند والاستغراب على وجهها والتساؤل. ولكنه واجهها بنظرة حنان ومحبة آسرة وعيناه تنطقان بما يكنه لها من حب. ارتجفت يدها وبرعم صغير من الهدوء ينشر في كيانها الارتياح لمرآه وهي تقول مستفسرة:
- انت تعرفه يا ساهر.. منو هذا الرجال؟
استدارات للضوء الغارب على صفحة وجه الغريب وساهر وهو يرد عليها:
- اطمئني يارند.. هذا صديقي.. تتذكرين البارحة من اجيتي حتى تساعديني.. كنت اطلبج لخاطره.
ثم اسرع يسحب الرجل بسرعة وهو يقوده الى البيت الطيني المهجور في طرف البستان والذي كان مسكنا لجده في الخمسينات قائلا:
- تعال .. تعال بسرعة قبل ما يشوفك احد من اهل القرية.. مروتك يامعود لا تطلع هالشكل مرة ثانية.
ثم وبملامح الجد وهي تبسط الصرامة على قسماته التفت الى رند قائلا:
- رند عيوني.. بعد ما تخلصين غسل الصحون الله ينطيج تعالي للكوخ وجيبي شوية اكل لضيفنا.
همست وشيء كالندى يسقط على اوراق عطشها للاهتمام والحنو:
- من عيوني الاثنين.
حملت الدفء الذي نما حين ارتوت نظراتها من احداقه، وارتفع بمشاعرها في كل خطوة نحو البيت. لايمكن لعينيه ان تكذب بهذا الشكل.. واذا كان اهتمامه هو فقط لكونها ابنة عمه، فالافضل على الاقل ان تحافظ على صداقته وثقته بها.. احسن من لاشيء. قالت ذلك لنفسها وهي ترجع ببعض الجبن والخضرة، وقليلا من اللبن.
حين دخلت الصريفة القديمة، كان ساهر والضيف يتهامسان فيما بينهما . نهض ساهر حال وصولها واخذ منها الطعام وطلب منها الجلوس على احد الكراسي القديمة في الزاوية والذي جاء به من مخزن بيتهم، كذلك سجادة وفراش ووسائد مستندة الى الجدار وبعض الاغطية . جلس الضيف فوق الفراش. وضع ساهر الطعام امامه وهو يقول:
- تره رند بنت عمي وصديقتي وكل اسراري عندها فلا تخاف.

ثم التفت الى رند قائلا:
- صديقي عادل طبيب يشتغل بالبصرة.. اعرفه من زمان ما كنت في كلية الهندسة..عنده هسه مشكلة عويصة خلته ينهزم من بيته ويختفي هنا..وانشاالله تنحل بسرعة وبرجع لشغله.. انسان طيب محتاج لمساعدتنا.
بجوع التهم الضيف الطعام. وقال محاذرا ان يفرط ساهر في الكلام امام رند:
- خوش جبن ماذقت مثله من سنين..اكيد من صنع اديج.
قالت بهمس وخجل:
- الجبن ماينرادله شغل هواية.. وما دام احنه شباب نقدر نتصرف ونساعد ليش لا.. والشغل مابي عيب هل الايام.
تذوق الجبن بمتعة اكثر ثم تحول الى ساهر:
- عندك حظ.. مثل هذا الاكل حاليا يساوي ثروة.
ثم استمر بألم:
- تعرف ياساهر قبل ثلاثة او اربعة سنين وقت الحرب الثانية وصل الكثير من الناس حافة الفقر والجوع. وبسبب نقص الغذاء انتشرت امراض فقر الدم بحيث وصلت ببعض الاطفال للموت.. في البصرة جنت ازور بعض العوائل واحاول جهدي مساعدتهم ماديا.
سكت قليلا ليأخذ نفسه..كيف يخبرهم عن الصغار الذين كانوا يذوون امام ذويهم على اعمدة برودة الشتاء القارصة والامراض..في لهاث النهايات..ودموع تسترخي على خدود الامهات..وامراض السرطانات وهي تأكل نصف العراقيين..انها سموم الحرب تلم حصادها.. شعب مفزوع بالشظايا والانفجارات. وكينونةلأناس اسودت احجار بيوتهم من الكيمياويات التي ضربوا بها.. وسياسة لاتعرف الرحمة، تجبرهم على شد الاحزمة على البطون الخاوية، وليقدموا قرابين لضحايا تموت في تصحر الرمال. عاود الكلام من جديد:
- اذكر منهم عائلة واحد مدرس في مدرسة ابتدائية. تذمر مرة من الوضع الذي يعانون منه. وبعد ايام جاءته ورقة فصله من العمل. كانت لديه زوجة وطفل عمره خمسة سنوات. بعد فصله ظل يدور على شغل من باب وزارة الى ثانية. وهوا يترجى بلكت يرجعوه لوظيفته. ولكنه لم يفلح. اضطر في النهاية الى حمل قفة من القش وقام يبيع جكاير. محصوله منها كان كفافا، في هذا الوقت مرض ابنه باللوكيميا. باع كل ما موجود بالبيت من اثاث وادوات قطعة ورا قطعة. ولم يبقى عنده غير منقلة يشعلها بتكسير وجمع الاغصان الجافة من الشوارع. انقطع عنهم المي الصافي فقاموا يحصلون عليه من حنفية الجيران. مرض ابنهم هشام خلاهم ينزعون حتى شبابيك البيت بعدها ارضية البيت من الكاشي باعوها لدفع اجور العلاج. وهو في هذي الحالة اجاني للعيادة وطلب مني مشورة. وقص علي قصته. ما اخذت منه اجور العيادة واعطيته دوا مجاني واصريت عليه ان يأخذه فهو ليس حسنة وانما دين يدفعه لي حين تتحسن اوضاعه. زرته بعد مدة في بيته لمعاينة الطفل النحيل الهش والذي لم يستطع حمله الي.كان البيت فارغا من الاثاث ارضيته طينية فرشوا فوقها فراش له ولزوجته وللطفل. حاولت الاتصال ببعض المنظمات الخيرية وحصلت منهم على مبلغ من المال لمساعدتهم. ولكنها لم تكن كافية. مات الطفل في احد الايام الشتوية. قبل مرضه كان يضج بالحياة والجمال والمرح والضحك. وبعد مرضه بسنة ضمر جسده وضعف الى درجة اصبح وزنه عدة كيلوات فقط. وفي نهاية ايامه صار يئن كنواء القطط، انين خافت مثل نسمات باردة لأيام خريفية.وهكذا انتهى الطفل قبل ان يبدأحياته. لفوه بخرقة بيضة وقالوا هذا هو كفنه. بالضبط مثل سقط المتاع.. اصبح هذا الطفل بكل ما كان يحمل من احلام للمستقبل وافراح حملتها ولادته. مددوه بصندوق صغير وخرجوا بيه الى المقبرة. ماشيعه احد بس آني وابوه وامه. سارا بأثيابهما الرثة والاملاق يثقلهما. كان نعل الاب مربوط بخيط حتى لايسقط وكان قد انفصل فبينت اصابعه من فوهته. لم يبك الاب ولكن الام تركت دموعها تسيل بغزارة ومرارة. دفنه الدفان. حينها كعدت الام ومعها الاب قرب القبر لحظتها بس تفجرت دموعه واخذ ينتحب بصوت عالي. كان الاب ينوح على عجزه وفقره. والام قامت تلطم وجهها بحرقة وهي تعوي مثل الحيوان الجريح، وتنود من جهه الى ثانية. خليتهم بعد ان وضعت مبلغ من الفلوس في جيب الاب. لأني اعرف انهم لايأكلون سوي وجبة واحدة من التمن ويه قليل من الحليب. فقد كان

الاب رجل ابي لايقبل بالصدقة الابصعوبة. ورغم تكرم بعض الاصدقاء والاقرباء عليه لمات جوعا. لم يبقى من الصغير سوى اشياءه تحتضنها الام الى صدرها وهي تبكي مأساتها وقهرها. في اليوم التالي لموته ، غمرتني حسرة وكآبة. كنت اشوف الامور بحدة اشد. الامور المتعلقة بي، والثانية المتعلقة بالآخرين. وتذكرت ذاك الكائن الصغير والحب الذي كان يربطه بأبيه وامه. ذاك الود الذي لايشبهه شيء. ما ادري مالذي دهاني، ربما الوحدة والحزن والكرب. وفرد شيء لااستطيع تسميته او تحديده، ولا افهم كنهه دفعني لزيارة قبره. كنت اسير دون ان ابرر حق تلك الزيارة اصلا. وقفت امامه، اتمعن في تربته الطرية الرطبة التي سقتها امطار الامس. وقد نمت فوقها سدرة فارعة تساقطت اوراق خريفها في كل مكان . اصابتني حالة من الرهبة والخوف، وكأنما هناك شيء يشدني الى اعماقها. كأن القبر يدعوني. وكنت ارى امامي خياله واضحا.. قدميه الصغيرتين.. رجليه النحيلتين الطريفتين.. يديه البضتين حين كان طفلا. كنت ارى بشكل مريع من الوضوح وجهه وعينيه الواسعتين السوداوين تنظران الي من تحت التراب وقد اتسعتا من الفزع وهي تستنجد بي وتطلب الخلاص. وقفت وكأني مشلول لا استطيع التحرك .. حينها سمعت بكاءا خافتا يخرج من اعماق الارض الدافئة.. التفت مذعورا كانت هناك امه خلفي واقفة تبكي بصمت عذابها.

رند وساهر يصغيين متخيلين عويل الام من بعيد، يصافح كل الايادي الممدودة . ويضمخ احضان السامعين. لقد تهشمت عتبات استند عليها امثالهم . اما الصغار فهم يخافون الاندثار في ممرات اعمارهم الغضة، تزاحمهم عليها صفارات الانذار. مسحت رند دمعة طفرت من تحت اهدابها والتفتت الى عادل بعد سكوته الكئيب وقالت:

- بعدين شصار بيهم؟

قال عادل بحزن:

- ما اعرف لم يتصلوا بي بعد ذلك..فشغلي يجعلني على احتكاك بيهم وقت احتياجهم لمساعدتي بعدها تنقطع اخبارهم. ومآسي الناس تحز في نفسي كثيرا.. خصوصا وانا ايضا عانيت في طفولتي الفقر والاملاق. لذا اعرف ما يعني عجز الانسان عن اطعام واكساء نفسه او السكن كما يليق به.. وكثير ما فكرت ان الانسان قد يكون سيد الكون، ولكن مع الاسف نسبة كبيرة منهم على وجه هذه الارض لايحصلون على مايستحقونه. واحيانا الحيوان يحوز على العناية اكثر مما ينالونه. واكبر مثال هو حياتي انا التي كانت كلها عوز وفاقة. وانا احدثكم عنها كي تعرفوني اكثر.. فأنتم اصدقائي الوحيدين الذين اثق بهم. منذ صغري عشت وحيدا مع والدتي التي اخبرتني ان والدي توفي قبل ولادتي بعدة اشهر. وانها منذ ذلك الحين اعتمدت على نفسها في تأمين عيشها والانفاق علي. لسبب ما قاطعها اهلها وانقطعت اخبارهم عنها. عملت خادمة بأجر زهيد لايسد سوى ايجار غرفة صغيرة فوق السطوح والتي كنا نعيش فيها. اما الحاجات الاخرى فأكثرها كانت تأتينا من المحسنين او من اصحاب البيت الذي كانت تخدمه امي. اذكر انها كانت تحملني تحت عباءتها وتذهب بي الى عملها، ثم تتركني في كراج الدار قرب السيارة، وبين حين وآخر تطل علي لأطعامي او للأطمئنان علي. في الشتاء كانت تتركني العب في حديقتهم تحت الشمس حتى يقترب العصر ثم نعود الى غرفتنا الصغيرة. صدقوني لا تستطيع الكلمات وصف شعور العوز والفاقة والحرمان. ومنذ ان وعيت لاحظت ان لااقارب لنا لا عم ولا خال ولا أي احد يعرفنا. فهمت ان امي تبالغ في كتمان امرها عن الآخرين وكأنها تتخفى، فهي تمنعني من محادثة الغرباء، وتخفي اسمها ومن هي ومن اين أتت؟ استفسرت مرة وكان عمري سبعة اعوام لماذا تفعل ذلك؟ قالت بتكتم ان لدى والدك اعداء يضمرون لنا الشر، حتى بعد وفاته، وكي احميك واحمي نفسي علينا التستر.لازالت صورتها امامي، فهي لم تخرج ابدا قبل ان تتحجب فلا يظهر منها سوى عينيها. لم اعرف السبب الا قبل وفاتها بقليل. حيث وضحت لي السر الذي بقيت محتفظة به طوال حياتها.

سكت قليلا، وحدق في فراغ الغرفة وبابها. كأنه تعب من عبور مسافات الذاكرة. ثم التفت الى العيون الفضولية وهي تراقبه بأحترام، وتشاركه وكأنما تلتقط بتلات الحروف بعمق المشاعر المتصالبة مع ثقوب الحزن الذي يغمره وهو يتحدث عن نفسه. صور الناس والاصدقاء والمعارف وخيرهم وشرهم يدور في رقصة الرغبات للوصول الى الافضل، والبحث عن سؤال الاقتناع بما يحدث يرن في الهواء ويفترش بساط الكلمات مرة بعد مرة. قال:

- اعتقد ان هذا الامر لايهمكما.. وقد احدثكما عنه في يوم ما.. على كل حال اعود الى طفولتي الشقية. بعد ان بلغت السابعة من عمري. بدلا من ان تأخذني الى المدرسة كبقية الاطفال، امسكت بيدي وقادتني الى السوق ثم وضعت الزنبيل على كتفي ورفعت اصبعها وبكلمات حازمة ابلغتني بأن علي الآن ان اعمل كي اعيل نفسي. وشغلي سيكون حمل الاحمال عن الناس الذين يرغبون بالتسوق، واستلام اجر عنه. فهمت ان علي ان اكون حمالا. كم عصر الالم قلبي الصغير. في اول يوم ذهبت فيه الى السوق جلست في ركنه خائفا. كنت ابكي عجزي وغربتي وعدم معرفتي بأساليب كسب الناس كي يسخروني لخدمتهم. كان السوق مملوءا بألازبال والاوراق، حتى امسى كالحا نتنا من كثرة الروائح الكريهة. وما ان فتح البقالون دكاكينهم حتى حملوا المكانس لتنظيف اوساخ الامس ودفعها الى وسط السوق الى المجاري المفتوحة. من حسن حظي ان الوقت كان صيفا. وما زلت اذكره بوضوح تام كأنه حدث امس. كان الوقت مبكرا والسوق لايزال خاليا من المشترين.كنت البس بلوزة خفيفة قديمة اغبر لونها وشورت قصير فوق الركبتين. جلست متكئا الى الجدار الذي يفصل بين دكانين للخضار. وبقيت كذلك لمدة ساعة والمحيطين بي يظنوني متسولا، فيرمون ببعض الفلسان امامي، جمعتها ووضعتها في جيبي وانا اتململ من برودة الاسفلت تحتي. حينما اقترب مني طفل اذكر ان عمره كان عشر سنوات او اكثر. جلس بجانبي وسألني قائلا:

- انت ليش كاعد هنا؟

قلت بخوف وخجل:

- آني حمال.

قال بأستغراب:

- حمال..؟

ثم نظر الي يتفحصني وقال وهو يهزأ رأسه:

- آني هم حمال ، وأسمي وليد.. بس انت ضعيف وصغير وما تصلح تصير حمال.. الحمالة تعب..ولازم تعرف الطريق حتى ترجع للسوق.

قلت والفزع يأكل قلبي:

- زين الله يخليك تقبل امشي وياك؟

قال:

- زين خل نتعاون آني وانت.. بس انت لويش تريد تشتغل؟

قلت:

- احنه فقرا..وامي تقول لازم تعييش نفسك ..لازم تعتمد على ماتحصل عليه.. العمر يمر والايام تركض ركض.. يمكن اموت لو يصير شيء عليه وتبقى وحدك.. والحياة ما ترحم احد، ولازم الواحد يتعلم من هو صغير شلون يكسب رزقه..

فقد كانت والدتي في خوف دائم. واورثتني فزعها من الموت، ومن البقاء وحيدا في هذه الدنيا. ابتسم حينها وليد عندما سمع كلماتي والتي اعتبرها اكبر من سني. وقال لي:

- آني هم اساعد امي ..لأن ابوي في السجن.

قلت بأستغراب:

- لويش هو بالسجن؟

فقال لي بطفولة وجدية وعمره يكبر امامي:

- لأن هو ضد الحكومة.. قبل ما يسجنونه جان يشتغل عامل بمعمل الجكاير.

سألته بأستغراب:

- بس لويش هو ضد الحكومة؟

قال وكأنه معلم يشرح شيء لتلميذه:

- ابوي ما يحب الاغنياء.. لأن يستغلون الفقرا ويقول الحكومة متفقة وياهم ضدنا.

من اليوم الاول للقائي بوليد لم افارقه. كنا نتعاون في حمل الزنابيل للمتسوقين. هو كان يجد الزبون ثم يصر على ان يؤجرنا نحن الاثنين معا. وامست كلماته ترن دائما في اذني. بعد شهر تعلمت كل اسرار المهنة.. شلون اتحايل على المشترين الى ان يوافقون على استئجاري.. وشلون ادافع عن نفسي اثناء العراك مع الحمالين الآخرين لسبقهم في الحصول على الزبائن. كان وليد اول رجل في حياتي يعلمني دروس الحياة. وكم كنت متلهفا الى اب او اخ اكبر مني احبه واعيش ايامي تحت حمايته. عدة مرات رأيته يدس بعض الاوراق داخل الدكاكين وعندما سألته عنها قال:

- اول احلف ما تكشف هذا السر لأحد..

هززت رأسي وانا متعجب مما يقول فواصل كلامه:

- هذي الاوراق مناشير..ضد الحكومة..

الحقيقة التي فضحها لي ارعبتني فأجفلت وصحت وآني ارتعد:

- لك انت ما تخاف تحبسك الشرطة؟

قال بعدم اهتمام:

- لو حبسوني .. اقدر اشوف ابوي بالسجن.

توقف دكتور عادل عن الكلام ، كأنه يشحذ دربا يسير فيه شبرا شبرا من الذاكرة ومسالكها الغريبة. عطشا لما حدث ويحدث كانت انظار رند وساهر وهما يستمعان له بشغف زرع الفضول اكثر في متاهات حديثه. هام داخل فصول طفولته، حتى نسى وجودهما. وصوته اصبح اكثر حزنا وهو يغور داخل آفاق صدرا التحف الصمت مدى سنوات طوال دون ان يبوح بكل هذا لأحد..ناعمة هي كالحرير اهدابها داعب وعيه د. عادل..تشدانه اليها كي يكمل حديثه. قال وقد اخذ الخفوت يغزل غلالة رقيقة على نبراته:

- مرت اشهر الصيف حتى اجاني وليد في احد الايام وبلغني بأنه بعد اسبوع سوف ينقطع عن السوق لأنه سيداوم في المدرسة. اندهشت وكأني اكتشفت المريخ وقلت:

- تريد تروح للمدرسة ؟ منو زين راح يعاون امك؟

قال:

- ليش انت ما تدري آني بصف الخامس الابتدائي..آني اشتغل ايام العطلة الصيفية بس. بالشتا اروح للمدرسة. وابوي يصر ان اتعلم.. يقول يريدني اصير طبيب لما اكبر.. وعمي يعاون امي وقت دراستي..بس انت ليش ما تروح للمدرسة؟

قلت بخجل وخفوت:

- آني وأمي ماكو احد يساعدنا حتى اروح للمدرسة.

قال باصرار:

- ابوي يكره الاغنياء لأن الحكومة تساعدهم .. وما تساعدنا احنه الفقرا. ويقول لازم نحاسب الحكومة ونأخذ حقنا بيدينا. لأن لازم يكون هنا قانون يحمي الاطفال ويعاونهم حتى يتعلمون ويحسنون من احوالهم.

قلت وانا اقلد اصراره:

- أي لازم..ابوك على حق.. والحكومة ما عدها حق تحبسه..الحكومة ظالمة واحنه لازم نحارب الظلم..لازم كل الناس تتعلم مو بس الاغنياء..بس اريد اعرف الاغنياء شلون صاروا اغنياء..ولويش احنه فقرا؟

جاوبني وقال:

- لو امك اتعلمت من الصغر..جان اتوظفت واخذت راتب من شغلها.. وجان تونست انت بعطلتك مثل كل الاطفال.. لكن الحكومة ما يهمها امرنا وماكو قوانين تحمينا.

قلت وانا اردد كلماته كالببغاء دون ان افهم معناها:

- أي القوانين هي المهمة.

وبمثل فهم الطفولة هذا جان ذعري يزيد يوم بعد يوم..شلون راح أتدبر اموري لما يغيب وليد من السوق.. وشلون احمي نفسي وحدي..هو جان يحميني، وجان يتعارك على مودي ويه الآخرين. وبرغم هاذا خفت اقول

لأمي عن معاناتي، وما جرأت اطلب منها تودیني للمدرسة. وداريت رغبتي القوية. وكتمت اموري، بس صممت بيني وبين نفسي بأني لابد وان احاول بأقرب فرصة مفاتحتها يعني من تكون مرتاحة، حتى ما ترفض. امي جانت دومها من النوع المهموم، وتبجي هواية. ومرات ما تنام بالليل. تبقى تباوع من شباكنا وكأنما راح يدخل علينا احد وهي نايمة. في مثل ها الايام تصير عصبية وما اقدر اقول كلمة جدامها. ولكن ما حدث بعد ايام غير كل شيء . فلأول مرة واجهت شيئا اسمه الموت. ابد ما انسى عصر يوم الجمعة وما صار فيها طول عمري. جانت الشمس وقتها تقترب من الغروب. والبقالون بدأوا بجمع ما تبقى من خضارهم، ورفعوا الصناديق الى داخل دكاكينهم لغلقها وهمه يرمون المواد التالفة الى الزبالة، وجنا احنه الحمالين نتعارك عليها وناخذها الى اهلنا حتى تنطبخ كوجبة طعام. بس بذاك اليوم جان كل شي هادىء لأن خلا السوق حتى من الحمالين. حينها وصل الى السوق رجل غني بيده جنطة تدل على ثقلها. وقف واشار اشارة خفيفة مترفعة الى وليد يريد منه حملها الى بيته. ركض وليد نحوه ورغم ثقل الحقيبة شالها على كتفه وتبعه الى الشارع العام. ركضت آني وراهم وهاجس يمتلكني بأن وليد راح يحتاجني، ونتعاون على حمل الحقيبة حتيوصلها. وقفت على حافة الرصيف، لأن شفت سيارة فارهه جاية من الجهة اليسرى للطريق ما لاحظها وليد وهو يعبر، لأن الحقيبة حجبت رؤيته لتلك الناحية. توسط وليد الشارع وهو يهرول ويحاول يلحق بالرجال. في تلك اللحظات صرخت خلفه بأعلى صوتي احذرا، ولكن صوتي ضاع مع هدير كابح السيارة المسرعة وبعد عدة ثواني طار وليد مع الحقيبة وفلتت ووقعت وانفتح قفلها وتناثرت اشياؤها على الاسفلت وبجانبها وقع وليد.
ركضت نحوه وهو منبطح على الارض. اذكر آني جنت ارتجف .لأن وليد اصبح اقرب الي حتى من امي. هو صديقي الوحيد. جان جسده يرتعش بقوة وكأنما فقد وعيه. ساعدته على الجلوس وانا احاول حمايته من الرجل وقد ارتفع صوته بالسباب وهو يلم ثيابه . نزل صاحب السيارة والظاهر جان شخصية معروفة لأن الرجال اسرع يحيه ويشد على ايده وهو مستمر في شتمنا. اجا شرطي من فرد مكان وهو ايضا جان مهتم بالسايق اكثر من اهتمامه بالحادث لأن اخذ له تحية وصافحه دون ان يلتفت الي او الى وليد. لم يهتم احد بوليد وهو ملقى على الارض لم يهتم احد بي وانا ابجي مفزوع من الحادث ومن الالم على وليد، وبدل من مساعدتنا اخذ الشرطي يتهددنا:
- قواويد..انغولة قوموا، يعني لازم تتعلمون شلون تعبرون الشوارع..همج حيوانات.. ما شفتو السيارة جاية؟
ثم التفت الى السايق وهو يطمأنه:
- ماكو شي سيدنا.. حصل خير.. اغفر الهم هذي الغلطة.. صغار ما يفرقون بين خيرهم وشرهم..ابالسه.
عاود السايق ركوب سيارته، واختفى دون ان يحاسبه احد على الحادثة التي قام بها..لما راح.. اجا الرجال الآخر صاحب الحقيبة وساعدني في انهاض وليد واسناده. وهو يوصيني بأصطحابه الى البيت..وقفته على رجليه وتيار من الهلع جواي.. وبفهم الطفولة حسيت اكو هناك خطأ..لأن مو احنه المسؤولين عن كل ماحدث، وانما السايق هو لازم يتعاقب.. وجان واجب عليه الحذر بالسياقة داخل شوارع المدينة المزدحمة بالاطفال. هو الملام مو احنه.. ولكني سكتت ما قدرت ادافع او اتكلم..ذعري الدائم من الكبار ومن صراخهم ولومهم وشتمهم شلني. كل ما زرعته بيه امي من نعومة اظافري من خوف طفا الى السطح والجم لساني..حتى آني اقتنعت ربما صدق احنه المخطئين..فالصغار على الدوام هم الملامون على كل حال.. وحتى لو صرخت واحتجيت منو راح يسمعني. وشنو اللي جنت احصله غير الضرب..جان ضربوني انا ووليد.. المهم وانا ارفعه عن الارض همست:
- وليد انت تقدر تمشي؟.. تعال اوديك للبيت.
لما سرنا جان صدره يلهث وهو يئن بوهن:
- آخ يابا..راسي يوجعني.
طمنته بأننا راح نوصل الى البيت وانه لم يعد بعيدا. جان يمشي ببطء وهو مستند الى كتفي، و يهمس:
- آخ يوم.. آخ يابا ساعدوني..شوكت نوصل؟

ومن وقفنا يم باب داره ..سقط الى الارض حتى قبل ان ادق على الباب. علا صراخ والدته لما فتحت النا الباب وشاهدته ملقى على الارض. حملته على صدرها وصاحت تطلب مساعدة الجيران، وبسرعة جاءوا بسيارة تاكسي واخذوه الى المستشفى. بقيت جالس قرب باب بيتهم المغلقة وآني انتحب وقد ساد الظلام. و ما قدرت ارجع الى بيتنا قبل ان اشوف وليد واعرف شنو صار بيه . جنت اريد ان اشوف وليد معافى مرة ثانية..ان اطمأن عليه قبل رجوعي. بعد ساعتين عادوا وهم يحملون جثته. جانت هذي الحادثة هي اول وعي لي بالظلم والاضطهاد. اول وعي لي عن وجوب سيادة القانون.. ورغم مرور السنين كلما تذكرت تلك الحظات يشب جواي الالم وتعود المواجع تجتاح روحي..مات..ذهب ..راح حرامات..ما عاد له وجود.. منو قتله؟ لويش ما يمسكون بالجاني ويعاقبونه؟..دولة بلا قانون..دولة فيها حكم القوي على الضعيف..في النهاية سجلت الشرطة الحادثة ضد مجهول. دفنت ثقتي بالناس. دفنت عدالة الحياة..وتذكرت قول امي ان الناس لايرحمون احد.. وعرفت صدقها..شهقت الدموع داخل صدري. تشتت كل عالمي. وفجأة عندما وصلت الى غرفتنا آني وامي قلت الها آني من اليوم ما راح اروح للعمل حمال بالسوق. وآني بدل من هاذا راح أسجل بالمدرسة اصير طبيب بالمستقبل. وكأنما بتحقيقي لحلم وليد اكفر عن ذنوب الآخرين في موته. ما فادها بكاؤها ونواحها وتذمرها من قلة الفلوس عندها لطعامنا فشلون بمصاريف المدرسة. وقفت بوجهها ورحت وحدي في اليوم التالي للمدرسة. طلبوا مني ولي امري. قلت لهم ابوي ميت. قالوا خل امك او احد اقربائك يجي مع شهادة ميلادك. لما رجعت بالليل من شغلها هددتها بأني راح أترك البيت واضيع واشحذ بالازقة. وأنام بالشوارع. وآكل من فضلات الازبال. قلت لها هذا واكثر. خافت. وفي اليوم التالي رافقتني الى المدرسة وبيدها ورقة ميلادي التي كتبتها الها القابلة اثناء ولادتي. حصلت على الكتب من صاحب البيت الذي تعمل عنده.ولما اشتكت من مشاكلها المادية، شغلها العصر لتنظيف عيادته، جان طبيب للعيون. اثناء الليل لما جانت ترجع منهكة جنت اشعر بالذنب لكدحها طول النهار حتى توفر لي ما يلزمني لأنهاء دراستي. شعرت ان علي ان ارد الها جميلها بأن اتفوق على الآخرين حتى تفخر بي. قضيت الابتدائية وآني دائما الاول على صفي.

احيانا جنت اروح في المساء الى العيادة لمساعدتها. جانت الاحاديث هناك تمتعني خصوصا من كبار السن لما يحجون لي عن الدنيا، عن اسباب امتلاك الثروات. عن الدروب الملتوية للمصالح الذاتية. اسباب اندفاعاتها ومايقوم به الفرد ولويش؟ عن مواطن الرغبات والشهوات. عن الخير والشر. ادمنت قراية الكتب وكل ما يوقع جوا ايدي من مجلات. كل ذلك ولد عندي نظرة جديدة لكل ما يحيط بي وللحياة. بدا ضمير يتشكل لي. ومشاعر عطف على المظلومين. بهتت من حجم الشر. وشعرت بالخذلان لكل فشل للخير.جان ضميري يحوطني مثل حصن ضد الاطماع الي اشوف بيها اذية للآخرين. فكنت احكم على الاشياء بحجم الفائدة التي تمنحها للناس. بالاضافة الى تدين والدتي التي كانت ترشدني للتمييز بين كل ما هو سيء وجيد.

في مرحلة التعليم المتوسطة، اشتغلت فراشا في عيادة طبيب العيون الدكتور حكيم ناصر. خصوصا بعد ما اصبحت لي خبرة في طريقة معاملة المرضى واستلام الاجور واسلوب ادخالهم على الدكتور. وظل حلمي الدائم ان اصير طبيب اطفال لما اكبر ملازمني. وجان الدكتور حكيم يشجعني، ويعيرني المجلات العلمية الطبية التي زيدت من غزارة معلوماتي عن الناس والحياة وعللهم. وهذا سهل لي دراستي في كلية الطب في بغداد بداية الثمانينات اثناء حرب ايران.

عدل الدكتور عادل من جلسته فوق الفراش. مكملا حديثه. ومحدقا في فضاء الباب المفتوح امامه. كان الظلام حالكا هناك يزيد من غربته بواسق النخيل. حركة ما في الخارج جعلت ساهر يقفز ويسرع بالخروج. صوتا هامسا. ثم انزاح الضياء عن جسد ساهر يتبعه عمه ابو رند. كان غاضبا. واتجه رأسا الى رند حيث وقفت بخجل وشعور بالذنب. لقد شغلها الحديث عن الانتباه الى ان الوقت قد تأخر . قال ابوها:

- اشكاعدة تسوين هنا يارند؟ البيت مقلوب والشغل هناك ينتظر.

ثم التفت بفضول نحو الضيف وتساءل مستفهما:

- ساهر قال لي انت احد اصدقاءه..منين انت يا ابني؟ ومن ياعشيرة؟

وجه عادل نظراته اولا الى ساهر الواقف بجانب عمه، ثم الى رند وقد اصفر لونها. وسكت يحاسب نفسه.. ماذا..وكيف يجيب؟ عن ضباط الامن؟ عن اهل الاهوار؟ عن مدن الجنوب ولهاثها؟ عن المدن الخربة بدماء الحروب..ام الحصار؟ عن جوع الاطفال، وامراض الكيمياويات..من هو؟ من أي العشائر هو؟ اهو من العشائر الخاسرة.. ام من العشائر الرابحة.. ام من العشائر الغاضبة؟ لايدري سوى انه من شعب العراق.. قال بتوءدة:

- آني من البصرة.

تدارك ساهر الموضوع وهو يطمئن عمه قائلا:

- عادل طبيب وصديقي من ايام الدراسة في الجامعة بالبصرة. عنده شوية مشاكل ، اضطرته للاختباء هنا.

قال ابو رند بشك:

- شنو هي مشاكلك يابني؟

الصدق والصراحة هو سلاح ذو حدين ولكن تجاربه في الحياة هي دائما الجانب الاسلم..فالوضوح يثير الثقة في المقابل وفي وضعه الحالي هو بحاجة الى ثقة واحترام المحيطين به..يجب ان يعرف العم كل شيء ويترك له مجال تقدير الموقف ومدى الخطر الذي يواجهونه نتيجة وجوده بينهم، بعدها يقرر ما عليه ان يفعل. استدار الى ساهر واعتدل في جلسته قائلا:

- آني فعلا صديق ساهر. والمشكلة آني هارب من مطاردة شرطة الامن..وحاليا همه يدورون علي..لويش؟ قبل ما اجاوب على هذا السؤال اقول..عشمي بكرم ضيافتكم جبيرلأن ساهر قص علي الكثير عنك وعن ابيك وما مريتو بيه انت والعائلة من الم ومرارة. هذا هو السبب اللي خلاني اختار بيتكم ملجأ الي.فأنا واثق آني بين اصدقاء يساعدوني ويفهمون وضعي.

سكت برهه ثم استطرد بحزم:

- قبل اسابيع دعاني احد الاصدقاء. قرب مدينة الناصرية. جنت محصل الهم على بعض الادوية الصعبة.عزموني لقضاء سهرة ممتعة يوم الخميس بعدين المبيت عندهم الى يوم الجمعة. ومن عادتهم في بعض الاحيان استقدام بعض فرق الكاولية الى بساتينهم الواسعة زيادة في اللهو والمرح والونسة. حفلتنا استمرت حتى منتصف الليل. وجانت سهرة ممتعة بالفعل.. بعد انفضاض الضيوف وبعد ان نام الجميع واقترب الفجر. داهمتنا فرقة من الامن جانوا يفتشون عن بعض المعارضين.. وحسب ما فهمت انه فعلا جان مختبئ عندهم.. والظاهر ان وشاية من احد اولاد الحلال بلغ عن وجوده. احاطت الشرطة بينا من كل جهة. بس آني فلحت في الهرب واختباءت بالاسطبل بين الحيوانات. وماشافني احد وآني قابع بين السروج وتحتها. رجال الامن جانوا مشغولين بجمع اهل البيت. وبعد برهه سمعت الصياح والرصاص والبكاء والنحيب..ما اعرف اللي صار بالضبط لأني ما قدرت اشوف الوقائع بس اعتقد انهم قتلوا الجميع. المصيبة احاطت بي لما شعلوا النيران في البيوت والاشجار والبساتين المحيطة. جان الدخان من الكثافة بحيث كل الحيوانات قامت تفر في كل الاتجاهات. اثناء ركض وحدة من الدواب اختبئت ومشيت الى جانبها ومعها. مع الاسف واحد منهم لمحني وعرفني. فصاح وراي. وتعالى ازيز الرصاص داير ما دايري. فاضطريت الدرمي نفسي الدالنهر. لحقني اثنين من افراد الشرطة وسبحو وراي. بس آني تركت نفسي للتيار وجان مؤاتيا، فأسرع بي اكثر. من حسن حظي آني احسن السباحة بشكل جيد ولهذا ما اتمكنو من اللحاق بي. وهشكل نجوت.

بان الاهتمام على وجه ابو رند وقال:

- يعني همه عرفوا منو انت؟

- اعتقد ذلك لأن واحد منهم صاح بصوت عالي..هذا دكتور عادل.

سكت ولم يصف لهم قصص الاعدامات. لم يحدثهم عن الجراح. وعن الرصاص وتساقط الامنيات. عن فرق المقاومة في الاهوار. وعن تهجير الساكنين هناك. ولم يشر الى المكان الذي حدثت فيه الاحداث او الى هوية اصحابها واناشيدهم الصامتة. انها سر مطبق. لم يصرح لهم كيف خرج من النهر وهام في الطرقات. سار مشيا على قدميه الكيلومترات بدون طعام. وبمحاذاة نهر الفرات، يضرب عشوائيا في دروب الترقب الشاحبة، والتعب الذي انهكه الخوف، واحلام تشاكس النجوم هازئة. وكفاح من اجل الحياة دافقة بفجر لا سطوع فيه. وحب تركه

قرب العشار. وذكريات ودعها على افياء كورنيش البصرة. وفتاته ثروة. لم يحدثهم عن امه التي ماتت غريبة خائفة حين وضحت وحكت له سرها وهي على فراش الموت. كيف يستطيع افشاء كلماتها الاخيرة وهي تحكي له عن ابيه؟ اجل ابوه الذي كان يظنه ميتا. لأول مرة باحت له بأنها لاتعرف ان كان فعلا ميتا في سماء الابدية ام مايزال حيا. خصوصياته.. اسراره الشخصية هي كل ما يكون ذاته كفرد..كأنسان هل من الممكن كشفها لأناس غرباء عنه. ورغم ان تلك الكلمات مضى عليها الكثير من السنين لكنه ما يزال يسمعها..ما زالت ترن في اذنيه وكأنه يرى امه امامه..لم يمضي على وفاتها سوى ساعات قليلة..انني يابني فتاة ريفية فقيرة من قرى الاهوار..فتش عن ابيك .. ابحث عنه..قد تجده في يوم ما..وحينها اوصل له كلامي.. وحدثه عن معاناتي. عن انوثتي التي هدرت في ثاكلة ليل وهذيان التقاليد. عن زفرات وحدتي وهي تحرق جذوري. واعوام عمر كامل كرسته لأبني.. لك يا بني..اخبره يابني بالوشايات التي عانقت سماء صباي.. والنار التي اعدها اهلي لحرقي.. وشمت انا بالعار.. اجل ولكني ضحية ولست عارا.. احكي له يابني عن نفسك ..فأنت هو التذكار الذي تركه متوسدا ضلوعي، وكبر كنسر يحمل اعتزازه وفخره معه.. هو انت يابني.

اخفى عادل كل الدموع المسترخية على نبضات قلبه، كالاوتار تعزف للربيع وهي مثخنة بالجراح. حمل التقاليد المتوارثة، وظلم المجتمع للنساء غطت اعوامه واعوامها في رحلة هروب دائمة دون ان يعرف. اخفت امه كل شيء كي تحميه. كي يكبر سويا مثل بقية الاطفال.. سأله ابو رند قبل قليل من هو؟.. ما اوجعه من سؤال..بوده ان يقول بأعلى صوته انه من البصرة ولكن جذوره هناك في الاهوار. وان تلك الاوصال قد تقطعت حين هربت امه وهي حامل به؟ وما حدث وقتها حين كشفت الوشايات ما اخفته عن اعين الآخرين. قصت عليه قصتها وهي تلفظ انفاسها ..قائلة كنت احب ابيك. كان اغلى على من حياتي. كان مناضلا كبيرا، كرس حياته من اجل قضية. في الستينات جاء مختبئا من ملاحقات الشرطة التي كانت تبحث عنه بعد مقتل عبد الكريم قاسم. مكث بين ظهرانينا شهورا عديدة، ثم تم القاء القبض عليه، ولم استطع معرفة اين يسكن ولا عنوانه. فضاع مني.

فرك عادل صدغيه ومرر اصابعه داخل شعره الاسود الكثيف وضبط اعصابه بقوة وهو يستمر بالحديث مع ابو رند وساهر قائلا:

- ياعمي آني متأكد ان قائد الكوكبة الامنية عرفني. لأن ظل يسبح وراي بأصرار، وصوته المتوعد يهددني. زمهرير الماء انقذني ومنع الآخرون من الغطس. الشخص الثاني الذي لاحقني رجع بعد مدة للساحل. لكن الاول ظل وراي يتبعني لمسافة طويلة. بس التيار جان اقوى منه فرجع الى جماعته بعد فشله من الوصول والقبض علي.وآني قدرت افر الى الاهوار القريبة. وهناك ساعدوني سكانها، ودلوني على افراد المقاومة التابعة للمعارضة. وهناك هواية فرحوا بيه لحاجتهم الى طبيب لمعالجة جرحاهم.

سكت..برودة الموت لازالت حوله، واسرار الليل المليئة بأغطية الزيارات للقرى البعيدة والمدن الجنوبية القريبة. الهجوم والفرار، وحرب العصابات مع شباب يتجولون حاملين اسلحة الانتقام. ويقدمون حياتهم حين يسقطون بين قصب البردي. ويحلمون وينتظرون.. هنا جذوره التي لم يتعرف عليها قالت له امه. فضوله كان كالجوع الى الطعام. كانت اسئلته لا تنقطع عن اهل الاهوار وحياتهم واهلهم واطفالهم. تعرف على ابو ستار..جده. تطلع في وجهه يبحث عن ملامحه والخوف يمسك بخناقه عن البوح بأي اشارة تدل على هويته ومعرفته به. جلس في مضيف الرجل ساعات صامتا لم يتكلم الاقليلا. مشاعر متناقضة تتقاذفه، اغلبها كان حزنا عميقا. لو ان هذا الرجل يعرف انه حفيده، وان الاخرين هم اقربائه.. خاله وخالته واولادهم. لو انهم يعرفون ان الجالس امامهم هو ابن الفتاة التي يعتقد الجميع انها ماتت. ماذا لو يخبرهم بذلك. ولكنه ابعد هذه الفكرة عن مخيلته فمهما كان حياته غير حياتهم. شعر بغربته عنهم، وشيء من الغضب للاضطهاد الذي واجهوا به امه. بسببهم ضاعت حياتها. هل يستطيع هو المثقف ان يكسر ما آمنوا به طول حياتهم.

في تلك الزيارة عرف نفسه ..عرف انه لن يغفر لهم ما فعلوه بها.. عرف ان غضبه اقوى من أي شفقة او عطف. شعر ان هناك بونا شاسعا يفصله عنهم. حين رجع الى كوخه وطن نفسه على تجنب أي لقاء جديد مع جده ابو ستار واخواله. وقرر ان يجد لنفسه مأوى آخر يختبيء فيه الى ان يجد الوسيلة التي ينقذ بها نفسه، كي

يعود الى وضعه الطبيعي وحياته الاعتيادية. يعود الى ممارسة مهنته التي يحبها ويخدم الناس بها. وان يدع امر تقاربه معهم الى الزمن. ايقظه صوت ابو رند:

- آني هم جنت في الاهوار ايام شبابي..وآني ايضا اختبأت هناك.

تبدل وجه ابو رند. ملامحه تدل على القهر، لازال الذنب يلازمه، كيف فعلها مع تلك الصبية..وماذا حدث لها؟ اين هي؟ ذكرى تلك الفتاة الجسورة بعينيها الواسعتين وقامتها الشطبة. ما زال يلعن ضعفه امام انوثتها. تلك الليلة لم تغادره ..محفورة ذكراها في خياله. بذرة النسيان كل هذا العمر الطويل لم تنمو في حقل ذاكرته. يراها وهي جالسة على حافة الكوخ وقد تركت اقدامها متدلية داخل المياه، والشمس تتخلل خصلات شعرها، وتنير ثوبها المطبع بالورد.. اين اختفت؟ بحث عنها ولا يزال سأل كل الذين يعرفونها ..قالوا له ان افراد العشيرة جمعوا الحطب ثم قادوها وربطوها في وسطه واشعلوا النيران بعد ان غطوها بالقش..غسلا للعار.. اجل توضح انها كانت حامل. لم يعرفوا من فعلها معها لم تبح بأسمه، رغم التهديد والوعيد. وقفت بجسارة شامخة وهي تصرخ في وجوههم.. انه ابن الامجاد قالت لهم لن تعرفوا ابدا من هو ابو ابني.

ولكن كانت لدى سريع ابن خالتها حكاية اخرى. فبكتمان شديد قال له لاتخف يا ابن الناس..انها سالمة وما تزال حية. فحين التهبت النار اخترقتها انا من الخلف بخفة، وحللت وثاقها دون ان يراني احد واخرجتها حين رأيتهم يفرون من الشرار المتطاير والازيز يحيط بهم. اخرجتها من تحت اكوام الحطب واخفيتها في مشحوفي حتى حل الليل فأسرعت بها الى الطريق المؤدية الى البصرة. وقلت لها اذهبي يا ذكرى الى المدينة. لاتخبري احد بما حدث لك. غيري اسمك.. واسكني بين الناس، واقطعي صلتك بكل الماضي وعيشي فقط لأبنك. جدي عملا لك يقيم اودك. حتى انا لاريد ان اعرف عنوانك كي لا ابوح به في ساعة شيطان..اذهبي يابنت الخالة..وداعة الله. همس سريع له بكل ذلك بحذر وخفوت لئلايسمعه احد وكأنه خمن الحقيقة. ثم اعترف انه منذ ذلك الوقت لم يرها ولم يسمع عنها شيئا، رغم انه ندم على نصيحته لها بعدم الاتصال به. وقد حاول العثور عليها ولكنه لم يفلح..ولم يقع على اثر لها.

زار ابو رند سريع عدة مرات طول الفترة التي مرت . ساعده في استخدام احد الرجال كي يفتش عنها في طول وعرض مدينة البصرة بكل حرص وأناة. سار هو شخصيا في شوارعها الخلفية الفقيرة. لكنه لم يستطع الوصول الى أي خيط رفيع يمكن ان يدله عليها. ضاعت ذكرى وسط الزحام. وضاع معها طفلها..طفله..اجل انه يعرف ان لديه طفلا. اصبح الآن شابا في الخامسة والثلاثين من عمره. صمت ابو رند وهو يخفي ألمه في وشاح شفيف من الاسى. يلامس الذكريات..ذكرياته اشجار باسقة الاغصان تحمل ثمار كل ما قام به. لازال حبها يدغدغ حواسه. في تلك الليلة اليتيمة حين جاءت اليه وجلست الى جانبه تحاول بدفء انوثتها ازالة كدر روحه. لامست اقدامها الماء. فتلاعبت الاضواء تهدهد الامواج وهي تضرب ساقيها بخفة. صاعدة نازلة، كالحرير الناعم مرة وبقوة اكبر احيانا اخرى. دق قلبه برنين العشق والاعجاب الذي ربط بينهما، وشبق مغرور بفعل الغربة وبفعل محاولة التقرب والانتماء..وذلك لجبر ما كان يعيش به من قهر وانكسار..بسبب وضعه السياسي من جهة وفقده لحبه في بغداد من جهة اخرى. لايعرف مالذي حدث له..كالمنوم او المخدر وقد تاه عقله عن الواقع نسى من هو ومن هي ودفع بيده الى خصرها يجذبها اكثر كي تلتصق برجولته العطشى. استجابت له. كانت راغبة اكثر من رغبته هو. بجنون داعب نهديها. ثوبها الملون يرتفع بفعل اصابعه لينحسر عن فخذيها اللامعين تحت الاشعة الفضية. الصق شفتيه بشعرها وثغرها وراح يمتص الرضاب. عانقته وهي تمسك برقبته بقوة وتجره نحوها حين تمددت فوق القصب المرصوص خلف الكوخ. اطال مداعبتها وهو يحاول منع نفسه عن انتهال ما حرم من الثمار. ولكنها مدت يدها ترفع دشداشته اكثر. ترك عقاله ينحدر مسبلا الغطاء فوق رأسيهما. فجذبت جسده فوقها وهي تحرك كفيها بلهفة فوق جذعه. كانت عطشى لعشقه. عانقها وهو يعرك كل جسدها اللين بكفه. شدته الى صدرها بلهفة اكبر. ولكنه خاف، وحاول الابتعاد الا ان الشبق المشتعل كان قد عبر حدود الارادة، فلم يدعه يفصل جسده عنها واصابه كالحمى السارية. ولم يدر كيف ومتى وخلال دقائق دخل دائرة الامتلاك لنزوة الحب.

في الصباح صمم على الزواج منها. رغم علمه بالفارق الثقافي بينه وبينها. ولكن وصول اخبار عن مجيىء الشرطة الى الاهوار للبحث عن المختفين حالت دون تنفيذه لقراره ذاك. اضطر في نفس اليوم الى الفرار الى مدينة البصرة، وهناك في احدى البيوت تم اعتقاله. قضى في السجن مدة ثلاث سنوات بين تعذيب وتحقيق الى ان صدر امر الافراج عنه.

كان ينفث دخان سيجارته حين انتبه الى عيون الجميع تحدق فيه بأنتظار ما يقول:

- نعم توصلني مرات اخبار المعارك الدايرة في الاهوار.

شيىء حميم ربط بينهما. مودة دافقة بالحنان لذكريات مشتركة كالشعاع مدت خيوطها. استمر ابو رند بالكلام وهو ينظر الى عادل والفراش المفروش.

- ما اريدك تبقى هنا.. انت ضيفي في ببيتي راح تعيش مكرم معزز..رند راح تحضر لك الغرفة القريبة من غرفة نومي حتى تنام بيها. واذا هددك الخطر تنزل للسرداب بالبيت وتختل هناك.

رفض عادل بأصرار:

- ما اريد تعريضكم للخطر..احسن ابقى هنا..هذا المكان امين..وساهر يقدر يساعدني..واذا انكشف امري نتفق على انكار أي معرفة بيني وبينكم.. واعتقد آني راح اصلح قضاياي بعد كم يوم..انشاالله ينسوني بيها..واقدر ارجع بعدها للبصرة..اعرف اني اطمع بكرمكم..ولكن عشمي بقلبك الواسع وفهمك للامور يا عمي.

شبه ما..شيىء لايعرف كنهه جعل وجه ذكرى قويا في ذاكرته..حركة الشفتين..ابتسامته، ولكنها حتما اوهام. رف فؤاده بالحنين والعطف. رنت في اذنيه نبرات الصوت القديم. هطل الحديث كالطل على قلبه، يزف نبض الماضي. حرقة للهفة تشهق في انفاسه وتثقل في عذوبة على صدره. لو يستطيع ان يبوح ان يسأل..عل عادل له خبر عنها..بث دماغه موجات التقطها مخ عادل..وفي دقائق وجد عادل نفسه يتساءل وكأن هناك الوف الاسئلة تحيط بهذا الرجل الواقف امامه لايدري اين التقطها وكيف جاءت..ربما هي شخصية ابو رند اثارتها..او اسمه..اجل اسمه هو نفس ما ذكرته له امه. هز رأسه وكأنه يطرد ما فكر به.. حتما محض صدفة..شك ما ..ايكون هو من يبحث عنه؟ هو من بكته امه السنين كلها؟ اتبرعم الحياة بالحقيقة في يوم ما؟ ولكن الكلمات تصمت في داخله رغم موارها. تبقى وراء عمى الاسرار وشفافيتها. خيط واه هو الضمير كالسد العظيم يحبس ما يعرفون. نور ضئيل ينفذ بين طيات الهواء بينهما ليصهر الغربة. كأنهما يعرفان بعضهما من زمان. قال ابو رند بلطف استغربته رند وكذلك ساهر ولم يفهما سببا له:

- اطمن يا ابني احنه راح نبذل وسعنا في سبيل راحتك وحمايتك.

نهض ابو رند من كرسيه بثقل، كأنه لايريد الانفصال. كطفل يفطم من شيىء يحبه. التفت الى ابنته وهو يشير لها كي ترافقه الى البيت. في الطريق سكت. لم يفه بحرف. لم يعنفها. لم يوبخها على انشغالها وتأخرها في الرجوع الى البيت. تعجبت من صمته. طعم غريب في شفتيها. همهمة لحديث صامت يدور، يعزف نغمة جديدة..او خبر لدرب قديم وعر. كالينابيع يتدفق اليقين ويشق الاجمات الواجمة. هناك سر في قلب ابيها..ما هو؟ منذ سنين وهي تسمع كلمات شاردة..تلميحات لا تفهم مغزاها. واليوم زاد شكها بأن خلف صمته ستارة تلف افكارا بعيدة عنها وعن البيت. انه الصمت حين يلهو من جديد.

في ليل صاف لمساء الخريف سارت خلفه دون ان تنبس بحرف فقد تركته لطيران واجنحة وحدته. خيوط واهية تمسك بمأساة الشفتين المعذبة..هذا ما فكرت به وسرحت وراء ما لها من موجات تعود بها كل حين الى ساهر. التحمت روحها بغشاء ظليل. تبحث عن حقيقته مع ملاذ. حاذت اباها ومشت مشيته بصمت وهدوء، ورغم ذلك وصلها صوت سيارة وهي تبتعد متجهه نحو البصرة . حزرت انها سيارة صارم.

الفصل الخامس

الأقنعة

انطلق صارم بسيارته نحو المدينة. سيقضي ليلته هناك. عليه انهاء بعض الصفقات التجارية صباح الغد. اما الليلة، فهو من عشاق الليالي الحمراء. اولا سوف يتعشى في نادي الميناء. وبعدها سيتصل بالفليبينية ليان كي توافيه في شقته في المعقل. لم يسر سوى ربع ساعة حين مرقت امامه سيارة جيب اوقفته الى جانب الطريق، ومن وسط الظلام اندس الى جانبه صاحبه صامتا فقال:

- اهلا بيك..هاي انت؟

- أي..لعد انت جنت تنتظر شخص ثاني؟

قال صارم بخفوت وحدة:

- طبعا لا..

قال الصوت المنبثق من جانبه، والذي لم يشاهد منه سوى جزء من وجهه:

- بعد يومين راح احصل على بعض البنادق وازودك بيها.

ابتسم صارم وقال:

- شنو تريد بالمقابل؟

قال الصوت:

- مالك يريد يبيع قسم من بساتينه..وحسب علمي هي قطعة الارض المجاورة لبستان ابو رند..اريد منك ان تشتريها الىّ.

- لويش ما تشتريها بنفسك؟

- ما اريد ان تنكشف اموالي للدولة..خل الجميع يعتقدون انك انت هو من اشتراها.

- اقدر اعرف ليش؟

قال الصوت بغضب:

- كافي اسئلة.. كل ما ارغب بيه ان تبقى ذخر للمستقبل..بس ما اريد احد يسألني منين جبت فلوسها.

توجس صارم شرا. ولكنه خاف من كثرة الفضول فقال ببطء:

- زين راح ارتب الامور واسوي اللازم.

قال الصوت:

- اكو اخبار وصلتني تقول بأن ابو ساهر هم رايد يشتريها..الي عليك هو ان ماتخليه يحصل عليها.

استفسر صارم بهدوء:

- قصدك شسوي؟

- لاتخاف خلي هذا الموضوع عليه آني ادبره..عندي معارف بالهيئة الزراعية بالبصرة.

سكت صارم فأستمر صاحبه يقول:

- شلون حصص الماي عندكم؟

- مو زينة لأن صايرة تقل يوم بعد يوم.

ضحك صاحبه وقال:

- وهذا هو اللي راح اضربه بيه..راح اخلي بعض الناس في وزارة الزراعة يبثون اشاعات عن نية الحكومة للاستيلاء على هذي الكاع لبناء سدة.. اشاعة كاذبة طبعا بس تخلي قلوب الملاكين القريبين من النهر ترجف ويكومون يبيعون اراضيهم.

سرح صارم بنظره بعيدا قبل ان يجيب:
- ما ادري اذا هذي الخطة راح تنجح.
جوابه زاد من غيظ صاحبه. لن يخسر شيئا اذا فشلت، ولكنها قد تنجح. والتجربه ممكن ان تحدد الصواب من الخطأ. انه يعرف ان صارم له قدرات جيدة في التحايل، وهو غليظ ويسدر احيانا في غيه، ومتى ما سار في درب لايرجع عنه حتى يصل الى نهايته. التفت اليه وهو يعنفه..يجب ان يكون ندا له وأكثر فهو من يوجهه ويصله بالسلطات. انه هو من يمثل السلطة امامه:
- ما تدري..هو هذا جواب تجاوبني بيه..انت لازم تعرف كل صغيرة وجبيرة حتى تقدر تسيير الامور لصالحنا ..هذا واحد من جوانب نجاحاتنا..معرفة حصص الماء..بيع وشراء الاراضي..مدد عقود الفلاحين..كميات الفواكه التي تنباع..كميات الشتلات التي تباع وتشترى..كل هذا فلوس بالاضافة الى السيطرة والتحكم التي تستخدم لخدمتنا في الوقت المناسب. درب لك بعض الجماعات حتى يسندوك.. وآني راح اوديلك السلاح بالاسبوع الجاي..وانت راقب كل افراد القرية..شيقولون..شيسون بيش يفكرون..افتهمت..بعدها ترسل تقارير مفصلة منتظمة..ما اريد اظل اعيد واكرر فأنت تعرف اللعبة.
قال ذلك وبحركة سريعة انتقل الى سيارته الواقفة على جانب الطريق. البيئة تخلق الضمير.في كل فئة يجد الانسان كلمات تخصها. مطاطية هذه الكلمات تكون حسب المصالح والرغبات..وكل شيء له سعر.. المادة هي قيمة كل ما يدور حولنا من نزوات واهداف. في عالم صارم كل حدث له اجره ويمكن ان يزنه بالمال. قبل ان يقول كلمة نعم يفكر ما هو سوقه وكم يساوي. حتى الفكر السياسي هناك من يدفع له للاستمرار والبقاء. فهو يعرف دائما من اين تأتي النقود ومن اين مصدرها..واين مصيرها؟ كانت افكاره تدور حولها من اين هي.. والى من تذهب؟.
وصل الى النادي متأخرا قليلا وهناك التقى بمجموعة من معارفه. الضابط عليم والتاجر محمد وكريم وعلي. الاحاديث كانت تدور عن النفط مقابل الغذاء. عن سعر الدولار في ارتفاعه وانخفاضه. عن السكاير المهربة والكحول. عن اسعار المواد الغذائية واين من الممكن تواجدها. عن بطاقات التموين وكيفية الحصول على اعداد اخرى منها. عن معسكرات التدريب الصيفية. عن الاراضي والعقارات وعن جفاف الصيف والمياه. عن القروض للمزارعين وكيفية الاستفادة منها. وعن قطع الاراضي السكنية للقوات المسلحة. عن بحيرات الاسماك واسماك الانهار. عن الفواكه المجففة وكيفية تطوير معاملها. عن مناطق كردستان والسوق السوداء والبضائع المهربة من هناك. عن الاردن وامكانية السفر الى هناك. عن طرق السفر الى سوريا للبيع والشراء. عن كورنيش العشار والنساء وكيفية اغوائهن واستغلال سذاجتهن. وعن المغامرات والبطولات في هذا المجال وذاك المضمار. عن الادوية والامراض..حتى ينتصف الليل فيذهبون لتمضية بقية السهرة عند احدهم في لعبة قمار. في تلك الليلة اعتذر صارم. ومن النادي اتصل بليان كي توافيه الى المعقل حيث يسكن. ترك جماعته الى موعد في الغد، واتجه الى شقته التي لايعرف عنها احد شيء سوى ليان. لاضيوف لااصدقاء ولا معارف يزورونه. الجميع يعتقد انه ينزل في فندق كلما جاء الى البصرة. فهو لايقضي فيي المدينة سوى ايام اما بقية الاسبوع فهو مشغول مع بساتينه في القرية. شقته فيها غرفة سرية واسعة يستخدمها كمخزن لكل انواع البضائع المهربة. فهناك السكاير الامريكية والكحول وصناديق الفاكهة المجففة والحلويات المختلفة وقناني المشروبات والفواكه والمشروبات الغازية حتى اكياس الرز والسكر والخضروان المعلبة.
حين وصل وجد ليان في انتظاره قرب الباب. دخلت معه وهي تحتك به وتمازحه وتلامسه ملامسات تعرف انه يستذوقها. اندست الى الفراش بعد ان نزعت ملابسها وساعدته في التعري والالتفاف تحت الاغطية المرتبة النظيفة، وهي تلتصق به فاسحة مجالا لاندفاعاته الشهوانية العنيفة. كانت توصله الى الذروة احيانا حتى قبل ان يبدا ممارسة الجنس معها. وهي تعرف استمتاعه بذلك. وتزيد من تظاهرها بالرغبة فيه لترضيه، فترتفع شهقاتها وتأوهاتها مع زيادة عنفه اثناء مضاجعته لها. في هذه المرة اطال فقد كان يتخيل ملاذ مكانها. مما عمق رغبته اثناء الاتصال بها.

نام عدة ساعات استيقظ بعدها على حركتها داخل الغرفة وهي تلبس ملابسها. رأته وهو يفتح عينيه والنعاس يغشيهما، فأخبرته بأنها قد لاتستطيع المجيء في المرة القادمة. انتفض وطار النوم حتى صحا تماما. جلس على حافة السرير والغضب يملؤه ولكنه كبته وسألها بجفاء..لماذا؟ فأخبرته بأنها فتحت مع بعض البنات بيتا للزبائن ومن يريد التمتع بصحبتهن يأتي هو الى هناك. امسك بذراعها بعنف وقد جحظت احداقه:
- آني افضل ان تجين انت الى هنا..اخاف تريدين زيادة الاجور؟
قالت ضاحكة وهي تخلص نفسها من قبضته:
- لا مو هذا الموضوع..بس اذا تريد اقدر افاتح وحدة من البنات حتى تحل محلي؟
قال بحذر
- قصدج منو؟
- وحدة من البنات ..خوش بنية بس عراقية..اسمها نجوى..والدها مفقود بحرب ايران..تريد تشتغل حتى تعيش عائلتها واختها..فتقاعد والدها ما يكفيهم وهي تكره الاستجداء.
اطلقت ضحكة تراكضت فوق شفتيها ووجنتيها وهي مستمرة في وضع المساحيق:
- قسم من الرياجيل يعتبرونها جميلة جدا..هيه سمرا، ولكنها تصبغ شعرها كستنائي..بس آني اعتقد الجمال مو ضروري اذا جانت زينة بالفراش..المهم راح ترضيك..وآني اظن راح تعجبك.
- اشكد تريد اجور؟
- مثل اجوري..بس هي ما تحب الشرب..اقصد شرب الكحول وتكره الاسئلة.
ادار وجهه عنها ونظر الى زاوية الغرفة..هل هي لعبة ما؟ ربما احد اصدقاؤه يتجسس عليه. ولكن كيف عرفوا بمكان الشقة. التفت اليها والهواجس تطارده وراح يحقق فيما اذا كانت قد اخبرت احد بعلاقته بها..ولكنها نفت ذلك بشدة وقد فهمت قلقه:
- لا تخاف..انت تعرف ان تجارتنا تعتمد قبل كل شي على الكتمان..وآني تره كاعدة استشيرك بس قبل مفاتحتها.
- يعني ماعدها معاميل غيري.
- لا..وآني أاكد لك بصورة ما تقبل الشك البنية جديدة على الشغلة..وحسب علمي راح تكون الاول..اذا وافقت.
- زين يعني اقدر اشوفها قبل ما اقرر؟
احنت رأسها وهي تتجه الى الباب مبتسمة بعد ان اخفت النقود في حقيبتها قائلة:
- تعال باجر بالليل لبيتي.
امسك سيجارته. نادرا ما يدخن. فقط على طاولة القمار يشتهي التدخين. وبعد خروجها عاد الى النوم. نام حتى الظهر، ثم ذهب الى بعض التجار حيث انهى صفقتين لبيع بعض البضائع التي لديه. وبعد ذلك اتجه الى موعده مع اصحابه. كان جميعهم حاضرا وامتد الحديث عن الاوضاع الحالية ثم عبر الى الذكريات. وتمتعوا جدا بحديث علي عن خطوبته وهو يرفع كأس العرق الى فمه ويزيل الرماد عن سيجارته:
- جميلة وجذابة..غلبتني فخطبتها بس بعد ما انقضى شهر واحد تغيرت وبدت تطالبني بالطلاق..وتقول ما منسجمة وياي وما تريدني..ولحد الآن مصرة على الطلاق..بس عصمتها بيدي..وراح اخليها تلعن اليوم الاسود اللي شافتني بي..واليوم اللي ولدت بيه..صارلها سنتين ما حجت ولا كلمة وحدة وياي..ابوها هو السبب.
- لا تطلقها..لا توافق على أي شي..ماكو عندك مشروع زواج..خليها تتعذب.
نصحه محمد وهو يبتسم. رمى علي اوراق اللعب بضيق. لعبة الحياة والموت احلى. يغرق في كأسه.. يتحايل عليه كي يطيل ارتشافه. لماذا تظهر الالوان شاحبة، انها صفراء اكثر من اللازم. يلتفت الى صارم قائلا وهو يتفلسف:
- لا تتزوج ياخي..للابد..لا تورط نفسك..بعدني ما تزوجت وقامت تطلب الطلاق..لو جنت اتزوجتها جان عرفت شلون اتعامل وياها . ما جان قدرت تفتح فمها بكلمة. جان ادبتها وربيتها احسن من تربية ابوها اللي ما عرف شلون يأدبها.

ضاق صارم به، رغم تلذذه بالكلام فعلي من الذين يفاخرون بعوائلهم كان ابي وقالت امي.. ابن ابيه هو. يسكنون القصور..كبرت ثروتهم اثناء الحرب. يمتلكون الاراضي وبحيرات للاسماك. ولديهم معمل لتعليب الخضار.
رد بضجر:
- يمعود لاتقبل بشروطها..سوي مايعجبك انت..خليها تبوس رجليك..وتذل نفسها. العمر ما يهمك انت بس يهمها هيّ .. من تمر السنين راح تكبر وتشيخ وتبقى عانس..لكن انت فتقدر تتزوج وكت ما تريد..زوجة ثانية ..ثالثة مايهمك..المهم لاتطلقها.
قال محمد وقد انضم اليهم هو ايضا:
- عاش حلقك..هذا هو الحجي الصحيح.
مل صارم اللعب. تبرم من لعبة البوكر. لم يكسب شيئا منذ فترة. ترك كأسه، وتذكر موعده مع ليان. قام عن المائدة واطفأ سيجارته قائلا:
- يا جماعة عندي موعد باجر الصبح..تصبحون على خير.
لم يفد احتجاج الآخرين لمنعه من الخروج. اغلق الباب خلفه ثم قاد سيارته وسط ظلام دامس. الاضواء كانت مطفأة والشارع خاليا. بعض القطط تراكضت بين الازبال. تنسم رائحة الماء حين سار بمحاذات الكورنيش. الهواء البارد هدأ من نفسه. لايدري لماذا هو متوتر، متنرفز بدون سبب واضح. حتى ضوء القمر وليالي الشرق الغارقة في سكون الاسرار لم تؤثر عليه.
حين دخل بيت ليان، وجدها تجالس بعض الزبائن المتحلقين على مائدة الطعام. نهضت برشاقة وسألته اذا كانت لديه رغبة بالتعرف على الضيوف. ولكنه اشار لها محذرا وكلمة لا صامتة فوق شفتيه. اسرعت به الى احدى الغرف. جلس هناك وحيدا. بعد دقائق نهض. لماذا لايأتي احد؟ هل هي مؤامرة ضده؟ حتما هناك من يريد الشر له. لايطمئن لأحد ابدا. فجميع معارفه مستعدون لطعنه من الخلف لقاء مبلغ زهيد من المال. اشعل سيكارته وبلع دخانها ليخرجه حارقا من انفه، وهو يتصاعد في دوائر بيضاء نحو الاعلى. انهى الثانية والسكون يغلف الغرفة. لماذا يتركونه ينتظر؟ اذا كان هناك من يريد التخلص منه، لم هذه الاطالة؟ سُحب الدخان البيضاء تلفه داخلها. لانور سوى الفانوس الصغير فوق الكوميدي قرب الفراش. الغرفة صغيرة ليس فيها سوى سرير صغير والكومدي. سار بضع خطوات نحو الباب وقد فرغ صبره. وما ان اقترب حتى سمع طرقات ضعيفة، وحين فتحه شاهد فتاة قصيرة نحيلة سمراء، غطت وجهها بالمساحيق كانت يدها ترتجف وهي تصافحه قائلة بصوت هامس..انا نجوى. وقف امامها وقد احمرت وجنتاه من الغضب وصاح بها:
- صارلي ربع ساعة انتظر..لويش تأخرتي؟
قالت وقد بدأ الفزع يلون وجهها، ويدها على الباب كأنها تهم بالهرب:
- هذي اول مرة اجي يم زبون..آني طالعة..
رددت ذلك وهي تهم بأختراق الباب للمغادرة.. ولكنه امسك بذراعها بقوة وجرها الى الداخل:
- شنو هل الحجي.. قابل هو لعب..منو وداج..انت تعرفيني؟ اكو احد قال لج شي عني؟
لم تفهم. حاولت التملص من قبضته وانحدرت دموعها وهي تجهش بالبكاء. اهتاج اكثر، وراح يجرها حتى رماها فوق السرير واخذ يمزق ملابسها. دفعته. لكنه كان اقوى منها. فتح بنطلونه وارتمى فوقها بكل ما اوتي من قوة. اختنق صدرها واخذت تشهق وهو يرجها مع السرير. وما ان انتهى حتى سرت الراحة الى كل عضلات جسده. تركها وارتمى على عرض الفراش الى جانبها. لملمت ثيابها وشدتها فوق صدرها العاري، ثم انزوت في الزاوية بعيدا عنه. ارتفع منها نحيب مكتوم هز كل جسدها النحيل. قطرات من الدماء انحدرت فوق فخذيها العاريين..كانت عذراء. شاهد ذلك فأخذ ينظر الى بنطلونه بتقزز واشمئزاز..ما هذه المهزلة ..انها عذراء:
- بنت الكلب..افسدتي عليّ بدلتي..والنشوة
تمالك نفسه قليلا. امرها بالذهاب الى الحمام وتبديل ملابسها، ثم صرخ بها ان تكف عن البكاء. بعد ان عادت كان يدخن بهدوء وقد عدل من ملابسه. نهرها قائلا:
- تعالي ..اقعدي هنا.

جلست حيث اشار وهي مطرقة بوجهها الى الارض. لقد انتهى كل شيء الآن. واصبحت ما اصبحت عليه. هذا هو الطريق الذي وافقت على السير فبه من اجل ام باكية واخت مريضة. واعمام اصاب قلوبهم الصمم. واخوال البخل اعمى قلوبهم وحدد فكرهم بالقسوة. لعنت الف مرة الاب الذي ترك دبابته على الطريق في كردستان وهرب.. لا احد يعرف الى اين؟ وليس هناك من يعلم كم تحملت من ذل الاستجداء حتى انهت المتوسطة وتعلمت الكتابة على الآلة الطابعة. ولكن النحس لازمها فلم تحصل على شغل، الكل يسألونها هل تعرف الكتابة على الكومبيوتر؟ من اين لها ان تعرف ذلك؟ كلما ذهبت الى اعمامها كي يتوسطوا لها من اجل العمل في احدى الشركات تواجهها الاتهامات والكلمات القاسية..لا خير فيها. اجل انها كم قمامة زائد لاخير يرجى منها؟ انها عالة عليهم هي وامها واختها. ومع كل فشل يزيد تجريحهم واستهزائهم بها. كانت تكره التباكي والضعف امامهم، وتخفي مشاعرها بمهارة،وترد الكيل لهم بكلمات تحمل بين طياتها الثورة على الخنوع. وهكذا نصحتها احدى صاحباتها ان التحرر والحرية تعني الحصول على قدر كبير من المال. وهناك طريق واحد للحصول عليه بسرعة ووفرة واعطتها عنوان ليان. غطت رأسها بشال اسود ونزلت على مهل الى سوق البغاء. لعنت كل سنين المجتمع وتقاليده العقيمة..فهي لن تتزوج وممن؟ الكل عانسات. كرهت نفسها. ودت ان تدمرها. النقود ذلك المراد القابل للتنفيذ فقط عن هذا الطريق. يسمونه طريق الساقطات..لقد سقطت في ذلك اليوم الذي تركهم فيه والدها وفر. كانت طفلة وسط برد الشتاء المتيبس. والحرب قائمة. هل فكر بهن حين فعلها وهرب من مسؤوليته اتجاههن؟ ثم جاءت حرب الخليج الثانية لتكمل حظها الرهيب هذا..فهي لم تفهم ولن تفهم سبب ترك والدها لهم. ومنذ ذلك الوقت وهي لاتسمع سوى صوت نحيب امها. وبعد عدة سنوات من الحرب الثانية بدأ يشاركه بكاء اختها الصغيرة عفيفة ومرضها العجيب الذي ابتدأ بتساقط شعرها ثم نقص وزنها وضعفها الى درجة الصعوبة في مغادرتها للفراش. والاطباء يكتمون او لايفصحون بصراحة عن سبب علتها. دواؤها غال جدا. وما تحصل عليه من وظيفتها المؤقتة لايكفي لسد تلك المصاريف. امها تنتحب بسبب وبدون سبب، ومن البداية تجاهلت كل شيء، وتظاهرت بأنها لاترى ولا تسمع. هذا هو موقفها منذ غياب زوجها ولا يزال. لم تعد هناك اخلاقيات. كانت ترى صاحباتها الانيقات في المدرسة وتحسدهن. احبت ان تصبح مثلهن، تلبس وتزوق نفسها، وان لايهمها ما تأكل غدا، ومن اين تأتي بما تتدفأ به. اغمضت عينيها عن الرقع التي تملء ثوبها، ولبست سترة خالها صيفا وشتاءا لتخفي الفتوق فيه. منذ سنين طفولتها ادركت ان طريق السعادة هو النقود. لم تفكر بأبيها مطلقا حين سارت بأتجاه بيت ليان. كلمة محترمة لا توجد في قاموسها..ما هو الاحترام؟ يجب على الانسان اولا ان يأكل. في الماضي كل الناس كانوا يشترون الطعام وما تشتهيه نفوسهم ويلبسون احسن لبس. اما الآن فقد شبعت من صياح وازدراء اعمامها واصحابها.. شبعت من ضرباتهم.. شبعت من عنفهم بما فيه الكفاية.

نظرت الى صارم..هذا ايضا مثلهم عاملها كالخرقة البالية..باللسخرية كم تكرهه. لقد اخذ منها ما يريد. ها هو يفتح عينيه. تراقبه بنظرات جانبية. انه يثير تقززها. كم سيدفع ياترى؟ قالت لها ليان انه يدفع بصورة جيدة..وما اهمية ان يكون حيوان. كل الرجال في نظرها حيوانات. علمتها ذلك سنوات الجوع والطرد كلما سألت عن عمل. التعليمات تقول العمل للرجال فقط النساء عليهن العمل في البيت. وامتلاك طابعة ليس مسموح به الا بموافقة الامن. والامن حين علموا بأن والدها فر من الجيش لم يعطوها موافقتهم..والدها هو السبب في كل ما يجري لها من مآسي. حتى خادمة لم يقبلوها لانها من عائلة محترمة لاتشتغل النساء فيها كخادمات في البيوت. وعليها اعالة نفسها وتوفير الدواء لأختها. سابقا كانت النساء تتزوج، اما الآن فلا احد يرضى بالزواج او حتى يستطيعه. لم يبقى سوى هذا الطريق. الكثيرات يمارسنه في الخفاء للحصول على ما يقيم اودهن، ومرات يفعلن ذلك لتسهيل المعاملات الحكومية، او للحصول على وظيفة، او يعلمن اخواتهن للممارسة بالنيابة عنهن. توسط لها اعمامها فحصلت على عمل في احدى الدوائر الحكومية. ولكن راتبها قليل جدا وهي وظيفة تحت التدريب، ورغم كل ما تقوم به لأرضاء الجميع يهددونها بالطرد بين حين وآخر، وها هي اختصرت الطريق الى النقود. ستستبيح كل ما يسمونه بالعفة. لاقيمة لهذه الكلمة الآن في هذه الظروف الصعبة. انها تطمع فقط ان تأكل وتلبس كما يلبس الناس..اهذا طمع؟ ان تقدم الدواء لأختها ..اهذا كثير؟ ان تجعل امها تكف عن النحيب..اهذا خطأ؟

لايجد من تحدثه عن مشاكلها..فلا اصدقاء لها. كل شيء اصبح يقاس بالمصالح وتجارة السوق السوداء. وهذا الطريق طريق الساقطات هو مجرد عمل ويأتي بالكثير من النقود لم لا اذا؟ اجل.. انها ستكون اداة جنس وتأخذ نقودا..اليس النساء ادواة جنس؟ حتى المتزوجات هن احيانا ادوات جنس واشباع رغبات. الرجل يدفع. كل ما هناك هو رجل واحد يدفع وهناك ورقة اتفاق موقعة بينهما. ما اهمية هذه الورقة اذا كانت العملية عملية جنس..الاولاد؟ من يريد الاطفال في هذا الزمان النحس.. نعم النساء هن ادواة جنس واشباع لرغبات الرجال هذا هو ما يدور في واقع الحياة..الآخرة؟ لو كان الله يحبنا قالت لنفسها..لو ان الله بحكمته الواسعة انقذنا من الحرب..وما ترك ابي يهرب من دبابته لايعلم احد الى اين؟ لو كان الله يريد لنا الرحمة..ما كتب علينا هذا الشقاء كله..وما كانت لتشتعل الحرب؟ ولما حصد الجوع الاخضر واليابس؟ ها ان عمرها قد اصبح الآن ستة عشر عاما. ماذا رأت من دنياها..لاشيء..لاشيء على الاطلاق..لم تشاهد سوى الغارات وصفارات الانذار، واخبار الحرب. سنواتها كلها حرمان، وذل ومهانة..اي حياة هذه؟ ستة عشر عاما في ظلام وخوف..وكلها يأس ومستقبل مجهول.. ولا بصيص من امل في فرحة او انقشاع لهذا الغم. شباب في عمر الورود كلهم بالملابس العسكرية. لم يبقى في البيوت سوى النساء..نساء مثقلات بألاعباء، هن من يقم بكل الاعمال نيابة عن الرجال. بيوت فرغت لايسكنها سوى العجائز والشيوخ والاطفال.وجميعهم يحيط بهم هلع الموت. بلد بكاملها اصبحت سجن كبير سور بالحصار والاسلاك الشائكة لاخروج ولا دخول.. بألاضافة الى مرض اختها، هذه المصيبة الجديدة التي حلت بالناس.. امراض غريبة عجيبة..فشعر اختها يتساقط، ولا تستطيع مغادرة الفراش، رغم سنها الصغير فهي اصغر منها بسنتين فقط ولكنها تشبه طفلة عمرها ثمانية سنوات هكذا تقول امها..وكل من يراها يرى سوء التغذية عليها. لم تكمل الابتدائية لأنها لاتقوى على الرواح والمجيء الى المدرسة..فرفضت الذهاب..اما امها فهي لاتصمت لا باليل ولا بالنهار حتى اصبح البكاء لديها عادة يومية من كثرته..وضعف نظرها، وعينيها غدتا كابيتان من كثرة الدموع..دموع امها ودموعها..قبل فترة هددوها من جديد بالطرد، واخبروها ان العمل للرجال فقط..فالرجال هم الذين عليهم ان يفتحوا بيوتا..ولكنهم لايفتحون بيوت!! هذا ما قالته للموظف مستنكرة..انهم لايتزوجون..يعتذرون بأن رواتبهم قليلة لاتكفي..ما العمل اذا؟ ماذا على النساء القيام به؟ لاعمل ولا زواج..ولا احد يقبل ان يفتح بيتا..أعليهن الموت او الانتحار ؟ كلا انها لاتريد ان تموت. تود ان تعيش وتتمتع بكل سنواتها..فالحياة قصيرة، مثل حلم قصير..اذا عليها ان تكون عاهرة..وما هي العاهرة؟ انه عمل ليس الا تحصل منه على النقود. اولا واخيرا النساء هن من اجل امتاع الرجال هذه هي مهمتهن الاولى والاخيرة. نظرت من جديد الى صارم.. حتى هذا الملقى على الفراش لايريد سوى الجنس وهو يدفع جيدا. بالنقود ستكون سيدة نفسها. لن تمد يدها الى احد بعد الآن. ستدفع للحصول على الدواء وستشفى اختها، وبالاكل الجيد سوف تتحسن صحتها. الى الجحيم بكل قيم العفة والكرامة من يشتري مثل هذه الكلمات بعد الآن في هذا الوقت العجيب. انها لاتخاف من احد. يقولون اقرباؤها سوف يقتلونها لو علموا بأنها تعمل.. لن يعرف مخلوق منهم فلن تخبر احدا..ستقوم بالشغل بسرية تامة. لن تنطق بحرف لأي كان. انه امر يخصها وحدها. وشيء مريح ان تأتي الى ليان حيث تنهي واجبها ثم تعود الى بيتها وليان سوف تغطي عليها، ولن يشعر احد بها. انها تبيت عند صاحبتها. ستحلف امها للجميع انها لاتخرج من البيت. وهي واثقة انها لن تنبس بحرف عن خروجها ودخولها. ستسكت الام حين تضع النقود في يدها. ستفهم وسوف تصمت. ولن يورق الصمت شيئا اذا اخرسناه وكتمنا على الاسرار. ستخاف امها عليها ولن تخبر احدا. وستجد عذرا تخبر به الاخرين. وسيسكت الكل عن الكلام.

نهض صارم عن الفراش وهو منهك..قال بأستهزاء :

- عذرى..ها

ثم اردف:

- لويش؟

انزوت اكثر وهي ترتعش من الخوف..كان منظرها مثل الطفلة المذعورة حين تشعر بالذنب الذي ارتكبته وبالخوف من كبار السن او من الرجال حين يؤنبها احد على غلطة اقترفتها..منع نفسه من الاشفاق عليها. ليست سوى عاهرة تبيع نفسها. كل النساء عاهرات لايؤمن جانبهن. يجب ان يستعلم عنها اذا كانت مدسوسة عليه من

احد. يعرف الكثير عن الكذب والوشايات. عن التقارير التي ترفع..عن التجسس وعن الاستخبارات. الحذر واجب. لايوثق بأحد ابدا. الكل يكتب التقارير عن كل شيء. هو ايضا يفعل ذلك. لقد مزق ثوبها، عليه ان يدفع لها ثمنه. تبدو هادئة ومفزوعة. ستطرد عنه العزلة اذا كانت لاغبار عليها. قال يستجوبها بحذر:
- لويش..اكو احد جبرج على هذا العمل؟ ازدادت ذعرا. لملمت ملابسها وقالت بهمس:
- لا محد جبرني..آني بس محتاجة؟
- اكو احد يعرف انتي تشتغلين هنا..يعني اكو من وداج حتى تلاقيني؟
بهتت..ما هذا السؤال الغريب؟ الكل يخاف..ليست الوحيدة اذا؟ ادركت انها اقوى منه. رغم عنفه وقسوته هو جبان. اقتربت اكثر منه وجلست امامه على السرير وهي تتفحصه، وكأنها تراه بوضوح..فأر مذعور. انه انسان مثلها تماما. لم تستطع النطق اولا. انه حظها. كل شيء في الحياة صدفة وحظوظ. ضوء الفانوس يتأرجح على الجدران لانور للكهرباء منذ عدة ساعات. شباك الغرفة محكم الاقفال. والستائر مسدلة. قالت وهي تنبس بلا مبالاة:
- محد يعرف بيّ غير ليان.وما كو احد وداني حتى القاك غير ليان.
انفرادهما جعل الكلام اكثر سهولة.ليست هي المرة الاولى التي يزور فيها بيت ليان. فلديه بعض الثقة فيها. حدث وجربها وعرف حرصها على الكتمان. ولحد الآن لم يصدر منها ما يثير شكوكه، ولم تحصل معها أية مشاكل. قال:
- ما احب المشاكل..انتي زينة..ارتحت لج..بس اريدج تجيني لشقتي اذا توافقين راح ازيّدلج الاجرة، لأن آني محتاج لأحد ينظف لي البيت ويعتني بأكلي. جانت ليان بالسابق تقوم بما يلزم..لكن هسه تريد تتفرغ لأدارة بيتها..شنو رأيج تحلين مكانها؟
انه صادق. لقد اخبرتها ليان قبل مجيئها بهذا الموضوع. رغم عنفه تعتقد انه من السهل التعامل معه. المهم ان تتلافى غضبه وتتركه على سجيته يفعل بها ما يشاء. هو ايضا يخاف الوشايات. قد يكون متزوجا. لايهمها هذا الموضوع ما دام يدفع مبلغا محترما. ملابسها الممزقة ستشتري غيرها جديدة، وبنقوده. لقد باعت التقاليد..مزقتها كالشرنقة كانت تختنق داخلها. بدأت حياة اخرى. اليوم هو اليوم الاول فيها. لن تبذر النقود ستجمعها. ولن تترك المدرسة، ستنهي الثانوية وتدخل الكلية. بنقودها.. لن تستجدي من احد بعد الآن. تريد ان تكون مهندسة كومبيوتر. تعرف الطباعة لم يبقى سوى تعلم البرامج. جميع معارفها يؤكدون لها ذكاؤها وشجاعتها، فهي لاتهاب احد. هذا ما يقوله الجميع. انها لاتريد سوى ان تبني حياتها. ان تعيل نفسها. جربت الكثير من الطرق ولكن كل الذي واجهته هو نظرات نهمة من الرجال، وقرصات ولمسات على ذراعها وعلى نهدها واحتكاك بجسدها.كأنها ليست انسانة لديها مشاعرها وانما فقط اداة جنس واشباع غرائز. ليست مجنونة. قد تعبر حدودها هي..قد تمزق التقاليد..ما شأن الناس بها. اخبرته بعد ان عدلت من ثوبها..بأنها ستفكر بالموضوع وتعلمه بقرارها غدا. ظهر التوهج والاحمرار والانزعاج على ذقنه وقد التهبت وجنتاه وصاح بها:
- لويش باجر؟ هسه اريد اعرف..بعدين منو علمج المناقشة؟ ليش هو بقى راي تقولينه بعد كل ما صار..انت قحبة ..عرفتي ..هذي انتي عاهرة..لويش باجر؟ اريد هسه اعرف؟
ارتعبت من جديد. ولكنها لاتخافه. مطت شفتيها بتحدي رغم صغرها كانت كبيرة في نظر نفسها لذا قالت:
- اريد الاول احجي ويه ليان..راح افتهم كل شيء وبعدين انطيك قراري.
نظرت له بتصدي وقوة. وظهرت الصلابة والعناد في عينيها اللتين اتسعتا حتى غطتا على وجنتيها. تمالك نفسه. لها ارادة قال في سره. لايستهان بها. انكسر صوته، ولكنه ظل على قوته الظاهرية:
- اذا الموضوع علمود الاجرة ..تقدرين تتفقين وياي هسه..يعني نتفاهم وازيدلج الفلوس اكثر من ليان.
هزت كتفها. ربما! ليست الاجور فقط. ولكنها لاتريد ان تتورط في اعطاء موافقتها قبل ان تعرف أي نوع من الرجال هو؟ تود ان تحسن التصرف معه كمعميل فقط. مسحت شفتها بلسانها كأي امرأة محنكة انهكتها الحياة. رغم سن الستة عشر عاما وقالت بأصرار:
- راح تعرف جوابي باجر من ليان. اتصل بيها بالتلفون.

نهضت عن الفراش ومدت يدها نحوه تطلب اجورها عن تلك الليلة، ثم انتظرت حتى خرج من الغرفة وطلعت بعده.
لطف هواء الليل البارد من حرارته وتوهج عينيه. راحة تمددت مع الوحدة على قلبه. الريح تداعب شعره. ولكنها لاتطرد الافكار التي يعج بها. فوران رغباته يطوعها لخدمته. اوقف سيارته قرب شط العرب وراح يراقب ضوء القمر من بين النخيل وهو يجري مع تيار الماء. الارض تشده نحوها. والفرح يأتي بعد الضيق في الليالي الموحشة. ثمة افكار تراوده. تدق الساعة الثانية بعد منتصف الليل. الحياة تمضي بسرعة مثل هذا الماء الجاري امامه. وسنواته تنفرط كحبات صغيرة بطيئة..مسرعة كل يوم جديد رتيب. الهاث خلف الثروة والجاه. صوت لسيارة شرطة تزعق من بعيد، ذكرته بصفارات الانذار اثناء الحرب.. الوقت ما يزال وقت حرب لم تنته رغم انقضائها منذ سنين..ما تزال دائرة..رغم تسريحه لا يزال يخضع لمختلف الاوامر العسكرية والامنية. تراءت له كل مراحل حياته. دفعها داخل اغواره. لاشيء يحققه دون ارادة. هل يعتقد صاحبه فارس انه غبي. وانه سوف يشتري الارض له من مالك. هو شخصيا احق بها منه. منذ زمن وعينه على قطعة الارض هذه. كان خبر عرضها للبيع مفاجأة سارة له . سيلتقي بمالك غدا ويسهل الامر معه. سيلعب على الحبلين مع صاحبه وضده.
امواج من الظلام وامل يسبحان في فراغات ضميره. اخطبوط ذو اذرع سوداء هي المدينة حين اخترقها. ازبالها، دكاكينها دروبها اشرطة تلتقي في ساحة ام البروم. الهدير الهامس لنبضها. حشرجة وزمجرة تطول بها المسافات. حممة انحشرت داخلها الطرقات، وخلع عليها الفقر اثوابه الرثة. تحت نخلات بدأ الدود ينخرها، تكفنت بيوتها بالظلام. اجواؤها مطبوخة بغيوم الخريف والرطوبة الخانقة حتى القمر كان مبللا يقطر عرقه من هلوسات النائمين، وروائح المطابخ والمطاعم الرخيصة، والمراحيض العمومية، والبول على الارصفة فوق الجدران الملطخة بالنجاسة. جيوش من المعدمين والشحاذين يلتحفون السماء تحت انظار ريح الشتاء الباردة. روث الخيل والبغال فوق الظهور المحدودبة، والذين مات فيهم من مات، واندس الآخرون تحت عباءآت الثياب الملونة التي خمد بريقها. حمالون يفترشون الزوايا قرب الخان بحثا عن شيء يبعد شبح الجوع عن الامعاء الخاوية. متسولون يرفعون اذرعهم من بين صناديق القمامة. اضواء فوانيس هنا. وآهات للعسس في شجار هامس. هذا هو ليل البصرة نهاية القرن العشرين. مدينة يهل عليها تراب الانقاض للبيوت التي دمرتها الغارات وحروب السنوات العجاف المتهدمة فوق رؤوس ساكنيها الممزقون بين اسواق الهنود والبزازين والصيادلة واصحاب الخضار وقبور من دفنوا قرب نهر الخندق واذرع العشار الخاوية والميناء. جنائز الاطفال يصفها ويتحدث عنها العاجزون في ساحة ام البروم وخانها وهم يتهامسون عن الناس وعن الجوع والحصار وعن ايام مضت لأسواق تدعى اسواق المربد.
نام في شقته فزارته كوابيس الظلام لجثث تصرخ في الهواء وهي تبحر في زوارق فوق مياه الخليج، وملاحوها يرفعون المجاذيف ويلوحون بها كالنذير، ثم يدخلونها في مياه آسنة محشأة بالطحالب بعد انحسار الموج عنها. وارواحهم تنحني وتتهاوى امام ما يتناسخ اذلالا لها وخضوعا لأثار دماء يابسة على الساحل. فينشطرون الى الوف ويستسلمون ويتيهون بين اضواء لشمس تشرق من بعيد.
استيقظ وطعم المرارة في جوفه. دق جرس التلفون فأرتعب من يعرف رقم تلفون شقته؟ جاءه الصوت الذي يعرفه ..صوت صاحبه فارس:
- ما عرفتني..يعني انت تتصور احنة ما نعرف كلشي عنك؟ اشكد عندك املاك وشكد عندك فلوس..احنه محد يقدر يخفي عنا أي معلومات.. راح الاقيك على طريق القرية..جبتلك ما ردته.
ارجع السماعة. توقف قليلا ليسيطر على الهلع الذي غزا كيانه. ثم هرع الى المكتبة يسحبها من مكانها ويسد بها باب المخزن كي يخفيها تماما عن الانظار فلا يعرف احد ان هناك مدخل خلفها. كيف عرفوا بمكان شقته ورقم تلفونها؟ كلا لن يخيفونه ما دام يقوم بما يطلبونه ويسير وفق ارشاداتهم. الا الارض لن يأخذها منه احد، هي له. سيشتريها اليوم نفسه ولن يبوح بذلك. كالحمى والهذر ظلت الكلمات ترن مع القلق. اصبح ذو خبرة طويلة في التحايل. يعرف كيف يحرك ويدور تيارات دخان الشك حوله ويحولها لصالحه. لن يصبح ابدا مثل

سلام ولا مثل رعد ضحايا المثل والقيم التي آمنوا بها. هو نوع آخر..لايؤمن الا بنفسه وبالمال. الارض هي فرصته لتوسيع املاكه.
قاد سيارته بأتجاه مكتب شركة المقاولات والانشاءات المحدودة في البصرة والتي يملكها مالك. وحين وصل الى شارع دينار كان النهار قد انتصف. رحب به مالك بحرارة، وكأنه يرحب بصديق عزيز رغم انه لا يعرفه ولم يلتقي به ولكنه سمع عنه وعن غناه المفاجيء. ادخله الى مكتبه وطلب من الفراش استكان شاي. وهو يسأل نفسه ما الذي جاء به وماذا يريد منه؟ فقد حذره الكثيرون من التعامل معه.رسم الابتسامة على وجهه يخفي بها ما يفكر به:
- اهلا وسهلا ..شنو هذي الزيارة المفاجئة. جان لازم تخبرني حتى نقوم بالواجب.
صارم يعرف مداهنات مالك جيدا ..يعرف مرونته وليونته وكلامه الدبلوماسي في التعامل مع الجميع. ولا يخفى عليه ذكاءه في المراوغة التي علمها له والده حين كان يملك الاراضي الواسعة من اقطاعيته. "تربات الانكليز" كما كانوا يطلقون عليه. لاداعي للف والدوران سيدخل الموضوع رأسا. حرك سبحته بين اصابعه ثم اخرج علبة سجائره وقدمها الى مالك، واخذ سيجارة منها واشعلها وراح يدخن بهدوء قبل ان يقول بتؤدة. وهو يراقب الدوائر البيضاء المرتفعة ببطء فوق رأسه:
- سمعت اخبار تقول انت تريد تبيع قطعة الارض اللي يم ارض ابو ساهر ..صح هذا الحجي؟
اعتدل مالك ونظر بريبة الى صارم. وكأنه يحاول قراءة افكاره واختراقها بالتركيز في عينيه. كيف علم صارم بأمر الارض وهل يعرف ان اموره المالية ليست على مايرام، فمنذ فترة اخبره مهندسه وكذلك المحاسب ان عليه ان يدعم رأس مال الشركه حتى يستطيع الدخول في مناقصة تنفيذ مقاولة بناء عمارة فندق البصرة في العشار. هل هناك احد يسرب احواله المالية الى خارج شركته. قال بحذر:
- فعلا اريد ابيعها .. بس منو قال لك على هذا الخبر؟
تطلع صارم بعمق الى الرجل وقال وهو يزن كلماته:
- بعض الاصدقاء ..لويش تسأل؟
لن يصل الى نتيجة معه..ابتسم مالك بمودة وهو يقول:
- لا ماكو شيء بس ردت اعرف.. شنو سبب اهتمامك بهذي الارض؟
برق لمع خطفا في عينيه لاحظه مالك ولكنه سرعان ما غاب وحل محله وجه بدون ملامح :
- اريد اشتريها منك.
تحرك مالك داخل كرسيه المريح وقال بعجلة بعض الشيء:
- متأسف..تعاقدت على بيعها ويه ابو ساهر واستلمت العربون.. وبعد كم يوم اوقع الصفقة.
انتفض صارم . ولكنه حافظ على هدوئه وقال:
- زين بهل الحالة خلينا نساوم.. اقدر ادفع اكثر ..رجع العربون..آني اريدها الي.
ثم اردف وهو يصر على الكلمات وقد اعوج لسانه بالقسوة:
- صدقني..ماراح يأخذها احد غيري.
ثمة افكار سريعة خطرة جالت . فأجواء التهديد تثير غبارا بالعناد خلفها..رغم الحرج قال مالك بأعتذار:
- ما ادري..بس آني راح اكلم ابو ساهر بالمعروف..لأن تدري آني ما احب المشاكل وما احب اخلق عداوات مع احد خصوصا بالقرية..وابو ساهر عنده كلمته ومركزه محد يقدر يستهين به.
قال صارم بهدوء رغم الوميض المتدافع من احداقه:
- اذا آني حصلت عليها صدقني كل مشاكلك راح تنحل حتى لو يوصل الموضوع للمحكمة اكو من يوقف وراك..وتفوز وآني ارجع لك كل مصاريفك.
قال ذلك ثم نهض يهم بالخروج وهو يكمل حديثه:
- راح امر عليك بعد اسبوع..حتى نكتب ونوقع العقد.

القى التحية ثم خرج. كان الزحام شديدا في الشارع وتجمع بعض الناس في سراوات على المخابز ومخازن بيع البيض. وكثر الازدحام حول مركز لتوزيع المواد الغذائية بالبطاقات التموينية. حاول الحصول على طبق بيض ولكن احدى النساء دفعته بقوة واحتلت مكانه. فتراجع وخرج فهو يأتي بما يحتاجه من القرية. اوقف سيارته امام احد المطاعم في الساحة. كانت هناك شعارات قديمة خطت على السور العالي. يسقط الاستعمار. تعيش فلسطين. بجانبها اعلانات فقدت خصوصيتها وتمزقت اطرافها. عبر امام العمارة المهدمة التي قصفتها القنابل في احدى الغارات. الروائح الكريهة تفوح منها. والاحجار مبعثرة في كل مكان. وما تبقى من قضبان شبابيكها معوجة. بعض الغربان تنقر شيئا من بين اعماق الحجارة. رفرف طير محلقا يحمل رائحة الموت بين جناحيه وهو يدفع الهواء. شمس الظهيرة الدافئة اثارت لديه رغبة في التمشي خلال الدروب الضيقة وان يسلك الطرق التي تؤدي الى لاشيء، داخل تلك الازقة التي تتصل وتتواصل مع بعضها. جدران دورها العالية تحيط بها من الجانبين،كي تخفي عن عيون الفضوليين ما هو غير مستباح. بعض الشناشيل القديمة برزت من حيطان انبعجت بالرطوبة والعفونة. لم يمتد لها التجديد منذ سنوات طويلة. نوافذها مسمرة بالقضبان الحديدية، وطلاؤها مرقع بألوان اكل عليها الدهر وشرب. ابوابها خشبية تصر وتئز كلما فتحت. انها البصرة القديمة. بدروبها الملتوية. التراث العريق المهمل وصفحات من التاريخ يطويها النسيان ولا تمتد لها يد العناية والتجديد.
اتجه صوب احد المطاعم في ساحة المدينة. كان مطعما صغيرا صفت فيه بعض الموائد الخشبية والكراسي. ولكنه كان نظيفا وقد فاحت رائحة الشواء تملء الارصفة حوله. رجلان جلسا قرب احدى الطاولات يشربان الشاي وهما يتحدثان بصوت خفيض. جاء له النادل بصحن من الكباب مع الخضرة وصمونة صغيرة سمراء اللون لم تشبعه. طلب استكان من الشاي. وفيما هو يرتشفه سمع ازيز المقاتلات الامريكية، ثم قصف في مكان ما ليس بعيدا. كان الدوي قويا رج الجدران وجعل المارة يتراكضون مذعورين. وما ان انتهت الاصوات حتى عادت الحياة الى مجراها الطبيعي وكأن شيئا لم يكن. لقد اصبح القصف اليومي شيئا عاديا بالنسبة للناس حتى انهم لم يعودوا يأبهون به. صاح صاحب المطعم:
- من صوت القصف تره يبين المجان قريب..يمكن يم محلة الجمهورية.
على رصيف الشارع جلست امرأة معيدية وبجانبها طفل يبكي بحرقة وهو يصيح:
- آني جوعان.
اقترب منهما جندي يدب على عكازتة وهو يجر ساقه الخشبية خلفه. حاول تهدئة الطفل وقد ظهر عليه الخجل والارتباك:
- لا تبجي بوية..هسه نوصل للبيت.
كانت عيون الجندي مغشاة بالدموع والحسرة، وحيرة وعجز مؤلم. ثيابهم حائلة الالوان تبرز بعض الرقع عليها، وقد تهدلت فوق اكتافهم. زاد بكاء الطفل النحيل:
- بالبيت هم ماكو اكل.
تلفت الجندي وهو يدور على عكازته بالقرب من زوجته وطفله. قبعت الزوجة قرب باب المطعم. غبار الريح تزيل نظارة الحياة عن وجهها المسكون بالاصفرار. تنظر الى زوجها العاجز فتتدحرج قطرات شفافة فوق بؤبؤ العينين. تنفض الطين عن سترته المنسابة فوق جسده النحيل. تشير بذبول شفيف بالحنان نحو المطعم. المهم ان نعيش الحياة فهي تستحق المعاناة من اجلها. دخل وسأل عن سعر الكباب.فتش جيوبه واخرج كل ما معه من نقود وقال:
- هلكد بس عندي.
زمن الانانية والنقود. لا مرض يهزه. يرزخ تحت وطأة انا هو المهم. بصوت اجش رفض صاحب المطعم وهو يصيح:
- ما يكفي..مايكفي حتى تشتري صمونة.
لم يتحرك الجندي ظل صامتا وهو يمد يده. فجأة استدار الى الجالسين وبنفس اليد الممدودة وبمذلة وبطء قال:

- حسنة لله يامحسنين..لخاطر ابني الجوعان.. انتو العراقيين اصحاب نخوة وشهامة.. صدقة لله ولهذا الطفل الجوعان.
نظروا له ولم يتحرك احد. لم يتحرك صارم ولم يتحرك الرجلان الآخران ولم يتحرك صاحب المطعم ولا صانعه. بل احنوا رؤوسهم وتجاهلوا اليد الممدودة. قبل سنين لو حدث ما حدث لقفز الجميع لشراء وجبة للطفل. اما الآن فقد سكتوا واداروا ظهورهم. طفل يبكي من الجوع ما اكثرهم في هذه الايام. قبضة ريح حملها الجندي المنكسر وهو يدب على ساقه الخشبية. وهمس شيئا في اذن زوجته. فحملت بهشاشة الطفل الضعيف الذاوي بسوء التغذية والامراض الآتية من الهواء وهو يبكي. لؤم خيم في الجو، واحداق فيها لغو بدلا من العطف. لغو ابتكرته المدنية الحديثة. سار الجندي متوكئا على عصاه يجر رجله المقطوعة في خنادق الدفاع عن شرف الشعب. سيبكي الطفل ثم يسكت. ابتلعهم زحام الشارع ولم يبقى لهم اثر. اختفوا داخل تيار عشرات آخرين حول الساحة وهم يمدون ايديهم ..صدقة يامحسنين..ايها العراقيون مضايفكم فارغة. تراثكم اكله السوس. كرمكم اصبح اساطير. تبعثرت ثروات هذا البلد وذهبت لسد ديون الحروب. لو هذه الثروات ذهبت للبناء وفتح الطرق الحديثة وتجديد البيوت القديمة المنهارة..لو ذهبت للزراعة، للكهرباء..لخطوط سكك الحديد..لنشر الثقافة..لو ..لو لأصبحنا من اغنى بلدان العالم. ولكن بعد ان مر التاريخ بنا داخل محرقته. اصبح البلد يصحو وينام وهو رافعا يدا يستجدي بها.
ساق صارم سيارته نحو حافظ القاضي فهناك بائع للكبد المشوي والفشافيش لأكمال غدائه وتناول الشاي. هذه الاكلة دائما تثير شهيته منذ ان كان مراهقا وفقيرا. وحين لبس ملابس الجندية واصبح مراسل العقيد لتسهيل مشاوير عائلته اضحت لديه عادة كلما نزل الى البصرة ان يتعمد المرور قرب ابو الفشافيش، لشراء لفة خبز يتناولها وهو في طريقه لتسهيل ما كلف فيه من مهام.
الازدحام في الباص السائر امامه جعله يحس بتفوقه. وحين استدار بأبصاره ناحية الدكاكين شاهد سيارة ابو ساهر البيك آب تقف فارغة قرب احدى الورشات لتصليح السيارات. لايريد ان يراه ولا ان يجعله يشاهده فليس مستعد للمجاملات، لذلك اسرع بسياقة سيارته مغادرا المكان. لا يحب ساهر ولا ابو ساهر. ولا يود لقياهم الا للضرورة..جز على اسنانه بتصميم لن يأخذوا الارض منه.
مرت ساعات العصر وهو مسترخي على فراشه. ايقظته تيارات المساء الباردة من قيلولته. في داخله نبرة حزينة وفراغ. اتصل تلفونيا بليان فأخبرته ان نجوى ستكون تحت طلبه متى ما اراد..فأكد عليها انه يريد ان يعرف كل شيء عنها..ترددت قبل ان توضح له بأنها حاليا لاتعرف الكثير ولكنها ستبذل جهدها للسؤال عنها.
مرت الايام الثلاثة التالية متشابهه وهو مايزال في البصرة لايريد مغادرتها قبل معرفة مصير صفقة الارض، فهو يعرف ان تأخره في حلها سيعني خسارته في الحصول عليها. وفي ثنايا كل قضية بيع او شراء توجد نقاط ضعف عليه معرفتها واستغلالها لصالحه. بما ان القضية قد تعقدت فيعني لاشيء ينبىء بالخير. وهذا زاد من قلقه بأنهيار حلمه بتوسيع اراضيه.
بعد لعبة قمار مع علي ومحمد اتصلل بليان كي ترسل له نجوى. كان الوقت قريب الصبح حين طرقت باب شقته. كانت تلبس ثوبا جديدا لينا داكنا مملؤا بالورد، وقد تركته مفتوحا عند رقبتها زيادة في الاغراء. ولم يمهلها وانما اسرع بها الى غرفة النوم وبنفس عنفوانه السابق مارس معها الجنس. نهض عنها وطلب منها ان تسخن له الماء وتعد له الحمام. ثم حلق ذقنه وخرج متوردا انيقا، فوجدها قد رتبت الشقة ونظفتها. تحرر من ريبته وشيء من خوفه، فهي كما يحب ان تكون عليه المرأة تشبع رغباته وتدبر له منزله مع الاسف انها عاهرة. اخبرها بأنه سوف يدفع لها ضعف ما كان يعطيه لليان على شرط ان لاتخدم احدا غيره ..يريدها له وحده. هو يؤمن بأن حياة الانسان هي تاريخه وهذا مبني على القرارات التي يتخذها، وعلاقة المال بالأنسان وبنظره هو المحور لمثل تلك القرارات. صارم لاينسى ابدا اقل هفوة خلال هذا النسيج قد يحمل التحطيم لمستقبل أي انسان. وكي يزرع أي بذرة لقضية جيدة عليه تقدير تأثير قراراته كي تثمر بصورة حسنة. فهو يسمي حكمه بذور المستقبل. لذلك راقبها بدقة حين اعلنت موافقتها على اقتراحه ولم تفته لمعه في عينيها وكأن ذلك اراحها. واضح جدا ان كتمان الحدث وما تقوم به هو اخفاء حياة لاتريد لها الظهور للعيان، اكسبها مظهرا متصلبا رغم صغر

سنها..ولم يستعص عليه فهمها..خصوصا انها اصابت قلبه مباشرة بنظراتها والفزع البعيد في اغوارها. بؤرة كارثتها كأنما تمر فوق رأسها دون ان تجعلها تتوقف عندها. فهي ترفض الخسارة لخطوتها الاولى في طريقها الجديد. فهو ليس ربحا سهلا كما يظن بعض الناس. انه نهب لمستقبل كان سيكون مشرقا، وثمنه الرعب والجزع ليل نهار وفي كل خطوة. لذلك لن تدع احدا يسلب منها قبضة الريح التي امسكت بها. اقترحت عليه ووافقها ان تأتي دائما قرب الصباح مرتين في الاسبوع، وان يقوم بالاتصال بليان لأبلاغها بوجوده في البصرة. ومرت من امامه كظل وهي تخرج.

رغم الاشباع، كانت روحه ممزقة تتداخل بين التظاهر بالرجولة واللهاث خلف النفاق هنا وهناك..هل هو سعيد؟ وما هي سعادة الانسان وكل شيء تافه حوله؟ كثير ما سأل نفسه هذا السؤال. فهو يلهث للحصول على ما يريد..ويتعب في الجري ولا يصل الى اهدافه بسهولة. لديه آماله ولكنه يركض وراءها واحيانا تبدو مستحيلة. يحاول جهده ادعاء الثقافة التي يجهل معظمها، ولكنها ضرورية كي يدخل عالما غريبا عن بيئته التي نشأ فيها، عالم الاغنياء المتلاعبين بمصائر الآخرين، والمخططين لما يجري في المجتمع. عالم الناس الذين يفرضون على المجتمع تقاليده وعاداته ويرتبون له حياته اليومية. في مجتمع كهذا النساء يصبحن مجرد ادوات استغلال للاهداف الشخصية في سبيل التواجد والصعود دائما الى الاعلى. اثناء ذلك قد يرفسوهن ويدوسوهن هن والضعفاء تحت الاقدام. وتستغل اكتاف الاقوياء للوقوف عليها. عاد السؤال داخل ذاته..اهو يسير في الطريق الصحيح الذي خططه لحياته واهدافه..وهل السعادة هي في نهاية هذا الطريق؟ ومن هي نجوى هذه؟ لم يلتقى بها سوى مرتين وها هو لايستطيع انتزاعها من افكاره او ابعاد هيكلها الصغير عن باله.. كالطفلة هي بجسدها النحيل ما الذي دفعها نحو هذا الطريق الشائك؟ صوتها يتداخل متشابكا مع افكاره.. خوفا ارجف قلبه..هل بدأ يتعلق بها؟ ابعد الفكرة انها انسانة مسحوقة سحقتها الحياة وقد قتل طفولتها في اليوم الاول للقائه بها..كان من الممكن ان يهواها ويتزوجها لو انه التقاها في ظروف طبيعية ولولا ما اصبحت عليه الآن..انها حاليا ليست سوى عاهرة..قد تكون وديعة جميلة لطيفة ولكنها انتهت بعد ان سلمته نفسها. كان من الممكن ان يفعلها معها أي رجل آخر ترميه الظروف في طريقها ما الفرق. عليه الحفاظ على نفسه..على المكاسب التي يحصل عليها. لن يدع الحياة تسحقه هو من اجل انسانة لا قيمة لها. سيصد التيارات السائرة ضده بعناده والقسوة التي يحملها بين جوانح زمنه.

في المساء التقى مع محمد وعلي في لعبة بوكر. حيث تحدثوا عن اشياء خارقة ومروعة. ورغم ذلك كان كل ماحوله لذيذ وهو يتمعن في عيون اصدقائه، ويدرس تصرفاتهم وشخصياتهم. كان وجه محمد قبيحا ولكنه يحمل روحا عنيدة مشاكسة. اما علي فيترك الحياة تمضي به دون ان يتوقف عندها. يدخل الابواب المفتوحة له على مصراعيها بثروة ابيه. يرقص على عدة حبال ولا يهمه ما يحطم. يحتضن عالمه بقوة المال المقتدرة على كل شيء. منذ تعرفهم على بعضهم قبل عدة سنوات خلال احدى الصفقات والعلاقة تتوطد بينهم خصوصا لاشتراكهم في حبهم للعبة القمار. يتجاهلون ما يمر امامهم وكلأنه لايمسهم بل خصص لغيرهم. شقاء الآخرون لايهمهم هو لغز الانسانية الابدي في ديمومتها التي يرونها جبلت لخدمتهم. بجموح يلتهمون البؤس المحيط بهم ليثبتوا تواجدهم في الزمان الذي نأى عن الجميع وكأنه تركهم هم سالمين ثم عبر بعيدا عنهم. لم يترك لهم حتى ذكريات يرجعون اليها. كان الجنس يشكل العمود الفقري لمنهاج ايامهم. ولكنهم وبشكل مبهم يحاولون اخفاء اخفاقاتهم فيه بشكل او بآخر، كالمكابرة او بالتفاخر او يعتبرونه مجرد صيد. الكلمات تتناثر بتشدق وارتياح حين يحصل واحد منهم على مبتغاه. الربح والخسارة في القمار كان يزيدهم اندفاعا فيه. اما صارم فكان دائما يضع امامه المبلغ الذي لايتعداه ابدا مهما حدث. فحال ما تنتهي نقوده ينهض عن المائدة بعذر ما . فاللعبة هي لمسايرة كل ما يدور حوله، ولسماع آخر الاخبار، وطريق مأمون للصفقات. واذا خسر اصدقاؤه يداينهم، ثم يلح في طلب دينه، ويصر على أخذ ارباحه، ويلح عليهم لتقديم خدمات له يفكر بها بأناة. كان يغش احيانا بخفية تامة، ولم يكشف احد ابدا خداعه لهم.

مرت ايام ومعها ليال اخرى، وفي صباح السبت من الاسبوع التالي زار مالك. تأنق في لباسه ورسم ابتسامة محنكة تخفي كل انفعالاته. سيكون هادئا مهما استفزته الظروف. كذلك مالك تأنى في حديثه ولم يظهر تقززه

من العملية بكاملها. لايخاف جنون صارم او تهديداته المبطنة. ولكنه يحذر منه. ظهر امتعاض صارم واضحا على جوانب عينيه. وكأن الافراح اغلقت ابوابها حين اخبره بأنه اتم الصفقة مع ابو ساهر وباع الارض بصورة نهائية.وفي حالة رغبته بشرائها فعليه ان يطلبها من ابو ساهر، اما من ناحيته فقد انتهى الموضوع وتم تسجيل الارض.

كان الجفاف في حنجرة صارم يعيقه عن الرد، فأسرع يصفق الباب بشدة خلفه وهو يمضي. توقف امام المكتب لحظة لتهدئة حالة الغليان التي كان يشعر بها. وبحقد اصر على اسنانه. سيجد طريقة للرد. ان المعادلة لن تنتهي عند هذا الحد. هل يعتقد مالك انه افلت منها؟ هل يعتقد انه من الممكن ان يسكت؟ ليس ضعيفا هو ولن يدع احدا يسخر منه.

عصرا وعلىالطريق الترابي ودون انزعاج وكأن الامر لايهمه اخبر صاحبه فارس بتفاصيل زيارته لمالك. لم يجبه فارس في البداية وكأنه لجم. ومرت دقائق قبل ان يضرب حافة السيارة بقبضته بعنف. وكأنه لُطم بشدة في روحه. وفي عينيه لاح تجمع جنوني لأشياء لمعت واستقرت. كحجر صلد تجمدت احداقه وجاشت بالكراهية. قطع تلك الحالة وهو يلتفت الى الناحية الاخرى من الطريق..هذا الحقير مالك ردد كالصراخ. تدارك صارم الموقف قائلا:

- بالضبط هو اكبر حقير والاحقر منه ابو ساهر.. بس اكيد راح نلاقي طريقة تخلي ابو ساهر يبيع النا هذا البستان..بالقوة.

هوس اعمى. جوع عميق الشأن تصلب يقتل الصبر ويحرقه من منابته. مكابرة وعناد رافقاه في الطريق العائد به الى القرية. عيناه تتحركان بسرعة المتاعب القادمة. كالمرض حين يدمر الخلايا الرمادية للدماغ سرت متأججة زوبعته، وهي تعلن ..عليكم المشي على قانوني انا. وكما اريد انا. طاعتكم بدون نقاش ما ابغيه. كي اسيربكم كما ارغب، واقودكم كما اشاء. وهذا هو المهم. كان شقيا منهوب المشاعر ومشتت الافكار حين وصل الى بيته. كانت الساعة قد قاربت التاسعة مساءا. ولكن في القرية الوقت لاوجود له. اقترب من الثلاجة واخرج بيرة مثلجة وبعض الطعام. دخل الصالون وفتح النافذة. هبات من الهواء البارد انعشته قليلا. اوحشته الوحدة والسكون فجلس ساهما يستعيد اوقاته في البصرة. يرتب الافكار في عقله دون جدوى للحصول على الهدوء المطلوب. اكل وشرب ثم اقترب من التلفزيون يفتحه فزعق المذيع بالاخبار، فأسرع الى اغلاقه. واتجه نحو الراديو واداره حتى سمع احدى المحطات العربية وهي تذيع اغنية لأم كلثوم. فأستكان لصوتها الدافيء.

عند منتصف الليل نهض بتثاقل وشعور بالانسحاق والفقدان يخزه في قلبه. قصد غرفته واغلق الباب واضاء المصباح. القى نظرة على المجلات والصحف اليومية المرمية فوق المنضدة. فلعن ام صابر على اهمالها في تنظيف الغبار.ولكن ذلك لم يحسن من وضعه النفسي. خمول في الجسد والروح يأتي دائما حين يفقد او لايحصل على مايريده. القى نفسه فوق فراشه وغط في ضباب النعاس.

اصوات في المطبخ ورائحة طعام ايقظته. لم يفتح ابصاره ولم يحدق في السقف كما تعود. رخاوة وشيء غامض تملكه. لامس نفسه برقة. طيف نجوى وحرارة جسدها جعلته يشتهيها بقوة. رغم سكونه ارتعش جسده، عطرها الحلو، استكانتها واستجابتها لكل مطالبيه ومشاركته في اللهاث اصبحت ضرورة ورغبة تلازمه. اهو التعود على الانثى ام شيء آخر. ابعد الفكرة عن عقله. مثل هذه المراودات تقود الى الاستعباد..هي بضعفها وهو بأحتياجه..في النهاية لن يستغني عنها. هذا نوع من انواع الرق. او شكل مثله. لاحاجة له بشيء مشابه. عليه الاستغناء بسرعة عن اشتياقه. تدفق سائل بين اصابعه. لن يغلبه احد انه هو العنصر المتفوق على هذه الارض. انه كائن فريد. وردد لنفسه الكلمات التي يحبها..تؤخذ الدنيا غلابا.. ورنت الاغنية في خياله، ثم اختفت لتعاوده من جديد. ..ومن لايحب صعود الجبال يعش ابد الدهر بين الحفر. الصوت الدافء وحلاوته تزيد من معنوياته وتزيل ما يشعر به من سوداوية سببها يعرفه..فشله في الحصول على الارض. الكآبة جعلت شمس ذلك اليوم اكثر ضبابية وبرودة. ابعد بدون جدوى حنينه الى نجوى. انها ليست سوى وسيلة لأشباع غرائزه. وشوقه هو مجرد تعود، نظرا لمجيئها كل يوم طوال الاسبوع الماضي، فأصبحت لازمة لبداية يومه. ففي كل صباح تزداد لهفته لهذه العملية ولنجوى. تخيلها وهي تتمايل امامه بكل اعطافها وليونة جسدها ونهديها وظهرها المكور،

وحركاتها الانثوية البالغة الجمال. ولكن لماذا تنتهي رغبته فيها حال ما يتم العملية الجنسية؟ لماذا تتبدل نظرته لها؟ فيراها خرقاء غبية وحركاتها شهوانية فاضحة لا حياء فيها. وكم يكرهها حينها، كأنها اخذت منه سعادته وراحة باله وتركته لفراغ مخيف لاقبل له بالتغلب عليه. فتصبح حركاته اكثر تراخيا. وتخف سرعة تفكيره وحذاقته..ان تلك العملية التي يشبع بها جسده تشعره بالارتخاء والخواء كالقربة التي تم افراغها. العقل هو المهم اما الغريزة الجنسية فليست في نظره سوى ردود فعل من الاصول الحيوانية السابقة، والتحكم بها تجعله اسمى واكثر احتراما لنفسه. الانسان هو العنصر الاذكى والاقوى صلابة والاعلى فرادة، والطبيعة قد اختارته هو لتسيير قوانينها والابداع فيها.
نهض من الفراش. وزاد نشاطه بعد كل حركة. وتوضحت افكاره وصفت. سينال ما يريد بشكل او بآخر. لبس معطفه البيتي وفتح النافذة. اندفع الهواء البارد ليكثف برودة الغرفة. هرع الى المدفئة الغازية يشعلها. افرحه لهيبها ذو اللون الازرق. رائحة البيض المقلي وهي تتصاعد من المطبخ اثارت شهيته. سمع صوت ام صابر وهي تتحدث بهمس في الطابق الارضي.
كانت ملاذ جالسة على كرسي قرب النافذة وقد اسندت خدها بيدها الى المنضدة الصغيرة وهي تتهامس مع ام صابر بأخبار القرية. ضياء الشمس المنسكب من الشباك امسك بخصلات شعرها فأضاءها بلون بني فاتح، ثم تخلله الى رقبتها وجانب من وجهها. عندما كانت صغيرة قالت مرة لوالدها انها تريد ان تمسك النور بقبضتي يديها، ومدتهما وهي تضم كفيها كالكرة الصغيرة في محاولة كي تريه كيف يمكن فعل ذلك. قالت له انها ستأخذ النور معها وتحتفظ به وحين يحل الليل ستطلقه فينير الظلمات ولن تخاف بعدذلك ابدا. قال لها قد تفعلين ذلك في يوم ما من يدري، فتأخذين النور معك ليدخل قلوب الناس. قال لها ان الأقدمين وكبار النفوس يحملون النور داخل ارواحهم حين يحاربون ويستشهدون ليس في سبيل العزة والكرامة وانما في سبيل الحرية. كان ابوها لايؤنبها ابدا حتى حين ترتكب اخطاءها الصغيرة.انه يرى فيها وجه امها التي ماتت في المدينة الكردستانية هناك بين الجبال في تلك الليلة المشؤومة حين تناثر عليهم الهواء المسموم. لن يرى وجهها بعد الآن وفيان/ ملاذ نسخة طبق الاصل عن امها، حتى في طريقة كلامها وضحكتها ولون عينيها. قبل اسبوع حين اخبرها بأن صارم يريدها ان تقوم بالخدمة في بيته تغير لونها. فهي تكره صارم ولكنها امتثلت بحكم الضرورة الواعية بأن عليها عدم الممانعة. اطاعته ايضا حين امروها ان تترك المدرسة وان تعمل في بستان صارم. كل ما يحيط بها يحدث بخبث وصمت. كل شيء يخصها يخطط له صارم وكأنها مملوكة اشتراها في سوق العبيد. انه لايعير التفاتا لوالدها وهو المسؤول عنها وكأن لاوجود له، خصوصا بعد ان ضعف بصره تدريجيا واصبح لايميز الاشياء الابصعوبة. وفي ذلك الصباح جلست بمرح الصبا تمازح ام صابر وتضحك معها حين دخل صارم عليهما. قفزت مرتعبة من ظهوره. لمح هو ذلك فأرتفع صوته يعنف ام صابر على عدم دقتها في تنظيف البيت والغبار منتشر في كل مكان. صوته اربكها وادخل الكآبة الى قلبها الصغير، وتلافيا لأي اتهامات جديدة نهضت ملاذ رأسا تنفذ اوامره. حين اتمت ترتيب الطابق السفلي انتقلت الى العلوي حيث غرفة النوم. كان صارم قد انهى فطوره فلحق بها هناك. دخل خلفها واغلق الباب بالمفتاح، حينها عرفت ما يضمره لها. فهمت سر دعوتها للخدمة في البيت. كشفت ما اخفاه وما كانت تخاف منه. وتزايد فزعها وهو يقترب منها بهدوء. حاولت الفرار ولكن ذراعيه كانتا قد طوقاها. جهدت في الصراخ ولكن صوت الراديو العالي طغى على صوتها. سحبها بقوة واحكم قبضته فوق ذراعيها. اقشعر بدنها وصرخت من جديد تنادي ام صابر الا انه وضع كفه فوق فمها يخنقها ثم دفع بها نحو السرير. رفسته وهو يرفع ملابسها ويندس بين فخذيها. بثقل جسده احكم فوقها الحصار. صلب رجولته داخلها وهو يخترق عذريتها وبلذة كبيرة مارس عملية الجنس وهو يضغط على جسدها بكل قوته ويكتم انفاسها بيده. تأوه بعد ان انتهى. نهض عنها وراح يلبس بجامته من جديد ويلف نفسه بروبه البيتي وقد شعر بالارتياح كونها لم تزل عذراء لم يسبقه احد اليها. فتح السرور نفسه وازال كل ما كان يشعر به امس من احباط. تركها ملقاة على السرير ودخل الحمام كي يستحم. لم تتحرك من مكانها وبقيت كالميته دون حراك حتى خرج من الغرفة. شعرت ان الدنيا قد اظلمت. وظلت عيناها مفتوحتين فترة لاتعرف مداها وهي منطرحة بسكون. وبصعوبة نهضت بعد ذهابه. وبدون ضجيج وبحركات خرقاء عدلت من ملابسها. دخلت الى الحمام وفتحت

على نفسها مياه الدوش وهي عارية واخذت تدلك نفسها وكأن كل اوساخ الدنيا تغطي جسدها. ولم تستجب لنداءات ام صابر، وانما اسرعت عائدة الى كوخ ابيها حيث نامت. وبقيت نائمة عدة ايام ترفض النهوض حين كان والدها يحاول معرفة ما بها. ولم تساعده في عمله او في اشغال البيت رغم تذمره المتواصل بأنه لايرى الا بصعوبة..لم ترد على سؤاله الملحاح ماذا بها وهل هي مريضة؟ لم تفه بكلمة وبقيت طريحة الفراش وكأن الوقوف على قدميها يكلفها جهدا كبيرا. حتى زاد قلق والدها عليها وذهب الى رند يطلب عونها لمعرفة ما حل بها؟ ولم تتوان رند في المجيء لزيارتها الا ان ملاذ ادارت لها ظهرها ولم تنبس بحرف فدعتها وشأنها وقد اكتنفتها الحيرة.

الفصل السادس

حين يُورق الصمت

كانت الامور قد تعقدت في بيت ابو رند بعد مجيىء الضيف المختبيء في الكوخ القديم. فبواسطته ولجوا دنيا جديدة عليهم، او ربما كانت مختفية طي الذكريات وبدأت تظهر من بين الاغوار العميقة، فهي ليست جديدة تماما. ومن الواضح جدا ان اسلوب عادل في الحديث كان يشدهم، فيأملون بالمزيد. لذلك كثرت زياراتهم المسائية، والليلية الى الكوخ في طرف البستان، وبسرية تامة وتكتم على قدر المستطاع كي لايكشف احد من المقيم هناك. لقاءاتهم هيمنت عليها شراهة النقاش وتبادل الآراء في كل المواضيع وكأنهم يحكون عن رائعة من روائع الانسان وقوة صموده وقدرته على تحمل المصائب وابداعاته في جميع المجالات. كانوا يقصون على بعضهم قصص الحظوظ الحسنة والسيئة الطالع. ويتعاطفون مع اناس لايعرفونهم ولم يسمعوا بهم ولكن احداثهم كانت توقظ فيهم حميمية وعطفا موجودا تحت غطاء القلب. واحيانا يلازمهم تشنج يمضي بالخيال الى ذروته الطاغية من الالم. قلب الدكتور عادل امتلأ بأنقى عرفان بالجميل لما يقومون به من اجل راحته وفي سبيل حمايته. كان كالبحر في تفرده وغموضه. ولديه كينونة شاعرية يعيشها ويعمقها بوحدته منذ صغره. هذه الذات ولدت لديه حياة منظمة بشكل كامل في جميع نواحي معيشته، حتى في افكاره واعانته ايضا في سنوات عمره القاسية. وبعد ان التقى بأبو رند زادت احاسيسه رهتفة وليونة. فكل شيء بينهما يشي بالتعاطف الصامت. فرغم انه لم يمر على لقاء هذين الكائنين سوى ايام الا ان روابط وعلاقة رائعة من الثقة الخفية والظاهرة والباطنية توشجت بينهما وكأنها منحة الاهية وطدت التعلق والاحترام لبعضهما. وكل يوم يجتهدان في المحافظة على هذا التفاهم والتوازن. فعادل بشبابه وذكائه وثقته بنفسه وقوة شخصيته التي بناها خلال يتمه منذ طفولته من جهة وابو رند بنضجه وخبراته وتاريخه الغني من جهة اخرى. بالاضافة الى ان ابو رند وجد في عادل ما كان عليه ايام شبابه حين كان طالبا يدرس في كلية الزراعة، سنوات ممارسته للسياسة مرحلة الستينات والسبعينات ذلك الطريق الذي تخلى عنه نتيجة الانكسارات المتكررة وخيبات الامل المتلاحقة. زاد على ذلك الحروب والحصار، كي يصاب بمرض الكآبة المزمنة التي سببها له شعوره الدائم باليأس والاحباط، والانحطاط والعجز والكراهية لكل ما يحيط به. وبشكل من الاشكال ادخل عادل الى تلك الحياة الكئيبة ضوءا صغيرا كاشفا، بأن حيوية عمره لم تنضب بعد، ولازالت تطالبه بالفوز والنجاح في التغلب على ذاته الخائرة. فظهرت لديه تغيرات ايجابية على جميع عاداته اليومية دون ان يشعر بذلك، توضحت في زيادة حماسه للعمل مع اخيه، وتألقه في ابتداع اساليب جديدة لتمشية الامور المالية. افرح ذلك اخيه ابو ساهر وسره جدا وعمق من تعلقه به، فقد كان محتاجا الى تلك القوة الباطنية لدى اخيه، وكأنما الزمن الماضي ايام الشباب اخذ يعيد نفسه بهذه الصحوة، والتي لم يعرف دوافعها واسبابها. ولم يكتشف ان ابو رند حال ما ينتهي من مجالسته ويودعه ليعود الى بيته وما ان يحل الظلام حتى يهرع الى عادل وهو يحمل قنينة العرق وصحن المزة. فيجده بأنتظاره بأحاديثه الطلية والقيم الانسانية التي يؤمن بها. فكل الشعوب تحتاج الى اناس ذووا ضمائر حية توقظ فيهم روح الامل. وابو رند وعادل اناس يؤمنون ويحاولون المساهمة بأفعالهم في كتابة تاريخ بلادهم والتأثير عليه للسير به نحو مستقبل افضل، مع الاجتهاد في خط طريقا صحيحا له ولو بواسطة صياغة افكارهم وارائهم عن ما يرونه في حياتهم اليومية.

في ذلك المساء بالذات حين وصل لاحظ ان عادل قلقا ومضطربا ويلفه الغموض، وقد اغلق صدره على اسراره وغلف نفسه بها. ففي صباح ذلك اليوم كان قد نزل الى البصرة مع ساهر بعد ان تخفى جيدا وغير من شكله وهيئته كي لا يعرفه احد، في محاولة للعثور على احد معارفه بشكل من الاشكال في سبيل الحصول على مساعدته لتسوية اموره والعودة الى عمله وحياته اليومية الروتينية. فهو يعتقد ان الحل لمشكلته هو في ايجاد

شخص لديه علاقات قوية مع السلطات يستطيع بواسطته دفع مبلغ من المال كرشوة الى احدهم ليقوم بتوضيح ملابسات ما وقع فيه بسرية تامة، واعادة فتحها ودراستها بشكل آخر اوضح او ربما غلقها كليا وسحب ملفها. وهذا الشخص الذي فكر به هو والد ثروة. ثروة الفتاة التي كانت زميلته في كلية الطب..المرأة التي تعلق وتوله وهام بها سنوات دراسته الطويلة..ابوها سيكون الحل للدخول في متاهة الواسطات والرشاوي، نظرا لسعة اعماله الشخصية وعلاقاته المالية ببعض كبار المسؤولين في مدينة البصرة خصوصا مديرية امنها. فظواهر شخصية ابو ثروة كانت كلها تدل على ولائه للسلطة ولكل مايحدث ويدور. الا ان جوهره وكنه افكاره كانت مختلفة. فذاته لازالت تحمل بعضا من يساريته التي كان يسير في تيارها سنوات ثورة الرابع عشر من تموز بداية الستينات.شخصيته تلك تجعله متفهما لثنائية الاشياء بين ظواهرها وبواطنها. الازدواجية التي عاونته في شق طريقه كرجل اعمال. وخلال سنوات معرفته بعادل ساعده كثيرا في عبور الازمات التي كانت تمر عليه مع ادارة الكلية. توصياته الدائمة التي يحب نصحها لعادل هي ان يخفي جهده نفسه، وان لايبرز اسمه بأي شكل. فالاسم له قوة الذاكرة كما كان يقول، وقد يصبح وبالا على صاحبه اذا اقترن بالجرأة والتحدي. واذا كان صاحبه يحمل نواياه الخفية والسرية التي يود لها ان تسود وتنتشر. فالاحداث يكون لها صدى وقوة اذا حملت اسم شخصا يسير بها على الدرب. فالاسم دائما يثير فضول الآخرين، فهو علاقة ونسب، وتآخي ويحمل هوية الانتساب الى قومية ودين ولغة. والاسم هو ارتباط ومودة وحميمية في الحديث. وبه ومن خلاله تشفع حتى الاخطاء الشخصية التي تتجاوز حدود القانون. وللاسم القدرة على مقاومة الموت والنسيان، فهو يحمل صفة الخلود في دورة الانبعاث والتجدد للاجيال. كألاب حين يضع في ابنه جزءا منه كي يظل حيا بعد الانتهاء. وبواسطة الاسم يبقى التراث حيا ولا يمكن ايقافه. وكان الاسبقون يعرفون هذه القوة السرية للاسماء فكانوا يتحايلون على اخفائه لحماية ابنائهم من شرور الاعداء، او من سحر الجن والشياطين. كان ابو ثروة يؤكد ان الاسم هو ذكريات وذاكرة تدور بثقل الاحياء وثقل الاموات كالليل والنهار. والذاكرة هي الكنز الذي يحافظ عليه الزمن في اروقة الصمت حين تورق، وفي لعبة الاقنعة التي يلبسها الحكام حين يسطرون الاوامر الفاصلة بين الحياة والموت، وهي البحث الدائم عن الحقيقة والعلوم. كان لأبي ثروة فلسفته الخاصة بالناس وطرق عيشهم، يعمقها بالقراءة في كل المجالات، ولمختلف انواع الكتب التي يقول عنها انها تطلعه على اسرار لاتقدر بثمن عن منطق الحكمة وسر البقاء والاستمرار في مجتمع ينخره السوس وزحف العقارب والافاعي الهائجة في صراع الخير والشر بين البشر الذين انهكتهم الافعال الخاطئة، والقرارات التي لاتهم سوى الهاربين من الحر الضارب في رمال الصحراء، بدلا من العمل على استغلالها لصالح البسطاء..كان يهتم بالزراعة والمياه ففي نظره هي الخلطة السحرية التي سوف توقف تدهور الامور فتعود المنطقة الى استقرارها وغناها.

كان عادل لايتوقف عن الضحك حين يلقاه. قد يكون ابو ثروة مهرجا او مشعوذا او كذابا ولكنه حتما يملك حكمة لايعرفها الآخرون في طرح النكات التي توقفهم عن مبدأ ايذائه. اسلوبه يفتح امامه طرق مسدودة امام الكثيرين. فبسرعة بديهته يلجها بسهولة ويسر. وحين يسأله الآخرون كيف يستطيع تسهيل اموره الصعبة بهذا الشكل الهين يرد عليهم بأن لديه تعويذه هي خير الوسائل في الازمان الصعبة. وبعد ان الح عليه عادل ان يفشي له سر هذه التعويذة قال له في احد الايام وقد التقيا في جلسة سمر في نادي البصرة..قال له التعويذة هي الثنائية أي العيش بسرية تامة في الباطن والظهور بالأشياء التي يراها ويريدها الآخرون وكأنها هي بواطن الامور. ويعني ذلك ان يحول كل شيء الى وجهين وجه يراه الناس وهو مايرغبون به والوجه الثاني هو الحقيقة وهي التي يخفيها. وعليه التمسك بالأشياء الغير جوهرية بذاتها لأيهامهم بقيمتها واخفاء ثمنها الصحيح، واظهار الهوامش وكأنها هي جوهر ما يدور. وهكذا سوف يضيع الجميع في كنه الموضوع..ضحك وقتها عادل ولكنه كان يعرف بجد ان كل من عرف ابو ثروة كان يحتار في كشف من هو في الحقيقة ابو ثروة؟ حتى هو رغم قوة علاقته بالرجل ومودته الواضحة وتعاطفه معه والنابعة من ان عادل مقطوع من شجرة وان نسبه خفي لا يعرفه احد.. وهذا ما كان يثير خيال الرجل الى درجة ممازحته بأنه ابن احد الملوك او الامراء الذين يخافون على اسمائهم من التشويه فرفضوا فضح بنوتهم له..حتى عادل اصبح يتيه في معرفة الصحيح من اقواله ومتى يكون هازلا او جادا في حديثه. وحين تقدم لخطبة ثروة منه تحايل الرجل في تغيير الموضوع ولم يعطه جواب صريح لا

بالموافقة ولا بالرفض، وتركه والفتاة معلقي المصير. ومرت السنين واخذ اليأس يتسرب الى قلب عادل فقد اصبح ضحية لثنائية الرجل الذي اخفى جوابه ورأيه الحقيقي بالمشروع. عندها عرف كم هي مثيرة للقلق ازدواجية الرجل، فهي تقلب ماهية القرارات عن حقيقتها وتزيفها وتموه عليها. فخلف كل كلام كان يقوله ابو ثروة يوجد شيء آخر يخفيه، ولعله نقيضه. وازدادت هذه الازدواجية مع مرور السنين العجاف للحصار بعد حرب الخليج الثانية. حتى لم يعد يعرف لون او طعم الكلمات التي يقولها او حتى معنى معين من الممكن الرسو عنده. كان لعادل بعض الحظ في الحياة فقد مرت الحربين دون ان يشارك فيهما لأنه كان ما يزال طالبا يحتل مقاعد الدراسة. الحربان كانتا بالنسبة له مثل السحب العابرة دون مطر تزيد من رخو الطين في المجتمع الملوث حوله. في ذلك الوقت لم يكن يعرف يومه من ليله. ففي الصباح مقاعد الدراسة وفي المساء عمله كممرض في المستشفى الجمهوري، حيث يتحمل نوبات الخفارات الليلية. ويسكن في داخلي الكلية. وهو يحمل فتاته ذات الغمازتين الضاحكتين في قلبه. توفيت امه في منتصف الثمانينات بعد ان اخبرته وهي على فراش الموت بسر مولده واسم ابيه. ولكنه لم يحاول البحث عنه. فمن سيصدق حكايته هذه؟ ثم ماذا يريد هو من هذا الاب الذي لايعلم حتى بوجوده؟ هو بالنسبة له لم يكن سوى وهما على مسرح الحياة المضنية التي يعيشها، والمطرزة بالمعاناة. جوائزه هي نجاحاته المتكررة كل سنة في اعوام الدراسة ثم تفوقه والمعدل العالي الذي حصل عليه واهله لدخول كلية الطب في بغداد. سنوات الكلية امتلأت بحبه لثروة وشغفه بها. كالحلم اطل عليه وجهها يشاركه دراسته ويحمل له عطر الزهر وقطرات الندى لترطب حياته الجافة من المشاعر. اورق في صمت حلمه في ان يحتويه يوما بيت ينتمي له ويبني فيه عائلة. فرح وبريق انجم غمره حين استضافته ثروة في بيتها في البصرة للتعرف على والديها. رجعت اليه ذكريات طفولته وغرفته مع امه. فوطن نفسه على الرجوع الى البصرة عندما يتخرج للعمل هناك قرب اهل حبيبته. ومر بعض الوقت توطدت فيها علاقته بأبيها نظرا للقاءاته المتكررة معه كلما جاء الى بغداد لتسهيل مهام اعماله كمقاول ومهندس مدني ينفذ بعض المناقصات في مدن جنوب العراق. هذه المقاولات زادت من ثروته ورفعته الى مصاف الشخصيات المعروفة في مدينة البصرة. مساعداته له وتوثق تلك المعرفة اقنعته بأن الاب لن يمانع في زواجه من ثروة. فأستكان في البداية وبقى ينتظر ولكن مرور الوقت الذي طال الى سنين وهو يجدد مفاتحته بطلبه بين حين وآخر، زادت من خوفه..فهو كلما تطرق الى الخطبة والزواج يسارع ابو ثروة الى تبديل الموضوع دون البت به، او الاجتهاد في تلافيه بشكل ما دون ان يجرح مشاعره. وبعد ان استقر عادل كطبيب في المدينة وصار يمارس عمله، ولم يتغير الوضع عرف ان والد ثروة يميع القضية، وانه لن يحصل على موافقته ابدا. فالرجل يرفضه ولكنه يتلافى الدخول في نقاش عن سبب رفضه ولماذا. وهكذا ذوت شموع الامل التي اوقدها قلبه وغدت دموعا، حتى لقاءاته معها قلت فأبتعدت فتاته عنه. تهدمت اسوار اقداره وتعلم ان هناك لغة اخرى للعشق والزواج، هي الاصل والفصل ومن أي العوائل هو والى من ينتسب، وهو محروم من هذا كله. وكالميت الذي صحا فجأة ليرى نفسه في نعش يسار به الى كهف الوحدة المظلم. كان حبه لثروة ليس هياما بها فحسب بل هو تفاصيل حلم لحياة عائلية. امست تلك الرغبة تحتل كل كيانه وكينونته. وحين بدأت تموت انتهت معها كل الرغبات الاخرى. وكم آلمه الاحساس بالمهانة التي دلت عليها اسلوب الرفض واللارفض الذي دفعه اليها ابو ثروة. واصبح الجحيم مأواه وكأنه سقط من الذروة الى الحضيض. ورغم حسرته على الاشياء التي كان من الممكن ان تحدث ولكنها لم تحدث فأنه اجبر نفسه على الاقتناع بواقعه، وكأنه حاله مرضية مزمنة لا علاج لها. حالة القنوط هذه زرعت داخل جذور روحه الكثير من العقد والارهاق، اكثر بكثير مما نما فيها ايام قهر ادارات المستشفى الجمهوري ورؤساءها اثناء عمله حين كان طالب. حبه لثروة وقتها كان كالماء العذب يمر على جروحه التي تحدثها الكلمات الجارحة والتعنيف وحاجته الماسة للنقود. كان يتلقى العذاب بصمت ويتحمل المهانات بصبر واناة وهو يهون على نفسه..انه عندما يتخرج ويصبح طبيب سينتهي كل هذا وسوف تتفتح له الحياة، وسيتزوج وينجب اطفالا يملؤن عليه الدنيا بالفرح والسعادة. هذا الحلم كان هو الذي يقوي معنوياته حين يحس بعبودية السلطات التي تلاحقه كي تسلبه ما تبقى له من كرامة. نفس الحس بالمعاناة عاد اليه الآن وهو تحت وطأة التشرد والملاحقة..اجل ها هو اخيرا ضائع مهدد وقد فقد كل شيء حتى عمله كطبيب. ما اغرب حياته فمنذ طفولته وهو يخسر كل ما احبه

تدريجيا حتى وصل الى نقطة الصفر لايملك حاليا سوى حياته وهي ايضا مهددة. وعند اقل خطأ سيفقدها هي الاخرى. حدث نفسه ماذا عليه ان يفعل وكيف سيستمر بالعيش؟ فهو الآن خارج على القانون.. واذا اراد بوسعه ان يصبح واحدا من المحاربين ضد السلطة.. ولكنه لم يختر هذا المصير ولا اراد السير في هذا الطريق. ان الظروف هي التي تدفعه دفعا نحو هذا الدرب. فرغم كل انسانيته وتأثره بمآسي الآخرين لم تصل به ثوريته حد حمل السلاح والانظمام الى الثائرين في الاهوار. فحمل السلاح معناه القتل ..كلا لايستطيع اطلاق النار على احد..لايتحمل موت شخص بيديه..لن يدخل في مثل هذه التجربة..انه انسان مسالم جدا..عراقي ككل العراقيين قد يغضب او يتهور وقد تقسو عليه الظروف ولكنها لن تجبره على القتل. انه وحيد..واذا مات لن يبكيه احد. واذا سقط لن يمد أي فرد له يد العون. الزواج هو كل هدفه. ان يكون عائلة هي كل مايطمح اليه..وهذا هو ابعد ماتصل اليه مطامحه واحلامه. وثروة هي الفتاة التي احبها وهواها يملأ قلبه. وهي مناه في حياة مستقرة. فهي فتاة طيبة نقية ذات معدن صادق لايهمها ابدا يتمه. بل بالعكس كانت تضحك مناكدة وهي تصرح له بأنها سعيدة بذلك لأنه لن يشاركها احد بحبه ابدا. واعتبرت يُتمه بركة لها. وعندما اخبرها بأن والدها يماطل اغتمت ولكنها طمنته ان تلك عادته في اتخاذ قرار ولكنه في النهاية سيوافق. ومرت الاشهر ثم السنين وتم تخرجهما وابوها على صمته.

اشتد ثقل الهم عليه حين توجه مع ساهر الى مدينة البصرة للقاء والد ثروة بعد هذه السنين من القطيعة. فهو مقتنع انه انسب واحد. ومن الذين يمكن الوثوق بهم لمساعدته في حل مشكلته. وعندما طرق باب بيتهم خرجت والدة ثروة للقائه. بان التعجب على وجهها حين شاهدته متنكرا. ولم تعرفه في البداية. ولكنه طمئنها وشرح لها بأختصار وضعه. والدة ثروة السيدة باسمة أمرأة مثقفة من عائلة محترمة، تشتغل مديرة لأحدى المدارس الثانوية. فرحت به وادخلته الى غرفة الضيوف. فاجأه التغير الذي طرأ على الغرفة الفخمة التي يذكرها قبل سنوات، وكذلك ما حل بالبيت كله الذي كان يزهو بأحدث طراز من الرياش، فقد غدا كل شيء قديما باليا. واول ما لفت انتباهه قلة الاثاث بالقياس الى الماضي وكأنما قد تم بيع اكثره. الستائر كانت رثة وممزقة في بعض جوانبها. فقد اختفت السجاجيد الفاخرة عن ارضية الغرفة وحلت محلها بعض الحصران الملونة. اختفت ايضا الصور والتماثيل المرمرية والاصص الجميلة التي كانت تملأ جدران وزوايا وجوانب البيت. التراب يعلو كل شيء وقد اصابه الاهمال وعدم العناية. لاحظ ايضا قدم ثياب الام التي كان من الممكن تسميتها بالبالية. نحولها وانتشار التجاعيد تحت عينيها وذقنها ورقبتها اثارت شفقته، فهي كانت فقط في بداية الخمسين من عمرها. ابتسامتها المشدودة لا تحمل طابع السرور هي فقط للمجاملة. صوتها فيه حدة وبحة غريبة وكأنها كانت تدخن السجائر. كل ما حولها يدل على الكآبة والمرض النفسي لهذه المرأة.

عتبت عليه طول غيابه وانقطاعه عنهم. اسكتته حين حاول تبرير ذلك. وواصلت حديثها دون ان تسمح له بمقاطعتها او تحاول سماع ما جاء من اجله. ظلت تتكلم وكأنها لم تكلم احدا منذ ايام عديدة. لم تسأله ما الذي جاء به اليهم في هذا اليوم. اخبرته ان ثروة ليست في الدار. انها عند عمها منذ عدة اشهر. ولم تتوقف عن ممارسة مهنتها كطبيبة في المستشفى،وفي عيادتها اثناء المساء. فهم من كلامها ان ثروة زعلانة عليها لأنها تحملها مسؤولية التفريق بينها وبين عادل. وانها لم تتحدث معها منذ مدة..تصور يا عادل انها تحملني انا سبب خراب العلاقة بينكما في حين ان اباها هو المسؤول ..انها تحب اباها جدا..ثم قصت عليه كيف خسر ابو ثروة مناقصاته نتيجة الارتفاع الكبير والمفاجيء للاسعار والذي لم يستطع مواكبة سرعته ففقد رأسماله ثم مدخراته بعد حرب الخليج الثانية. ما وصلت اليه الاحوال نتيجة الحصار جعلته يفقد اعصابه يوما بعد آخر حتى لم يعد يحتمل الشغل ولا البيت. ماتت فيه الرغبة في القيام بأي عمل. وفي يوم من الايام استيقظ فباع كل ما استطاع من اثاث البيت وحول المبلغ الى دولارات وسافر الى الاردن على امل اللحاق بأخيه المهاجر الى بريطانيا. وفي الاردن اتضح ان المبلغ الذي يحمله غير كاف لتهريبه الى بلدان اوربا، فغير وجهته نحو استراليا على ان يصل وحده دون مهرب الى واحدة من بلدان آسيا ومن هناك الى احدى الجزر وبعدها الى استراليا.

احمرت عيناها وظهر جحوظ غريب فيهما وكاد الالم يخنق صوتها، وكأن هناك كراهية عميقة كامنة لكل ما يحدث. استمرت تصف له وضعها هي وثروة بعد سفر زوجها..تصور يا عادل..استمرت تصف له كيف استولى

ابو ثروة على كل ما تملك ولم يترك حتى ولا مبلغ ضئيل يسندها هي وابنتها. صحيح انها تعمل ولكن راتبها قليل جدا بالنسبة للغلاء الفاحش وثروة لديها مصاريفها من عيادتها التي تغطي بها تكاليفها رغم انها لا تأتي بدخل جيد نظرا للظروف الحالية.. وانت تعرف يا عادل اننا متعودين على الرفاه.. قلة المال تجعلها تشعر بالانحطاط المعنوي والدونية، وهي لديها كرامة لن تمد يدها للاستجداء من احد خصوصا من اخوته الذين هاجر قسم منهم الى انكلترة وقسم الى كندا وتركوها هنا دون مساعدة. قالت تصلها احيانا رسائل منهم عن الحياة التي يعيشونها..هي ايضا تريد السفر. وهذه الرغبة تتملكها بقوة، ولكن بعد رحيل ابو ثروة وانقطاع اخباره لاتعرف كيف تدبر امورها.

ثم استطردت تحدثه عن انقطاع الاتصالات مع ابو ثروة بعد سفره من الاردن الى استراليا بحيث انها لم تسمع عنه شيئا منذ ذلك الحين ولا تعرف اين هو بالضبط. وبعد السؤال والاستقصاء من جماعة عادوا من هناك اخبروها انه مسجون في اندونوسيا. ولكن آخرين بلغوها بأنه غرق مع احدى المراكب المبحرة من اندونيسيا الى استراليا. وقد تضاربت الاخبار عنه الى درجة جعلتها تعيش في ذعر دائم وقهر والحيرة تمزقها، فهي لاتعرف اين تسأل؟ وممن تستفهم؟ وكيف تعرف مصيره؟ وما زاد الطين بلة شعورها الدائم بالعجز واليأس والاحباط الذي اوصلها الى مرض الكآبة..انها مهزلة.. قالت له.. انها مهزلة ياعادل ان يترك الانسان وحيدا بهذا الشكل المخيف من اللامبالاة بما يحدث له وما هو قدره وما انتهى اليه..انه لاشيء ..عدم ولاقيمة له..هذا ما اصبح عليه الفرد حاليا..عدم ولا شيء..في الماضي كنا نؤمن بالحق والانسانية والعدل..اما الآن فقد ضاعت القيم واصبحت مجرد كلمات بلهاء لامعنى لها..بل مفقودة تماما وانمحت من هذا المجتمع..انسان يضيع بهذه الطريقة الخرقاء ولا احد يعرف عنه خبر..ولا احد يهتم بمصيره او يسأل عنه..كان انسان ولم يعد له وجود ضاع وانتهى..اي زمن هذا الذي يعيش فيه الناس، واي حياة..انها جحيم..فركت صدغها بيدها وهي تستمر في وصف اوجاعها..

_ اما آني فاظل ادور بالبيت البارد الفارغ وحدي من غرفة الى ثانية..وآني اضرب على ايدي من عجزي وعدم قدرتي على فعل شيء راح يدمرني. وثروة تركت البيت لأن ما عادت تتحملني وانقطعت عن زيارتي، وحتى عن مكالمتي او الاستفهام عن احوالي..والاقرباء كلهم تخلوا عني ..وآني..آني باسمة بنت الحاج كاظم اجدي فلوس حتى اشتري الاكل، وتمر ايام اموت بيها من الجوع..وما اريد امد ايدي لأي واحد منهم حتى يساعدني اسافر وراء ابو ثروة على الاقل حتى استعلم عن مصيره..فكلهم يصدوني وصاروا يتحاشوني ويبعدوني ويعزلوني اكثر واكثر..بودي مرات لو اقدر احرقهم..ان احطم رؤوسهم..فالالم اللي اعيشه والانهيار والارهاق اللي احياه صار لا يطاق..ما اتعسني..شوف ياعادل تعاستي..شوف شلون آني مسكينة قلبي ينفطر من الشقاء يا دكتور عادل حتى الهوا احس بيه خانق..اجلس ساعات النهار كلها قدام الشباك اراقب بصمت الشارع وشعور ثقيل من الحزن جواي . واحس بالوحشة رابضة فوق بيتي..وجرحي وهو ينزف بأستمرار مثل الخنجر بصدري..آني انزف يا عادل دون جروح ودون طعنة..وصبحياتي تتمزق وتتتعرى واصرخ ولكن ماكو احد يسمعني..وراسي اخليه على المخدة بالليل وكأنما اسلم روحي للجحيم وما كو احد ينجدني.

تركها عادل وخرج مسرعا. ان المرأة في حالة نفسية سيئة جدا وتمر بمرحلة عصيبة. يجب عليه محادثة ثروة بأسرع وقت لمساعدتها فالانهيار واضح عليها.

ما ان غادر عادل حتى اجهشت ام ثروة بالبكاء. مزقتها المهانة. كيف تعري مشاعرها هكذا امام غريب؟ لطمت خدها وصوت نحيبها اصبح مبحوحا كالعواء. نهضت ببطء شديد واتجهت نحو الحمام. الضوء يطحن الظلام وينعكس على المرآة. تنظر الى وجهها فيتكسر النور على الشحوب لضيم الملامح الرطبة بالدموع. ما تزال تقبض على قميصها القديم. كم عكست هذه المرآة من ابتسامات ونكات على لسان ابو ثروة؟ ومضت الذاكرة بصورة ثروة اثناء طفولتها ولثغاتها. اما الآن وبعد ان غادرها صاحب الدار ومضى الى مكان ما، فقد ضاعت الاحاديث، والاماني، ورست على الدنيا يد الغدر. وغُرب الزمان. وحل السواد المصخم وهو يبكى. والاتعس من كل ذلك هو ذل الاستجداء. هذا الصوت داخلها متى يخرس ويدعها تستريح. لقد اخذ معه طعم الحب والاغاريد، وعنفوان الحيوية وحطبها المفجوع. يشتد عليها الصراع وروحها تلوب. انها تختنق. تنزع ملابسها

قطعة بعد اخرى بحركات آليه لاحياة فيها وهي تبكي نفسها. وبخفوت الحركة الضامرة جلست على الكرسي واسندت رأسها فوق راحتها.رغبة قوية عارمة لشهوة الموت تتملكها. تسقط دموعها على ثديها وتسيح فوق بطنها حتى تصل سرتها..سيندمون..همست لنفسها..سيمزقهم عذاب الضمير على تهميشي وتركي داخل رهبة الوحدة اواجه وجع الحياة. جوفها ينزف داميا وتتشنج عضلات وجهها بالالم. لم تعد لديها قوة امام مأساتها لاستيعابها. الانحدار من العز والحياة المترفة الى هذا الحضيض. لقد ضاع مع عذابها شعورها بالزمن. وحشية الزمن العصيب والانهزام. انها لم تأكل منذ مدة لاتعرف مداها. حاولت التذكر متى اكلت آخر مرة، ولكنها لاتشعر بالجوع. في قلبها المطفىء ظلام دامس وعدمية. لن تركع امام غطرسة الجشع. جشع الاقربون وانانيتهم. لن تطلب من احد ثمن طعامها..اين انت يا ابو ثروة؟ سنة مضت واخرى تقترب من نهايتها ولا خبر عنك. حبات القهر تنفرط من جديد في صدرها. هذه الحياة لاتستحق ان تعاش، فهي عبث عدم لانفع فيها..انها سخرية. الانسان القوي هو من يختار لحظة موته بنفسه عندما يكون صرخة احتجاج وصيحة ضد القهر. وعندما يصبح الموت اختيارا لامحض صدفة تتوضح رؤية الاشياء المحزنة حدا تصبح فيه مجسمة. زاد الدوار شدة على رأسها. والحت فكرة انهاء حياتها بقوة. موتها سيعلمهم درسا. تغرق في شهقاتها. ستفهم ثروة حينها مدى قسوتها. ذكرى تلك الايام التي صبت فيها كل عذابها على ابنتها تؤلمها. صحيح انها تركتها بعد عراك وصراخ دام اياما غدى البيت فيه اقسى من الجحيم، ولم تستطع الفتاة بعدها مواصلة الحياة معها تحت سقف واحد، الا انها حين خرجت، تركتها تواجه مأساتها وحدها، وقد ندمت الام على كلماتها الجارحة وامسى وجعها لايطاق ولكنها عجزت عن تصليح خطأها وصمتت ولم تتصل بأبنتها وانتظرت ان تعود لوحدها. حدث ذلك قبل شهرين او اكثر فهي لم تعد تذكر كم مر من الوقت منذ ذلك الحين، وما هو سبب سكوت ابنتها وقسوتها تلك. صحتها ساءت بدلا من تحسنها. واصبحت ذكرى غياب زوجها تخدش صدرها وتدمرها، وتعمق قلقها بعد اقتناعها بأنه فعلا قد مات وذهب دون رجعة. لم تعمل بنصيحة ابنتها حين حثتها كي تخلد للراحة وتبعد الارهاق النفسي وتتناول الدواء الذي كتبته لها. لم يفدها شيء فلا النسيان زارها ولا الراحة. بل تركز شعورها بالهضيمة. بكت من جديد وهي تفكر في ثروة. ابنتها، هي ايضا مجروحة وتتحمل حزنها بشجاعة. وبالاخص لفقدانها لخطيبها ولغياب ابيها. لذلك تغرق نفسها بالعمل المتواصل داخل المستشفى وفي العيادة. العمل يساعدها على التماسك والاحتمال. اما هي امها فحالتها استمرت في التدهور . لم تعد تطيق المشاكل الشخصية وضغوط العمل في المدرسة واوامر وزارة التربية التي لاتنقطع. رفضها الانتماء الجبري الى حزب البعث للبقاء في مركزها الاداري، جعلها تشعر انها مراقبة في تصرفاتها واقوالها وكل حركة تقوم بها. وحين فُرض عليها انجاح طالبات لايستحقّن النجاح ساءت حالها اكثر، وتكرر اخذها للاجازات حتى انقطعت عن الذهاب الى المدرسة. عبأ اخر لم تستطع تحمله هو صفوف المنتظرين للمواد الغذائية وبطاقة التموين. . فكلما وقفت في الصف الطويل كي تحصل على بعض المواد الغذائية كانت النسوة الاخريات يدفعنها ويخرجنها، ولم تكن لديها القوة لمعاودة الكرة فترجع دون ان تحصل على شيء. ويحدث الامر نفسه في اليوم التالي .. وهكذا بدأت تجوع. اقتربت ام ثروة من السخان ودون ان تشعل ناره ادارت قرص الغاز وتركته يأز وهو ينتشر في جميع جوانب الحمام المقفل عليها. اسندت رأسها بهدوء فوق ذراعها الى المنضدة الصغيرة قرب المرآة والتي عكست صورتها وهي عارية. هكذا جاءت الى الدنيا ..عارية.. وعاشت مرفهه في عائلة غنية حتى جاءت الحرب ووصل بها المطاف الى الوقوف ساعات للحصول على كيس سكر او طبقة بيض،ثم استجداء نقود للسفر والبحث عن زوجها..هي ابنة العز تعيش الفقر والذل في زمن السنوات العجاف الذي جرفها مع تيار اليأس والخراب العام. هاهي تترك هذه الدنيا عارية كما جاءت لها. رفعت رأسها ونظرت الى صورتها للمرة الاخيرة، ولاحت على شفتها ابتسامة ارتياح وخلى قلبها من الكدر والعبوس وهي تهمس.. وداعا يا اغلى الناس..وها انا قادمة اليك يا ابو ثروة.

رجع عادل من مدينة البصرة مع ساهر وفكره مشغول. الكوارث تلاحقه ولم يتحسن وضعه، فالامل الذي كان يضعه في مساعدة ابو ثروة قد ضاع. ابو ثروة ذلك الرجل العجيب الذي عاش بين كلمتي لا ونعم حتى نهايته كانت غامضة هي الآخرى فلا هو حي ولاهو ميت ولا يعلم احد عنه شيء. هذا الوضع اوصل عادل الى نقطة الصفر..طريد شريد لايعرف كيف يحل مشكلته..هل هناك فائدة من زيارة ثروة اذا؟ سأل نفسه ..ماذا سيقول لها

بعد هذه القطيعة الطويلة وكيف سيواجهها؟ اثناء طريق العودة انسكب عليهما الصمت فلم يتكلم عادل ولم يسأله ساهر واحترم سكوته وحزنه فقد فهم غريزيا ان مهمته قد فشلت. واستمتع بالهدوء الذي تركه لأفكاره المشغولة برند وهواجسه حولها. فهو يشتاق لها فرحة لقلبه، وانبعاث لأحاسيسه وحنينه الى الافضل لبناء مستقبله. ما بالها مؤخرا يحس بها تبتعد عنه او تتحاشاه. لايفهمها ولايدري ما اصابها..رأها قبل يومين وهي تبكي وحين لاحظت وجوده فرت من امامه. وكم بحث عنها الا ان الحظ لم يخدمه بلقائها مدة يومين. حتما تتلافاه كي لايسألها عن سبب ذلك النحيب. هي لاتعرف انها صحوته في الصباح. يفكر بها ما ان يفتح اجفانه لوعي النهار. مالذي ابكاها هكذا؟ فعمه يحبها ولا يقسو عليها. اسرع بالسيارة على غير عادته. سيفتش عنها اليوم. ابتعادها يتعبه ويزعجه ويقتل فيه رغباته وطموحاته. وصل الى الكوخ الطيني اولا حيث انزل عادل.
كان الظلام يرفرف فوق غيوم الغروب، والقمر يسحبها نحوه حين وصل ساهر الى بيت عمه. لديه عذره في ملاقاة رند. وجدها في المطبخ تعد الطعام. خفضت انظارها نحو الارض حال مشاهدته. اطلق ضحكة مرحة وهو يخبرها بأن الجوع سيدفعه حتما الى ارتكاب جريمة. كما ان عادل لم يذق الاكل منذ الصباح. سألته اذا كان قد نجح في مهمته وقام بما اراده. فأخبرها بخيبته المحزنه المكتوبة فوق جبينه. اغتمت. ولفت الطعام بجريدة واعطته الى ساهر. رفض حمله وقال لها:
- تعالي وياي..اريد اراويج فرد شيء مهم.
رفضت بأصرار ولكنه الح عليها:
- تعالي يارند ارجوج.
قال ذلك وهو يجرها جرا من يدها. فأرتعشت في يده. خفق قلبه لها. فشد اكثر على راحتها..انت كل انتظاري للمستقبل همس. لم تسمعه هي كانت غارقة في همومها. جلس ابوها الى جانب عادل يحادثه حين وصلا. وضعت صحون الطعام امامهم وهي صامتة. بالغ عادل في مدح طبخها. فشكرته وسلمت عليهم وهي خارجة. لم يشاركهم ساهر واعتذر بأنه ليس جائعا واسرع خلفها. كان الجوع ينهش معدته ولكن اشتياقه لها كان اكبر. منذ ان غضب الله على ادم واخرجه من جنته، وجد الرجل ما يفتش عنه في دفء احضان حوائه. فهي ضالته ومبتغاه. لحق بها وهو يلهث:
- رند قال لنفسه غريبة هي اليوم ما بها؟
- شتريد؟ قالت
حين انزلت الآلهة عقابها بالبشر في قديم الزمان ارسلت لهم كل الشرور في النهاية عطفت عليهم واوجدت الامل. قال:
- الامل..
رغم كل ما خلقه الامل من خير، مازالت الشرور تعشعش في النفوس البشرية. فقد ولدت خلالها كلمة انا. حين لحق بها امسك بكتفها كي تقف. فدفعته. قال بغرابة:
- لاتطردديني يا رند.. على الاقل قولي لي السبب.
في ظلام الليل وعتمة الحياة توجد دائما اشراقة نور..بين الجنة والصراع من اجل المادة هل يجد البشر طريقهم ام يتيهون. كل شيء له وجهان حتى السم يحمل الترياق والموت. هذا ساهر مرة يحبها هي وثانية يحب الاخرى..أله قلبان؟ فكرت رند، ومضت تمشي في طريقها. قال:
- انت غضبانة علي؟ من جنتي صغيرة جنت اشيلج على جتفي واركض بيج الى ان تضحكين.. اتمنى لو اقدر اسوي نفس الشيء هسه.
الصمت يلجم فمها. فلا تبوح. لو قالت حزنها وخوفها وغيرتها ربما ستفقده نهائيا. تركته للاستفهام، والصمت حين يلهو. وتناقض الكلمات والاجوبة. قبل ايام حين شاهدته واقفا يتحدث مع ملاذ بكت. ادهشها اليوم في تقربه منها. ازدواجيته تزعجها وتثير قلقها. لماذا لايتركها وشأنها؟ في الماضي كانت الاشياء واضحة بين حدود الخير والشر، اما الآن وبعد تداخل المصالح اصبحت الاشياء متداخلة نسبيا. فلكل فرد خيره وشره، ومدى الالم الذي يحدثه الآخرون في روحه.

ما اغربها اليوم ردد لنفسه. انها لاتسمع همسه كعادتها. عدم فهمها لمشاعره يجعله متشائما. هو من خرج من رحم حواء..رحمها..وسوف يعود اليه حين يخلق ابنه. تحمل سر الخلود هي، وبدونها هو لا شيء..هو عدم. فهي الحياة التي يخاف من فقدانها. لذلك ومنذ القدم قيدها بمختلف القيود كي تبقى له وحده. تطيع رغباته هو. قالوا ان فضولها هو السبب في تمردها الدائم..وهي السبب في خروج آدم من الجنة. ولكنها ارضعته هذا الفضول حين ولدته مرة بعد اخرى، وسلمته مفتاح المعرفة. فالمعرفة هي الفضول. ومنذ ذلك الحين والعالم يسير مرة الى الامام ومرات الى الخلف. ولكنه يسير..يخاف الطبيعة هو فصنع له آلهه يتعبد في محرابها. وترك سر الارض لها هي تحمله كما تحمل الاخصاب واسماؤها. ولكنها تنازلت عن تلك الاسماء له كي يصبح هو الاقوى والذي يقود. فطغى عليها وسلبها حقوقها..هو ادم.

لم تبتسم كعادتها حين مازحها. استقرت بين العطف والتعنت والعناد. بين الاقتراب والابتعاد..حائرة هي..وهناك حدود للصراع بينهما. واذا حاولت التنافس مع ملاذ هل ستفوز؟ الانتصار معناه سحق انسانة اخرى ..فهل هذا شر..وهل الخير يكون بفوزها هي؟ سوف تشقى ملاذ لو اخذته منها. وسوف تكرهها وربما ستحاول الانتقام..فهل هذا شر؟ ام هو خير؟ تراجعت وعاودت السير. صاح بها وهويسير خلفها:

- لويش تتظاهرين بالصمم يارند..شبيج؟

مرت خلف النخيل المظلم. ادرك ان هناك شيئا تخفيه عنه. لايهمه الحدث. فهو دائما سيبقى الحبيب والزوج والابن، وستبقى هي دائما الحبيبة والزوجة والام والاخت والابنة. انه يستعيد بواسطتها النمو..ويبدأ جنينا في بطنها. انها طاقة الكون الخلاقة والمحرك للمحافظة عليه والدافعة للحياة في سبيل الاستمرار. وها هي امامه بين الاشجار سائرة. سقط عليها ضوء الغسق الحزين. واستحوذ عليه السكون وهو يمشي خلفها. شدته انفعالاته فمد يده برقة يمسك يدها وهو يلح عليها..اذا ارادت التمسك بالصمت فلن يلح عليها..ولكنه يريدها ان تأتي كي يريها شيئا..تعالي قال لها.

راقبت غموضه، فأستحوذ عليها. وانبثق لديها الاندفاع لمعرفة سره. قد تكون الحقيقة مبتورة لديها، ولكنها تماشت مع الحدث وواكبته. فهي تحتاج الى تنقية بعض الاختلاط في افكارها. قد تصل بها الى صورة واضحة تفهمه بها. ورغم الاغصان المتعاقدة مع بعضها وجدت طريقها سهلا وهي معه. فزال عنها بعض الضيق ولكنه لم يذهب كله، فخلف حناياها بقيت غير مرتاحة من سيرها معه. متى يُورق الصمت فتعرف الهمس للصوت الخافت وهو يرتفع مرة بعد اخرى..ما جدوى كل ما يحدث في هذه الدنيا؟ اذا كانت النهايات هي الاغتيال لأماني نريد تحقيقها؟

انتشر ضوء القمر حليبيا، يخنقه بعض الضباب المتعالي من بخار النهر، وهو يمسح توهج النجوم. مدت رند يدها تتلمس الغسق. وتغمس انظارها داخل ظهره بعد ان اصبح امامها. توقف بجانب عدة نخلات متفردة، متباعدة..واشار..انظري يارند..حرك كفه نحو الارض وقلبه يهمس..هذه الارض لك ..فأنت ارضي..بتمهل تتشرب الخفقة القديمة الحديثة في قلبها بلآمال، وشيء عجيب آخر. قالت..انها الارض..ابتسم ..اجل انها الارض..ما لم احدثك به هو ماارديك ان تسمعيه وليس الكلمات.. هو يظل معلقا يرن بيني وبينك..حديثي..نشيد روحي. خط شفيف يفصل سعف النخيل عن دكنة السماء. بوله تحركت ثُلوح. قال لها ما في قلبه..وهو يظن انها تفهم دون كلمات..هذا هو مستقبلي، وسندي الذي اركن اليه..قبضت على حفنة من تراب تلك الارض ونشرتها مع الريح..بحب نثرتها..وحدس يلوح بحدث سيغير كل حياتها واستمر يقول:

- هذي الكاع ألنا آني وانتي..ابوي اشتراها وبعد كم يوم راح ابدي بزراعتها. والسنة الجاية راح ابني معمل لتجفيف الفواكه.

وبفرحة امسك بخصر رند وراح يدور بها راقصا بمرح وكأنه طفل يلعب معها. ثم وبحركة سريعة حملها على صدره وضمها اليه وقد اشرق وجهه ببريق الانتصار، فزالت تجاعيد الجد عن جبهته. لم تعتد منه هذا الانفتاح على السرور والعنفوان وحرية الحركة. نظر في عيونها وكأنه يغرق فيها. ولم تزل احداقه تسري مع بسماته. واجتاز بها سنوات الزمن العريق بالحضارة. كل ما يقوله امتداد لأحداث مسيرة اجيال مضت. هي داست على

زنبقة صغيرة في الحقول..وهامت مع خرير مياه الجدول وحين عاد بها الى الارض. خشية دغدغت صوتها وهي تؤكد له ..انه زمان صعب لمثل هذا الامل.
تركها واقفة واحتضن دفء نخلة بيديه. تحمل اشعة شمس النهار مازالت. وضع خده على كربها..هي انت..وهيكل جداتي واساطير سومر وبابل..وغابات كلكامش وانكيدو. مد ذراعيه الى الاعلى واخذ يتسلق جذعها. صعد مترا او مترين بسرعة..ثم نزل متمهلا. وهي واقفة تنظر اليه كصغير يلعب امامها، ويركض داخل الفضاءات. طفلها هي كمستقبل يولد..وللامومة لوائح وحق. ردد آماله:
- اعرف، وآني مستعد للمواجهه..اعلم صعوبة قيام مشروع على ارض بلا قانون، تحكمها المصالح والروابط الآخرى..وبين بشر لا يعرفون سوى اسلوب العشائر في تعاملهم. بس آني من جيل ثاني.. ينتمي للطبقة المتوسطة..وراح اقوم بدوري حتى اقويها بالعمل، والابداع وقهر الصعوبات..فهذه الطبقة جانت وما تزال هي المحرك لهذا المجتمع..وآني واحد منها.
تراجع البالخلف قليلا، واخذ يمشي دائرا في فراغات البستان. يخترع الانسان الاسباب المقنعة ليبررما يقوم به..واقسم ساهر على هذه الارض الصغيرة تحت ظلال مساءاتها سيبني بيته. وداخل دروب البناء الخاص والعام سيتجاسر هو الرجل ليقول انا موجود، لازلت هنا، رغم الموت والتهميش والاندحارات، ورغم الخسائر والذئآب وعوائها، ورغم اقنعة الصمت..انا مازلت باقيا، ضد الاخفاقات والفاقة، ادري خسرت مرات وسأخسر اخرى، وربما العديدمن المرات التالية، وبعد كل تجربةسأكون اقوى لأجتياز مسافات زمني كي اجلب الخبز والماء وشيء من النور. نظر الى يده ثم تقدم يحمل يدها بين يديه. اطراف اصابعها تحمل بسمات متشربة بشعاع الشمس وسمرتها. وآمال من الماضي الى المستقبل هي رحلة الاستمرار والبقاء. وبفخر رفعها الى شفتيه وقبل تلك الاطراف. التواءات الصعاب تزيلها لحظات السعادة..كيف يخبرها بحبه ولهفته عليها..برغبته في ان تكون له زوجة..وهو عاطل عن العمل..لامستقبل امامه..يعيش على ما يجود به عليه والده. ارتجفت من نظراته ..معه تصعد الى اكمات لم تعرفها من قبل:
- ما بقى شيء من الطبقة المتوسطة بعد حرب الخليج الاولى والثانية وبعدين الحصار..الى هسه احنه فلاحين نحرث الارض، ونجني ثمارها بدينا المعروقة المتعوبة.
تراجع ساهر مع ثنايا الهواء وركضت تطلعاته مع الريح تطارد اشباح الافياء. وقال:
- ادري هنا اكو فقر..وهنا اكو عوز..وهنا اكو اماني مخفقة..والارض كلها احجار ورمل وعوسج وخرنوب..بس هو فرد شيء رائع ان اكون هنا..ويه حبات التمر..هدومي صح مرقعة بالخرق..بس المستقبل هو الي..باوعي نجوم الليل والقمر ما كو اجمل منها..ولا اكو اجمل من هل السما..ما راح اخلي شيء يكسر تحدي روحي..وراح ابقى هنا.
الانسجام كامل بين الفلاح وارضه ونخيله..ومع اشارات الغيوم الزاحفة فوق وجه القمر انطلقت حمامة. صفقت جناحيها وهي ترفرف نحو الشمال. قفزت ضفدعة بين قدميه فداس على عوسجة قريبة من النخلة، اسرع بالابتعاد عنها بخفة وصمت. نقل الى رند زهوه، قدراته الكامنة، صموده للايام، حبه للارض..انزلقت فيها فتحررت مشاعرها المكبوتة، لتحتل الفتحات التي تتنفس بها. غبشة وسرعة انفعالاتها عجلت بدقات قلبها الوجل الى الهلع من فقده الى الاخرى. فاجأها بعد صمت:
- جنتي تبجين قبل يومين ..لويش؟
ابتعدت عنه بخشية قائلة:
- لازم اروح للبيت اتأخر الوقت.
سارت وهي تختفي خلف النخيل.. واتخذ دربا آخر لرجوعه. مشت بمحاذاة النهر حتى وصلت الى صريفة جدها، حيث يختفي دكتور عادل. لاحظت تلاعب ضوء الفانوس المنبثق من بين شقوق الباب. اشتاقت ان تدخل. اثارتها نبرات صوت عادل وابيها وسمعت كلمات اضاعت رغبتها في الدخول..تلكئت قليلا:
- لويش يقومون بمثل هذي الاعمال..وهي مكروهه عند الناس.

الصمت جعلها تتحرك للابتعاد. حركتها اجفلت اباها داخل الصريفة، فأشار الى عادل بالسكوت واسرع الى الباب يفتحها. شاهد رند وهي متجهة نحو البيت. فوقف يناديها:
- رند وين جنتي..شتريدين؟
التفتت اليه بوجل قائلة:
- جنت الم شوية سعد من جرف النهر..ماكو شيء..معدتي شوية توجعني والسعد يفيدها.
بردت هواجسه. وخفت مخاوفه من ان هناك من كان يتنصت عليهما. رجع الى الداخل وجلس على الكرسي ورفع كأسه وهو يلتقط بعض حبات الباقلاء المسلوقة ويقول:
- رند جانت هنا.
كان عادل متكورا على الوسائدفي جلسة غير مريحة. ووجهه غير حليق وقد طالت لحيته. ورقت نبرات صوته فقد تسربت نشوة الكحول الى دماغه وجسده. واخذ يمط الكلام وهو يرى نفسه اكثر تحررا وانطلاقا. خف كدره وزال عنه حذره..لماذا يخاف وهذا الانسان يعطف عليه ويتحمل الخطر من اجل اخفائه. لو وجدته الشرطة الآن هنا لأخذت هذا الرجل المحترم الى السجن ولاختفى وانتهى امره خلف اسوار مديرية مكافحة الاجرام في مدينة البصرة. انعطف اكثر نحوه في محاولة لأرضائه واتمام الحديث بينهما، وكأنهما يتحدثان عن اخطر الاسرار. كان عادل يحلل له نفسية الانسان المتسلط والذي لديه نزعة التحكم بالآخرين..ثم انتقل الى علاقة الانسان بالطبيعة وكيف يجتهد في عملية اخضاعها لمصالحه مع علمه انه بذلك يدمرها وبتخريبها يدمر نفسه ووجوده، وقد يقوده ذلك الى الانقراض كما انتهت سلالات مختلفة على مر العصور. فالجفاف من جهه والفيضانات من جهة اخرى والتصحر في مناطق اخرى تنبيءبهذه المعانات. انقراض الكثير من الاحراش بطيورها وحيواناتها تدل على عدم الشعور بالمسؤولية وعبثية ما يقوم به الانسان. وعلى المدى البعيد ربما ستكون النتيجة انقراضه وزوال الحياة على الكرة الارضية. وهكذا رغم العلم والمعرفة والتطور لدى البشر لن يتوقف سيرهم نحو العدم. ففي ثنايا كل علم متطور توجد بذرة شر تقود الانسانية الى الفناء. فالعراق قبل الالاف السنين كانت ارضه خصبة تنبت فوقها غابات من الاشجار وليس عهد كلكامش ببعيد هو فقط خمسة الالاف سنة والاساطير تتحدث عن الغابات والاشجار الكثيفة التي كانت تغطي المنطقة. اما الآن فحتى النخيل يندثر مع اندثار الجداول نتيجة قلة المياه في النهرين الخالدين بعد بناء السدود في تركيا. الآن تتغير البيئة..فالاهوار تجف وقد كانت مجمع طبيعي للطيور البرية والاسماك وانواع نادرة من النباتات. ان مثل هذا التخريب يحدث في الكثير من مناطق العالم وهذا ينعكس سلبا على الغلاف الجوي فتزيد درجات الحرارة وكأننا نعيش داخل بيوت زجاجية. الانسان هو اضعف ما انجبت الطبيعة ولكنه اذكاها. وبذكائه وغريزة البقاء والوعي الذي يحمله بنى ولكنه دمر الكثير..وكثيرون يتساءلون الى اين يسير هذا الانسان.
كان ابو رند يستمع ويشارك..فقد سمع عن اخبار انطمار الاهوار:
- ابني لاتحجيلي عن الانسان وتعنته وحبه للتسلط..لأن هذي هي الصفة اللي تدمر كل ما بناه..وجابت كل هذي البلاوي..لو تدري شلون انقهرت من سمعت اخبار انطمار الاهوار ودفنها..شكثر حبيتها لما جنت شاب..لا تقاطعني ياعادل..صحيح آني عشت هناك كم شهر بس..لكن صورتها بالقصب والنباتات والطيور والسمج وطيبة اهلها على بالي ما غابت ولا يوم عني..احس بفراغ وعذاب كلما افكر شصار بيهم هسة..بس قول لي ابني شسويت بالنسبة لقضيتك..لقيت احد يساعدك؟
- لا عمي ..مع الاسف الشخص اللي جنت حاط املي واتأمل منه الخير طلع مسافر..بس راح احاول مرة ثانية ويه بعض الاصدقاء بلكت الاقي واحد يمد ايده لمساعدتي.
كان عادل يتكلم وانفعالاته تزداد اثارة..فدروب الذاكرة ملتوية..واسم هذا الرجل الجالس امامه تثيره وتشده. فهو يجتهد في ايجاد صلة تؤكد التشابه في الاسماء التي تلوح من عمق افكاره..التوتر زاده توجسا هذا الاسم ليس غريبا عنه..اجل انه نفس الاسم الذي اخبرته به امه..والآن هذا الرجل اعترف له بأنه في شبابه عاش في الاهوار وهي نفس الفترة التي وضحتها له امه..ايكون الامر صدفة؟ ام قد يكون هذا الرجل هو من ورث عنه هذا الجسد؟ هل من الممكن ان يكون والده؟ كيف يتأكد من هذا الموضوع. فجأة شعر بالانفعال يستولي على عقله،

وكأنه كان مسافرا وبدأت الدروب تنفتح امامه. تناول سيجارة اشعلها ثم ارتشف من كأسه وأكل بعض قطع الطماطة ليهدأ. قال:
- آني ماريد اخلي اليأس يتملكني..بس انت هم تعيس ياعمي..لويش؟
تردد ابو رند في الجواب فهو يكره التحدث عن نفسه ولكن ليونة الكحول الذي يسري في بدنه سهلا من كلامه:
- أي نعم..ما ادري لويش؟ اعتقد سوداوية اباوع بيها داير مادايري..واشوف نفسي عاجز عن تغيير أي شي.
نهض عادل عن الفراش وقرب كرسي من المنضدة جلس عليه بجانب ابو رند ووضع يده فوق كفه قائلا:
- آني هم عندي نفس هذي السوداوية نتيجة ما وصل اله المجتمع العراقي من فقر وذل ومسكنة.. والركض ورا ابسط الحاجات اليومية..صاير كل شيء يتعبني..اتصور آني طبيب وعندي عيادة ومن المفروض يكون عندي دخل يكفيني ويوفر اللي حياة مريحة..بس مع الاسف جهد وشغل سنين ما قدرت غير اشتري لي بيت صغير.. ولحد هسه استعمل المواصلات الحكومية لأن ما اقدر اشتري سيارة توفر عليه وقت وتعفيني من الباصات المزعجة..وحتى لو اشتريتها ما راح يكون بأمكاني تصليحها اذا عطلت بمثل هذا الغلاء الفاحش واللي خلى حياتنا تصبح جحيم..ولوما عيادتي جان مت من الجوع.لأن ما كو احد عندي يساعدني..فما عندي اقرباء من يوم ما ماتت والدتي..جانت الله يرحمها امرأة طيبة كدت وشقت المسكينة كل عمرها حتى توفر لي ما يلزمن لأكمال دراستي وبناء مستقبلي. وكثير من المرات جانت تحجي لي عن الاهوار مرتع طفولتها وصباها..الى درجة احس بيها وكأنما اعرف كل زاوية وجميع الاماكن حتى منغير ما اشوفها..ولما تتحسن اموري راح احاول ازورها واتعرف عليها..اتمنى يا عمي ان تحجي لي عن معارفك هناك يمكن يكونون من الناس اللي قصت علي امي اخبارهم.
تململ ابو رند. صور الماضي تشله وتخرجه عن طوره. شعور بالذنب يجرح ضميره. سيغفر لنفسه يوما دمار انسانة بسببه. انقسام روحه بين ما كان والحاضر تبعثره وتدور به كنواعير مثقلة بالهموم. وخيانات اقداره وخيباتها حجبت عنه خطوات الايام واشراقتها. وسودت صباحاته. يقتل الذكرى بالكحول حتى يشتهي الثرى كي تبرد جراحه. يجفله أي سؤال عن الماضي، ويتوهج جسده بالخجل. كالمخضب بالدماء يسيل على وجناته العرق الغزير. نظر الى عادل وتهدج صوته مرتعشا وهو يجيب بوهن عن العائلة التي نزل عندها. لم يذكر فتاته فهي سره الخاص. تحدث عن ابيها فقط. عن شهامته وكرمه. عن بساطته وطيبته وكرمه واعزازه له. وعن خيوط المودة التي تربطه به. وعادل يسمع كل ذلك ودقات قلبه ترتفع مع كل نبضة، وكل كلمة..انه يتحدث عن جده هو..حين يؤرق الصمت تنبض الحياة وهي تمزق استارها وتفتح اسرارها كي تخرج للنور. مرحبا بشعاع الحقيقة. النخيل تغني له. فرحته تشتد بوضوح ما كان يبحث عنه. لقد وجدته..اجل لقد وجد اباه..وكنصل حاد اخترق صدره تهدجت انفاسه..ود ان يقفز ويعانقه..ولكنه ارتد هلعا..هذا ابي الجالس امامي هو ابي..يارب العالمين كيف قادتني قدماي اليه.. اهي صدفة ام تدبير من القدر او من قوى اقوى واعلى من وعينا..درت السنين كلها اسأل عمري عنه..وها هو هنا جالس امامي يحدثني عن جدي واهل جدي..ولا استطيع حتى ان اقول له انت ابي..منذ الآلاف من الساعات وقلبي جمرات تلسعني..عطشا لرشفات مياه الانتماء التي سرقت مني. نادى عادل على شذرات وجدانه كي تصمد امام سروره فلا تفضحه. وصهيل اعماقه يلجمها كي تواصل الاختباء داخل ذاته..اجل هذا هو اباه..ولكن كيف له ان يتأكد بلا لبس فيه انه حقا ابيه. عاود السؤال:
- انت تقول ياعمي جنت ضيف عند عائلة ابو ستار بعد انقلاب ثمانية شباط سنة 63. آني سمعت بعض الاشاعات على هذي العائلة تقول مرت عليهم مشاكل..صدق هذا لو جذب..الاشاعة تقول ابو ستار قتل بنته ذكرى غسلا للعار..تتصور هذا الحجي صحيح؟
كان الاسى مرتبكا حين مر خلال خطوط شفتيه المرتعشتين ونظراته الملتاعة..لن ينسى ابدا عينيها ..كل جمال الهور من المياه الى الاعشاب الى الطيور المحلقة رآها من خلال عينيها. كحلم جذبه نحوها رغم بساطتها..ذكرى بقامتها الشطبة وذلاقة لسانها..ومكرها الهازل مع انحدارات مشاحيف الصيادين بعد الغسق والفوانيس مضيئة في ايديهم..وهي تلاسنهم ضاحكة بمرح..تدور الطيور المهاجرة مع الزمن كل السنين، وقلبه يدور معها. كلما رأى اسرابها يغلفه الوجع حول جرح تركه الضمير..لو يجدها؟ هل لازالت حية؟ وماذا حل بأبنها وبها؟ ابنه

هو؟ الجميع يتحدثون عن محرقة الحرب ومآسيها..ولكن هناك حرب اقذر تشنها التقاليد على النساء دون الرجوع الى اسبابها الحقيقية..دون الرجوع الى ان الفاعل هو نفسه الجلاد..الرجل حين تعمي الشهوة بصيرته ولا يستطيع السيطرة على نفسه من اجل اشباعها باحضان امرأة وهي انسانه مثله لديها نفس المشاعر وتريده كما يريدها. لحظة الضعف هذه بينهما لماذا تدفع وحدها الثمن دون شريكها؟
لازالت كلمات سريع ابن خالتها داخل وجدانه. ذلك الانسان البسيط الشهم الكريم والمتميز بفكره الواسع وانسانيته وطيبته..مدرسته هي الحياة نفسها علمته الكثير مما يمر به من مشاكل يومية..لديه عمق في فهمها والتفاعل معها..حين اتصل به لمعرفة ما اذا كان قد وجدها اوسمع عنها..قال له بانه فتش عنها ولكنه لم يعثر لها على اثر..وان ذنبها في رقبة من كان السبب فيما حدث لها. قال له ان ذكرى فتاة شاطرة وانها حتما قد تدبرت امرها بحيث لم تعد بحاجة لأحد. انتبه من استغراقه على صوت عادل وهو يعيد عليه السؤال بألحاح غريب:
- آني مهتم بالموضوع..واريد اعرف كل شيء .
تردد ابو رند اولا ولكن كلمات مبعثرة خرجت بهمس:
- أي جانت عنده بنية اسمها ذكرى..حاولوا قتلها ولكن حسب علمي واحد منهم انقذها..واتصور هيه حية تعيش شو وين محد يدري..هاي صار سنين هوايه مرت وهيه مختفيه محد يعرف عنها شيء.
دقات قلبه لاتهدأ. حتى خاف ان يسمعها ابو رند. وزاد يقينه ان من يبحث عنه كل تلك السنين جالس امامه الآن.
ارتجفت يده وارتعشت اقدامه وتدفق الدم حارا الى صدغه وقال وهو يرتجف:
- وانت جنت ضيفهم سنة 63؟
تضايق ابو رند لهذا الاصرار الغريب والدوران حول الموضوع وقال وهو يود تغيير الحديث:
- نعم..بس انت ليش مهتم بهذي القضية؟
في تلك اللحظة دخل عليهم ساهر فقطع الحديث. جاهد عادل لتمالك نفسه والسيطرة على انفعالاته. اخفى ساقيه تحته ليغطي على اهتزازهما. يده ترتعش حين حاول رفع القدح الى فمه وارتشاف بعض الرشفات لتهدئة جأشه.
انشغل ابو رند مع ساهر وهو يخبره بأن صارم يتمشى على ضفة النهر وانه قد يمر قرب الكوخ. فأسرع ابو رند في اطفاء نور الفانوس ونار مدفئة علاء الدين ثم خرج بعد ان احكم اغلاق الباب خلفه كي لايتسرب منها ضوء يشي بوجود عادل داخل الكوخ.
مرت ساعتان او اكثر وعادل يهتز من البرد، والمشاعر الثائرة داخل صدره. لف نفسه جيدا بالبطانية من رأسه حتى قدميه وحاول النوم. ولكن افكاره جعلت النوم عسير المنال. لم يستطع حتى اغماض اجفانه. خاطب نفسه بهمس كما يفعل دائما منذ صغره حين تواجهه مشكلة ولا يجد من يصغي له. تعلم ان يحادث نفسه بصوت مسموع ليزيد من تركيزه وترتيب ما يدور داخل تلافيف مخه. خضم وفوضى في رأسه جعل الامر اصعب وكأنه جن.
هذا الرجل الطيب ابو رند هو والده. وتلك الفتاة الجميلة رند هي اخته. وساهر صديقه العزيز هو ابن عمه..ماهذه المعادلة الرهيبة للحياة؟ وكيف وقع داخل هذه الشرنقة التي تكاد تخمد روحه؟ كيف حدث وفجأة وفي لحظة واحدة اخترق وعبر جدار اليتم واللاشيء وعدم الانتماء الى داخل اسوار الانتماء العائلي والتملك والاحتواء؟ تهدجت انفاسه..اهو البرد..ام انه كابوس؟ كيف سيخبرهم بما يعرف..بهذه الحقيقة؟ وهل له الحق بأبلاغهم؟ ام عليه ان يتستر عليها تحت الكوابح والموانع للتقاليد؟ ايحق له ان يقول لهذا الرجل الطيب..ابي؟ فعلا هو ابوه من الناحية البايولوجية..ولكن هل هذه هي الابوة..وهل هي كافية كي يكون والده؟ ما هي الابوة اذا؟ طرح على نفسه هذا السؤال وتخيل صورته وهو طفل رضيع وهذا الاب يلاعبه ويناغيه ويضحك معه وهو يحدق في عينيه..وشاهد نفسه صبيا وهذا الرجل وهو يعزز فيه حدود شخصيته حين يزرع داخله ضميرا يصمد امام الاغراءات..ويصد رغباته كأنسان عن فعل ما لاينبغي ان يفعل من الاعمال التي قد تؤدي الى سوء العاقبة. ويغرز داخله الخطوط الحمراء لكل ما هو متعارف عليه داخل المجتمع لما يسمى بالشر ضمن حدود القانون. كي لايؤذي احد او يضر نفسه. فالضمير هو كل ما تعلمناه من جداتنا واجدادنا وكل مايقوله لنا آباؤنا للتفريق

بين كلمة لا وكلمة نعم..وهو مئات الحلول الكامنة بين هاتين الكلمتين، وكل لبنات المدنية على طريق تطورها، وهو ما نعلمه نحن للاجيال القادمة من فكر هو بذرة لأنسان المستقبل. وهذا الاب هو ذاك الضمير يكبر ونكبر معه..وتبقى تلك النصائح داخل الاوعي لتكون هذا الكائن الذي يسمي نفسه بشر. فهو الذي يرسم الموانع لتعاليم تكويننا كافراد صالحين في المجتمع. وينمي الرحمة ومساعدة الآخرين. والاب هو الذي يخلق داخلنا شعور الندم ولوم النفس حين تكون اعمالنا مجلبة للحسرة. هو السوط الذي يدمي الروح حين نقع في الخطأ ونؤذي الآخرين او يؤذونا. انه الحس الاصيل الثابت في وجدان الفرد والذي نكتسبه من تقاليد المجتمع والناس المحيطين بنا، وهم يرسمونه بعاداتهم..هل يحق له اذا ان يقول له كلمة ابي وهي كلمة انتماء وجذور تمتد ولها اجداد وتاريخ. وتحمل قصصا وحياة تعج بما يفتخر به المرء الذي هو ابيه. انه يحمل فوق اكتافه سطورا صنعها لكرامته وشارك في صنعها لبلده. انه يلتف بتراث القدماء من آباءه واجداده وكل ما يفتخرون به من كبرياء وشموخ وافعال صنعها هو وكل افراد عائلته..هل يأتي هو ليهدم كل هذا حين يفضح سرا للحظة ضعف انصاع لها هذا الرجل الذي هو ابوه؟ لحظة خطأ واندفاع وتهور كانت نتيجتها تشرد انسانة وولادة شخص لاجذور له يعيش الهلع من افتضاح سر مولده كي لايحتقره مجتمع بلا رحمة ويدمر له حياته التي بناها بسنوات من دموع وقسوة وجوع وحرمان؟ جميع الذين يعرفونه يحملون له كل الاحترام لأنه مكافح يتيم لااحد له عبد طريقه لوحده. ولكن لو عرفوا انه ابن حرام؟ ولد نتيجة دقائق من اللذة في زمن انهارت فيه قيم الحلال والحرام؟ ماذا سيكون رد فعلهم اتجاهه؟ هؤلاء البشر في هذا الزمن الفاسد المحاط بقلاع الانانية والتملك والمتاجرة بكل شيء للحصول على مكسب ما. والمنبثق من روح التحطيم والدمار وسحق الضعفاء للوصول الى تحقيق الاهداف والرغبات المختلفة والمتنوعة. هذا المجتمع المبني على القسوة وسطوة المال والمنافسة بشتى الطرق دون وازع من ضمير للحصول على الارباح المفيدة ولأشباع غريزة التسلط. مجتمع العولمة وشريعة الغاب حيث يركع المتملقون فيه امام القوى، ويداس الضعيف الهش. هذا المجتمع العشائري بكل ما يحمل من متناقضات لاتخضع لقانون مدني متحضر..هل سوف يحترمونه لو افتضح سره؟ واقرباؤه القرويون ماذا سيكون رد فعلهم اذا عرفوا مكانه؟ وهم الذين حاولوا حرق ابنتهم التي مرغت شرفهم بالعار؟ لو كانت حية ربما استطاع هذا الرجل اصلاح هذا الخطأ والزواج منها؟ ولكنها ماتت وغدا من المستحيل تقويم ما حدث..فما هو الحل؟ كان مرعوبا حين نهض وهو يرتعد ليوقد المدفأة بعد منتصف الليل.

فتح باب الصريفة قليلا ينظر الى القمر والنجوم والليل وصفحة النهر وغموض سعف النخيل. ظل واقفا ساكنا دون حركة وهو يستند الى ضلفة الباب. لسعته الحشرات، فانتبه واسرع بأطفاء المدفأة بعد ان دب الدفء في الكوخ وشعر بالحرارة تعيد القوة الى ساقيه المتراخيتين. بعدها لبس معطفه فوق ثوبه وخرج هائما على طول ضفة الجدول مع زمهرير الهواء وصقيع البرد. وببطء انهمرت دموعه فوق وجنتيه. تركها تنهمر دون وجل. كانت تغسل كل ما يشعر به. سار وهو يبكي نفسه. لعن قدره واليوم الذي ولد فيه. اوجاعه لاتطاق. الاصوات ظلت تطن داخله. يجب عليه ان يتماسك ويلم قواه وافكاره..اكتشافه للحقيقة هد حيله. استمع لدقات تقرع في صدره كموج البحر اليائس تغرقه. كلم نفسه ولكن همسه خرج متحشرجا كحيوان مذبوح اعزل ينتظر نهايته في مجزرة الجزارين. شعر بالغثيان فأفرغ كل ما في جوفه على حافة الماء. ان كينونته تتصدع وكأنه انقسم الى شخصين كل واحد منهما يجره في الاتجاه المعاكس.

انطفأت النجوم مختفية واحدة اثر الاخرى. وصلته من القرية روائح الخبز وقد بدأت النسوة في خبزه داخل التنانير المتوهجة. وهن بدنه اجبره على الرجوع الى الكوخ الطيني. اشعل المدفأة النفطية ومد يديه فوقها يتدفأ والبرد والسعال يشقان صدره. يجب عليه ان يبتعد عن ذاته قليلا. ان يشغلها بأي شيء بعيدا عن مشكلته ووضعه الراهن والا اصيب بالجنون. ولكن روحه مشحونة لا تدعه بسلام. فبؤسه يتصاعد من قعر فؤاده. كيف ساقه القدر الى هنا؟ كل ما حدث له منذ ذهابه الى تلك الوليمة المشؤومة، يمر امام ذاكرته كشريط سينمائي..فراره وهروبه من بين النيران. وعبوره لتيار النهر ومطاردته ونجاته من الغرق..ثم مشيه في دروب الاهوار حتى وصل الى هذه القرية..هل حدث له ما حدث ليجد اباه؟ هل هناك من يقود خطاه ام هي صدفة وحدها رتبت ذلك؟ هل هناك قوة خارج ارادته خططت لكل هذا كي تصله بأبيه؟ ام هي طبيعة الاشياء التي تدور وندور من خلالها

داخل الطبيعة؟ يقول المتدينون ان لله طرقا خفية لايسبر غورها في قيادة مصائر البشر. اما غير المتدينين فيفيسرون الحدث على انه سلسلة من الروابط لأحداث لها صلة بأصل الحدث. فمن بطنه يولد فعل آخر ورد فعل يوجه سير الناس في مدار محكم ايجابي او سلبي، ثم تتشعب وتكثر ضمنه الاسباب لفتح صدف ودروب سير تقود في النهاية الى البداية رغم تغيرات دورانها. كان يتيما ولازال بدون مأوى. ذاكرته متعبة متصخرجة. قرر انه في الصباح عليه البحث عن مخبأ جديد..مكان آخر يستر فيه سر مولده من الانكشاف. سوف يغادر الى البصرة، ويلتقي بثروة ربما ستستطيع هي مساعدته بطريقة ما. زاد شعوره بالضياع حتى انكتمت انفاسه، وتشابكت مشاعره فلم يعد يرى النور من العتمة. حركة من السكون جعلته يجفل مرعوبا. زاد ذلك من شعوره بالوحدة. اقتنع ان مصيره هو السير مرة بعد مرة في طريق حصاد للزمن الماضي وثقله فوق اكتافه. الماضي الذي كان اطلال واصبح خرائب تنعق فيه الغربان. ضاع شعوره بالحرية. انه سجين الجدران العتيقة لهذه القرية التي زرع نفسه داخلها. حريته هي ما يحارب من اجلها. يريد ان يرحل بأي ثمن عن الاسوار التي تحيط به ويختنق داخلها. يتمنى ان ينساه الجميع..ينسون وجوده ويدعونه يعيش بأمن وسلام دون فضيحة او انتظار لحدوث كارثة يأخذ منه ما بقى من عمره. خياله يرجع به الى منظر الحجرة القديمة التي كان يسكنها في صغره..ووجه امه المتعب المخطط بالجزع. وتهالكها على الفراش كل مساء. والليالي المحفورة بالسهاد والندم. الذي يتحول الى قسوة ضده. وكأنه هو سبب المصائب التي المت بها. سنوات ضائعة لاامل فيها ولا بارقة رجاء توقد شمعة لفرحة او سرور. فبصم اليأس على ملامحها الحزن المنطوي على مأساتها. كل ذلك بسبب نزوة دقائق لمتعة لا تغني ولا تشبع..لماذا؟ ما الذي دفعها لأن تضعف وتخضع لرغبات هذا الرجل فتضيع عمرها كله.. وتأتي بثمرة..هي طفل لاذنب له ولكنه يحمل أثم ابيه وامه. قالت له انها كانت تأمل بأنه سوف يتزوجها. ولكن الظروف كانت اقوى منها واقسى عليها فلم تمهلها. بعدها اصبحت ثواني الانتظار سكاكين قلق تجرح قلبها. كانت تحب اهلها، وتنتظر الموت على ايديهم. تاهت واضلت طريقها فلم تعرف ماذا تفعل؟ لعنت حظها وقدرها ملايين المرات ولفت ندمها بالدموع. صلت وطلبت الغفران من ربها. ولكن مطحنة التقاليد كانت هي المنتصرة. فأنكشف امرها وخرجت شياطين الغضب، وحكم عليها بالموت ولم يكن لديها ما تدافع به عن نفسها فأستسلمت لمصيرها لولا ابن خالتها سريع الذي انقذها حين اقتحم ازيز النار واخرجها من تحت الحطب، ثم اخفاها داخل مشحوفه وفر بها الى البصرة. وهذا الرجل ابو رند هل فكر يوما بها؟ هل يعرف سرها؟ كلماته وارتباكه دلالة واضحة على علمه بكل شيء. شعر ان مشاعر الاحترام لهذا الرجل ذابت كليا داخل قلبه لتحل محلها كراهية محرقة اغرقت كل خير او طيبة قدمها له. انه نذل وما طيبته سوى غطاء لتلك السفالة. كم يحقد عليه. كم ينفر من هذا المكان المخنق وحوائطه. هواجسه تطحن كل ما تبقى له من حكمة وثقافة. غليان مفرط بعدم القدرة استولى عليه. في تلك الحظات كان يستطيع ان يقتل ان يدمر او يفجر كل الازمان والماضي، كي يعيد تشكيله من جديد. تنخر في مخه سوسة، تجبره على اجترار تأريخه كله..طفولته وصباه وكفاح شبابه..لم كان يكدح؟ وما هو هدفه وما معنى هذه الحياة؟ ولد في زمن عصيب وعاش في اوقات اصعب. وكل سنة تنزل به الى الاسوأ حيث جدران الصمت الخرساء، وها هو يتحسس طريقه كالاعمى دون كوة من نور. تمتم بدعاء حار كي يخفف ما يحس به من ظلام في روحه. كم عانى اثناء صعوده كي يكون شيئا ..انسان له كرامة، يحترمه من حوله..وبعد ان وصل الى هدفه..كيف انحدر هذا الانحدار السريع الى العدم واللاشيء..اهو الوضع الذي حوله..ام هو المجتمع المحيط به؟ من المسؤول عن سقوطه؟ اهي امه باندفاعاتها لحظة ضعفها وولادتها له؟ ام هو ابوه كي يتمتع بدقائق من المتعة ثم تركهما هو وامه لتقاليد لا ترحم؟ او هم هؤلاء البشر الذين حكموا عليه حتى قبل ان يولد؟ ام هي التقاليد الجائرة التي توارثوها جيلا بعد آخر نتيجة الجهل والامية؟ ام هو الدين الذي يؤمنون به؟ من المسؤول عن مأساته كأنسان ولد ليكون حرا؟ اهو الزمن الذي يعيشه زمن الفقر والذل والخنوع زمن الهزيمة..وعلى المهزومين ان يدفعوا الثمن؟ وهو بكل ثقافته وطول كفاحه واحد من هؤلاء الخائبين الذين جبنوا عن قول كلمة لا بشجاعة وصوت عالي. تخاذلوا عن الوقوف ببسالة امام تيار الخراب والعواصف. وها هو يحاول الهرب امام حقيقة كونه ابنا لهذا الرجل المسبب الاول لكل شقائه. يفر من واقع الرباط الذي يربطه به. انه الرحم الذي يلصقه بهذه الرقعة من الارض. وجدائل الحبل السري تجره نحو هذا

الانسان. رغم الكراهية التي بدأت تطفو من اعماقه ثانية وتكويه مثل لسعات الجمر. سقوطه من علياء كبريائه..الكبرياء التي كان يخاتلها داخل وعيه منذ ان حكت له امه قصة مولده. كان يدفعها بعيدا الى باطن اللاوعي وكأنه لايفهم معناها. تركها نائمة داخل روحه. دون ان يمسها بالتذكر. وكلما طفت دفعها بجبن وكأنها لاتعنيه. هاهي الآن تهاجمه كوطأة المرض السيء. بكل ما تحمل من تقيح وشراهة نحو الاذلال وتحطيم الكبرياء. فمن هو الآن؟ ليس سوى انسان ذليل لاشرعية لمولده. قهر السنين تجمع..ووحشته ربضت على صدره. شهق بعمق ليرجع لهفته الاولى للحياة حين اصبح طبيبا ورفع رأسه بفرحة وشموخ. ها ان كفاح العمر غدا يثمر..قالها لنفسه..لم يتمتع بذلك سوى بضع سنين ليعود الواقع المر يجره ممزقا يجتر عزلته. وقضبان سجن للروح تسحقه. فلا حديث يزحزحه ولا هناك قريب له يقاسمه ما يعاني من نزيف وحظ اسود كسواد مولده. حين تكون البداية قاتمة لا ينمو بعدها سوى الاشواك. حدق بالاشياء حوله فلم يشاهد سوى جدران الطين والسقف المستند على قطع مرتفعة من جذوع النخيل والحصران المكونه للسقف والتي طُمر اعلاها بالقش الممزوج بالطين. والفراش المفروش على الحصيرة. ومائدة الخيزران تحيطها كراسي قديمة فوق ارض متربة. كم هو فقير هذا السكن ولكن هناك ملايين من العراقيين الذين يسكنون في بيوت مثله. انه عصر يعقد السنة الناس عن المطالبة بحقها في حياة احسن. عصر جبان هو حين يكف البشر عن الكلام، عن ممارسة اللغة لينقلوا بواسطتها احتجاجهم على الاملاق والعبودية. احتجاجهم لعدم منحهم حرية التعبير عن افكارهم. واستنكارهم لما يدور حولهم من قيم تعيق تطورهم. هذا الزمن الذي يعيش فيه هو والآخرون. والجميع تحت تأثير الصمت الذي يمارسونه يتكتمون على الخراب والاندثار للمدنية التي يتمنون بناءها. زمانهم كالثور الضخم يتقاسمه الجزارون وهو عالق بالنتانة. فكيف سيعاملونه لو عرفوا بعدم شرعية مولده. ستلمع عيونهم..وتشع شهواتهم ويسيل لعابهم وتبرز انيابهم وتخرج مخالبهم بشراسة وبقلوب من حجر سوف يتمتعون بوليمة هو ضحيتها. انسان ضعيف لا شرعية لمولده يقع بين ايديهم. فتلوكه الالسن الهامسة والصامتة عن الحق كي تجد متنفسا للهزيمة التي تدور فيها. سيعلو الضحك والكذب والاذلال والتجريح وستطغي العفونة مثل القمامة لتغطيه هو المذبوح بينهم.

شهق واتسعت عيونه وهو يفكر في ثروة الفتاة التي مايزال يتمنى ان تكون زوجته..هل ستقبل به حين تعلم بسره؟ اجل كيتيم..ولكن بالخطأ الذي يحمله خطأ امه وأبيه عالقا في احبولة مولده هو متأكد سينخفض رأسها حين تعرف. رغم قناعتها به ربما سترفضه وتبعد حبه لها. ورفضها سوف يميته مئآت المرات. وقبولها به سيميته آلاف المرات كل يوم وفي كل نظرة من عينيها سيجد ربما الشفقة بدل القناعة. الطوق محكم حوله من كل جانب..ما هذا الشقاء كله..كان كل جسده يؤلمه. ذراعيه، ظهره، رأسه يطن بوجع قاسي..كان منهكا محطما. وفجأة ومن تحت الرماد ظهرت فكرة ان ينهي حياته ويوقف هذا العذاب..الآن .. في هذه اللحظة..ولكن شيء ما داخل روحه المنهارة ردعه عن ذلك. عليه ان يحمل صليب اوجاعه حتى النهاية. الآن ليست هي النهاية..حين يفقد كل شيء ستكون النهاية..الموت يكون حين يجردونه حتى من انسانيته..اما الآن عليه ان يستمر في المكافحة من اجل البقاء، وفي سبيل ايقاف مأساته. وهو لن يدع الهزيمة تغرقه داخلها. سيجد طريقة ما ، وكما كان يفعل دائما سيثبت لنفسه وللآخرين بكفاحه انه حقا انسان.

اقترب الصباح ولم ينم. خطوات ساهر القادم لأصطحابه الى مدينة البصرة اخرجته من تعاسته. سيلتقي بثروة لعلها تستطيع توفير محل جديد لأختبائه. فهو بحاجة للابتعاد عن هذا المكان واهله. ان دينهم كبير عليه واذا استقرت اموره سوف لن ينسى لهم هذا الجميل طول حياته. ان مصيره الحالي غير معلوم، ولايعرف الى متى سيبقى مجهولا. وهو محتاج للمساعدات التي يقدمونها له. ولكن كلما طال بقاؤه كلما زاد خطر انكشاف وجوده بينهم. انه يحبهم خصوصا ساهر ولايريد ابدا ان يؤذيهم. ان انكشاف سر مولده اشقاه وعقد عليه وضعه اكثر.فهو لحد الآن لايعرف كيف يواجه مشكلته هذه. المشكلة التي تحير حتى العلماء في عالم وصل العلم فيه الى خلق انسان من خلية عادية وليس بالاخصاب، خلية منشطة يخلق فيها الانسان دون اب او ام حقيقيين. انسان كهذا هل سيقبله مجتمع لازال يعطي قيمة للانسان من موقع ابيه بين الناس..مثل هذا الانسان هل سوف يعاني كما يعاني هو لعدم شرعية مولده؟ ان كينونته من كينونة ابيه وامه وهو يحمل جيناتهم ورغم ذلك لاشرعية لحياته رغم كونه انسان بايولوجي كامل كأي انسان آخر له فكره وذاته، وله جسد وروح ونفس. وله لسان يتحدث به

وله تاريخ وجذور ولكن لاشرعية لوجوده لأن مولده لم يوثق بورقة موقع عليها بين ابيه وامه تعطيه الحق في الحصول على اسم ولقب يأتيه من ابيه. لاشرعية لكيانه فمولده لم يسجل على ورقة وقعها حاكم وشهود كأي ورقة بيع وشراء فيها مهر يدفعه الاب للام ويقول فيها كلمة نعم اريد الزواج بها. أي جنون هذا ان يحرم هو من بنوة ابيه بسبب ورقة؟ وهناك الكثير من الدلائل الطبية التي من الممكن ان تثبت بشكل لالبس فيه انه من صلب هذا الاب. لاوجود لهذه الورق معناه لا اب له ولا حق لكينونته. رغم ان وجوده هو اكبر دليل على زواج والديه..انه هو الدليل الحي لقول كلمة نعم بينهما بينما المجتمع يتمسك بورقة. ان الزواج هو عملية لخلق حياة جديدة، والموافقة على ممارسة هذه العملية تعني الموافقة على خلق هذه الحياة الجديدة. فلماذا لايتحمل الاثنان مسؤولية هذا الخلق حتى في حالة عدم وجود هذه الورقة؟ لماذا يرفض المجتمع شرعية وبنوة طفل لاذنب له بل هو النتيجة فقط. اليس من حق هذا الطفل على المجتمع وعلى القانون حمايته هو الكائن الضعيف الذي لاحول ولا قوة له؟ لماذا يغفل القانون والمجتمع حق هذا الوليد حين يقتل غسلا للعار ولا يحاكم القاتل على سلب هذه الحياة الصغيرة. قديما لم يكن العلم قد تطور لمعرفة واثبات بنوة شخص لابنه. ولكن وبتطور علم الجينات اصبح الدليل واقعا ملموسا وبقتل الام والطفل هو اخفاء للدليل الحي على الابوة. ولم تعد الورقة فقط هي التي تعطي الحقوق لهذا الطفل وانما النتائج الطبية ايضا يجب ان تمنح هذه الحقوق. يجب ان يرتفع الانسان العربي الى مستوى العلم الذي وصل اليه العالم ويرفض عادات الغسل للعار. واعوام العزلة التي يعيشها العراقيون تجعلهم يغرقون في بؤسهم والكثير من العادات البالية .

كانت السيارة تقطع بهم الطريق الى المدينة وعادل يجلس صامتا الى جانب ساهر وهو يتأمله بنظرة جديدة. هذا الجالس بجانبه الشاب الجاد ذو الملامح الحادة هو ابن عمه. مد يده وضغط بمودة وحب على كف ساهر. التفت اليه ساهر متعجبا ونظرة تساؤل. فقا ل عادل:

- آني مديون الكم هواية انت وعمي ابو رند.

اثناء مرورهم في الشارع الفسيح وسط البصرة ابتسم ساهر بمحبة لهذه المدينة، وكأنه كان يحتضن الصخب الضاج حولهم وهو يهدر كموج بحر سرح من سواحله فأنطلق يغطي الشارع. نزل عادل قرب المستشفى. ودخل قاعة الانتظار وهو يخفي وجهه بالكوفية التي اطر بها رأسه. كانت القاعة مزدحمة بالنساء والاطفال. عاكسه صبي بجانبه. فأعتذرت الام نيابة عنه ونهرت الطفل كي يجلس بأدب. حين دخل على الدكتورة ثروة لم تعرفه. كان وجهها مشرقا صبوحا كعادتها وغمازتيها تغوران كلما ابتسمت. من احداقها يرشح حنان يرج الفؤاد لكل من ينظر اليها. قفزت من خلف المائدة وهي تمد يديها الاثنتين نحوه بعد ان ميزته، فغمز لها ان تسكت. كانت متشحة كلها بالسواد ورغم ذلك شع جمالها فأنار الغرفة. جلست بجانبه وهي لاتصدق انها تراه. تطلع الى النافذة وهو يشرح لها بأسهاب كل ما مر به من احداث حتى لقائه بأمها قبل ايام. فأغرورقت عيناها بالدموع وهي تخبره بأنه كان آخر من رآها..فقد انتحرت في نفس اليوم الذي زارها فيه..ربما بحديثه معها فجر آخر قشة لتمسكها بالحياة. اخبرته بأن والدتها كانت تعاني وتدور في آفاق سوداء من الكآبة.. وانها تحملت الكثير كي تجبرها على تناول الادوية ولكنها كانت ترفض بأصرار بحيث تحول البيت الى جحيم اضطرها الى مغادرته كي تدعها تعتمد على نفسها لعل ذلك يحسن من حالها ولكن خروجها زاد الحالة سوءا على سوء حتى انتحرت امها. بكت بحرقة وهي تنشج وقد اخفت عيونها بيديها. وبعد ان هدأت استمرت قائلة:

- احس بالذنب..وبالتقصير ..لأن تركي لأمي وحدها جان خطأ ..جنت واثقة انها ماراح تقدم على الانتحار..بس ظهر جنت غلطانة.

اغتم بشدة. بعثره الحزن الذي مد له يده من افق مشاكله ليزيد من تغلغل جراحه عمقا. تلك المرأة الطيبة التي لفته بأجنحة الرحمة منذ عرفها. فتحت له نوافذ قلبها لترطب جفاف سنوات عمره بالود والتفهم. كانت قادرة دائما على امتصاص موجات غضب زوجها. كيف وصل بها الحال ان تنهي حياتها على هذه الصورة؟ أي زمان عاصف اجبرها على هذا الاختيار؟ سكت فلا كلمات توفيها حقها بالرثاء. صمت وهو يتململ على كرسيه بتعب وترك ثروة تغسل بدموعها يديه التي امسكت بهما بقوة وهي تقول:

- عادل ..من اليوم توعدني بأنك ماراح تبتعد عني..آني محتاجة الك..تعال اختلك عندي بالبيت الى ان نلاقي طريقة نخلصك بيها من هل الورطة اللي انت واقع بيها.
ومضت ملامحه بالامتنان ونزت الدماء غزيرة في عروقه. فبمجرد دخوله الغرفة ورؤيتها، وبمجرد ان شم رائحتها الحلوة عاد اليه انشراحه وزال كدره وانداحت الظلمة عن اغواره لتدفع بمشاكله خلف جدران وعيه واعصابه. خرج من غرفتها ليدعها تكمل عملها وبقى جالسا وهو ملتف بعباءته وكوفيته في حديقة المستشفى حتى تنتهي. شعر بخفة في روحه والشمس تدغدغه بدفئها وهو يواجه دنياه الجديدة مع ثروة. هي كل ما يتمسك به الآن. بعيني هذه المرأة سيواصل نموه. ورغم ما يمر عليه من رياح المحن ما زال هناك في حياته ما يخاف عليه ويعيش من اجله. انها الانسانه التي تشفق وتخاف عليه بصدق. وسحرها لايزال يكبل لبه بغلالة توقظ جسده لنشوة الحياة. اما ليلة الامس.. وافكاره؟ فتحت ضوء النهار اصبحت غمامة تتحرك مبتعدة، ليحل محلها الامل الذي دب على درب احلامه بأن كل شيء في النهاية سيمر على خير. وسوف تعود ايامه الى صفاءها مع هذه المرأة التي يحبها. الماضي سيذهب ليترك مكانه اعشاب الرجاء الخضراء تنشر الخير تحت اقدامه.
جاء ساهر وقت العصر لأصطحابه فأبلغه انه اتفق مع ثروة. وشكره على كل ما قدموه له وطلب منه ان يوصل احترامه وامتنانه لأبو رند ، ووعده بأنه سيرسل لهم اخباره في اقرب فرصة، وان لايقلقوا عليه فهو بين ايدي امينة.
بعد ذهاب ساهر جلس على المصطبة مرتاحا لما فعله. فهو منذ طفولته واين ما يذهب يفتح نوافذ يدخل ويخرج منها، كي يبقى حرا، ويحافظ على حدود مداراته. ابتعاده عن ابيه وعن اهله الذين وجدهم فجأة سيمكنه من المحافظة على هذه الحرية. قد يكون الفرار من امامهم هو هروب من الالتزام اتجاههم، فهو لايريد الدخول في ردود افعال قد تجرحه لو انهم عرفوا بقرابته لهم..وقد يفهمون خطأ غير حسن نيته فيتصورون انه يفعل ذلك لأثبات حقه عليهم في مساعدته..وهو لن يتحمل وجع كهذا لكرامته..ايفضل اذا التشرد على الانتماء؟ وهل الانتماء الى اهل يخيفه؟ لم يحاول الاجابة على هذا السؤال فغبطته بوجوده مع ثروة امحت عنه جزعه، ومن فاجعة احتمال انكشاف سر مولده. رغم قلقه كان هادئا. واموا ج من الوداعة ترج احشائه. شدة لهفتها واهتمامها به هو بوح عاشقة. نعومة مسدت فوق كل عذاباته. اكتشافه لوالده.. وظروف مطاردته من قبل السلطة.. واحتمائه حيث اهله وعشيرته..ثم اختفاء والد ثروة ووفاة والدتها شوش افكاره وجعلها تختلط بين الحقيقةوظلها. والتي نأت به عن معرفة الطريق الصحيح وسلامة الدرب الذي يسير فوقه.
كان نائما حين انهت ثروة عملها وخرجت من المستشفى. قفز عندما ايقظته. روحه كانت مسافرة في حلم. آماله محلقة كالسراب مع رياح السعادة. في ليله المظلم شاهد عيونا ساهرة عليه. تقوده فوق مدارج من نور. مدت ثروة يدها في تواصل مع مشاعر وجدانه المتوهجة والتي لا يريد لها ان تنطفيء حتى ايام عمره الاخيرة. ما يشعر به هو تتويج لأنفعالاته الانسانية السامية في ان يكون له بيت وعائلة من صلبه، امتداد لوجوده، تحت شمس يعرفها. وستنمو جذوره في الارض التي يحبها، بين حقوله الخضراء، تحت ظلال البساتين قرب مياه النهرين ورمال شط العرب هناك سيبني سكنه. في تلك الجذوة المشتعلة بالحنان لفتاته ثروة عرف معنى الوطن. بلده هو بيته وعائلته وحبه لها. فهي الارض التي تتمطى مستيقظة حرة في جسده. وهي الحلم الثري الخارج لتوه من لباب عيونه. كان يرتعش ليس من البرد ولا من الانفعال ولكن من كونها الى جانبه يستطيع ملامسة ثوبها. رائحة انوثتها مزروعة في كل خلايا ذاته. لايوجد مكان للاضطهاد حين ينمو الحب..اقنع نفسه. فالسعادة تكبر مع العشق حتى في اسوأ الاوقات. شجاعته كالشجرة الفارعة مغروزة داخل معنى الوجود. في تلك اللحظات الموت تحت طيات الرمال هي حياة ونشيد. ان يضحي الانسان في سبيل الذين يحبهم ومن اجل حريتهم وهنائهم سيغدو هدفا ساميا لكلمة وطن. لايريد الموت فهو يريد ان يعيش لأنه يحب الحياة ولكنه في سبيل هذا الحب مستعد للموت ففي موته حياة لهم وله فيهم. نظر الى الفضاء امامه والسيارة تخترق الافق مد يده من النافذة يداعب خيوط الشمس الغاربة واشعة الشفق الاحمر وهو يطرز زرقة السماء حتى كاد يبكي وهو يهمس..ما اجمل السماء ..وما احلى ظلال الغسق على صفحة مياه شط العرب..انظري اليه.
ضغطت على كفه بود وقالت بشيء من الوجل:

- عيوني عادل..قبل ما تدخل بيتي..اريد توعدني بفرد شي.
قال وضبابية النوم تتضاءل امام عينيه:
- كل اللي تطلبينة راح يكون دين عليّ.
قالت:
- اعرف راح تعارض ..وادري شنو الاسباب..بس هذي رغبتي..وآني راح اروح باجر للمحكمة حتى احصل على موعد لعقد زواجنا..لأن اريد يكون الوضع صحيح بيني وبينك وانت تعيش ابيتي.
توقفت انفاسه لحظة. سكت. ايامه معلقة فوق كلماتها. هذا كل ما يتمناه. الشبع من جوعه لرؤيتها ومن غنجها وشبابها. ولكن وضعه سيشكل خطرا عليها. ثم سر مولده ربما سيحول بينهما..يجب اولا ان يخبرها به..معرفته لأبيه المحرم عليه..ثم عدم وجود ابيها وفقدانه، ووفاة امها القريب. كيف يتعامل مع هذا كله بحكمة قبل ان يوقع على ورقة ارتباطه بها. لم يرد عليها. صمت. فقالت له:
- زين..من المفروض وحسب الاعراف لازم انت اللي تفاتحني بالزواج..انت هو الرجال..بس آني وانت نعرف بعضنا زين..ونحب بعضنا..وعدنا من الثقافة الكافية حتى نتجاوز هذي التقاليد الموروثة..ما اعتقد اكو فرق بين ان ابدي آني الحديث عن هذا الموضوع او انت.. احنه متفقين على ان نتقاسم كل شي بالحياة من وقت ما جنا طلاب.. وفاتحتني انت بالموضوع ووافقت آني، بعدين تكلمت مع والدي..وهسه احنه لوحدنا فأتصور نقدر نعتني بنفسنا ونتعاون على تحمل مسؤولياتنا..مو هل الشكل ..لو انت تشوف راي ثاني؟
تهدج صوته وهو يغالب هواجسه وقال:
- ثروة..الموضوع مو موضوع منو هو اللي بيدي..القصة هي وضعي الحالي الخطر واللي ما اريدج تشاركيني بيه..انت اعز مخلوقة عندي وما اتصور عندج شك بهذا..وصراحتج تزيد من تمسكي بيج..بس آني خايف عليج.
قالت بأصرار:
- لما حبيتك وعدت نفسي ان اشاطرك كل ايامك وعمرك وما يمر عليك ..وهسه ما اريد اخون نفسي..آني اوفي بوعدي الك ولروحي، وغايتي هي احترام كياني كانسانة مثقفة ما يهمها العقبات اللي ممكن تعترض حياتها مع زوجها..وصدقني ماراح اوقف مكتوفة لو متفرجة وانت تمر بهل الصعوبات كل اللي اريده هو مشاركتك بدربك..واذا انكشف امر وجودك عندي راح يكون وضعك سليم امام الناس واعمامي واحترامهم الي..وبعدين كونك زوجي راح يسهل طلبي بالمساعدة لحل مشكلتك.
قال بأصرار:
- بكل الحالات الموضوع راح يكون محرج..لأن زواجنا راح يكون بالسر..وآني ما اريد اخلق اشكالات بينج وبين اعمامج.
- لما يعرفون انت زوجي وآني جنت اساعدك حتى تخلص من الورطة اللي انت بيها راح يفتهمون.
سكت وهو ممزق بين حبه لها وخوفه عليها..بين رغبته بالزواج بها وبين اسراره التي يخفيها. ود ان يختلي بنفسه. تمنى ان يقدر على الخروج من السيارة والسير تحت الظلال قرب الشط كي يفكر بوضوح. الحت في طلبها وبعد تردد وقبل ان يدخل بيتها وافق على طلبها، رغم احساسه بأن الموضوع متعجل وقد يجرهما الى مشاكل في المستقبل. مرت سيارتها قرب محل كوي الملابس المتواجد في رأس الشارع الذي يقع فيه بيتها.
كان الحاج رزوقي منهمكا في عمله لكي ملابس الحاج جواد صاحب علوة السمك في سوق البصرة. اثناء مرور سيارة الدكتورة ثروة لفت انتباهه وجود شخص جالس الى جانبها، فأستغرب ملابسه الفلاحية..ولكن وجهه كان مألوفا له..هو ليس غريب وبسبب فراسته تعرف عليه..اجل انه دكتور عادل، وكثير ما جاء لزيارتهم في الماضي..لماذا هو بالملابس الشعبية؟ ما الذي دعاه الى لبس هذه الملابس؟
صباح اليوم التالي وصلت رسالة الى مديرية مكافحة الاجرام في مدينة البصرة تكشف فيها مشاهدة الدكتور عادل في زيارة للدكتورة ثروة في بيتها.
حين نزل عادل من سيارتها، تذكر زيارته الاخيرة وحز حزنا عميقا قبض صدره وابعد الاماني الحلوة التي كانت تكلم ساعاته الماضية والحاضرة. ولم يفهم لغة التقلب التي لفت كيانه. اتعبه تحول مزاجه. اعدت له ثروة

غرفة والديها ليرتاح فيها ويستعمل الحمام المحاذي لها. ثم ذهبت الى المطبخ تعد عشاءا من الاكلات التي تجيدها وهي تسأل الليل ان يرفق بفرحتها بعودة عادل. تذكرت ازمانها الماضية حين كانت بحاجة لأحد يسندها ويعاونها على ما مر بها من ازمات واحدة تلو الآخرى. كانت تطلب المساعدة من الاقرباء والغرباء على السواء. وهي تدعو من الله ان تبقى متماسكة ولا تسقط في تيار الحاجة والعوز الذي يعاني منه الجميع. با لاضافة الى خراب البيت الذي امسى قديما فأجهزته تعطل بين يوم وآخر. والمجاري طافحة ورائحتها تزكم الانوف. لو ان عادل كان في وضع صحيح لأصبحت حياتها اسهل. لأنها تكره ظلال الخوال والعمام عليها، وتود لنفسها بيت واطفال تتعاون في بنائه مع عادل. وسكن اهلها مفتوح لها. فهنا كرسي ابيها يحادثها عن تاريخ العرب وهناك خف امها وهي خارجة من الحمام تضاحكها انهم معها داخل ذاتها. ابواها كانا اصديقين لها واشباحهم حولها تلوح من دروب اللاعودة يشاركونها احاسيسها. تحت نسيج سنوات عمرها منذ طفولتها لاتزال مسافرة معهما لاتفارقهما رغم غيابهما عنها. لو عادا الآن اكانت ستقترح على عادل رغبتها بالزواج بهذه السرعة؟ لقد انتظرت طويلا، وآن لأنتظارها ان ينتهي. تريده بكل لوعة فقدانها لوالديها. آذاها موتهما، ولكن وجوده سيكون هو العزاء. هو الحاضر والمستقبل. هو الجسر لكل الوعود. هو من سيصلها بالحياة. فكل ما حولها ينبض بتحرر منذ جاءت به الى البيت، كل الاثاث والشبابيك والابواب، حتى الاجهزة الكهربائية المعطلة لم تعد تعبأ بها. صوت الدوش في الحمام. نور المصابيح في غرفة الضيوف، اعاد الدفء لكل ركن من اركان منزلها.

كانت دور الجيران تنام تحت الاضواء الباهتة لأعمدة الكهرباء التي اضيئت قبل برهة وجيزة. رائحة الخبز طغت على رائحة الازبال المتناثرة في الشوارع القريبة. اصوات صراصير الليل تشتهي ضوء القمر. والقمر يأبى الظهور فقد عاكسته الغيوم. رغم فرحتها هناك شيء يثقل ضميرها. هو صدى كلماتها، لقد طلبت منه الزواج بنفسها.لم يطلبه هو. انها تؤمن بالحرية، حرية ان يكون للمرأة الحق في المشاركة في تقرير مصيرها، والافصاح عن مشاعرها التي تحس بها. ولكن عملية الزواج هل هي جزء من هذه الحرية؟ وهل بقلبها لهذه المعادلة..معادلة حق الرجل في طلب الزواج هو كسب لحريتها؟ منذ ان جاءت كلمة الحرية في فلسفة الفلاسفة والانسان يبحث عن مضمونها الكامل. بدون شك ان المرأة مكبلة بمختلف القيود والتي تتغير من مجتمع الى آخر كأسلوب متعارف عليه في التعامل معها..ولكن ما هي حدود حريتها؟ داخل كينونتها تشعر وكأنها فقدت شيئا لطيفا كانت تملكه هو رغبة الرجل في الحصول عليها..كونها مرغوبة منه اما بعد ان طلبته هي كأنما دمرت هذا الاحساس الرقيق. انها تريد ان تكون لها ارادة حرة، ولكن لاتريد لأرادتها ان تناقض ما متعارف عليه في المجتمع. انها فرد في هذا المجتمع، وبعض التقاليد نافعة له. وهذا الطلب بالذات هو دلالة على الاحترام المتبادل بين الرجل والمرأة. طلب الزواج هو جزء من ثقة الرجل بنفسه ووضعه العائلي. لقد فكرت كثيرا في اهمية قلب المفاهيم للبحث عن الحقيقة. ولكن قلب المفاهيم الجيدة المتعارف عليها ليس في صالح هذه الحقيقة. انه كتلاعب السياسيين بمفاهيم الحياة وفق اهوائهم لخدمة اغراضهم الشخصية. فبقلبهم لها يدمرونها ويمسخونها لدحض معانيها وتحريفها. فهل فعلت هي نفس الشيء وتعدت على حق عادل ومكانته؟ كالفارشة داخل خيالها دارت الكلمات وهي منهمكة في اعداد الطعام. انها تريد لعلاقتها بعادل النجاح وان تكون مبنية على الاحترام والتفاهم والحب. مثل هذه الرابطة تكون امتن من رابطة مبنية على الاحتياج فقط. خافت ان يخطأ عادل في فهم قصدها، ويظن انها استغلت حاجته لها للحصول على عقد زواج. ارتجفت يدها من مجرد خطور هذه الفكرة على بالها. رغم ثقتها بثقافة عادل الواسعة ورحابة افقه، ولكن ما علة تردده في الاجابة؟ وملامحه التي دلت على عدم الارتياح؟ هواجسها استهلكت فرحتها. وامتصت نشوتها. انشغال ذهنها افقدها غبطة دخول عادل الى المطبخ. فقفزت مرتعبة. زاد ذلك من ارتباكه. فهو لم يزل تحت تأثير موافقته على زواجهما. طلبها فاجأه. وكان لايزال غير قادر على التماسك بعد اكتشافه ومعرفته لسر مولده.. ووالده الحقيقي. وافقها وكأنه في حلم وكل مايمر به هو غمامة ستزول بعد فترة. خجله جعل الكلام بطيئا غير طبيعي ومتردد، وكأنه يبتعد عن حميمية المباشرة. قال لها:

- آني هواية خجلان من المشاكل اللي كاعد اسببها الج.

قالت بتوءدة جاهدة ان لايلح عليها وان لايلحظ تغير مزاجها:
- اهم شي عندي هسه..هو التفكير بطريقة نعيد بيها وضعك الطبيعي، ترجع بيها لشغلك بالمستشفى ولعيادتك..بس قلقي هو نتيجة لتفكيري منو هو هذا الشخص اللي يقدر يساعدك..كل الناس تتهرب حتى من مجرد الخوض بحديث يجيب لهم متاعب. ومشكلتك معقدة..فشنو الحل ووين نلاقي هذي الواسطة؟
صمت وكأن كلماتها تتدحرج فوق وعيه دون ان تمس اغواره. وجوده قربها. ونغمات صوتها. واشتياقه لأنوثتها وهيامه بها..كل هذه الاحاسيس غطت على الخطر وايقظت فيه الشيطنة والرغبة في معاكستها ومغازلتها وملاطفتها كي يبعد الهموم عن نفسه وعنها. تمنى ان يمد كفه ويداعبها في لحظة وصال تطفيء جنونه وبهجته بقربها منه. غمرته طفوله ازالت عن قلبه الشائب هرمه. في سنواته الماضية كم افتقد دفئها وحن اليها. وها ان الليل يمنحه ساعات فرح كالنور اضاءت حزنه المدلهم. انها الليلة والزمن الذي ربما سيعود به الى الوحشة..فمن يدري ما سيحدث يوم غد. لايريد لهذا اللقاء ان يهزم تطلعاته الى عمر يقضيه معها. في كل خفقة من قلبه يريدها. فهي وحدها قناعته التي لايسأم منها. بل هي تتجدد وتنسكب وفاءا لها. وبين فواصل حزنه ثروة هي حنينه الذي لايكل نحو الضياء. اتصل الحديث بينهما بعد فترة. فأخذ يغوص في امواج قصص الناس واحداثهم. وكانت هي تسرد عليه انباء عن ابيها وغموض مصيره.. واحتمالات موته. وعن امها واسباب انتحارها. كانت تضع الاطباق على المائدة وتملء الصحون بكل ما طبخته وهي تستمع الى عادل عن يم الحياة وامواجها وهو يساعدها في ترتيب ما تقدمه. تحدث معها عن اسرار الذاكرة وماضيها حين كانوا طلابا في الكلية الطبية، وعن اضواء حبهما في ذلك الوقت. تحمس لفكرة زواجهما الآن وبسرعة، وابهجته فكرتها فراح يطلق النكات والضحكات وهو متوهج يقدم لها زهور عواطفه لأنها اختارته هو زوجا لها. كان يتناول الطعام وهو مسرور بكل ما يحيط به، كانت تلك الليلة وكأنها ليلة عرس لهما. فرحته ابعدت شكوكها وادخلتها مسرات قلبه، وهناء عمرهما، وافراح الهيام به.
كلا لم تضع حياته كما كان يفكر. فها هي الايام تتفتح له بأهداف لم تخطر له على بال. قدم لها بعض الطعام ووضعه فوق طبقها، ثم اخذ ملعقة وملامحه مشرقة يجبرها على تذوقه من يده، وهي تشاركه مرحه. اختفت عن باله آلام الامس وخيباته. فحب ثروة له يؤكد انها مستعدة لتحمل الكثير من اجله. عرف انه لن يخبرها بسر مولده ربما ابدا فما الداعي لذلك وهو سر طي قلبه لايعرف به احد..الصمت احيانا هو افضل الحلول. خصوصا اذا جاء الموضوع عن الماضي. اثبات المشاركة بينهما حين يتزوجان احسن بكثير من النبش في زمان انقضى. كانت ملابسها السوداء تزيد من التماع بشرتها وهي تتحدث وقد نبضت بالانفعال والحياة، فبدت اروع رغم الاشكالات التي تحيط بهما. كانت مأخوذة بصوته تريد ان تعرف كل ما مربه منذ هروبه واختفاءه. ولكنه اخفى عنها المكان واسماء الاشخاص الذين يسكن عندهم. ليس لعدم ثقته بها بل حماية لها ولهم. حدثها بأسهاب عن صرخات عتمته وعذابه. عن اكاذيب الريح. عن صفق الخوف في الظلوع. عن شموخ وطيبة الناس. عن هدر قدراتهم وحياتهم حين يعاني هذا الشموخ من الاضطهاد والذل. عن هروبه وهزيمته في المواجهات، وعن وجع فراقها. وتلف طرق عودته الى المعتاد اليومي، وهجير عصره المعجون بالفزع. وصقيع لثلوج في اطراف فقدانه لكل شيء اثناء هذا الضياع. وخواطر مؤلمة بأنها نسته او سوف تنساه. ومحنته في كيفية الاتصال بها، وخطر ذلك عليها. فبين ثنايا الانشطار في النضال المسكون بالهزائم فقد الطريق الآمنة للسير. وشكلت ظروفه انسيابية للاخطار المحدقة به. انه يحارب لأنه انسان يريد وضعا طبيعيا لحياته. اليست هي المعادلة الصحيحة لكل الافكار المدونة خلال تاريخ الانسانية. الحرية في الفكر، في التصرف دون خوف من قول كلمة لا او اعتراض هو ما يتمنى تحقيقه في دنيا خالية من ضغوط الهلع للذين يؤمنون برأي او لمناقشة مايدور حوله من احداث. حرية ان يقرأ وينشر وحرية الاعلام التي تحرك هذا الهدف. حرية فكر للمثقفين لتطرير هذه الامة. حدثها عن احلامه في ان يكون بلده من البلدان التي تختار حكامها بالاكثرية وان يكون الشعب راضيا عنها. بلد القانون والقضاء فيه فوق المصالح والاهواء الشخصية، مكان ينعم فيه الاطفال بالطمئنينة لمستقبل لا يرهبون فيه الجوع او اللاجدوى. ان يتحرر المجتمع من الكثير من التقاليد القبلية تجاه المرأة. ان يعيش في مدن لاتنكره

ولا تتنكر له ولا تخذله. اما هي فقد حدثته عن توقها للامومة، عن حاجتها له والى نور وتوهج عينيه وشمس حيويته وكلماته واهدافه. وصفت له كيف التهم اليأس خطواتها حين غاب عنها، وشوقها المتجدد دوما له.
انتصف الليل وكل ما يحدث لازال جديدا بينهما. جلس الى جانبها فوق الاريكة. ما اعجب الدنيا. امس كان على حافة الانهيار، وعلى وشك الانتحار واليوم لاحدود لتمسكه بالحياة. صوت موسيقى الكراموفون يجعله يقترب منها، ليرى عيونها، وصوت داخلي يهيب به ان يمسك اعصابه فلا وقت للعواطف. تمالك نفسه بقوة، فهمت صراعه فشكرته نظراتها. وهو امر عادي ان يفهم احدهما الآخر دون كلام. عذرية العلاقة بينهما تجعلها صافية شفافة حلوة. ولكنه انسان ونداء جسده كان من القوة بحيث لم يستطع التحكم في انفعالاته. جف ريقه. وصعب النطق عليه. تدفقت الدماء حارة في عروقه فمد يده المرتجفة وبهدوء جذبها نحوه وضمها الى صدره ثم دفن رأسه في شعرها، واحكم ذراعيه حول خصرها. وفجأة ابعدها ..لاحت امامه صورة ابيه وامه. وسؤال عن قيمة عبور حواجز المسموح به؟ ولكنها بهتت امام نشوته وهو يرفع ذقنها ويطبق على شفتيها يرتشف الرضاب وينهل من رحيق الهوى الذي آسره بين قيوده. تحسس ظهرها وهي بين ذراعيه فقالت له محذرة:
- عادل ارجوك راح تحصل على كل ما تريد بعد الزواج..لاتضعف الآن..وارجوك لاتضعف ارادتي.
قال لها:
- ياحبيبتي الغالية..ياصغيرتي..انت بداخلي آني شايلج وممتلي بيج..انت جزء من كياني..انام واصحا وصورتج قدامي وبخيالي..ليلي يتحول الى لوعة ما تنتهي وعطش لعيونج..احلامي تطوف حولج وتعزف على امواج هواي.
اخفى وجهه فوق كتفها وهو يقبل عنقها وجسده يلتحم بشدة بجسدها. ورجولته ثائرة..حين قفزت الى مخيلته خيال امه وما عانته طول حياتها. فأبعدها برفق وسار نحو النافذة يقف في مواجهتها. ينظر الى الليل وهو يعاتب قمره النجوم. هبت موجة عبير خففت ببرودتها لهيب دماءه. وهدئت من وجيب فؤاده. لايرغب بتكرار ما حدث بين امه وابيه. ثم ان وضعه قلق ولايعرف ما هو مصيره. اصوات نقيق الضفادع ونعيب البوم، ورفيف حمامة فوق سعف النخيل، وهروب خفاش الليل قرب شجرة البرتقال، والحشرات وهي تهوم في الحديقة زمرا..جعله يستكين، واعاد الاتزان الى جموح مشاعره وادراكه.
سمعها وهي تقترب. ثم احتضنته والتصقت بظهره وجذعه، وقد وضعت حنكها فوق كتفه قرب رقبته. تنظر هي الآخرى الى نجوم الليل الهاربة تحت حواشي الغيوم. وتشاركه الاستماع الى سنفونية الاشجار الضاجة بحياة منتصف الليل. وقد احمر وجهها وارتعشت وهي تناجيه بأجمل الكلمات حلاوة وحبا. شفافية كلماتها الهامسة وانفاسها المرفرفة مع الاثير وصوت موسيقى الكرامفون المتراقصة مع بسمة عينيها الضاحكتين ولحظات مناداتها. جعلته يستدير وقد احاطها بذراعيه لينساب مع موسيقى مشاعرها الهائمة مع اصداء الظلام في نغم واحد متصاعدا نحو السماء فوق رؤوس النخيل. قبل وجنتها ثم اخذ يناغيها بأرق الكلمات حتى احمر وجهها، وارتعشت وهي ترد له مناجاته. قادها الى الاريكة وقد ساد بينهما الصمت. والنجوم وهي تتوارى جذلى وقد بدأ نور السحر وخيوط الفجر المنبثق يشق السواد لتطرب له الغصون وتبتهج به الاطيار القافزة..يا اعز من حياتي ..انت عمري وسنوات سعادتي..لو خيرت بين العالم وبينك لأخترتك انت. كل هذه السنين التي مرت بدونك كانت خواء وفراغ وضياع..لم اعش كنت ميتا..والآن فقط احس بطعم الهواء الذي استنشق فيه رائحتك..كنت وستكونين اجنحة تنعش قلبي الطائر الى اليوم الذي تكونين فيه لي..كم اتمنى ان اغمض عيناي فأجدك بين ذراعي الى الابد.. احبك ولا اظن ان احدا له مثل خزين العواطف داخل صدري. فلا اب ولا ام ولا اخت لي انت ستجمعين كل صفاتهم.. حتى انا..خائف من تدفق هذه المشاعر الجياشة الهادرة داخل عروقي..واحاول بكل قواي ورباطة جأشي عدم الضعف امامها..كي تبقين انت كما انت..ويبقى لي احترامي الدائم لنفسي. كلماته تسمعها كنشيد وهي تغرق في النوم..انفاسها منتظمة وهي تضع رأسها على صدره..لم يمسها. عقله واعصابه لجمت كل خيوط غرائزه..اجل ليس الآن ولكن بعد الزواج سيحصل عليها..تكفيه حلاوة الحب والود. حملها الى سريرها والشمس تطارد احمرار الشفق. ولم يكن نادما حين توسد الفراش.

تجاوزت الساعة العاشرة صباحا حين استيقظ. السكون يحيط بكل ما حوله. تلذذ بوحدته، فتمطى بكسل، ثم استحم وحلق ذقنه. صنع لنفسه فطورا. كان ذهنه مشغولا بثروة وهو يرتدي ملابس والدها. كانت واسعة عليه وتهدلت على كتفه ولكنه ارتاح لملمسها الحريري وجودة وليونة قماشها. حجبت الغيوم ضوء الشمس. فسادت دكنة رصاصية في كل انحاء البيت. انزل الستائر فوق النوافذ كي لايشاهده احد.ثم بدأ بترتيب البيت وغسل الصحون وهو يستمع الى صوت الراديو الخفيض جدا. نداءآت صافية لأعماقه تتردد داخل مزاجية ملفوفة بالحنان. انسحب من قلبه القلق الاسود الذي يلازمه. وبدأ يعتاد على فكرة كون ان ابو رند هو اباه. ليلة الامس التي قضاها وثروة نائمة على صدره صالحته مع كل ما يمر به من مشاكل. انه الآن مستعد لتحمل كل صدمات حياته بدون تذمر.

انهمك في اعداد طعام غداء فاخر وجد مواده في الثلاجة، وهو يردد الاغاني المنبعثة من الراديو. ولم يلتفت الى صوت المطر. منذ طفولته وهو متعود على خدمة نفسه وخدمة امه..فهو من يرتب البيت وينظفه وهو من يعد الطعام. وبعد وفاة والدته استمر على ممارسة تلك العادة رغم الخادم الذي استأجره للعناية بالبيت. القى نظرة رضى على كل ما قام به. انه احسن مدبرة منزل. ابتسم لنفسه لو ان ايامه القادمة ستكون فقط الاختباء هنا في بيتها وتدبير شؤونه، لما تذمر ولعادت قناعته بأن الحياة اكبر مغامرة واحلى اسطورة.. وابهى حلم يستمر بين نهاية ظلام وبداية ظلام. ومشاكلها تكشف مدى حلاوتها، وتعري زواياها المعتمة، وتضيء مباهجها، وتوضح ماهيتها. وهو يريد لهذه الحياة ان تكون ذات هدف ومعنى. فحياة كل انسان تحمل بذرة الاستمرارية لهذه الانسانية كلها وخلودا لها. وعليه ان يعيشها بفخر واقتناع. ان يحياها وهو يستمتع ويحب كل ما يقوم به وكل ما يقدمه وما يأخذه منها. وحين يصله وقت الموت سيقول برضى لقد عشت هذه الحياة كما احب ان اعيشها. انها حلوة رغم مرارة بعض اوقاتها. صحيح ان البداية تنبثق من رحم الظلام ولكن حين تنشق غلالته يشع نور الفكر والمعرفة، ليعبد السبيل امام الانسان في اكبر مغامرة له التي هي الحياة.

كان شريط اغاني فيروز يزيد من اشراق افكاره وتعلقه بثروة ويسهل طرقه معها. ارتعش جسده وهو يسمع دقات المطر على زجاج النافذة. كان الغسق الشتائي المبكر يقترب. وظلام خفيف يغلف كل ما حوله. الحذر جعله يترك الظلام يزحف داخل غرف الدار دون ان يوقد نورا . زحف العتمة بدل قليلا من مزاجه. هواجسه تعود اليه وتتسلل كحية لزجة تنزلق بين افكاره..يأتون دائما عندما يحل الليل. افكار غامضة غلفت روحه. يعرف اشواك دربه الدامية وهو في وضعه الحالي.

صعد الى الطابق الاول ودخل الغرفة المطلة على الشارع يحاول ان يقتل وقت انتظاره لعودة ثروة بالتطلع من النافذة. رفع جزء من ستارتها فنفذ نور النهار المنطفء. تأمل الطريق الخالي الا من سيارة نجدة واقفة على الرصيف المقابل لباب البيت. شاهد بعض الشرطة داخلها ومعهم آخرون بالملابس المدنية. كان الهدوء يحيط بالمكان. الى ان شاهدوا سيارة ثروة وهي تقترب..فهم بلمح البصر ما يدور امامه..لقد جاءوا يطلبونه. التموا حول ثروة حال وقوف سيارتها وشاهدهم وهم يقودونها الى المنزل.

التف بكوفيته واسرع الى سطح الدار وصعد فوق البيتونة ثم قفز بسرعة الى سطح بيت الجيران. السكون يسود كل شيء..ايتها الارادة اصمدي وساعديني على انقشاع ظلام محنتي..ليتني استطيع ان اكون الى جانبها الآن..ولكن من الاحسن لها ولي ان لايجدوني عندها في البيت..خاتل افكاره..سيذهبون ..خاطب نفسه وهو يبكي.

كان بيت الجيران خاليا فتح باب الدرج ونزل الى المطبخ حيث الباب المؤدي الى الحديقة. عالج قفل الباب حتى فتحه وخرج ثم اغلقه بأحكام خلفه وركض متواريا خلف الاشجار حتى وصل الى السور فتسلقه وانزلق الى الشارع العام الموازي. ومنه انفلت هاربا لايلوي على شيء وهو ينتحب. كان هروبه يلسعه ويحس بخطواته مشتعلة وهو يتجه عائدا نحو القرية..قرية ابيه واهله، وموطء اقدامه نيران تلتهم صدره وكل افراح ليله وصباح يومه. حمل انينه ودموعه وسار ملتفا بالطلام.

تقدم احدهم وهو يلبس الملابس المدنية ووقف بجانب ثروة وهي تغلق باب سيارتها. ومضت عيناها بالقلق والرعب. لمح ذلك فقال لها وهو يسلمها امرا بتفتيش المنزل.

- انت الدكتورة ثروة البصري؟
- نعم اجابت وهي تخفي فزعها.
-هذا البيت بيتج؟
- نعم رددت جوابها وهي ترتجف.
كان جميعهم يحملون المسدسات في خواصرهم. واحدهم كان يحمل رشاشة ويجلس داخل سيارة النجدة:
- دكتورة تسمحين النا ندخل البيت؟ احنه من مديرية مكافحة الاجرام بالبصرة..وتعرفين لازم نقوم بواجبنا بتفتيش الدار..عدنا معلومات تقول عندج واحد خاتل من الهربانين من العدالة.
كانت يدها ترتعش حين اولجت المفتاح في القفل. وبرودة تجمد اطرافها حين قادتهم الى غرفة الضيوف. انتشروا داخل الدار وايديهم فوق مسدساتهم والجندي يشهر رشاشته على خواء الغرفة. كان الصمت ثقيلا خانقا واصواتهم تمزقه:
- انت تعرفين واحد اسمه دكتور عادل؟
همست:
- بلى ..دكتور عادل خطيبي.
- شوكت شفتيه آخر مرة؟
صمتت. اثناءها دخل احد افراد الشرطة وهو يحمل أواني الطعام المطهي وقال:
- ماكو احد بالبيت..اتصور انهزم..لأن الاكل بعده حار.
ثم استدرك قائلا:
- يمكن هرب قبل ما ندخل.
اطلق الضابط ضحكة استهزاء ثم غمز لها:
- جان هنا وفر..ياآنسه شلون جانت ليلتج وياه البارحة..حمرا على ما اعتقد؟
الصعوبة في السيطرة على ارتجاف يديها جعلها تسقط المفاتيح. حاولت الانحناء للبحث عنها ولكن صفعة قوية اوقفتها عند حدها. كانت دموعها تلسع خدها المتورم اثر الضربة، سكوتها زاد من شراسة الضابط ظاهر.فدفرها في خاصرتها اليسرى وهو يقول:
- احنه نعرف كل شيء..قحبة..هو بالدنيا اكو واحدة شريفة تسهر الليل كله وحدها مع رجال مو رجلها غير وحدة بايعة ومخلصة..قحبة يعني زانية.
اقترب واحد منها وهو يقول بلطف:
- قولينا ياآنسة وين هرب الدكتور عادل..حتى تخلصين نفسج ..لا تسوين تضحيات ما لها لازم لخاطر انسان اتخلى عنج وفر.
همست وهي تتأوه:
- والله العظيم ما اعرف وين هو.
اقترب منها اكثر ومد يده يداعب رقبتها خلف شعرها. فأقشعر بدنها اشمئزازا وابعدت يده بحدة. وبصوت املس كالفحيح قال لها:
- لازم مغازلاته جانت مثيرة اكثر مني.
فضج الجميع بالضحك. ضحكهم منحها قوة لاتعرف من اين جاءتها فصرخت في وجوههم:
- القحبات امهاتكم..وصدقوني لو احد مد ايده علي راح اقطعها.
فتظاهر احدهم بالخوف وهو يشوه وجهه قائلا:
- ياه ..وألها صوت خوفتني بيه.
ثم لطمها على رأسها بقوة:

- هاي آني مديت ايدي عليج..شراح تسوين؟ انت الظاهر ما تعرفين احنه منو؟..ياآنسة صح النوم..احنه الامن..يعني نسهر على أمن هذا البلد..والقانون هو احنة..نحكم وننفذ الاحكام..نتهم المخربين من امثال الدكتور عادل وننفذ ما نقرر من احكام..افتهمتي..لو عندج اعتراض؟

مع كلمته الاخيرة جاءتها صفعة قوية جديدة اسقطتها الى الارض وهي تصرخ بأعلى صوتها:

- اللعنه عليكم وعلى اللي خلفوكم..انتو ما عندكم ضمير..انذال؟

جرها احدهم الى الكرسي وهو يمسد شعرها وكتفها ويمد يده الى صدرها وهو يقول بتحدي:

- جم مرة سواها وياج البارحة بالليل..ترة والله آني احسن منه..صدقيني اقدر ادفع اكثر الف مرة.

اجهشت بالبكاء وهي تهمس:

- محد يقدر يمد ايده علي..والعظيم آني بعدني عذراء.

فقهقه الضابط ظاهر وهو يغمز لأصحابه:

- ليش احنه غشمة ياآنسه..هناك عمليات ما تحتاج الى اختراق غشاء البكارة..مو هيجي؟

فزاد ضجيج ضحكهم وهم يثنون على مفهومية الضابط في قضايا الجنس. وربت احدهم على كتفه بأحترام. فأسكتهم وهو يوجه الحديث لها.

- ياآنسه لويش تعذبين نفسج وتعذبينا..المسألة وما بيها وين هو؟ دلينا عليه وخلصي نفسج من هل البهذلة..هذا مو احسن الج؟

ومن بين شهقاتها صاحت:

- والقرآن الكريم ما اعرف ولا علم لي وين هو؟ لو جانت عندي فكرة جان قلتلكم.

فزاد ذلك من سخريتهم وقال الضابط ظاهر:

- هلشكل..يعني جان خنتيه بهل السهولة..ويقولون الحبيب ما يخدع حبيبه.

اقترب منها احدهم ووقف خلفها وهو يحتك بها..فأرتجفت وابتعدت بجسدها عنه وشهقاتها تزداد علوا كي تصبح نحيبا متواصلا..فغمز الضابط له وهو يقهقه من جديد:

- كان الاحسن تلاعب نهودها..اتصور هي تحب هذا اكثر.

ثم وبصرامة:

- رافقوها للتحقيق..فجريمة الزنا واضحة ما تحتاج الى شهود.

طمغوا البيت بالشمع الاحمر وبعد خروجهم اقتادوها الى مصيرها المحتوم. حين صحت من اغمائها كانت معلقة من يديها الى السقف عارية وقد تورمت اقدامها والدماء تسيل من اجزاء جسدها واطراف اصابعها وقد اقتلعوا اظافرها..نظرت الى بدنها العاري حيث البقع المتورمة والمحروقة بأعقاب السجائر. عيونها كابية واحداقها تغطيها غشاوة ضبابية..لم تعرف اين هي ولا ما يحدث لها..همست وكأنها تحاول استعادة وعيها:

- لازم آني متت..وهذا هو الجحيم..والشيطان كاعد يعاقبني على ذنوبي لعدم ولائي له.

شهقت وبصعوبه حركت اجفانها المتورمة، فلمحت حولها اشكال تتحرك..بلا رؤوس..لم تشاهد سوى هيئآت تدور حولها..فجالت الخواطر في ذهنها..لماذا تسير هذه الاجساد بدون رؤوس؟ اين تلاشت ادمغتهم. تلك الرؤوس كان الظلام يلفها. وحين تأوهت عاجلتها ضربة من الخلف بكعب شيء صلب شعرت بثقله وهي تغيب عن وعيها. ومن خلف الجدار ارتفع صوت هدير وازيز لرصاص ينهمر وهم يعدمون وجبة جديدة من السجناء..حينها تمنت الموت..لقد غدا الموت امنية. حين يطأ الاذلال الكرامة، وتناطح اوردة الوجنات كعوب الاحذية، يختفي الاحساس بالذات ويصبح الموت اغنية.

مساء ذلك اليوم نفسه كان الضابط ظاهر يقضي سهرته في ملهى البصرة مع شلته المقربة بصحبة الراقصة فيفي وهي تتفنن في اظهار مفاتن جسدها على موسيقى احدى الاغنيات الشائعة. انها مشهورة بحسن ادائها لهذه الرقصات. هزات ساحرة تشرأب لها اعناق الرجال وتحملق بها لساعات طويلة بقلوب واجفة حيرانه. معرفتها الحيدة لفنها تثيرهم الى درجة مشاركتها الاهتزاز ودق الاصبعتين. حتى الضابط بعد كأسين من العرق نزل معها في المنازلة الغزلية الراقصة وهو يلتف حولها على المسرح واصابعه تفرقع على وزن الموسيقى. يقال

انها كانت تحصل على الملايين. هذا ما همس به صارم في اذن الضابط وهم يتمون سهرتهم على مائدة القمار.
فعلق الضابط بنشوة:
- آني هواية متونس..لأن رقصاتها تفتح الشهية وتشيل عني الهموم اللي صايرة ما تفارقني هل الايام.
ثم استطرد ليعطي لكلماته فلسفة المثقف:
- يا اصدقائي ترة الحياة متاهه اغرق بيها مرات..وصدقوني للنفوس اسرار لايعرف اغوارها غير الله.
ثم مصمص اصابعه بعد ان تناول رشفة من كأسه. كان صارم يجلس الى جانبه وهو ينصت بصمت، ويشعر بالنشوة لثقته به، ولتوطد صداقتهما. وكان الضابط ظاهر لايكف عن الحديث عن ماضي عشيرته الشهيرة والتي كتبت جولات في تاريخ العراق خصوصا في تعاملها مع ولاة الدولة العثمانية. رمى اوراق اللعب بعد ان خسر كمية لابأس بها من النقود وهو مستمر بالحديث مع صارم عن عائلته واجداده..كان جد جدي من الموسورين. بساتينه كانت تدر عليه الكثير خصوصا تجارته بتنكات الدبس التي كان يجيد تصنيعها من التمر. ولكن تقلب الولاة في العهد العثماني اثر على تلك التجارة. وبدأ الربح يقل سنة بعد اخرى. فبعد كل تغيير تقوم الحرب ويكثر الرعاع من النهب والسلب حتى تصبح عادة يومية وهكذا فقد اجدادي كل شيء. اما جدي ابو ابوية فولد بعد خراب جميع البساتين التي تم تدميرها. فأشتغل فلاحا لدى رئيس عشيرتنا ولكن الوضع لم يعجبه لذا نزحنا الى مدينة البصرة وهناك حصل على عمل في معمل الطابوق..كان الضابط ظاهر يسكت احيانا عن سرد روايته ويغيب عن الحاضرين..هل مايقوله صحيح ام هو من نسيج خياله؟ حتى هو شخصيا لايعلم ذلك جيدا. كانت ضحكات اللاعبين ترتفع وتقطع عليهما صمتهما فيتداركان ذلك بالشرب من الكؤوس المترعة بالعرق سايره صارم وهو يتسائل بينه وبين نفسه هل حقا كان اجداده اغنياء ام هو يقص ذلك لجعل الآخرين يهابونه؟
كان الضابط ظاهر من الشخصيات المعقدة المتقلبة المزاج نتيجة تربيته البيتية من اب لايعرف احد صدق كلامه من كذبه. فتلك القصص عن شجاعة اجداده وفروسيتهم ايام الدولة العثمانية..كانت تختلط حقيقتها عنده الى درجة لايفرق فيها بين الحديث عنهم ام عن نفسه..فالشجاعة هي ما يفتقدها. هذا ما فهمه الضابط ظاهر عن ابيه منذ صغره..اجل انه جبان ولهذا يؤلف الاساطير عن اجداده ليضفي على نفسه الصفات التي تنقصه. كان جبنه يظهر واضحا امام سلاطة امه وشراستها. الام التي عمقت في اولادها شعورهم بالخجل من ابيهم بتعييره الدائم بفقره وكسله. كان ظاهر اكبر اخوته لذا وقع عليه الاختيار لدخول مدرسة الشرطة للمساعدة في اعالتهم. وقد وافق هو عليها لأنها تناسبه فهي تمنحه فرصة للتنفيس عن حبه للسيطرة على الاخرين. هذه الصفة جعلته يبرزبسرعة بين زملائه كضابط امن جيد..يحسن حل المشاكل وقمعها..على الرغم من معرفتهم الاكيدة ان معظم هذه الخلافات كان هو المفتعل لها. قدراته وشراسته عاونته على النجاح في تدريب رجاله على كيفية التعامل مع العامة لضبط امن البلد كما كان يقول. فتلقيم الاشاعات الى المتحدثين والايحاء لهم بما يجب التحدث به كانت احدى اختراعاته لكشف اعداء السلطة. كان يخلق اجواءا من الخوف الغريزي الدائم حوله تجعل العاملين مرعوبين من مغبة ارتكاب أي خطأ يؤدي الى تصفيتهم هم ايضا. الصراعات داخل العوائل الكبيرة جعلتهم في وضع لايحسدون عليه خصوصا بعد حرب الخليج الثانية. هذا الوضع زاد من واجباتهم وافسح المجال لمواهب الضابط ظاهر الفذة بالبروز لبراعته في التعامل مع مرؤوسيه. فهو يعرف متى عليه الصمت وابداء عدم المبالاة ومتى يكون الكلام مفيدا وواجبا. ثبات مكانته وتزايد نفوذه اجبرت العاملين معه على حساب كل حركة او تصرف يقومون به وعلى الاخص حين يكون غاضبا. كون شبكة من المساعدين المدنيين اخذت تتوسع يوما بعد آخر وغدت المعلومات تصله اولا بأول عن كل ما يدور في مدينة البصرة وعن كل ما يقال ومن يقوله. هذه المعلومات كان يصنفها وينتقي المفيد منها ويرتبها كي تصل بدورها الى الجهات العليا. والجهات العليا من جانبها كانت ترد عليه وهي تحمل الكثير من الاوامر والتوصيات. صحيح ان بعضها لم يكن واضحا او يناقض ما سبقه ولكنه كان على دراية جيدة بما يجب عليه القيام به في جميع الاحوال. كان يبدأ عمله اليومي بمحاسبة مساعديه عما قاموا به من اعمال فيعاقب المخطئين ويمدح الذين يحسنون اداء تلك الاعمال ثم يوزع الواجبات الجديدة، وهكذا انتظمت الاشغال بشكل واضح جعل السلطات العليا تثمن جهوده وتكرمه لنجاحه في تسيير امن تلك المنطقة. هذا الامتياز جعله يتفنن في ابتكار الخطط الجديدة. من تلك الانشطة المميزة كانت

خطته في فتح تنظيم لمخاتير المحلات القديمة في البصرة، لتزويده بما يحصلل في محلاتهم حيث حرص على مكافأتهم بشكل يضمن فيه اخلاصهم وعدم تلاعبهم من وراء ظهره. وزيادة في الاحتياط امرهم ان يتجسسوا احدهم على الآخر فهم لايستهان بمكرهم. كان يصر على معرفة اسماء كل الناقلين للاخبار والاشاعات ويطلب تزويده بطرقهم في الحصول عليها. والويل للمختار الذي يخفي اسم شخص ما او تقرير ما..فهذا يعني وضعه في القائمة السوداء وانه سوف يتلقى نتائج اعماله بالاضافة الى خصم الاكراميات. وتزداد لذة الضابط ظاهر حين يهزم واحد من هؤلاء المخاتير ويظهر تفوقه عليه في الحصول على معلومات يجهلها عن محلته او يحاول اخفائها..كان يسميها الاعيب المخاتير. اما التجار فقد وطد علاقته بهم بواسطة تبادل الخدمات والمصالح. فقد كان لغزا بالنسبة لهم..صفاته القاسية وغموضه المليىء بالشر تجعلهم في حيرة لتخمين ما يدور برأسه، للاحتراس منه. فهو كثيرا ما يسخر منهم دون ان تلوح على وجهه علامة للسخرية. وقوته تكمن في فهمه للآخرين من نبرات اصواتهم حتى اذا كانت الكلمات عامة لا تعني شيئا. احاديثه وكلماته تحمل دائما معنين ظاهر ومخفي داخل كثافة ما يقوله او يلمح به..يقال عنه له الف وجه، وشكوكه الدائمة بكل شيء تمحي ثقته بكل من حوله. فهو يرتاب حتى بحركات العيون، ويصمت وكأنه لايسمع ما يقال امامه اذا كان الامر على غير ما يريده. تكفيه غلطة واحدة من احد مساعديه كي يذيقه الويل ليجعله عبرة لغيره. المعاقبة بشدة وامام الآخرين تقتل حتى الحلم بخيانته. بعدها يعود ناعما لينا. ولا يتكلم الا في المواضيع التي تزيد من هيبته وخوف الآخرين منه. يقول اقل مما يعرف. هذا يعطيه السيطرة التامة في تعامله خصوصا مع التجار. يستخدم لمعونته فقط الافراد الذين يمتازون بالمكر والذين لاتهمهم سوى مصالحهم وجمع اكبر كمية من المال فهؤلاء يسهل التعامل معهم، ففي سبيل المكافأة يقومون بكل ما يطلب منهم دون رحمة. كان يحترس من استخدام اشخاص يؤمنون بالقيم او المثل او من الذين لهم بطولات خلال الحربين، فمثل هؤلاء يعتبرون انفسهم امثولة يتفاخرون بها وكأنهم يمنون بما قدموه على المحيطين بهم. وعلى الناس التعامل معهم بمقدار الاوسمة التي حصلوا عليها. رجاله هم الذين يعرفون ان حياتهم ورزقهم متعلق به وحده. وهذا ما وجده بالعمل بين التجار الذين يخشون الخسارة والمخاطر التي تحيط بعوائلهم، فكان يسيرهم بالطرق التي يخطط لها بشده لطرفي هذين الخيطين. سمع الكثير بأن العراقيين يمتازون بالقسوة والوحشية ولكن هو كان له رأي آخر..كان يرى الخوف من اقتحام المخاطر هو ما يفضلونه، خوفهم من فقدان حياتهم هم ما يسيرهم..غريزة حب البقاء لديهم اقوى من عقولهم في تقرير ما يجب عليهم القيام به..لذا الترويع والتخويف هي الطريقة التي يمسك بها بزمامهم كي يجبرهم على اطاعة اواومره او عصيانها..فهم من النوع الذي يغير رأيه بين ليلة وضحاها، ويتوقع انقلابهم عليه في أي لحظة بل حتى على اقرب الناس لهم اذا هدد حياتهم خطر ما. رغم كل مظاهر القوة التي كان الضابط ظاهر يحيط نفسه بها ورغم تلذذه بعدوانيته، كان داخل نفسه ضعيفا هذا الضعف هو الذي كان يدفعه الى تلك القسوة لحماية نفسه. فأي فزع او قلق او شك يحوله الى وحش ضاري يضرب ويشتم ببذاءة، تصل احيانا حد قتل من سبب له الأذى او كاد له في الخفاء. ولأخفاء هذا الضعف اطلق على نفسه لقب ابو الاسود. والذين ينادونه بهذا اللقب هم الذين يودون ارضاءه او الحصول على ما يرغبون به. هذا التدليل كان يرضي غروره ويعطيه ثقة بنفسه ويعيد الطمأنينة الى روحه القلقة. حبه الشديد للمديح تجعله يذوب امام كلمات الاعجاب. والذي يعرف هذا عنه يستطيع الوصول الى اغراضه منه بسهولة.

الاكريم حمادي صديقه الذي يكرهه ويتمنى التخلص منه بأي ثمن. كان كريم حمادي احد التجار الذين يتعامل معهم. يملك سوبر ماركت ومخازن متعددة. علاقتهما توطدت ونمت على مائدة القمار التي يلتقون في حبهما لها لقتل الضجر المقيت كما كانا يبرران ذلك. كانت شخصية كريم على النقيض من شخصية الضابط ظاهر. فأحاديثه لاتخلو من طرافة وتثير قهقهات من حوله بالنكات التي يطلقها. المرح الذي يصاحب وجوده بين اصدقائه تجعله من الشخصيات التي لايمكن الاستغناء عنها في تلك اللقاءآت. براعته في ابتداع مختلف الشتائم المدهشة شاركتهم الجلسة في ذلك اليوم:

- ياجماعة ترة قلاقيلنا خربت..ينراد لنا فدكأس عرق زحلاوي زين يرجعها لمكانها.

ضج الحاضرون بالضحك الا الضابط الذي يشمئز من المشاركة فيما يقوله الحجي كريم..ابو ليث. فواجهه برزالة اوقفت فيض مداعباته..ولكن الحجي كريم لم يدم صمته سوى دقائق ليعود من جديد الى التهريج. فلم يتحمل الضابط ظاهر كل ذلك الضجيج واسمعه كلمات جارحة تحولت الى مشادة بينهما، اضطرت التاجر كريم الى مغادرة مائدة القمار منزعجا، تبعه الضابط ظاهر متكدرا وهو يضمر له الشر فهو لايغفر الكلمات الجارحة المستهزئة التي كيلت له والتي اضحكت الجميع عليه.
بعد ساعة غادرهم صارم كذلك نحو شقته في المعقل. وجد الكهرباء منقطعة فأشعل شمعة. نزع ملابسه في غرفة النوم ولبس بجامته ثم توسد فراشه وباله مشغول بما حدث مساء اليوم بين الضابط ظاهر والحجي كريم، والتي عكرت مزاج الجميع فهم يعرفون ان مثل هذا الحادث لن يمر بسلام فالضابط سينتقم حتما.
وكما توقع الجميع لم يمر اسبوع حتى وصلت تعليمات من فوق لمعرفة اسباب اختفاء البطاطة وبعض الخضار من الاسواق. استيقظ حجي كريم من نومه على رنين الهاتف. نظر الى الساعة التي كانت قد تجاوزت منتصف الليل. جاءه صوت بأن محافظ البصرة في جولة داخل المحافظة، وهو يريد تفتيش بعض مخازن الخضار. فصرخ:
- شنو انتو مخابيل..بهل الليل اكو تفتيش.
كان يتصور ان الموضوع نكتة من اصحابه لأقلاق ليلته فقط. ولكن الصوت الحازم ارجعه الى عقله:
- تجي لو ندزلك سيارة نجدة تجيبك.
قفز مفزوعا وقد تغير لونه واصفر وجهه. في تلك الليلة كانت شوارع مدينة البصرة مضاءة بمصابيح خافتة ذات لون اصفر باهت. وحين وصل الى السوق الخالي ارعبه منظر الدكاكين المرصوصة وهي مغلقة. ماذا لو كان الموضوع دسيسة او محاولة لقتله؟ تحسس السكين التي اخفاها تحت سترته. هبت رائحة عفنة للحوم فاسدة حين اقترب من مخزنه. اشعل سيجارته بيد مرتجفة وهو يرى سيارة نجدة واخرى للامن العام ومكافحة الجرائم واقفة امام محله الذي يخفي فيه الخضروات، وبجانب السيارة عدة اشخاص بعضهم بملابس الشرطة وآخرون بملابس الجيش والانضباط العسكري. فأسرع يؤدي التحية:
- مرحبة ياجماعة..يابه آني متأسف خاف اتأخرت عليكم شوية .
تمتم بعضهم يرد عليه تحيته. وسكت آخرون بعدم مبالاة. تقدم اكبرهم رتبة وامره بفتح دكانه. ففعل. وحين اشعلوا الاضوية علا صفيرهم..وهم يشاهدون اطنان الخضروات والفواكه المعلبة المرصوصة في صناديق خشبية بعضها فوق بعض. تهامسوا بينهم بمرح:
- لك هاي شنو..الناس ميتة جوع وشوف الاكل هنا..لك انتو شنو ما تستحون..كل هذا وشوكت ما نجيك تقول مفلس ..منتوف..مصلخ..ماكو فلوس..لعد هاي شنو مو فلوس؟..الناس تلوب على حاجة من الخضرة والطماطة والبتيتة..وهي مضمومة عندك..تريد الشعب يقلب علينا!..يقول الحكومة ما تهتم بمصالح الناس؟
شعر كريم ان قلبه يهبط الى رجليه ثم ينط من داخل قفصه الصدري فقال يبرر نفسه:
- والله العظيم كلها بالدين..والديانة يركضون وراي..وكل يوم اقول ارجعها الهم لأن ما اقدر ادفعلهم فلوسها..شوفوني والله العظيم مصلخ..وربي اللي خلقني عارف وشايف حالي وحال جهالي واهلي..ميتين من الجوع وما اخليهم يمدون ايديهم على هذي الصناديق لأن امانة..مال الغير..اذا ما ادفع فلوسها لازم ارجعها لأصحابها.
فصاح به الشرطي بعد ان كفخه على رأسه:
- لك انت جاي تقشمرنه..احنه على رواتبنا ما محصلين خبزتنا، وانت بكل هذا الحلال تاكل وتشبع..وتقول منهوك..شلون حجي هذا؟
وما اتم كلامه حتى نزلت رحمة الله على ابو ليث وين ما يوجع ضربوا..على رأسه ..على بطنة ركل ولكم، وابو ليث يصرخ:
- ياجماعة والله انتو غلطانين..اللعنة على ذاك اليوم الاسود اللي خلاني اصير بياع خضرة وافتح مخزن..ذاك اليوم الاكشر..لو انكسرت رجلي..ليش آني ما ادري حظي نجس .. حظي خرا..

اثناء الضرب همس احدهم في اذنه:
- لك لاتظل اغبر..خلص روحك من هلرزالة..ادفع ..ادفع جم فلس..
فصاح من الالم:
- أي ولك شأدفع اذا آني بطرق خصاويي..ياجماعة انتو متأكدين ماكو غلط؟..منين اجيب لكم فلوس..
فدفعه احدهم نحو السيارة وهو يجره:
- لعد يطبك مرض اصعد تعال ويانا للامن.
فدفعهم بكل قوته وهو يصيح:
- زين ميخالف..شكد تريدون..ابيع الوراي والكدامي وامري لله.
فصفعه على رقبته احدهم وقال:
- عشر ملايين دينار.
ففز مرعوبا:
- شنو تريدون تخربون بيتي..انتو عقال لو مجانين..منين اجيبلكم ..حتى لو ابيع روحي وولدي بالسوق ما يجيبون بارة..هنوب ملايين.
فرد عليه احدهم وهو يضحك ساخرا به:
- من لعب القمار..حسبالك احنه ماندري وين تقضي الليالي..كلشي نعرف..ولك المهم تبقى حي مو احسن لك.
وبعد اخذ ورد اتفقوا ان يمهلوه عدة ايام لجمع الفلوس. وحين غادروا صاحوا:
- تعرف مصير الخاين..ترة وين تروح احنه وراك وراك حتى نحصل على حقنا..واتذكر ترة القانون احنه..واحنه نمشيك حسب هذا القانون..افتهمت؟
ثلاثة ايام عاشها في جحيم باع كل ما استطاع بيعه وسحب كل رصيده بالبنك واستدان من كل معارفه كي يساعدوه في ورطته حتى جمع المبلغ. وما ان انتهت المدة المحددة حتى جاءوا اليه في البيت واستلموا المبلغ. كتم الامر عن اصدقائه، وانقطع عن سهراته معهم للعب القمار. ورغم ذلك وصلت نتف مما يعانيه اليهم فقرر صارم زيارته في بيته لمعرفة الحقيقة. وجده طريح الفراش لايكلم احدا.. وبعد جهد وتحايل اخبره هامسا بما حدث. ارتعب صارم وغادر دار صديقه بسرعة لئلأيشاهده احد في زيارته.

الفصل السابع

الدروب والضفاف

اصبح الماضي يمتص الحاضر بشراهة، فيجر المستقبل خلفه الى الحاضر. فما ان ينطق احد بكلمة حاضر حتى تجتاز حروفها خطوط الماضي. انه شيء عجيب هذا الحاضر وهو يهرع ليصبح ماضيا.
كان شتاء تلك السنة باردا قارصا، فقد نزلت الامطار بغزارة، فأغرقت الحقول والمدن..وفيها المجاري التي طفحت نتانتها واوساخها حتى دخلت ابواب البيوت. مما اجبر الاطفال على ترك مدارسهم وحمل الاواني لجرف المياه الآسنة من داخل البيوت وافراغها في تنكات ترمى في السواقي القريبة. اما في المدن الكبيرة فقد كان ربح النزاحين مجزيا في تلك الاسابيع. الرطوبة والصقيع زاد من تفشي الامراض المعدية والامراض النفسية خصوصا بين النساء بشكل خطير. كما قل الرزق في الاسواق الشعبية المغلقة خوفا على البضائع من التلف والبلل تحت المطر. وامسى الناس يفضلون البقاء في البيوت على الخروج للتسوق او الزيارة. وعاش معظمهم على ما اختزنوه لوقت الحاجة وما بقى لديهم من ايام العز. وكثرت غيابات الموظفين بأجازات مرضية وصحية. وبدت الحياة وكأنها تعيش سباتها الشتوي. ولم تبقى سوى الاتصالات التلفونية للتواصل بالحديث والاخبار التي كانت هي الآخرى في تناقص مستمر وفي انقطاع في كثير من الاحيان. في مثل هذه الاحوال وجدت الاشاعات مرتعا خصبا لها، واول هذه الاشاعات هي الاقوال التي تدور بأن الحصار على وشك الانتهاء. وان الزمن الحلو سيعود. فتزدهر الامور خصوصا الاقتصادية منها، وترجع كعهدها في سنوات السبعينات وخيرها. فيعود تدفق النقود، وينفتح السفر الى الخارج وتتحسن الحالة المادية ويعود الرفاه. وسوف تزهو الاسواق بالمواد التجارية. وتقوى العملة ويزداد سعر الدينار ويرجع الى قيمته كما كان قبل الحصار. فتنخفض اسعار السلع. ويتراجع الغلاء. ويعود الناس الى تعاملهم الطيب مع بعضهم. المستشفيات ستزود بالاجهزة الحديثة.الامراض ستقل، وستتكدس الادوية من بلدان الغرب لأنقاذ الناس من السرطانات المنتشرة. ماء الشرب سيصفا وينقى بعد تنفيذ المشاريع الحيوية للبلد. ستبلط الشوارع، وتصلح المجاري، ويمد المزيد منها الى كل مناطق العراق. سكك الحديد ستربط المدن ببعضها على طول البلاد وعرضها. وستنشط الزراعة فتعود مشاريع الري والبزل الى جودتها الماضية. وسوف تتدفق المياه وفيرة في الانهار بعد الاتفاق مع تركيا. وهناك انباء مؤكدة تؤيد ارسال وفد مفاوض الى سوريا، لدرء خطر الجفاف الذي يهدد الاراضي الزراعية نتيجة زحف الصحراء. بل زاد بعض الناس على كل ذلك بأن هناك انفتاح عربي سيسند العراق في مرحلته القادمة من التطور . ابتهج الناس بكل هذه الاخبار التي تبشر بالخير، وقالوا ستكون هذه السنة سنة خير على الجميع..ولكن الامطار استمرت بالهطول واستمر سوء الاحوال المعاشية بالتدهور اكثر واكثر.
اثناء اسابيع المطر كان صارم يقضي معظم وقته في بيته في القرية. ورغم ما كان يعانيه من مرض الكآبة كان يتابع الاشاعات وبالاخص اخبار ارتفاع وانخفاض سعر العملات.فتصريف النقود يهمه، وقد عقد الكثير من الصفقات المربحة، ولكنه منذ فترة ليست بالقصيرة يعاني من توجس بخسارة محتملة اذا ارتفع سعر الدينار. ولتلافي مثل هذا الاحتمال فكر بالسفر الى الاردن في اقرب فرصة لسحب مبلغ من الدولارات من حسابه هناك وتحويله الى الدينار العراقي، وادخال هذا المبلغ الى رصيده في بنك الرافدين فرع البصرة لأسناد المشروع الذي يود تحقيقه. انشغاله في مشروعه هذا اصبح وهواسا ساعده في ابعاد هواجسه ورعبه من انكشاف امر مخزنه للمواد الغذائية الذي يخفيه في شقته، وافتضاح تعامله في بيع وشراء المواد الغذائية في السوق السوداء خصوصا بعد حادثة صديقه كريم. سر هذه الحادثة ظل لغزا لديه.. فمن هوالذي وشى به؟ شك في كل من يعرفهم، وزادت ريبته في اصدقائه وكل ما يدور حوله. مما اثر ذلك حتى على علاقته بنجوى فصار يباعد من مواعيده معها. وتمادى في حذره وحيطته الى درجة انه قلل كثيرا من نشاطاته التجارية السرية ، وغدا

مجبرا على سحب النقود من رصيده في البنك لتغطية مصاريفه الشخصية بدلا من التوفير الذي كان متعودا عليه. الامطار ابقته محصورا في القرية واضطرته لتأجيل تنفيذ خطته في البحث عن مكان مناسب لفتح اسواق خضروات او المطعم الذي يحلم به. فمنذ مدة وهو يرتب اموره لتوظيف نقوده وصيانتها من هزات الربح والخسارة اذا بقت في حالة السيولة .انشغال باله المستمر وتعرقل اموره المادية اوصله الى مرض الكآبه الذي اصبح يلازمه خصوصا في المسائل المادية، والحذاقة في الحفاظ عليها، والاسراع في تدويرها. وقد وجد صعوبة في تشغيلها لزيادة ارباحه كي لاتأكل نفسها..كان يرهق نفسه دون جدوى لايجاد طريقة مبتكرة تساعده في تسويق ما لديه حاليا من بضائع ولمواجهة التنافس المحموم في السوق. فترة الكساد غيرت مزاجه فأصبح قاسيا على المحيطين به.

كان قد الف فرقة رماية من ستة اشخاص من الفلاحين الذين يساعدونه في ادارة بساتينه. قام بذلك قبل نهلية السنة الماضية وبداية السنة الجديدة وبعد وعوده لصاحبه فارس عند استلامه للبنادق. الشخص الذي كان يعتمد عليه في تسيير امور هذه الفرقة هو صابر ابن ام صابر مدبرة منزله. كان يحبه ويكرهه في آن واحد. كان يكرهه لهشاشته التي يخفيها بأظهار الشجاعة المبالغ فيها. ولكونه حساسا جدا يثور لأتفه كلمة تقال ضده، او لأي نقد يوجهه احد لتصرفاته. ولكنه سرعان ما ينهار اذا جوبه بصلابة من المحيطين به. فهو يتظاهر بالثقة بالنفس والتفاخر ولكن هزة استهزاء صغيرة تجعله يفقد كل تلك الثقة. ولكنه يحبه لتكتمه ولبخله الشديد، وكذلك لحبه للعمل، ولأفكاره المتنوعة في ايجاد الحلول الملائمة اثناء الاوقات الصعبة.

كان صابر جنديا اثناء الحرب مع ايران. ساهم في حرب الخليج الثانية، ولذلك كان يجيد الرماية بشكل جيد، ويعرف كيف يجبر الآخرين على اطاعة اوامره. ولديه دخله من الارض الصغيرة خلف بيته والتي يزرعها بالخضروات خصوصا الطماطة، وهي تدر عليه قدرا من المال يكفيه في تسيير اموره خلال السنة دون اللجوء الى العمل لدى احد الملاكين الكبار داخل القرية. اوقات فراغه يقضيها في مشروعه المفضل وهو قهوته الصغيرة التي اقامها لأبناء قريته. هذه القهوة كانت شغفه وهوسه الذي ينوي توسيعه وتكبيره للحصول على الربح المادي. فهو لاينفك عن الترديد لأخفاء هدفه هذا قائلا:

- آني ادري لويش شالع قلبي على هل القهوة..كل الناس الداير مادايري ما عاجبهم شغلي..ما مالي عيونهم..كل ساع يجي واحد يتمخطر يطرقع بنعاله ويقرا علي دروس بالدين مرة، ومرة بالسياسه والحصار..وما ادري اشوكت الله يفرجها علينا وتنفك هل الجبسه الجابسه على ارواحنا.

صديقه حسن الاعرج ابن الدلالة ام حسن كان اقرب اصدقائه. جلساتهما معا لاتنقطع طول النهار. واحد مقابل الثاني، قعداتهما تتواصل الى منتصف الليل، ماكو لاشغل ولا مشغلة عندهما سوى النقر والحديث بدون انقطاع عن كل شيء في القرية وما يجري حولها من احداث حتى يزهق صابر من حسن ويصيح به قائلا:

- ولك حسن ..امك مشلوع قلبها تفتر بالبيوت تبيع الاكو والماكو حتى تعيشك وانت هنا حاط رجل على رجل ما تستحي..لك انت ليش ما تروح تلكيلك فرد شغله تعيش منها، مو احسن لك من هل الكعدة الطايحة الحظ.

فيرد عليه حسن:

- لاتخبصني ياصابر..ترة آني طالعة روحي من هل الدنيا المابيها خير..فك ياخة مني..ليش آني ما اريد اشتغل؟ هوه وينه الشغل؟..اشو صارلي سنين ادور على فرد شي يوالمني ولكن ايدي والكاع وين ما اروح يطردوني بس يشوفون رجلي المقطوعة..ليش آني مو خدمت هل الوطن؟ ليش هل الرجل مو انقطعت بالحرب والدفاع عن ارضنا؟ ولكن ماكو احد يقدر التضحيات..كل يوم انتظر بلكت فرد شي يتغير وافتهم دربي..ولوما امي وشغلها والشغلات اللي احصل عليها عند صارم جان متت من الجوع..ليش آني مو حاير شلون ادبر عيشتي.

وكان الحديث ينتهي بهم الى ذكريات الطفولة وايامها، وكيف كان الخير متوفر والدنيا رخيصة. ولولا الاحداث الخطيرة التي مرت على العراق والعدوان المستمر عليه لنهب ثرواته ما وصلوا الناس الى اسفل السافلين..كله طمع الامريكان والاجانب اوصلوا البلد الى ما هي عليه الآن. هذه المصائب كلها بسبب الاستعمار الذي طيح حظ اللاوادم قدام اليسوة والمايسوه من العرب.

لذلك عندما دعاهم صارم لتكوين فرقته لحماية القرية من الذئآب لم تسعهم الدنيا من الفرح. فجمعوا شلتهم من اصدقائهم ووقفوا امام صارم بأنصياع تام لكل ما يأمر به. اصطحبهم صارم بسيارته البيك آب عدة مرات الى اطراف الصحراء. اوقفهم صفا واحدا ثم وضع على مسافة بعيدة بعض الاحجار وامرهم ان يحاولوا اصابة الهدف بدقة. بذلوا جهدهم للقيام بما امرهم به، ولكن لسوء حظهم كانت البنادق ترتجف قليلا والاصابات تصيب جوانبها هنا وهناك ولكنها لاتصيب الاحجار. حنق صارم عليهم وشتمهم ولكن دون جدوى، وبعد جهد مضني ولعدة مرات تركهم وقد يأس من امكانية تعلمهم الرماية..انهم فلاحين لايعرفون غير فلاحة الارض، اما البنادق والقتال فهي صنعة لاعلم لهم بها ولا يجيدونها. كان صارم يغيضهم بالبدو سكان الصحراء ويعيرهم بأنهم اكثر مهارة منهم. فكانوا يغضبون ويرمون البنادق ويولون ظهورهم راجعين الى القرية وهم يتصايحون بأن ذلك افتراء عليهم، وان التاريخ قد ذكر الكثير عن قسوتهم وشجاعتهم، وكيف يقرأون الممحي ويلقفونها وهي طايرة، وفطنتهم المميزة في قراءة الافكار وكشف ما يخفيه الآخرون من افكار. ثم يبدأون في قص القصص التي تؤكد كل ذلك، ويشرحون بتفاصيل دقيقة الحوادث التي مرت عليهم وكثرتها. ويقسمون بأغلظ الايمان انهم يميزون ومن نظرة واحدة عدوهم من صديقهم. وحتى حين تصلهم الاخبار المتضاربة عن الحصار والتي لايعرفون ساسها من راسها، فهم شجعان في قولة كلمة الحق، والوصول الى الخبر اليقين. وبعد الانتهاء من الرماية والرجوع الى القرية يلتمون في قهوة صابر ويشربون الشاي المخدر زين والمهيل، ثم يديرون الراديو على محطة اذاعة بغداد للاستماع الى اغنية زينة من وحيدة خليل يطربون لها، ويرتفع دق الاصبعتين والسوالف الحلوة على ايام زمان سنوات السبعينات عندما كانت الدنيا بخير.

في احد الايام الماطرة ارسل صارم ام صابر لأستدعاء صابر. كانت القهوة خالية والسقف الملبوخ بالطين يخر. ومما زاد الطين بلة ان حسن الاعرج مريض ولم يستطع الصعود الى السطح لسد الثغرات التي بدأت تتوسع نتيجة المطر الغزير حتى مال السطح واصبح يهدد بالسقوط فوق جذوع النخل المرصوصة لأسناده. والهواء البارد الزمهرير يمر بالقهوة المفتوحة الجدران، حاملا معه المياه التي تبلل الارض الترابية فتحولها الى طين ومطيسة لايستطيع احد ولوجها، رغم ان صابر غطاها وفرشها بكل ما لديه من اكياس ورقية ونايلونية فارغة وحصي واحجار لملء البرك المائية التي اخذت تكبر يوما بعد يوم بسبب الامطار الهاطلة لمدة اسابيع طويلة ماضية. مياه النزيزة ارتفعت ودخلت الى كوخه بعد ان اغرقت المبزل الذي حفره حول البيت لتسريب هذه المياه الى المبزل الرئيسي المحيط بالبساتين. كذلك الارائك الخشبية القديمة وكراسي الخيزران تبللت واخذت المياه تقطر من جوانبها وفاحت منها رائحة النتانة ولم يفده تغطيتها بالكارتونات الممزقة الجوانب.

حين وصلت والدته، كان منهمكا في وضع الاواني النحاسية تحت السقف الذي يرشح بالماء، وهو يبذل جهده في رص الارضية بمزيد من الحصي والرمل الذي جمعه في جردل من جرف النهر. وحين اخبرته بأن صارم يطلبه انفجر في وجهها صائحا:

- عابت هل العيشة الكشرة..متشوفين شلون آني دايخ ومشغول..هسه يعني صارم جاب عرسه ويه عرسي..الا بهل الساعة يصيحني..ما شايف شلون المطر نازل زخ علينا..والدنيا مقلوبة، والواحد ما يدري وين يودي وجهه.

نفض ملابسه التي التصقت على فخذيه وقد لوثها الطين ودخل الى كوخه حيث لبس عقاله وحمل كارتونه فوق رأسه تحميه من المطر ثم اندفع الى بيت صارم. ترك نعاله اثارا لزجة فوق سجاد الغرفة التي جلس خلف طاولتها صارم بوجهه العبوس. ووقف امامه بفارغ الصبر. فتلقفه صارم بالصراخ وقد اتسعت عيناه من الغضب:

- هاي وينك..دزيت وراك صارلي ساعتين..والله انتو ناس ما تستحون، وما تحترمون عمل..صار اكثر من اسبوع ما وصلني منك ولا خبر شكاعد يصير بالقرية..شنو الشغل كوترة..لعد لويش عيناكم حراس تحافظون على الامن..وين تقاريركم انت وجماعتك..ليش انتو مو وافقتوا واستلمتوا البنادق..لك غير تثبتون لي انتو قادرين على هذا الشغل. بعدين شنو هذي القهوة اللي انت ملتهي بيها وكاعدين تقصون اشاعات وتعملون بلبلة بهل البلد.

كان يقول كلماته بثقة ورسوخ يدل على انه يعرف كل مايدور حوله. وحين اخذ يتكلم عن القهوة ومن يتردد عليها قاطعه صابر بنفاذ صبر وحدة وعصبية ولكن صارم اسكته بشدة:
- اذا ما تمشون زين..وانت اولهم ترة اسد هذي القهوة وما اخلي احد يتردد عليها..واشحدك تفك حلقك كدامي مرة ثانية..اريدك باجر تجي ووياك كل الاخبار..اريد كل المعلومات توصل لي بالعجل.
قطع عليهم الحديث دخول رويد الى الغرفة. فأمر صارم صابر بالخروج وهو يتهدده. واسترسل مع اخيه الذي ابلغه بأن المبازل الجديدة سوف تمر ببستان ابيه حيث يقطع جزء كبير منها. فوعده بأنه ذاهب غدا الى البصرة للتحدث مع مهندس الري والبزل للتأكد من هذا الخبر ومحاولة تغيير الخرائط لتحويل المبزل عن ارضهم الى راضي ابو ساهر وابو رند خصوصا الى الارض التي يقع عليها بستان ساهر الجديد.
كان صارم لايشعر بالراحة حين يتحدث مع اخيه رويد..هل يحبه؟ لم يسأل نفسه هذا السؤال ابدا. انه اخوه وهو مفروض عليه اراد ام لم يرد. اصدقاؤه يستطيع اختيارهم حسب مصلحته وراحته معهم، اما اخويه رويد ورافد فهما شيء آخر ووجوده معهم هو محض صدفة كونه ولد من نفس الاب والام. انها فقط غريزة ورابطة الدم هي التي تجعله يتحمل اختلافاته معهم. احساسه الدائم بوجود صراع ومنافسة عليه الانتصار فيها لأثبات كونه احسنهم واذكاهم يجعله متوترا متنرفزا، ويزيد من شعور الاضطهاد الذي يشعر به. عنف ابيه معهم عندما كان صغيرا وانحيازه الدائم الى رويد ورافد عمق فيه جرح الكرامة، خصوصا بعد ان كبر وكبر معه هذا الشعور. حين تشتد به حدة الافكار يفكر بقطع علاقته بهم. ولكنه يعدل عن ذلك فهو اذكى من ان يقوم بمثل هذا العمل فحاجته لهم تزداد بزيادة وتوسع مشاريعه. ولكنه لن يكون ابدا من اولئك الذين يستغلون من قبل الاهل والاخوة. ولهذا السبب واكب على اخفاء وكتمان اسراره عنهم، رغم استمراره بالتردد على مضيف ابيه لتسمع اخبار القرية وآخر الاشاعات، والتي يعرف ان معظمها تدور حوله وهذا يدل على اهمية مركزه. احاديثه دائما يداورها بالمداهنة ولين الكلام لرفع هيبته بين الفلاحين، الذين يحسبون له الف حساب، ويبذلون جهدهم لتلافي شره. فهو الحية التي تلدغ حين تسنح لها الفرصة..صحيح ان احاديثه دائما عيني واغاتي ولكن وراءه الف طركاعة. فهو يريدهم ان يرقصوا كما يدق لهم. حتى هواجسهم يرغب ان يخطط لها بأرادته، واذا عارضه احد الويل له، يظل يدور حوله الى ان يخلص منه بطريقة ما بمساعدة صديقه فارس. حين خرج رويد من غرفة الضيوف اخرج صارم مفكرته ودون فيها المشاكل المهمة كي لاينسى شيئا منها. ومن عادته تدوين اسماء الاشخاص الذين تمسهم الاحداث بصورة مباشرة..اثناء تقليبه لأوراقه تذكر ملاذ..اين هي وماذا حل بها؟ منذ عدة اسابيع لم يرها ولم يسمع شيئا عنها. وكلما سأل ام صابر عنها ترد بأنها مريضة جدا ولا تستطيع المجيء للعمل. استفهم من والدها فأكد له ان الفتاة مريضة لا تفارق فراشها. كان يرتبك حين يسمع اخبارها، فمشاعره تشب في جسده كلما طاف بخياله كيف اجبرها على مضاجعته. صورتها بقامتها المتناسقة، اطرافها واعطافها اللينة حين غرز فيها رجولته، شعرها الطويل وهو يتناثر حولها حين رماها فوق السرير..تعود الشهوة تتملكه بقوة لاتقاوم. حينها يبذل جهده للتخلص منها، فهو يرفض ان يصبح عبدا لفتاة مثل ملاذ. سوف يضحك عليه اصدقاؤه ومعارفه. عادت شكوكه اليه لتغير مزاجه..هل لديها احد غيره؟ هل هي على علاقة بأخيه رويد؟ لقد شاهده وهو يعاكسها عدة مرات، ولكنهت كانت عذراء حين ضاجعها..والآن هي مريضة..قد تكون اعذارا للتخلص منه؟ انها عاهرة كغيرها من اللواتي يتظاهرن بالعفة امام الناس ومن وراء العباية الف واوي.. ابعد تلك الخواطر عن باله واخذ يفكر بمشكلة المبازل التي تهدد اراضيهم. سوف يحتاج الى مبلغ من المال لدفعه للمهندس لتغيير مسار المبزل على الخرائط..تضايق اكثر، فالامور لاتسير كما يود ويشتهي، ثم هناك في القرية اشخاص يهربون البضائع، لقد شاهد واحدة من تلك العمليات قبل مدة، حين راقب الطفلين فرات وعطشان وهما يستلمان تلك البضاعة من القارب الذي جاء بها. اسرار كثيرة تدور خلف جدران تلك الاكواخ وعمليات تصل الى سوق البصرة..من هو المرتب؟ ومن الذي يسير تلك الخطط الخفية؟ لقد تكاثر عدد العصابات المنظمة جدا مؤخرا. وحتما ما شاهده هي واحدة منها فقد باءت بالفشل كل محاولاته للكشف عنها. وهو لايثق بمساعديه، فلا احد منهم يستحق الاعتماد عليه خصوصا في عملية كهذه. فشغلة واحدة منها اذا انكشفت ستشكل خطرا على حياته. كان من الممكن ان يستفهم من الاطفال او ذويهم ولكن ذلك سيزيد من تخفيهم ولن يكشفهم ابدا. خصوصا الرؤوس الكبيرة التي

يريدها. فالاطفال ليسوا سوى ادوات لتمرير البضاعة وهم ليسوا هدفه. ما يريده هو منظمي تلك العمليات ليثبت لصاحبه فارس كفاءته وجدارته. لذلك قرر ان يقوم بزيارة بيت ابو كاصد جد فرات. سيتقرب منهم لعله سيجد خيطا كبداية لبحثه.
بعد نصف ساعة اوقف سيارته امام كوخ الشيخ علي ابو كاصد. خرجت ام كاصد للقائه وهي ترحب به. ثم اخبرته ان ابو كاصد قد سافر مع فرات الى البصرة لشراء دواء لأم فرات فاطمة والتي اشتد عليها المرض خلال الايام الماضية.
في ذلك اليوم الماطر وبعد صلاة الفجر رمى ابو كاصد عباءته على كتفه ولفها بأحكام حول جسده اتقاءا للبرد وحماية من زخات المطر. ثم ايقظ حفيده فرات والبسه ملابسه الصوفية القديمة، وودع زوجته ام كاصد وام فرات فاطمة وخرج وكلماته للأم تتصاعد خلفه:
- ما اوصيج ديري بالج على فاطمة..اذا احتجتي الى شي روحي الى بيت ابو ساهر خل يساعدونج.. آني ما اطول مسافة الطريق ، بس الآقي ابو ستار واستعلم منه على الخبر اللي وصلنا عن كاصد..بلكت صدق..ما كو دخان بلا نار..واذا سأل احد عني كولي راح للبصرة يشتري دوا لفاطمة..زين؟
- زين..الله وياك ..دير بالك على فرات.
ثم وهي تنتحب :
- انشالله ترجع بالسلامة وياك اخبار زينة..ونعرف كاصد حي لو ميت ونطاك عمره..وآني من الغبشة اندعيت وطول الليل ما نمت..قلبي يرفرف مثل الطير المذبوح..وداعتك زاير اكيد خبر زين عند الجماعة..اكيد كاصد حي..ومثل مايكولون هو اسير بأيران بس الحكومة ما تقبل تنطي عنه خبر ..بس لو تلاقي الجماعة اللي شافوا هناك..وبس لو نعرف هو حي ..تهون ايام الصبر.
- وعل نياتكم ترزقون، انه مجيب الدعاء..اللهم يسر وبين الصدق من الجذب ورجع النا كاصد صاغ سليم يا ارحم الراحمين..يارب.
شدد من قبضته على يد الصغير اثناء سيره وسنده حين تعثر بالاحجار .قال فرات:
- جدي لاتركض ..ترة ما كاعد الحق بيك.
هدأ الجد من سيره فهدأت فكاره . فمنذ عدة ايام وهو لايستطيع اغماض اجفانه بعد ان وصل طارش من الاهوار واخبره بأن هناك شخصا عاد من ايران ويقول انه يعرف كاصد وانه شاهده هناك. الطارش القادم كان رسولا من ابو ستار. وعندما سمعت ام فرات الخبر تحسنت احوالها الصحية وظهرت الفرحة على ملامحها وكأنها اصبحت اقوى من السابق بعد ان كانت تذوي يوما بعد آخر حتى هزل جسدها وغدت هيكلا لايتحرك فيه سوى العينان اللتان خبا فيهما البريق. رفع الجد يده بحسرة يمسح دمعة نزلت فتدحرجت على لحيته. سيحاول الحصول على دواء لها اثناء طريق العودة. حين وصلا الى الطريق العام سمع فرات هديرا مدويا يصم الاذان قادما من اطراف الصحراء مزق صمت الغبشة، فأحتضن يد جده والتف بعباءته وهو يختبيء معه تحت النخلات. انهم يقصفون من جديد. كان الصغير شجاعا ولكن يده ارتجفت وهي تمسك بكف الجد الذي قال له:
- لا تخاف جدو ..لاتخاف اني يمك.
طارت القاصفات متجهة نحو الشمال. لم يعد يخافها كما كان يحدث اول ايام الحرب. كانت افكار الجد منصبة على كيفية ايجاد واسطة نقل تقله هو وفرات الى مدينة السماوة، ومن هناك ينحدر في احدى المشاحيف او سيرا على الاقدام الى ابو ستار. مرت اكثر من نصف ساعة وهما يمشيان ولا اثر لأي سيارة على الطريق. والشارع فارغ مطلم، والصمت يلف كل ما حولهما، الا هديرا متواصلا يبتعد ليعود من جديد كرحة المطحنة. سمع انفجارا ..اين يقصفون؟ لهثت انفاس الجد ودق قلبه فالتفت الى فرات :
- فرات باوع جدو بلكت سيارة جاية.
- لا ماكو..
- بيك حيل تمشي بمكان هل الوقفة.. واذا شفنا سيارة نوقفها..
- زين جدي.

تنهد فرات وسار الى جانب جده. داعبت الريح الباردة لحيته. كم فرح بولادة حفيده فرات وكم يحب هذا الطفل الذي تلوح على سيماه علامات الفطنه والذكاء. كان يسير الى جانب جده مغمض العينين والنعاس يحرك رأسه بآليه مرة الى الامام ومرة الى كتفه. يقول بعض الناس ان الاهوار كانت دائما على موعد مع المنكسرين من الانتفاضات والثورات في جنوب العراق. وان عشائر المنتفك كانوا شهودا على دفن جسد الحسين عليه السلام واصحابه بعد واقعة كربلاء. وان الاهوار ملجأ امين لكل هارب من اضطهاد او قمع، الامر الذي كان يثير حنق السلطات عليهم فيقتلونهم او يشردونهم. هؤلاء هم اهل ابو كاصد. ولد ابو كاصد هناك وعاش طفولته وصباه وتزوج من ام كاصد وهي من اقرباء ابو ستار. حصل ابو كاصد على ارضه الصغيرة من الاصلاح الزراعي بعد ولادة كاصد حيث انتقل اليها في نهاية الستينات شجعه وجود ابو ساهر وابو رند قرب تلك الارض وكان يعرفهم منذ وقت طويل. كانت امورهم في تحسن مستمر وهم يعيشون على موارد تلك الارض. اثناء حرب ايران تزوج كاصد من فاطمة وولدت له فرات منتصف الثمانينات. ثم اختفى في احد الايام بعد ذهابه الى مدينة البصرة ولم يعرف عنه احد شيئا منذ ذلك الوقت.

نظر الشيخ الى الطريق الخالية الا من بعض النخيل الممتد على طوله. انها بساتين الملاك ابو مالك تفترش الطريق العام الموصل الى البصرة. كانت الاوساخ والازبال متناثرة هنا وهناك والوحل يزيد من قباحتها . استمر سائرا والحيرة تلوح على ملامحه. لقد مرت ساعتان او اكثر ولا اثر لأنسان. وبدأ الفجر يشق طريقه عبر الظلام والمطر ينهمر، وجحافل الليل تسرع هاربة حين سمع صوت سيارة قادمة من بعيد بصخبها الذي زاد من تضارب الافكار في رأسه. شده فرات من يده بقوة وهو يقول:

- جدي .. هاي سيارة مال جيش.

توقفا على حافة الطريق. مرق امامهما طابور من السيارات العسكرية، من سرعته لم يستطع رؤية وجوه الجنود المرصوصين داخل الوريات. في نهاية الطابور كانت هناك سيارة جيب فيها اربعة جنود. ما ان اقتربوا منه حتى بدأت السيارة بالتعثر في سيرها صاحبتها اصوات حشرجة ثم توقفت غير بعيد عنهما. نظر الشيخ الى السماء شاكرا، فها هو القدر يساعده. هرع نحو السيارة وهو يجر فرات. نزل الجنود منها وهم يتصايحون والسائق يسب ويشتم وهو يدفر السيارة برجله قائلا:

- العن ذاك اليوم الاسود اللي صرت بيه سايق.

فرد عليه صاحبه:

- لك اسكت من صخم الله وجهك..صلحها بالعجل تره اذا نتأخر آمر الفوج يسوينه سينما.. لك آني مو اعرف طلايبك..وادري شلون تكره الجندية وجاي بالجبر.

- شوفوا منو كاعد يحجي..يعني انت تموت على الجندية ومتبرع بروحك للقيم العظيمة.

- لك اسكت واستر علينا..تره آمر الفوج راح يصلخ جلدك على هذا التأخير.

ثم اشار للشيخ. ولكن السائق لم يكن مهتما وهو مستمر في تفريغ انفعالاته:

- كله من هذي البربوق مرتي..تنام يومية للظهر..وهيه جايبتلي المصايب.. مو احسن لي لو بعدني نايم بين زرورها..آني شلي بهل البلوة..يومية تظل تدردم..فلانة قالت وعلانة تقول..بلكت نحصل على فرد شي اذا اتوطوعت..بلكت امورنا تتحسن ونحصل عل فرد قطعة كاع نبني عليها مشتمل من القطع اللي كاعدين يوزعونها على العسكر..ومن اقول لها القطع تتوزع على الضباط مو علينا احنة الجنود ما تصدق وتظل تتناكر وتدردم انت طول عمرك خايب وما بيك خير الناس تكرف بالفلوس كرف وانت ايدك والكاع..وبمثل هذا الحجي تطلع روحي..وبعدين اجاوبها لج اذا تريدين كاع روحي انت تطوعي بالجيش

رد عليه صاحبه الثاني قائلا:

- لك انت والله مسطول..لك ليش مارحت اتطوعت بالحرس الجمهوري مو احسن لك..جان هناك الفلوس كرف وقطع الاراضي مثل مايعجبك.

فصاح السايق:

- لك والله رحت ، بس لما عرفوا ابن عمي خارج العراق رفضوني.

فقاطعه الثالث وهو يقول:
- لك ما تسكت عاد وتصلح السيارة..ترة آني الى هسة ما متريك وجوعان وبطني تقرقر.
- شكو عليك انت بس أكل ونوم..ليش آني صارلي يومين ما متزقنب شي.
فرد عليهم الجندي الرابع وكان يساعد السائق في تصليح السيارة:
- لا تطوخوها يا جماعة ..خلصونا خلونا نستعجل..احنا كلنا بخدمة ها الوطن.
فهب الجميع ضده وهم يتصايحون. اسكتهم وهو يرفع يده:
- لك انتو والله شلايتيه..محد منكم يؤمن بالمثل والقيم العليا وخدمة الناس.
فأسكتوه. واستمر السائق قائلا:
- خلينا القيم والمثل ألك انت..ما جابت ها البلاوي علينا غير القيم والمثل. يمعود خلينا نركض وره خبزتنا لو متنا منو يعيل اهلنا واطفالنا ..المثل والقيم مو؟..يمعود الفلسفة خليناها يم الاغنياء يقتلون بيها وقتهم الضايع..
فرد الثاني:
-لك لاتتفلسف كافي مو شلعت قلبنا ..صلح السيارة احسن لك.
كان ابو كاصد واقف قربهم يستمع الى حديثهم، فأغتنم فرصة سكوتهم وانهماكهم بالعمل وقال برفق يسأل السائق:
- الله ينطيكم العافية..آني وهالجاهل من الغبشة الى هسة نمشي على الدرب والوكت تأخر وامه مريضة..بلكت تساعدوني ونركب وياكم شوية من الطريق.
فرد عليه السائق:
- عمي احنه عسكر ممنوع علينا نركب مدنيين.
- ابني يعلم الله شلون آني وها الصغير متعذبين بهل المطر من الصبح ..خلي عندك شوية رحمة علينا.
دفع الجندي الثالث السيارة وهو يشتم:
- بنت القحبة..ترة اتصور تصلحت..العن ابو صانعها..
ثم التفت الى السايق قائلا:
- يمعود محد راح يفتن عليك.. خلي الرجال يركب ما عندك ضمير..شوف الطفل شلون تعبان، وين يلاقون سيارة بهذا اليوم الاسود.
ثم نظر الى الاثنين الآخرين يسألهم:
- ها شتقولون؟
هزوا رؤوسهم بالموافقة فرد السائق:
- ترة اذا عرف آمر الفوج راح الاجازة تطير.
فقال الاول:
- هيه طاير طايرة..صار لي شهرين ما نزلت اشوف الاهل لأن ما عندي فلوس ادفع اجرة الطريق..خل الرجال يركب حظه زين لأن السيارة ما خربت الا من وصلنا يمه.. الظاهر عنده بخت يم ربك ..امشي محد راح يفتن عليك..من انكرف هل الصماخ ..ابو البلاوي.
فرد السائق:
- اركب عمي.. آني ادري منو دزك علينا بهل الساعة.؟
وما ان تحركت السيارة مسرعة لتدارك الوقت الضائع حتى جاءهم هديرا قويا ملأ السماء بضوء خاطف، ثم انشقت الارض امامهم وتناثرت حمما ونارا. قفزوا من السيارة الى جوانب الطريق تاركين الشيخ وابنه في السيارة. التصق فرات بجده وهو ينشج من الفزع. وكان الشيخ يسبح بآية من القرآن الكريم. وحين خفت الانفجارات رجعوا والسائق يصيح بهم:
- سلامات..
ثم اردف وهو ينفض التراب عن ملابسه ويرجع مع رفاقه الى المركبة:

- اظن ضربوا محطة كهرباء المسيب.
حرك الماكنة من جديد وهو يتمتم:
- يا علي ..يا بو الحسن والحسين اذا تخلصني من الخدمة العسكرية ..اصوم ستة اشهر..هذا نذر علي.
ضحك عليه اصدقاؤه، وصاح به الاول وسخر منه:
- مش بوزك.. ما راح تشوف مرتك غير مرة كل شهرين..ليش ماتدري بعدنا بحرب.
ولكن السائق استمر بالدعاء الحار دون لن يلتفت الى اصحابه:
- ياعلي بن ابي طالب..يا بو الحسن والحسين ..لا تيتم اطفالي ما عدهم معيل غيري.
فرد عليه الرابع:
- المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين..لا تعب نفسك عيني ..ترة مرتك راح تتزوج وراك ويمكن احسن منك.
فأسكته السائق:
- لك والله انت ما تستحي..شنو ها الحجي الما بيه معنى..فال الله ولا فالك.
قاطعه ابو كاصد قائلا وكان يستمع الى احاديثهم صامتا:
- تفائلوا بالخير تجدوه ..الله يطول بعمركم ولدي..هاي شدة ولازم فرد يوم تنقضي.
فرد الثالث:
- ما مبين تنقضي ياعمي..جنها مالها تالي..وهذا الكافر ما يؤمن بوطنه ..خايف على روحه..ما يريد هل البلد تتخلد.
فرد السائق:
- لك شلون وياك ما تجوز من القيل والقال..ليش ما تعقل احسن لك ..انت والله ما عندك عقل ..الغلبة دوم للقوي..هذا قانون الكون من جد اجدادك .
فقاطعه الثاني بغضب:
- ما عندك ايمان بشي.
فقال ابو كاصد وهو يحاول تخفيف حدة النقاش:
- كل الاوادم يا ابني تخاف على لقمتها ..والمهم عندها شلون تحصل رزقها..ودايما يشكرون منو يوفرها الهم.
- هذا الحجي على راسي عمي.
توقفت السيارة على جانب الطريق والتفت السائق الى ابو كاصد وفرات قائلا:
- متأسفين عمي ..ما نقدر نأخذك اكثر من هنا..لأن قربنا من وجهتنا.
نزل ابو كاصد وساعد حفيده على ترك السيارة وهو يدعو لهم بطولة العمر، ويشير لهم اشارة الوداع، وظل يتابعهم بنظره حتى ابتعدوا، ثم استدار متخذا طريقه عبر البساتين حين سمع دويا قويا من جديد..وانفجار يصم الاذان فالتفت ليرى السيارة وهي تطير في الهواء مع راكبيها. ارتجف واسرع يحتضن فرات الى صدره كي لا يرى المنظر وهو يشهق بعنف:
- انا لله وانا اليه راجعون.
امسك بفرات وهرع راكضا لمساعدة الجنود. ولكن صراخ فرات الحاد ردعه. فطلب من حفيده الجلوس بأنتظاره قائلا:
- لا تخاف انت سبع..اختل هنا وآني اروح اشوف شلون اقدر اساعدهم.
ثم اسرع ولكنه لم يمشي طويلا حين شاهد سيارات الجيش وهي تصل والجنود وهم يتراكضون حول حطام السيارة المشتعل. سالت دموعه ثم نكص راجعا. وجد فرات يبكي وهو جالس على صخرة قرب المكان الذي تركه فيه. هدئه ثم قاده عبر النخيل الى ساقية غسل فيها له وجهه.
ما اهون روح الانسان في فراغ الهدف، وحين تغص بالحنين الانهار القديمة، وتسقط مفتونة الرياح وهي محملة بأجساد الذاهبين الى مطحنة الحرب. قال الناس لقد زرعنا اشجارا فلماذا نحصد شوكا الآن.؟ وما زالت الدماء

تسيل على سواحل الانهار القديمة؟..قطرة فقطرة هو مجراها..وتنزف..وبيوت الثعابين تنمو فوقها..اين الاختباء..والى اين؟ والهدف يقسم الناس اقساما..والخور لايقود احد الى النصر..هي نافذة ميتة تعوي عطشا الى من يقود الى الخلاص..ما عاد هناك غير احتمالات النار، حين تزهق ارواح الجذور للحضارات. كموجات الفناء البطيئة..ببطء تعود الاوجاع حيث الدروب سائرة..والرعايا حين يكونون رعاع..قابعون..ولكنهم هم من سوف يفتح تلك النوافذ الميتة..للهواء. اسرع ابو كاصد رغم نثيث المطر. وهلعا فك عقاله فتهدل فوق كتفه مبللا يقطر ماءا. غطى رأس فرات بعباءته وهو يدمدم:

- ياحسين احفظنا..

شعر ان صلاته خاوية. لا صدى لكلماته..لا يفقه معناها. ارتعاشات يده وساقاه جعلت دروب البساتين العتيقة دهاليزا. واصوات البرق انينا وسط الدخان المتصاعد مع الطريق، وقد ازدحم بالسيارات. سار سير الافاعي متزحلقا بين الاحراش. مشى الكلام. وجف حلقه. رأسه سنابك للافكار، حين كان طفلا كان يخاف الطنطويل. وهو ما زال مخيفا ويخيم على صدره رغم كبر السنين. يقال انه يمتطي القصب الطويل حين يطير لاستلام الارواح الميتة، وقد فغر فاه ضاحكا بشدقيه ليفزع الانسان. وحين يجلس فوق عرشه يطير فوق الفيافي للوصول الى عتمة السجون والاسوار التي بناها لضواحي الكرامة. لقد حلم الجد مرة بأصحابه حين كان شابا..فرأى حولهم سماءا زرقاء تنزل منها كرات من نار تتدحرج فوق شوارع سوداء بعيدة لها ارصفة صخرية غريبة، تحوم فوقها سحب داكنة تطرز حواشيها حمرة قانية كالغروب، وسمع صوتا يقول سوف تنتهي عذاباتك يا ابو كاصد..وكان هناك نعشا طويلا مبللا بالمطر خلفه نسوة ملتفات بالسواد يلطمن وجوههن. استيقظ مفزوعا اهو نعشه ام هو نعش كاصد. لازال طعم الحزن يعود اليه مع بزوغ كل فجر..كل يوم..وحين ينظر الى البرك الراكدة لمياه المطر..في حلمه سمع اصوات تحدي وجموع تصدح بأغنية للارض الطيبة..ولكن التراب انهال عليها وطمرها مع الماء الطافي حولها. رغم وعورة طريقه وقدماه وهما تغوران داخل الطين اللزج وهو يجر فرات، فأنه تحمل بشجاعة شيخوخته الواهنة، وسار يتعثر وانين فرات وهو يشهق يمزق رأسه..ام هو انين الجنود الذين قتلوا ومزقتهم القنابل؟

توقف عن السير وفتش عن مكان يجلس عليه كي يستريح فوجد جذع نخلة ملقى تحت اغصان تشابكت فوقها اشجار البرتقال قرب ضفة جدول الماء، وقد ظللتها اشجار النخيل الباسقة. ساد الهدوء حوله الا من صوت قطرات المطر. سمع رفيف حمامة متطايرة، فجلس على الجذع واجلس فرات قربه يربت على رأسه الصغير كي يهدئه، ويحتمي من المطر. اسند ظهره الى الجذع القريب. واغمض عينيه، فسمع وجيب قلبه المجنون داخل صدره، واهتزاز رجليه ارتجافا، ويديه وقد فقد سيطرته عليهما. فوضعهما في حجره يسندهما. وبعد فترة اثقل النعاس جفنيه واغرقه بين طياته. وسكينة غريبة تقوده الى عالم بعيد قريب وفيه كاصد يركض نحوه وهو يضحك. وحين اقترب منه انهضه من مكانه. فأذا بالجد شابا يعود، وتعود له خفته كأن له اجنحة يطير بها..توقف كمركبة شراعية بين السماء والارض وكاصد الى جانبه..شعور عميق بالحنين هزه الى بيته في الاهوار حيث قضى طفولته وصباه، يغمر اقدامه في المياه، ووجه صبية صغيرة تراقبه..انها ابنه الجيران..انها ابنة جاسم ابو ستار..ماذا كان اسمها؟ تضايق لأنه لم يعد يذكره..ولكن بعد وهله خيل اليه ان اسمها كان ذكرى..الفتاة التي اختفت بعد ذلك من قريتهم..لقد توقف الزمن في تلك الفترة المضيئة من حياته..اجل لم يعش سوى سنوات تلك الفترة من عمره ومات بموتها، وجسده الآن محمل بهموم الحياة، رغم ان احاسيسه مازالت تحن الى ذلك الشاب الضاحك السعيد. لقد سحقه اضطهاد الاقوياء واحنى الزمن ظهره..مد يده ليمسك بكاصد ويضمه الى صدره مرة اخرى..ولو مرة يروي فيها عطش ابوته وسنين الفراق الطويلة..تعال..همس لنفسه..آني هنا ..ولكن قاصد تلاشى كالسراب ولم يبقى في صدره سوى مرارة الحرمان، وروح ملهوفة الى ابنه الغائب. اغمض عينيه بشدة يحاول العودة الى عالم الخيال ولكن دون جدوى. لف عباءته الموحلة وراقب السماء..لقد مضى الوقت ويعتقد انه اقترب من هدفه، فالمكان ليس غريبا عليه والجدول ينتهي بالهور حيث ابو ستار. قبضة فرات الصغيرة تهزه وصوته المفزوع يصيح به:

- جدي .. جدي..انت نايم؟

ببطء عاد الى عالم اليقظة. فتح اجفانه الثقيلة ونظر الى الفراغ. ليس به رغبة للتحرك، فكل اعضاؤه ثقيلة وكأنها قدت من الحديد. ولكن الحاح فرات اعاده الى واقعه المرير:
- جدي شبيك..آني خايف..لا تنام وتخليني وحدي.
رفع الشيخ يده المتعبة واسندها الى جذع النخلة وتحرك ليعدل من جلسته. هذه الحركة اعادت له وعيه فقال بتعب:
-لا..لا تخاف.. بعد شوية نوصل.
ولكن صوت الطفل الخائف عاد يلح:
- جدي..ترة آني جوعان.
ثم جذب ثياب جده بقوة اكثر، وقد بانت عليه علامات البكاء. كان المطر قد توقف. رمى الجد عباءته فوق كتفه ثم مد يده الى كيس معلق تحت ذراعه وسحب من داخله قليلا من الخبز الجاف والتمر. وضع حبات التمر داخل قطعة الخبز ولفها ثم اعطاها للصغير. جمع بعض الاعواد الجافة وسعف النخيل واشعل فيها النار واخذ يجفف عليها ملابسه ويتدفأ قربها.نظر الى فرات فرآه يلتهم طعامه بشهية يحسد عليها.اما هو فقد تقلصت معدته قرفا من الطعام. لف له سيجارة واخذ يدخنها ووجه ابصاره الى ابعد نقطة على منحنيات الجدول. تعرف على بعضها ففرح لأنه بات قريبا من مقصده فهتف بفرات:
- يله جدو خلينا نمشي قبل ما تغيب الشمس، وتظلم الدنيا ..ما بقى شي قربنا نوصل.
مشى عدة خطوات حين سمع اصوات لجماعة يسرعون الخطى داخل البساتين. كان لغطهم اول الامر خافتا ثم اخذ يتوضح شيئا بعد شيء:
- ولكم لا تخبلوني..شنو مو صار النا اسبوعين ندور..ترة اذا ما لقيناهم راح تنلاص علينا.
فصاح صوت آخر:
- على كيفك لا تنزعج..اكيد نلقاهم..نلقاهم..المهم تفكون عيونكم زين..تتسمعون وتباوعون..ما تخلون احد يقشمركم..ترة العب بيكم شاطي باطي اذا غافلوكم..افتهمتوا..باوعوا على حلوق الوادم مرات يفلتون جلمه هنا ..جلمة هناك..بلكي الله ونلقفهم..من اللي سمعته خاتلين قريب من قرية بني اسد..المهم نعرف الصلة ويامن من البيوت مسوينها ونكبس عليهم..لك اوقف ..ارفع ايدك..
رفع ابو كاصد يديه وكذلك فرات وقد سقط الخبز من كفه. كانوا جماعة من الشرطة مدججين بالسلاح تقدم واحد منهم وهو يرفع رشاشاته في وجه الشيخ. ثم اخذ يتحسس ملابسه وهو يفتش قائلا بحدة:
- انت منو؟
ارتجف صوت ابو كاصد وهو يقول:
- آني الشيخ علي ابو كاصد ..جاي من يم قرية السعد يم البصرة ورايح ازور هلي هنا جوة بين القصب فوق الاهوار..خلوني امشي ياابني جازاك الله بالخير..ويرحم والديك.
- ولك انت مخبل بهل الظهر تروح للهور..ليش هو منو بقى هناك..ما سمعت شلون الدنيا مقلوبة..ما تدري المتمردين خاتلين هناك والحكومة تدور عليهم..يعني انت جايز من روحك..جان طقيناك برصاصة هسة ورحت بولة بشط..الله كاتبلك حياة جديدة.
انحنى الشرطي والتقط الخبزة الملفوفة بالتمر ثم مسح عليها بيده ونفخها بفمه واعطاها لفرات وهو يقول:
- احنةكاعدين ندور على واحد من المشاغبين اللي يسمون نفسهم معارضة..سمعنا مختفي قريب من القرية..نريد هسه نعرف منك انت سمعت ..لو تعرف فرد شيء عنه.
- ابني لاتخنزر عليّ ..ترة آني خطار..يعني ضيف..وما اكذب عليكم كلشي ما اعرف..لأن صار لي سنين ما جاي بهل الديرة وما شايف اهلي..والله العظيم ما اعرف أي شي..ولا سامع خبر.
انزل الشيخ ذراعيه وقد تغير وجهه، وبانت الشيخوخة واضحة عليه فغارت عيناه داخل محجريهما وتهدلت وجنتاه، ولكنه تمالك نفسه وهو يستمر:
- ترة اهلنا نشامة وخوش اوادم.

فصاح به الشرطي:
- مو كلهم..قسم منهم حقيرين مو اوادم ما يمشون الا بالقندرة. والمشاكل كلها من اصخام وجوههم..لكن والحسين من ساعة لساعة ونلقفهم هذولة الخونة ولد الزنا..وعلي نسوقهم مثل الخرفان بس نشم ريحة نجاسة.
فرد الشيخ:
- لاحول ولا قوة الاباالله..تسمى بالرحمن ابني..يبين الدنيا صدق مقلوبة وآني ما ادري.
- اتمشى ..اتمشى عمي احسن لك..ولو ما تروح لهناك يكون بعد احسن..بس وصل الهم خبر عبالهم هم سباع ..تره المبلل ما يخاف من المطر..واحنة حاربنا بأيران والكويت..ومثل هذولة الزعاطيط ما يخوفونا. واحنه مثل عزرائيل ناخذ ارواحهم واحد واحد بس خل يصبرون ويشوفون.
- على كيفك ابني ..آني ما ادري شصاير بالدنيا..فلا تخوفني..وخليني اروح لهلي..صار لي ساعات من الصبح ليهسه امشي ودايخ..وربك ستار وارحم الراحمين..والبني آدم ياجماعة يخطي ويصيب..يمكن تكونون غلطانيين. لأن اهل الهور ترة خوش زلم وما يعرفون الناقصة..والناس رايحة جاية يمهم.فخلوا هل الناس الفقرا بحالهم ابني يصيبكم ثواب.
- لا عمي ترة احنه نعرف واوينا وين مدفون..وما كو سر اذا ما ينكشف..اذا مو هسه بعدين فقول لهم احسن الهم يصيرون اوادم ويبطلون اللعب بالنار..والمايجي عدل نجيبة بالعصى، ونخلي العدو يتمنى الموت اليوم قبل باجر.
امسك ابو كاصد بيد فرات المفزوع واستدار ليغادرهم حين رآهم تحركوا في الاتجاه المعاكس. قال لهم وهو يودعهم:
- مع السلامة ولدي..حطوا بقلوبكم الرحمة.
ولاهم ظهره واتجه مع مجرى النهر بأتجاه اهله. سار وقد تجمعت همومه في صدره، ولكن صوت خرير الماء ورائحتها الحلوة افرجت كربته. فمشط لحيته بأصابعه وعدل من كوفيته..يحب رائحة الماء..فهو الخير والعطاء..ويهيم حبا بهذه الارض الطيبة الصعبة والعنيدة في منح خيراتها. انحنى والتقط بعضا من ترابها، فركه ثم تركه يتناثر من بين اصابعه وتنهد..كم يحمل هذا التراب من ذكريات واحداث امتزجت واختلطت مع ذراته الناعمة. نفض دقائقها عن ملابسه واتجه نحو الهور وروحه ترفرف مع الرياح الهابة وهي تلاعب وجهه وملابسه. فكر ان لاعجب ان يكون ساكنيها مملؤون بالعواطف ويعشقونها، فأجواؤها ترفع الروح الى دنيا الخيال. كانت الامواج ترتفع وتنخفض وهي تندفع نحو الجنوب محملة بأقاصيص اهلها وبطولاتهم وحضاراتهم وبساطة عيشهم.
حين اقترب من نهاية النخيل توسعت السماء وبدأ المكان ينفرج ويتوسع وبلهفة توقع ان يرى الهور المترامي الاطراف وهوطافح بالمياه وفي وسطه غابات البردي والقصب ثم قريته في اعماقه. ولكن الدهشة تملكته لأنه بدلا من ذلك وجد ارضا فارغة مملوءة بالطين والسيان وقد اختفى القصب والنخيل وحل محلهما جذوعا محترقة في كل مكان، وتلال من التراب الذي طمر جوانب تلك الارض وامتد حتى اخترق غابات القصب المتفحمة. سار وكأنه يمشي داخل منطقة اثرية طمرتها الرمال. اين الاكواخ الطافية التي كانت تقبل الماء تحت وافر النخيل؟ اين المياه التي ترقص النجوم على صفحتها؟ اين تلك الطيور الناعقة الزاعقة في سماء السكون؟ ما رآه اعتصر قلبه الما.. اين هم اهله؟ اين هي ديارهم واراضيهم؟ اين هي تلك الطبيعة الساحرة؟ اين ذهبت تلك المشاحيف التي كانت تدور مزدحمة فوق صفحة الماء..واصحابها وهم ينحنون فوق اعواد القصب ويدفعونها مع التيار نحو الامام. ما هذا الخراب الذي تنعق فيه الغربان؟ حتى المعالم الطبيعية التي كانت دليله في منحنيات الدروب اختفت علائمها وحلت محلها اتربة لخرائب طينية سوداء متفحمة. تلفت يحاول معرفة فيما كان قد ظل طريقه. فشاهد صخرة مرتفعة قليلا وسط الآكام دفع فرات نحوها ثم جلس عليها واخذ ينتحب...لم يستطع مواصلة الطريق كانت نفسه محترقة..وشهقاته تعبر نحو سماء غائمة قاتمة. كدره يسحق صدره. سلسلة طويلة من آثار المجنزرات دفنت داخلها قسم من حياته. القسم الاخضر منها. اجفلته آهاته فتوقف. لو يستطيع العبور فوق زمانه الى تلك الواحات الندية الوارفة الظلال. ارتعش، كان مهجور الروح. واصابع الوحشة تمسد

جسده..نخيل ذابل مات الربيع فوق سعفه..هذه ثاني مرة يبكي فيها غابات الحزن..انطفأت الشمعة التي كانت تضيء له ظلال العمر..ذكريات ماتت، دفنت تحت التراب المحروق الذي طمر الاهوار..دارت كفاه داخل حجره في وهن اللحظات الخارجة من عمق اغواره..كأن الشمس لن تشرق ابدا بعد الآن..اين قبور اجداده الملتفة بأزقة الاندثار؟ هل نزل عليها شتاء اللاشيء كما يشعر به الآن؟ هل يعرف الآخرون الذين طمروا تلك الدروب..هل يعرفون سواد ايامه الباقية في حضن الفراغ؟..غريب هو..تائه خسران حين ولج متاهة الانطمار المنسية فوق خارطة عالم الهموم..مسح لحيته المخضلة بالدموع..ما نفع البكاء لشيخ مثله داسه القهر؟
نفض ملابسه من حبيبات عالقة بها ثم ولى وجهته باتجاه قريته. هذه الطمى سوف تحتضنه في يوم ما ..وبقايا المياه سوف تسطره ذرة بعد اخرى لتغذي بساتينه الخضراء. ثقلت خطواته اكثر ونظر الى فرات وهو يقفز امامه مشيرا الى سرب طائرات قادمة:
- جدو هاي طياراتنا لو طيارات امريكية؟
- فرات اتذكر جدو كل الطيارات آلالات حرب..تقتل الناس الفقرا..ما تفرق هي مالت منو..احنه فلح ما نعرف غير الزرع ومواسمها..وذراعي ما مسكت غير المحراث احفر بي الكاع واخليها تنبت بالخضرة وتبهج الروح..آني ما افتهم بمكائن الحرب والموت.
- بس جدو لويش همه يذبون القنابل ويقتلون الناس؟
- الاعداء يقتلون بعضهم بعض..وانت شلك بهل الحجي والسوالف الما ينحزر اولها من تاليها..المهم الواحد يصير زين ويه اهله وقرايبة..ويتعلم يحل المشاكل بالتفاهم مو بالعراك والعدوان والقتل.
- جدي آني كلش اضوج من واحد يجبرني على شيء ما اريده.
ضحك الجد وربت على كتف حفيده قائلا:
- ادري ..ليش ما ادري شلون انت عنيد..بس تاهت عليّ جم مرة ركضت وراك بالعصه.
اقترب الجد من احدى الاشجار اليابسة وقطع منها غصنا غليظا اخذ يتكأ عليه اثناء سيره ثم اكمل كلامه:
- العناد ما يفيد بهل الدنيا ..بالاخص وهي دايرة على قانون حكم القوي على الضعيف..لازم تتذكر هذا الدرس من تكبر وتصير سبع وشاطر مو بالكلاوات والعركات بس بالذكاء والفهم والتصرفات الزينة وية العالم وبالعلم. ولازم تحسب حساب كل شي..لأن اللي يغلط يظل دومة خسران وتاكله الناس..والبني آدم سره غميج ما ينحزر..بس الذكي هو اللي يخمن صح.
ابتعد فرات امام جده وهو يلوح له بيده، واسرع الجد يحاول اللحاق به حتى لهثت انفاسه واقترب العصر. فتوقف متعبا وقد ترك كثبان الرمال خلفه. اقترب من شجرة استند اليها وجذب صخرة وضعها تحته وجلس عليها. عاد فرات الى جده قائلا:
- جدي انت تعبان؟ اقعد شوية حتى ترتاح.
فقال الجد:
- ما ظل شي شوية ونوصل..بس ارتاح شوية.
خيم الصمت والسكينة عليهما لفترة.كان النخيل قد بدأ يزداد كثافة كلما اقتربا من وجهتهما. احس كذلك برائحة الماء تعود من جديد رغم الاتربة التي دفنتها. ومن بعيد لمحها راكدة مخضرة من بين غابات القصب. انشرح صدره لها رغم رائحتها القوية. رغم الطمر هناك بعض المواقع التي مازالت سالمة. ومن بين طيات الصمت سمع تكسر اغصان يابسة وخشخشة، ثم صوت اقدام. التفت بهدوء نحوها، فشاهد شابا في التاسعة عشر او العشرين من عمره يسترق الخطى داخل البستان وهو يتلفت كأنه يبحث عن شخص ما. كان يلبس كوفية وثيابه فقيرة قديمة ولكنها نظيفة تدل على العناية بها. التفت ابو كاصد نحو فرات فرآه يغط في النوم الى جانبه وقد اسند رأسه الى كفه.
توقف الشاب، ثم جلس تحت نخلة غير بعيدة دون ان ينتبه الى وجود الشيخ وحفيده. هم ابو كاصد بمناداته ولكنه سكت حين رآى صبية لم تتخطى السادسة عشر تسرع بلهفة نحو الفتى، وهي تتلفت فزعة. كانت تضع فوطتها فوق رأسها وقد امسكت بطرفها تغطي به جزئا من وجهها فلا يظهر منها سوى جانب منه.ثوبها المطبع بورود

مختلفة الالوان هفهف وقد غطاها حتى اقدامها. نهض الشاب وحاول الامساك بيدها مرحبا ولكنها افلتتها منه خجلا قائلة:
- الدنيا مغرب وآني مستعجلة..اجيتك اسمع شتريد تقول بليه ما يحس احد.
- صار لي ساعة انطر..ليش انت خايفة..؟
- انت تدري الواحدة منا لازم تدير بالها ..ترة هاي ارواحنا اللي نخاف عليها.
- يا حياة لا اتعبيني وتشلعين قلبي اكثر..تره ما اقدر انتظر..آني جيت اريد اقول خلص آني حجيت ويه ابوي وهو موافق.. بس لو يوافق ابوج ينتهي كلشي ونتزوج..هسه شنو رايج قولي كلشي لبالج.
قالت بخجل:
- آني موافقة..واريدك مثل ما تريدني..بس ابوي معاند يريدني لبن عمي..وابن عمي يتهددنا ومخوف الكل.. اذا انت موافق وابوك موافق مثل ما تقول وانت رايدني روح لبوي واحجي وياه وقنعه..لأن آني ما اقدر اخالف ابوي وشيقول راح اوافق.
- ابوي راح يودي مشاية لأبوج هذا الاسبوع ونشوف شراح يقول..وياريت امج تمهد الطريق..وتعاونا.
هزت حياة رأسها وقد ظهرت الدموع في عينيها ولمست يده برفق قائلة:
- كلهم يعرفونك ابن اوادم وخوش ولد..بس انت تعرف ابوي واخواتي وعنادهم..مايفيد وياهم الحجي..وامي بودها تساعدني بس همه ما عندهم حنية..كل همهم الكاع ومحصولها..وابن عمي عنده خوش كاع..واخوتي عينهم عليها..هذي كل السالفة..يعيبون عليك انت وابوك ما تعرفون غير صيد الطيور والسمج..وما عدك غير مشحوف واحد تدورون بي النهار كله.
- بس هذا المشحوف يجيب النا رزق ازيد من الكاع والسمج بالسوق كلش غالي..وابن عمج كل يوم والثاني شارب عرق ومقندل..يعني هاي ما لها حوبة..واذا تزوجتيه راح يعذبج..وعمره كله بلا مسؤولية بس ونسة وطرب..والكاع هاملها ..صدقيني اذا تزوجتيه راح تعيشين طول عمرج فقر.
- ليش آني ما ادري بهل الحجي..جا ليش آني ما اريده..بس عدنان عينه على الكاع ويقول هو راح يزرعها ويعتني بيها ويتقاسم ويه ابن عمي..والكاع صرماية للايام الجاية وآمان للمستقبل خصوصا بعد ما انطم الهور..وصار الصيد يقل يوم بعد يوم..والحكومة كاعدة تطم الاهوار ويجي يوم بعد ما انشوف الماي..وعدنان هو الماخذ ابوي فلاحة ملاجة..ما يقول جلمة الا ويقمز عليه ويخليه يغير رأيه.
- حياة ..ترة آني ما اقدر اعيش بلياج..راح اظل وراج وراج..يمن اخليهم يوافقون..وباجر انشالله تسمعين اخبار زينة.
- انشالله..وراح بالي يظل يمك الى ان اسمع اخبارك.
- راح اسوي عزيمة مال ملوك لأهلج..واخلي السمج المسكوف يشبع الصوبين ويزيد..واجيب كاولية ورقص ومغنى..حتى تنترس عيونهم ويقتنعون.
- هذا هم خوش رآى..اتوكل على الله..والله كريم.
- حياة انت ماخذه روحي وعقلي..واموت اذا ما حصلت على مرادي..احبج يابنت الناس..واموت عليج.
حاول الامساك بكفيها ولكنها افلتت منه راكضة، ثم اشارت له اشارة الوداع وهي تختفي بين جذوع النخيل.
نهض الفتى يسير خلفها هوينا وهو يراقبها.
جاشت العواطف بين حنايا الشيخ ابو كاصد..ما اجمل الحياة وهي تعيد نفسها بقصص الحب المتكررة.انحنى على فرات يوقظه. لقد تأخر كثيرا والليل اقبل وما زالت هناك مسافة حتى يصل الى مقصده. ساعد فرات في النهوض واتجه معه الى بيوت القرية المبنية من القصب والتي اصبحت تقف فوق الارض بعد ان كانت عائمة فوق المياه.
كان الباب مفتوحا حين اقترب من كوخ ابو ستار وسمع صوتا قويا يهدر داخله:
- ياهو هاذ..ياهو هناك؟
- آني علي ابن حسين..ابو كاصد ما تذكرني؟

سمع حركة خفيفة ثم برز شيخ في السبعين من عمره ولكنه ما زال خفيف الحركة. تفحص ابو كا صد ثم اندفع يحتضنه بحرارة. ادخله المضيف الواسع ذا السقف المقوس المسنود بالشباب وهو يقول:
- يا هلة بالغياب..يا هلة بأهلنا..شلون ام كاصد؟ وشلون صحتها؟ انشا الله بخير؟
كان المضيف قد فرش بالبسط الملونة وفي صدره موقد احمر الجمر فيه، وتصاعد البخار من قوري الشاي الذي يتخدر فوقه، ورائحة الهيل ملأت المكان. الدفء يثير حميمية، وضوء الفانوس المعلق في جانب الجدار ينير المكان بشحوب. كان ابو ستار جالسا مع سريع ابن اخ زوجته ومع حفيده هاشم، وكان هو نفس العاشق الذي شاهده اصيل اليوم مع حبيبته. الفتى يبدو لطيف المعشر والود واضحا بينه وبين جده في التعاون الصامت الذي كانا يؤديانه لتحضير الشاي، وبعدها اثناء اعداد الطعام وأكله، فقد كانوا لايتوقفون عن الحديث عن ما يمر عليهم خلال يومهم، وعن ذكريات ايام زمان.
- انت تعرف هاشم..قال ابو ستار وهو مستمر في حديثه مع ابو كاصد.
- هاشم هو ابن بنتي كريمة وابوه هو هذا الكاعد يمك سريع ابن خالها. وهاشم الله يخليه خوش ولد..خدوم وما يتأخر..
كان سريع يشارك ابو ستار في الحديث وهو يرسل الضحكات التي تدل على روحه الصافية وعلى شفافية مشاعره التي اورثها لأبنه هاشم. وكان التفاهم والمحبة تسود علاقاتهم جميعا. وقد وجد فيهم ابوستار ما يعوضه عن فقد ابنته ذكرى ثم سفر ابنه ستار وهجرته الى بغداد.
- ما كو بالدنيا مثل عيشتنا..الرزق متوفر دوم..وماكو احد يموت من الجوع هنا.. هاي وين تنلقي بهل الايام الغالية والقحط..وآني ما اكل الا من ايدين ام ستار، وما انام الا بيتي وبفراشي.
فضحك ابو كاصد:
- هاي انت مثلي..ام كاصد بألف الله واكبر يله تقدر تدزني اروح لفرد مكان..والواحد منا بي خير يبقى يم ولده ويم كاعه.
- لو تشوف شلون تبهذلنا من الحكومة رادت تشيلنا..وبالشافعات يلة قبلوا يبقوني آني واهلي والعشيرة هنا..وبالقوة قدرنا نوقف بنيان بيوتنا على الكاع بعد ما جف الهور..ولو تشوف شلون اكلنا قزرقرط لما انطم الهور..واحنة عيشتنا على السمج وصيد الطيور..نغرب ونشرق بمشاحيفنا وعايشين يوم بيومه وما نهتم شراح يصير باجر..وشنوتجيبه الريح..وانت تدري العشيرة كلها عدها جم قطعة كاع وصار لنا سنين نريد نوسعها ولكن ماكو فايدة.
- كلش زين تسوي لو تشتريلك جم دونم انت واولادك تعيشون عليها.
- ابو كاصد الكلام وياك زين.. بس احنه طول عمرنا عايشين على هل الشكل..والكاع دوم وراها طلايب وقتل ومقتول لو نسيت شلون على شبر واحد تكب العيطة وتطيح الجيلات وتشتغل التفق..واحنه تدري انت ما نذل نفسنا لأحد..والصيد احسن لأن الوحد حر بنفسه وبرزقه مثل الطير..والسمج والغنم اسعارها هواية ارتفعت واحنة الحمد لله نحصل منها على رزق زين..بس المشكلة بعد ما دفنوا الهور، لأن ما ظل منه ما بي صيد..ولهذا آني كاعد احاول احصل على كاع من هاي المنطقة اللي دفنوها..ترابها زين..مخلص الحجي بلكت احصل لهشومي فرد قطعة منها لأن هواية عنده واهس بالزرع..وبعدين نلقيلة بنت الحلال..بيني وبينك هو حاط عينة على وحدة من بنات عمامه..خاشة بمخه وما يريد غيرها ولكن ابوها متعبني..والله جابك نروح وياك مشاية بلكت نحل عقدتها وعقدته ونفرح بيهم.
- هشام بعده صغير على ويش مستعجلين؟
- كل شي قسمة ونصيب.
ثم ظهر الغم على وجهه مرة اخرى وقال:
- الدنيا ما كو بيها امان..وكل يوم والثاني الشرطة جايتنا تدور على اللافين حسب قولهم..المشكلة احنة مانرد المساعدة للي يطلبها واحيانا نساعد المحتاجين من الهاربين من الحكومة..واكو قسم منهم لابدين بين القصب

جريب من عدنا..ومرات يجون يأكلون لو يشترون فرد حاجة..واحنة تدري بينا ما نرد واحد محتاج..ولهل السبب ما خلصانين من الشرطة بين حين وحين طابين علينا يدورون بيوتنا.
فأضطرب ابو كاصد وقال:
- بالطريق شفت جماعة منهم ..جانوا يدورون بالبساتين.
فأغتم ابو ستار :
- الله يستر على الله تمر هل الليلة بسلام.
اغتنم ابو كاصد الصمت وحول الحديث الى غايته:
- وصلني طارش ..يقول كاصد عدل ..وبأيران ..صحيح هذا الحجي يا طويل العمر؟
فأعتدل ابو ستار وقال:
- أي نعم ..واحد من اللابدين هنا قال يعرفه..وقال هو حي بس ما متأكد بعده بأيران لو سافر للكويت..لأن حسب ما يقول بالكويت اكو جماعة من الامم المتحدة يسجلون عندهم اسماءهم..وبعدين وحدة من الدول تقبلهم عدها..فأذا ابنك كاصد سجل عدهم يجوز يودونه لالمانيا او هولندة.. وبعدين يودي عليكم انت وامه ومرته وابنه حتى تلحقون بيه.
- يعني هو هسه حي ..وبالكويت؟ الله يبشرك بالخير.
- هذا الحجي وصلني قبل اسبوعين.
- ليش ما وديت خبر الا هسه..وانت تعرف آني وامه ومرته صار لنه سنين ندور عليه وما ندري عدل لو ميت؟
- قالوا لي اول مرة جان مسجون بأيران ويه الاسرى وبعدين طلعوا وخيروا يبقى بأيران لو يسافر..بس هو فضل يسافر للكويت..ويقولون اكو هناك معسكر قرب السعودية اسمه مخيم رفحا..يجوز هو راح وياهم..ومن هناك يريد يوصل لوحده من الدول الغربية لو لأستراليا.
اضطرب ابو كاصد وقال:
- ابو ستار الله يطول بعمرك تقدر تودي على هذا الرجال حتى احجي وياه؟
فصاح ابو ستار على هاشم المنهمك مع ابيه في تغذية النار بالفحم:
- هاشم جدو.. هاشم..روح للجماعة وقللهم نريد نحجي ويه جبار ..خل يجي بساع عدنا ضيف عزيز علينا صار لنا سنين ما شايفينه يريد يسأل على ابنه بأيران.
ثم التفت الى ابو كاصد قائلا:
- هذا اليوم مبارك .. منين طلعت الشمس ..ابو كاصد عدنا.
فرد ابو كاصد:
- الايام والسنين تركض ركض يا ابو ستار والعمر ما تعرف شلون يقضي بساع.
انشغل ابو ستار بتأجيج النار في المنقلة يساعده سريع. تفقد ابو كاصد فرات المنزوي تحت عباءته فوجده يغط في النوم. شرب الشاي مع مضيفيه والحديث يتواصل عن مواسم الزراعة واخبار المعارف والاقرباء من سكان القرية. وتدرج الى بعض الاسرار المتخصصة بالتهريب خصوصا من ايران وعلاقتها بالسوق في مدينة البصرة والقرى المحيطة بها وانشغال ابو ستار بكيفية تصريف مثل هذه البضائع. ولكن ابو قاصد اخفى عن ابو ستار ان فرات يقوم بنفس العملية خوفا على الصغير..وتحسبا من ضياع الاجور التي يحصلون عليها من هذه العملية التهريبية والتي تساعدهم على الاستمرار في زراعة ارضهم الصغيرة. اما ابو ستار فقد تطرق الى اخبار المختفين وبحث الشرطة المستمر عنهم والتصادم الذي يحدث بينهم. وعن الكمائن التي يقوم بها المتمردون لبعض المتنفذين في مدن الجنوب. ثم سأل عن اخبار ابو ساهر وابو رند. فحدثه ابو كاصد عن المساعدات التي يقدمونها له لتسهيل بعض اموره. وعن عمل ام كاصد لمعاونة رند في امور البيت. الامور التي كانت تشغل بال ابو ستار هي معاكسات الشرطة لهم ثم مشكلة ردم الاهوار وحرق القصب. وتحول المياه الى مياه راكدة واوحال تتجمع حول اكواخهم ناشرة النتانة والحشرات والذباب. ثم اسهب في الحديث عن مشاكله مع اولاده وهجرتهم الى بغداد. ولكنه تحاشى الحديث عن ابنته ذكرى وكأنها لم توجد في يوم من الايام..ماتت

واخذت سرها معها..فهو لحد الآن لم يستطع معرفة الشخص الذي البسه ذل العار ودنس شرفها. ورغم ان ذكراها كانت ماثلة في خيال ابو كاصد وكأنها حاضرة بينهم الا انه تلافى حتى التلميح لها رغم تحرقه شوقا لمعرفة السر الذي ادى الى قتلها..تلك الفتاة الجميلة..من اجمل بنات الاهوار كانت..كم تمنى ان تكون من نصيبه..ما اغرب دروب الحياة.

حين حضر جبار وكان شابا طويل القامة اسمر الى حد السواد. ملابسه معلقة عليه كالمشجب لنحوله، ولكن عضلاته تدل على قوة بدنيه واضحة. ظهرت الفرحة عليه حين عرف ابو كاصد. ضمه الى صدره بقوة:

- كل الهلة، والف مرحبة..كاصد هواية حجا لي عنك. اشكد يحبك ويحترمك..احنه جنه بأيران مثل الاخوة..واحد مايفارق الثاني..وكاصد سبع ما يهاب احد..حسافة فرقتنا الايام والغربة..جان يريد يرجع وياي..بس قالوله اذا رجعت راح تنحبس..فقرر يهرب للكويت بوحدة من الطرارید ومن هناك ارض الله واسعة..بس اكو هواية مخاطر ومصاعب..انشالله يسلم منها وتسمعون اخباره الزينة..هو ما يقدر يدز لك مكاتيب بس قال راح بأقرب فرصة يدز لك طارش يوصل لك اخباره.

كان ابو كاصد ينتحب وهو يسمع كلمات جبار. فبعد ان يأس من حياة ابنه ها هو يظهر فجأة حيا. وكأنه عاد من عالم الاموات الى الحياة الحاضرة. اخذ يستزيد ولا يكف عن سؤاله عن الصغيرة والكبيرة..كيف تأسر؟ وكيف كانت حياته اثناء الاسر؟ وكيف اطلقوا سراحه؟ ولماذا هو خائف من العودة؟ اما كان من الاحسن ان يرجع؟ وما هي هذه الرحلة الى الكويت؟ وكيف يدبر اموره المالية؟ وكيف يعيش؟ اسئلة لاتنقطع ولا تشبع فضول اب لم يرى ابنه منذ اكثر من خمسة عشر سنة. لم يمسح دموعه المنهمرة ولم يخجل منها، انها دموع الابوة المشتاقة لعودة الابن الضائع. لم يكملوا حديثهم حين سمعوا لغطا ثم صوت رصاص يلعلع. قفز الجميع مفزوعين. جائهم صوت هاشم وقد ظهر الانفعال على وجهه:

- اركضوا..اشردوا..ترة الشرطة محاصرتنا..واذا لقوا جبار هنا معناه راح يعدمونا كلنا.

هب جبار قافزا وكذلك ابو كاصد الذي احتضن فرات وهو يقول:

- آني اروح ويه جبار ومن هناك الغبشة اروح لهلي.

فصاح جبار:

- أي عمي تعال وياي احسن لأن اذا شافوك راح يقولون انت تتعاون ويه المتمردين..اسلم لك تجي وياي..انت غريب ماراح يحسون بيك..تره الشرطة ما ترحم احد..وقبل ما يسألون ويستفهمون تلاقي رصاصهم يصير طشارة ماله والي.

فهم ابو كاصد خطورة الموقف، وبدون تأني حمل الصغير بين ذراعيه وركض به الى خارج الدار وهو يتبع جبار حين توارى بين جذوع النخيل. رغم كبر سن ابو كاصد لكنه كان يجاري جبار في جريه وهو يلهث وفرات يركض امامهم بخفة. ولما اختفت الاكواخ تباطأوا قليلا وجبار يردد:

- الشرطة كاعدة تدور على واحد من المعارضة خاتل عند العشيرة..قتل عضو شعبة البصرة لحزب البعث.

- يرحم والديك..انت وين ماخذنا انا والصغير؟

- تعال اول نشوف الجماعة شراح يصير بيهم.

تسلل بخفة بين الاشجار عائدا من الجهة الاخرى، واخذ يتطلع الى الاكواخ وخلفه ابو كاصد. ومن بين الاشواك والعوسج الكثيفة استطاعوا مشاهدة مجموعة من الشرطة عرف فيهم ابو كاصد نفس المجموعة التي التقى بها عصر اليوم. رأهم يقودون رجالا معظمهم من كبار السن، كانت الشرطة تدفعهم بأعقاب البنادق ثم اوقفوهم تحت احدى النخلات بمحاذات الجرف. لام ابو كاصد نفسه على هربه.. اما كان من الافضل ان يبقى هناك مع ابو ستار؟ القى نظرة الى حيث وقف ابو ستار وجماعته صفا واحدا. وجوههم مكفهرة وعيونهم زائغة، والخوف يعتصرهم..محنطة ازمنتهم الخاوية ..ايديهم كقصب البردي تشير وتحلف انهم ابرياء، لاعلم لهم بما تتهمهم به الشرطة. تغرس الريح انيابها في ثيابهم المنتفخة، وتؤجج في افواههم لغطا للخلاص مما هم فيه. ولكن الشرطة تدوس بأعقاب البنادق فوق اكتافهم..جاء احدهم وهو يصيح بعد ان القى عدة بنادق امام المفوض:

- هاي التفق لقيتها ملفوفة جوا التبن ويه الدواب.

التفت المفوض اليهم وهو يصرخ:
- لك انتوا والله انذال..خونة..تتآمرون على الحكومة تريدون حرب اهلية..حتى الاخ يكوم يقتل اخوه؟ والله الموت قليل بحقكم.
ثم رفع رشاشته وحركها وكأنه يريد ان يصليهم برصاصها. اوقفه عويل النسوة اللواتي اندفعن نحوه وقد حللن شعورهن وارتفع صراخهن وهن مرتميات تحت اقدامه:
- الرحمة ..هذولة كلهم شباب..يابه ماكو احد بيهم ضد الحكومة..هاي التفق مال الصيد..نصيد بيها الطيور..لاتقتلون رياجيلنا ..منو يعيل ها الجهال بعدهم..الله يخليك..حط رحمة بقلبك.
التفت ابو كاصد الى جبار والقلق على مصير الآخرين منحوتة فوق تجاعيد وجهه، وهو حائر ماذا يفعل لخلاصهم. قاسمه جبار القلق وعدم القدرة على عمل شيء . ضغط على يد ابو كاصد المتعبة الكبيرة وقال:
- اذا اخذوهم.. ناخذ احنه بثارهم.
فقال ابو كاصد بحسرة:
- الثار هو عض على الجروح..الاحسن منه نخلصهم ونرجعهم لهلهم..تقدر؟
- احنا اثنين ما نقدر نسوي شي ..بس نروح للجماعة بلكت يساعدونا.
كانت الاصوات الآتية من جرف الماء تنهشهم فقال المفوض:
- ودوهم للتحقيق.
دوت كلمة التحقيق في الفضاء معلقة تشدهم داخل قضبانها، فأستصرخت الذعر بين الصف الطويل من النسوة فتعالت ابجدية النواح فيي الدفاع عن الرجال. فتجاوز احد الشباب وهو يقفز نحو المفوض، الذي لاقاه بدفعة رمته بعيدا وهو يتدحرج صارخا:
- لا..قتلونا هنا..لاتاخذونا للتعذيب، نموت هنا على كاعنا ويم اهلنا..اذا اولها وتاليها موته، خل نموت هنا.
لم يكمل كلماته اسكتته رصاصة اصابته في كتفه..قفزت امه نحوه. كالحيوان الجريح صرخت فوقه ومعها جمع من الآخريات، وهن يشتمن وايديهن تمتد نحو الشاب الممدد على الارض،وغفوة الموت تنسحب فوق اشرعة الاندهاش، وشهيق يرتفع مع رفيف حمامة فوق سعف النخيل، وهو مرتعب لما يحدث. هز صوت الام الناحب طيات كفوفهم الملتفة بالبنادق، فأنسلتت مرارة صوتها نحو الفراغ يهز روح الهور مهشما سكون لجينه الرمادي المعفر بالظلام. لسعة الموت اصابتها بالارتجاف وهي تصيح:
- لا..لا..شلون تموت وانت بعدك ما صرت عريس.
التمت النسوة كالجدار الصلب حول الفتى الراقد وقد تلطخت ثيابه بطين الهور والرمل. فهتف ابو ستار:
- ولكم ماكو احد يساعده تره بعده عدل ما مات.
اختلط الجميع وزاد صراخهم، فأحاطوا بالشرطة. وفجأة تعالى الرصاص من الجهه الثانية للقرية ومن بين القصب. اجفل الجميع من المفاجأة وتراكض اهل الهور الى البساتين ملتفين بالظلام، ليختفوا داخل الاحراش وهم يحملون جريحهم معهم. تسابقت زخات من الرصاص التي امطرت من بنادق الشرطة بأتجاه القصب المظلم،وهم ينبطحون تحت النخيل وخلف جذوعه. همس جبار في اذن ابو كاصد:
- هذولة جماعتنا اجو يساعدونا.
الهجوم والرصاص حمل مفرزة الشرطة على التراجع داخل البساتين ثم الانسحاب الى سياراتهم الواقفة على الطريق وهم يتصايحون:
- الانسحاب..الانسحاب..ارجعوا الى السيارات.
هدأت المعركة قليلا. هوى عدد من الشرطة، فحملهم زملاؤهم وهم يصرخون مهتاجين.كانوا يتحركون وكأنهم في كابوس لم يتوقعونه، بحيث اصبحت الكلمات كالهذر المبتور. استمر اطلاق النار العشوائي بين الجانبين لمدة اكثر من ساعة، خلالها اختبأ اهل الهور داخل البساتين، ولم تنتبه الشرطة الى هروبهم. كان الرصاص يأتيهم من عدة جهات واي فرد منهم كان سيكون صيدا سهلا للقناصة المختبئين داخل غابات القصب. تصاعد

انين الجرحى، وانطفأت الاضواء الكاشفة حين اصابها الرصاص. وكان لابد للشرطة من ان يسحبوا جرحاهم الى أماكن آمنة. لذلك انتدب المفوض قسم منهم للتغطية اما الآخرون فقد سرت بينهم جملة واحدة..انجوا بأنفسكم. مع اقتراب الفجر استطاعت مفرزة الشرطة من الافلات من الحصار وابتعدوا بسياراتهم يلاحقهم رصاص رجال اقدامهم موحلة والمياه تغطيها، وثيابهم غائصة بالطمى والصلصال. يزحفون على اذرعهم الى اعماق الهور فهم يعرفون ان المعركة لم تنته وان قوات من الجيش سوف تطوق المنطقة وتحرقها بالمدفعية والدبابات. ان دوامة القتال الحقيقية ستأتي خلال النهار حين تقذف الحكومة بمروحياتها فوق حقول القصب، التي يعرفون طرقها ودروبها وضفافها جيدا.

كمن ابو كاصد مع جبار واهل الهور داخل البساتين حتى انبثق الفجر وساد الهدوء. بعد اختفاء الشرطة ومغادرتهم،عبروا الى بيوتهم ومعهم ابو ستار واهله، وهم يحملون جريحهم الشاب بعد ان ضمدوا جرحه. وقبل ان يشعشع نور الصباح ساقوا دوابهم وحملوا ماخف من الامتعة واتجهوا ماشين الى مدينة سوق الشيوخ. صاحبهم ابو كاصد وفرات مسافة من الطريق بعد ان ودعوا جبار الذي وعدهم بالاتصال بهم اذا سمع شيئا جديدا عن كاصد، ثم اختفى ملتحقا بجماعته. قرب الجسر افترق ابو كاصد عن جماعته واتجه نحو الطريق الموصل الى البصرة. كان فرات نائما على كتفه، ورغم ثقله لم يشعر بالتعب، فمنظر القتال والجرحى وبكاء النسوة اجج احزانه. سار مكسور الروح. لامست البرودة تجاعيد وجهه فزادتها عمقا. انزل فرات وركنه الى شجرة قريبة وجلس قربه، وقد اطرق الى الارض. ايقظه قصف شديد وانفجار جعله يقفز واقفا على قدميه، وهو يحاول حماية فرات بعباءته، وابصاره تتجه نحو هدير المروحيات المتجه نحو الهور. انهم يقصفون مواقع المقاومة. ومن بعيد شاهد الجسر وهو يتطاير ويتهاوى تدمره الانفجارات القوية واحدة بعد الاخرى. رفع يده الى السماء وهمس..يارب يا ارحم الراحمين لويش درت وجهك عنا.

كان صراخ فرات يمتزج بصوت تساقط الاحجار. وشاهد الجد المياه وهي تندفع فوق اعمدة الجسر ومعها انتفخت ملابس شخص انحدرت مسرعة مع المجرى وهي تغوص الى اعماق النهر. لم يستمر هذا المنظر سوى ثواني اعقبته مدفعية الدبابات وهي تقصف القرى البعيدة في عمق الهور.

دمرت المروحيات الجسر . وكانت الاصابة دقيقة جدا بحيث ان الجنود الجالسين الى جانب الطيار صفقوا له..وقال احدهم بمرح..

- احسنت اصابة محكمة..تستاهل عليها بوسة ووسام شرف.

فصاح مساعده:

- اعظم وسام شرف لما يرجع سالم لمرته..ويبوس ابنه..هو شكد صار عمره؟

ضحك الطيار وضرب مساعده بكفه قائلا:

- صار عمره شهر..تقول امه وزنه ثلاثة كيلوات ..تصوروا الملعون يرفس ويضرب امه برجله من هسه.

فصاح المساعد:

- اكيد ورث الشقاوة من ابوه.

استمر الكلام، الذي قطعه صوت الآمر وهو يشير عليهم بالعودة ويهنأهم على الاصابة الدقيقة. قال الطيار:

- اتصوروا كام يعرف امه ويباوع عليها وين ما تروح.

فرد عليه مساعده:

- وانت هم يعرفك؟..بس ما قلت شنو اسمه..

- تقول امه..

لم يكمل جملته فقد ضربهم صاروخ امريكي. اخذت المروحية تهتز وهي ترسل ازيزا حادا ثم تهاوت محترقة، حتى ارتطمت بالارض. سقطت فوق قرى الاهوار. المدفعية الجاثمة تحت النخيل مستمرة في قصف غابات البردي لتمزقها في فضاءات امتزج فيها سواد الماء بأحمرار النيران وكأنها حقدا يغلي بالغضب.

في ذلك الزمن العجيب حيث حضارات سومر، وزقورات الاقدمين ولد. وكان امتدادا للسنوات العجاف وايام القحط والاوبئة. هو شعب خلق. سطر القوانين للناس ولا زال في المخاض..والام مازالت حبلى بأحلامه..ولكنه

سيكبر.. وسوف تحمل الايام اوراقا خضر للاشجار اليابسة. وفي كل ليلة سيجلس الشيوخ امام قناديل الامل، ويتذكرون اعوام العزلة فيحدثون احفادهم عن المستقبل، حيث ستعزف الجروح لحنا يورث الحزن..مع سؤال يرن في الهواء..اما آن لهم ان يعيشوا بكرامة وبدون ذل..اما آن للغرباء والطيور المهاجرة العودة الى تلك الربوع..وسوف يذكر قصب البردي اعشاشه فيبنيها لهم مشاحيف لذكريات مياه صمدت للاندثار..وللرصاص المختل بين تضاريس خطوط الماضي. الام حبلى وستلد طفلا مبهورا بالاحلام..اصابعه جنية تبني عروش لشيء اسمه لايقال علنا الآن ولكنه في كل خاطر وعلى كل الضفاف..دروب الضفاف يخطها شعب قديم الحضارات للايام الآتية..سيكون له مولود ككل الشعوب يصقل جسده الربيع والمطر..وسينمو القصب من جديد في مياه الاهوار..وستحفر اور سطورها على الطرقات في ارض السواد..وستمحى اعوام العزلة..وستكثر في حضائرها الاغنام، ويسبح في مياهها الاسماك..ولن تحتاج الى شمعة كاهنة كي يستيقظ انكيدو ويعود من نومه الطويل، متهاديا فوق مروج الغضب واحقاد القرون، فيضيء رمحه بالتراث ويفتن العالم بصيحة نعم للقوانين..نعم لسومر وبابل ولبلاد تنيرها الشمس المرسومة فوق مسلاتها ، وسيكنس المثقفون مزابل الاشنات والفطريات العالقة بكراسي من اخشاب الشوك المسموم بالزمن الخارق الانتصارات، والمهزوم على عرش اساطير الخرافات المعزوفة على اللسنة الغربان الحارسة للقبور والجثث المتعفنة لبناء مبني على ورق من رمال..حال ما ينفخ فيه يطير فوقه السراب. وارتفع صوت الجد من جديد..يارب لم تخليت عنا؟ ودقت الطبول..استيقظوا ايها الابطال ..وتململ جندي وهو يتثاءب..لا نريد المجد ..بل نريد الحياة..اننا لانعرف نحن نحارب من؟ ونقاتل من اجل من؟. وهمس الجد للمرة الثالثة وهو يغطي وجهه بيده ودموعه تسيل..يارب لماذا تخليت عنا؟. وتنهد فرات واحتضن جده وهو مايزال يشهق وقال:

- جدو لويش كاعد تبجي..اكو احد مات؟

كان ضوء الشمس الشاحب يشق السماء الحالكة بالدخان. وترادفت امواج نهر الفرات تدافع بعضها بسرعة لترتمي مخذولة على الشاطيء، وترتد متراجعة تاركة زبد المياه وفقاعات متلاشية وأمال لسنوات لم تكتمل بعد..وغامت الدنيا فلفتها دكنة الغيوم وبكت فتاة بيت اهلها تحت اعواد قصب البردي..تحمل صليب آلامها كما يحمله الجد. رفع ابو كاصد عيناه النديتان نحو الافق وقال بيأس:

- شلون راح نعبر النهر؟

وتذكر فاطمة ام فرات، فداهمته افكار سوداء..وتخيلها مريضة في الفراش وقد اشتدت عليها علتها وهي دون دواء..ولن تصمد، وام كاصد الى جانبها لاتستطيع مساعدتها. قفز مذعورا واستيقظ فرات على حركته هذه. وبدون ان يضيع ولا دقيقة انهضه من يده واسرع به نحو الجسر..كانت بعض الجثث متناثرة قربه. اما الجسر فقد اختفى وسطه تحت الماء ولم يبق سوى طرفيه وبعض الاخشاب المعلقة وهي تهتز بفعل الهواء، وقسم منها تحركها امواج النهر وقد عرقلت سيره فكونت شلالات تعبر فوقها. اقترب الشيخ وهو ينظر الى الهوة المفتوحة امامه..فلاحظ بقايا لثياب ملونة اخذت المياه تجرفها..وقف وهو حائر كيف يعبر الى الضفة الاخرى؟ عاد الى فرات الواقف بعيدا وقد ظهر عليه الهلع ثم قال بهمس:

- جدو ..اكو ناس ماتوا على الجسر؟

فرد الجد:

- أي جدو ..بس لاتخاف انت سبع

سكت فرات فترة ثم عاد يهمس:

- آني اكره الحرب

فقال الجد:

- ماكو احد يحبها..

بدأت الريح تشتد فزاد ذلك من بؤس وقهر الجد فالتفت الى فرات قائلا:

- جدو فرات..دور على جذع نخلة خفيف نعبر بي النهر.

ثم دفع بالطفل بين النخيل وهو يحثه:

- روح انت من هل الجهه..وآني من الجهه الثانية.
ركض فرات بين الجذوع ينفذ ما امره به جده. في حين اتجه الشيخ ببطء قرب حافة النهر وهو يتفحص ما حوله. وبعد بحث طويل وجد الجد جذعا نخره السوس ملقى على الارض. فأخرج سكينه وقطع الحوافي الحادة، ثم عدله في جوفه بحيث كبرت الفجوة لتسعهما، ودخل الى الماء وهو يجره خلفه. شعر بالبرودة وهي تلذعه. والماء وهو يرتفع ببطء حوله. طفى الجذع على السطح. ضغط عليه بيديه ضغطات متتالية وهو يهزه. كان الجذع قويا فخمن انه سوف يطفو ولكنه لن يحملهما معا. فصاح على فرات. جاء فرات راكضا وساعد الجد في سحب الجذع الى حافة النهر. نزع الشيخ عباءته وطواها ثم وضع نعليه داخلها ولفها بأحكام حول عنقه. رفع ملابسه وربطها بحزامه، ثم استدار الى فرات ورفع له بنطلونه، ونزع له حذاءه وربطه في عنقه وهو يقول:
- الماي بارد..بس ورة شوية راح تتعود عليه..اقعد فوق الجذع وآني اسبح يمك وادفعه الى الجرف الثاني.
تقلص وجه فرات من الذعر ولكنه قال بشجاعة:
- زين
استطرد الجد:
- اخذ هاي العصة وساعدني بالتجذيف..بس اهم شيء هو ان توازن نفسك حتى مايدور الجذع ويروح ويه التيار..بس انت لاتخاف لأن آني يمك.
همس فرات وقد بدأ البرد يفعل فعله في ساقيه:
- زين جدو..شوية ..شوية واسوي اللي اقدر عليه.
- يله نمشي يا بطل.
دفع الجذع اكثر داخل الماء. وهو يسير خلفه ثم رفع فرات ووضعه داخل فجوة الجذع. زاد ارتعاشه حين بدأ الماء يتسلق جسده، وكلما انغمر اكثر كلما ارتعش اكثر حتى اصطكت اسنانه فلم يعد يسيطر على ارتجاف شفتيه. نظر النفرات فشاهده يرتعش كذلك. رفع ابصاره نحو الشمس وكأنه يتوسل بها ان تدفئه. فكر ان ينتظر قليلا الى الظهر ولكنه تراجع فالسماء غائمة وقد تمطر. استمر يسبح في الماء وهو يدفع الجذع وفوقه فرات. وصل الماء حتى صدره، ثم لم تعد قدماه تطآن القعر. فترك نفسه للتيار ينحدر به الى وسط النهر. حرك ساقيه ليزيد من سرعته ويوجه الجذع نحو الطرف الآخر، ولكن التيار كان قد بدأ يقوى اكثر واكثر، زاد ذلك من خشيته وشعوره بالعجز. تمسك بالجذع بشدة ليريح بدنه المتخاذل فمالت قطعة النخلة الى جنبها وصرخ فرات برعب:
- جدي ..جدي راح اوقع.
صاح به الجد وهو يلهث:
- اكمش الجذع قوي ..لا تهده حتى لو وقعت بالماي راح يحملك ..الزمه حيل.
مال فرات بجسده واحتضن الخشبة بذراعيه وهو يحاول ايقافه عن الدوران وللمحافظة على توازنه. شعر الشيخ ان الجذع اصبح اسرع منه، وسوف يفلت من يده، فبذل جهدا جبارا للا لتصاق به حتى ان ذراعيه تصلبتا وتوترت عضلاته وعظه الالم، ولكنه لم يترك الخشبة تفلت . غاص رأسه قليلا تحت الماء، وصعب عليه تنفسه، ضرب الماء بقوة اكثر بقدميه ليرتفع نحو السطح، ساعدته هذه الحركة، فأستطاع التقاط انفاسه وهو يشهق. حرك جسده من جديد ليطفو، حركته هذه دفعت بالجذع الى الامام اكثر وزادت من سرعته. احس انه لا يستطيع اللحاق به وان الجذع آخذ بالابتعاد عنه اكثر وبدأ يفلت من كفه. سبح بقوة كي يمسك به ولكن قوته بدأت تخذله.رفع رأسه وفتح عينيه ليشاهد الجذع وهو يسرع مبتعدا عنه وفرات ملتصق به وهو يصرخ باكيا والهلع يمزقه. زادت المسافة اكثر بينهما وفرات يستنجد بأعلى صوته:
- جدو ..جدو الحق لي..جدو ..جدو..
وبعيون كليلة غائمة رفع رأسه وحاول الصراخ لكن لسانه المرتجف لم يطاوعه فقد التصق بحلقه. ضرب الماء بذراعه، ورغم ذلك احس انه يغوص والتيار يسحبه بسرعة اولا ثم ببطء، فلم يقاوم فقد احاط به سكون غريب وراحة وظلام دامس ومن بين طياته بان له وجها ..انه وجه صبية جميلة ..فتاة ضاحكة مرحة..انها ذكرى..غشاه

الظلام لتظهر صورة ابنه كاصد، والى جانبه ام كاصد وهم يلوحون له ويبتسمون، وفرات وهو يركض نحوه. مد ذراعيه ليمسك به، الا ان قدمه اصدمت بشيء ما.. وفجأة شعر ان هناك شيئا صلبا تحته، اسرع بالوقوف فأذا به على الجرف الآخر ..ولكن اين فرات؟ شهق واخذ يركض على الجرف كأنه مجنون والمياه تقطر من جميع اجزاء بدنه وهو يشهق بشدة:

- فرات ..جدو..فرات ..فرات

هلع ..جزع..رعب..وفزع..كل كلمات الخوف تدفعه وكأنها عفاريت ترفعه عن الارض وهو يركض حتى تقطعت انفاسه فلم يعد يستطيع التقاطها الا بجهد..الالم يمزقه يجرح قلبه وصدره..اقدامه ضعفت واصطكت ركبتاه، ولكنه لم يبال واستمر يركض وقد انحنى ظهره..حتى شاهد من بعيد شبحا يركض نحوه وهو يصيح:

- جدو .. جدو

كان جذع النخلة قد اصطدم بالجرف عند منحنى النهر، ساعد في ذلك بروز جزرة ارتفعت وسط مجراه. ومن بعيد قفز فرات الى صدر جده واحتضنه ودموعه تسيل. نظر الجد الى السماء شاكرا، وهو يركع على الارض لايستطيع تحريك يديه ولا رجليه وصدره يعلو وينخفض كالمضخة. وببطء سحب نفسه فوق الرمال الى صخرة قريبة استند اليها كي يرتاح. لبس عباءته المبللة ونعاله وعدل من هيئته، ساعده فرات وهو يستمع الى صوت الجد الضعيف وهو يطمئنه:

- هسه نوصل .. ما بقى شي هسه نوصل للبيت.

كانت خطوات فرات قد ضعفت هي الآخرى، فأصبح يجر جسده جرا وهو يقول:

- آني بردان..وجوعان.

كلماته ارتجفت تحت لسانه وارتعش جسده بردا تحت ملابسه المبللة التي التصقت بجلده. لفه الجد بعباءته ولكن العباءة هي الآخرى كانت تقطر ماءا. لم يجد علبة ثقابه لأشعال نارا يتدفأ بها. ازرقت شفاهه ولم يتوقف ارتعاشها. وجه بصره نحو السماء برجاء، فقد بدأت اشعة الشمس تقوى قليلا، لكن الريح زادت من شعورهما بالبرد، كما ان الخبز الذي حصل عليه من ابو ستار قد تلف في ماء النهر ولا طعام يسد رمقهما. كانت مغامرتهما في العبور قد ابعدتهما عن الاتجاه الصحيح للقرية. فوقف ابو كاصد ينظر الى الفضاء وقد خلت من الاشجار الا قليلا منها متفرقة هنا وهناك..عليه ان يعود الى الوراء حتى يجد مفترق الطريق العام. فوضع الشمس على يمينه وسار بالاتجاه الذي حدده وهو يدفع فرات امامه مرددا:

- اركض جدو ..اركض وراح تدفا..وتنشف هدومك.

اطاعه فرات ، فركض مسافة ثم عاد راكضا.. ولكن ساقيه وركبتيه لم تطاوعانه فجرهما جرا.لم يتكلم الجد. قطع افكاره صوت قاذفات امريكية وهي تعبر فوق رأسه، فأندفع يحث خطاه قدر طاقته حتى وصل الى مفترق الطريق العام. فتعرف على معالمه. دغدغت الفرحة قلبه لم يبق سوى ساعات ويكون في قريته. وفعلا بعد مدة لاحت مشارف القرية اليه من بعيد والبساتين المحيطة بها:

- الحمد لله ..وصلنا.

كان فرات قد سبقه الى البيت فعجل خطاه وقلبه يدق بعنف وكأنه يطير. شعر بتأنيب الضمير لأنه لم يأت بدواء الى فاطمة معه. فرحته بأخبار كاصد انسته كل شيء. لقد عاد اليه الامل برؤية ابنه، وربما بعودته لهم سالما. اه لايريد الرحيل عن هذه الارض الى بلاد الغربة. فهو يشعر ان الحياة مازالت تحمل له افراحا قادمة. فها هو فرات يكبر وسوف يصبح شابا، وكم هو سعيدا به فهو ذكي وحاذق ويفهم اكثر مما يفهم اقرانه. وعندما يعود كاصد ستنجب له فاطمة اخوة واخوات، وسيفرح بزفافهم عندما يكبرون اذا مد الله في عمره، سوف يملؤن ارضه بالاجيال القادمة، يزرعون الارض التي سوف يوسعها..انها ارض طيبة، مروية بمياه شط العرب الحلوة الوفيرة.. وستزداد البساتين وتمتد حتى تعبر الصحراء، وتحولها الى جنة كما كانت قبل الوف السنين..ارض السواد الغنية..وادي الرافدين الخصب وغاباته الخضر.

قطع عليه افكاره الحلوة عويلا للنساء وصل الى اذنيه. من اين جاء هذا النحيب. خفق قلبه..لماذا تبكي النساء؟ ما الذي حدث؟ ولكن لسانه لم يتحرك الا بأسم فاطمة..فاطمة ام فرات وزوجة ابنه ..ضاع صوته وسط صراخ جاء من داخل داره ..وفرات وهو يركض نحوه باكيا:

- جدو..جدو امي ماتت..

انهار الى الارض وسقط على ركبتيه، وسالت دموعه فوق لحيته، ونظر الى النسوة اللواتي تراكضن اليه وهن يطلقن العويل والصراخ والنواح، ويضربن صدورهن..واصوات مختلفة تصيح به:

- ماتت وهي تصيح على كاصد..ماتت وهي تنده عليه..جانت تريد تشوفه قبل ما تموت.

وبحشرجة خرج صوته:

- كاصد حي ..هو عدل مو ميت ويريد يودي عليها..المغفرة يابنتي..آني جايبلج خبر زين..كاصد ترة حي ويسلم عليج.

ركع فرات الى جانبه ثم ارتمى على صدره. احتضنه الشيخ بكل قوته والالم يمزق صدره..ولكن ما هذه الحرارة؟ ما هذه السخونة؟ وبرعب مد يده يتلمس جبهة حفيده. وكالمجنون ضمه الى صدره:

- انت مصخن..جسمك كله حار..انت مريض جدو؟

وارتجف جسده . ورفع احداقه نحو الافق وبحدة قال:

- يارب اطفالنا ابرياء ..احنه ما عدنا قدرة على مثل هذي الحرب.. وين الضمير يشهد على مأساتنا.

احتضن حفيده بقوة اكبر وهو يحس بأرتعاش الصغير الذي تهزه الحمى ورفع رأسه وبحرارة همس:

- وينك كاصد تجي تشوف ابنك ..يارب ما بقى لي غيره..اليوم اخذت امه..لا تاخذه هو.

وارتفعت الريح حاملة صوته ممزوجا بعويل النساء ونواحهن، وقد تطايرت شعورهن المحلولة واثوابهن السوداء. لا يأبهون بهدير المروحيات القادم اليهم من الخلف. والصمت يكبر..عبر العراق ويثقل اكتافه الهرمة..اكتاف الآلاف من سنين الظلام وعدم القدرة على المواجهة في تحد للزوابع والرمال الزاحفة وهي تطفأ الارض البكر ذات الذهب الاخضر والتي كان اسمها ارض السواد، غدت قفرا..والذاهبين بدون عودة يتركونها تثقل كاهل كهل كهذا عاجزا امام زحف السموم.

وضع ابو ساهر يده فوق كتف الشيخ وهو ينهضه من جلسته وقد جاء مسرعا بعد ان سمع بوفاة فاطمة وقال له:

- ابو كاصد ..احنه هنا يمك..اشتحتاج احنه قدامك ترة احنه اهل والاهل لبعضهم.

كان بجانبه ساهر وابو رند.

حضر جميع افراد القرية الى فاتحة ام فرات. وكان صارم من بينهم بقى ساعة ثم خرج الى بيته. في بستانه شاهد تعبان يعمل في غرس الفسائل الجديدة للنخيل. لازالت الارض رطبة من امطار الامس بحيث يسهل الزرع فيها. اقترب صارم منه رغم الضيق الذي لايدري سببه..فكثير من الامور تشغل باله واعماله معطلة..اخرته الامطار في الايام الاخيرة عن السفر الى البصرة لتغيير مسار المبزل المزمع حفره ..نظر الى تعبان وتذكر ملاذ..ما يكدره ايضا ان الفرقة التي الفها للسيطرة على القرية لاتسير امورها كما يجب، فالرجال لايعرفون معنى الالتزام العسكري وطاعة الاوامر. الفرقة تشغله فبواسطتها سيحول القرية الى مملكة تخصه هو.. ملكا له يفعل بها مايشاء..لن يخلفه فيها احد بعد الآن..راقب تعبان وهو يزرع وانتصب وقد زادت ثقته بنفسه اكثر. السيطرة تجعله يحس بكينونته..الفلاحون جهله في نظره وبسطاء ومن السهل معرفة نواياهم..اما في البصرة وبين معارفه فكل شيء مختلف هم من طينة اخرى يفوقونه مالا وثراءا ومكانة اجتماعية لذلك التعامل معهم يكون بشكل آخر حتى عندما يحاولون تصحيح اخطاءه وفرض سيطرتهم عليه يتحمل تلك المنغصات بقوة ارادته. عندما ينزعج يقلل من نزوله الى مدينة البصرة..في الوقت الحاضر سيكرس وقته اكثر لفرقته التي كونها سيربيهم على طريقته وبأسلوبه، فهو ملم بالقضايا العسكرية ويفهمها جيدا. وتكوين هذه الفرقة لاقى استحسانا جيدا من صديقه فارس من بداية تكوينها، مما زاد من هوسه بها حتى اصبحت كالوسواس وامست كل عالمه حتى انها عوضته عن ولعه بالجنس، فهي تمده بالعنفوان الذي يحتاجه، لأشباع تهوره

والانطلاق على سجيته دون رقيب يحاسبه على كلماته او اعماله كما حدث لصاحبه كريم حمادي. كان تعبان منهمكا في عمله الى درجة انه لم يعر صارم أي انتباه حين اقترب منه..اغاض ذلك صارم ولكنه تمالك نفسه فصورة ملاذ اعترضت افكاره من جديد..ما هي علاقته بها وهل هي نفس العلاقة التي يمارسها مع نجوى؟ طرح على نفسه هذا السؤال..تأخره المستمر في الذهاب لقضاء سهراته في مدينة البصرة بدأ يعرقل علاقته بنجوى. والظاهر انها انشغلت بشخص ما جديد. ففي المرة الاخيرة تأخرت كثيرا قبل ان توافيه الى شقته، وتعللت ان مرد ذلك راجع الى مراقبة اهلها لها. ازعجه ذلك الى درجة انه قرر ان يعيد الامور الى نصابها مع نجوى في المرة القادمة وان يريبها بحيث تعرف ان لامجال للتلاعب به.. وقع خياله على تعبان المنحني فأنتفض الرجل وانتصب واقفا وهو يرحب به ويشرح له ما يقوم به..انه يشبه ملاذ ..ملامحه تذكره بها ، اين هي؟ ولماذا لاتأتي الى العمل كخادمة في بيته؟ هل عادت الى علاقتها مع رويد وهي تتهرب منه لهذا السبب؟ شدت عليه الكآبة حين تذكر منظرها مع رويد. شعر ان خلاياه تريد الاشباع..يشعر انه بحاجة ماسة لأعادة الكرة ومضاجعتها. توقف ونادى على تعبان:

- تعبان..لماذا تضع الفسائل هنا؟ لقد لوثت ممرات الحديقة..اما كان الاحسن ان تزرعها في الجانب الآخر من البستان؟

صمت تعبان..ثم حاول الاعتذار موضحا ان حسن الاعرج هو الذي اقترح عليه ان يغرسها هنا، ولكنه لم يكمل جملته فقد جاءته صفعة قوية على وجهه ثم ركلة وصوت صارم وهو يصيح به:

- الذنب ذنبك..انت المسؤول على الحديقة والبستان ياكذاب..دومك تذب ذنوبك على الآخرين ..الف مرة قلت لك..خلي الفسائل بالمكان المناسب.

امسك بفرع شجرة واخذ يضرب تعبان على ظهره بكل قوته:

- راح اقطعك وصلة وصلة يا كلب يا ابن الكلب.

لم يفه تعبان بكلمة ولم يتحرك من مكانه وهو يتلقى الضرب ولم تطرف له عين. كانت احداقه قد استدارت بالكراهيه، ولكنه صمت، وكأن صمته صراخا للتحدي. كان يرد الضرب بنظرات صلبة مملؤة بالحقد والاشمئزاز، جعلت الآخر يتوقف بعد ان شفى من كآبته، وانحدرت الدماء حارة داخل جسده. تخلص من شعوره بالدونية واللاشيء وكبرت نفسه امام عينيه. رمى العصى ثم اخرج بعض النقود وضعها في يد تعبان وهو يقول:

- اريد ملاذ تجي تنظف البيت باجر..واذا عصت امري راح اوصل لبيتك واجرها من شعرها جر الى بيتي..انت فاهم.

لم يجبه ظل واقفا وترك النقود تسقط من يده الى الارض. انحنى صارم والتقطها ثم وضعها في جيبه ودخل الى البيت.

رجع تعبان الى عمله..وانهمك فيه واخذ يضرب الارض بمعوله بقوة تشي بما يكابد من شعور بالذل والاضطهاد. كابوسا هو وجوده في هذه القرية يعذبه. هو لاينتسب لهم. وهذه ليست ارضه. الانتماء للمكان هو هوية للانسان..وهو لاجيء هنا مقتلع من جذوره. وجميع من حوله غرباء عنه لايبالون بأوجاعه. اما الاحياء فقد نسوه تماما، وهذا ما يزيد من رعبه، وكثير ما سأل نفسه عن سبب بقائه هنا، وفي كل يوم له جرح جديد في قلبه..لاشيء يربطه بهذه القرية، حتى عمله ينفر منه، ما لذي يجبره على العيش في هذا العوز والفقر هو وابنته؟ لماذا لايهرب ويعود الى تلك الارض الطيبة؟ لماذا لايترك هذه الوحش الذي لارحمة في قلبه؟ لماذا لا يبتعد عن قسوته ويرجع الى تلك الجبال الشامخة والوديان الخصبة والاشجار المثمرة، اشجار الجوز واللوز والتين والعنب؟ ولا يجيب على تلك الاسئلة فهو يعرف الجواب..انه العجز..فهو خائر مستسلم لمصيره كمهجر رغم حث ملاذ له..وصوتها في ضميره..ان الله لايحب الضعفاء ولا يساعدهم، فكل فرد عليه ان يساعد نفسه اولا..ولا احد يمد يد العون للمهزومين الخانعين. اذا اراد الخلاص مما هو فيه عليه ان يبني حياته هو وكما يريدها هو هناك حيث المنابع الصافية في كردستان. صحيح لااحد له..فلا اقارب ولا اصدقاء بقوا له مات الجميع هناك في حلبجة، كذلك هو يكره القتال وحمل السلاح والحروب الدائرة على تلك الارض الطيبة، ولكنها

احسن الف مرة من العذاب والغربة التي يعيشها هنا بين الوجوه المغبرة المتعوبة ، بالاضافة للويل الذي يلقاه من صارم.. ما الذي صنعته بنفسك وبحياة ابنتك يا ابو فيان؟ ولماذا يصر صارم على مجيء ابنتك لخدمته؟ قرب الغروب جر قدميه جرا الى كوخه في طرف القرية.

الفصل الثامن

قرابين لشروق الشمس

كان كوخ تعبان بعيدا منعزلا قليلا عن الاكواخ الآخرى. جدران الكوخ كانت تدل على مدى قدمه، فبابه الخشبية ذهب طلاؤها، وسقفه يخر، وجوانبه متهدمة. والازبال تكثر حوله. اثاثه قديم وقليل. حاولت ملاذ كثيرا ان تحسن من وضعه دون جدوى. كانت تكره هذا المكان، وتكره كل ما حولها..فقرها، تهجم الآخرين عليها، واستغلالهم لها. تكره جيرانها. كثيرا ما حدثت والدها وحثته على الرجوع الى كردستان. ولكن خوفه وخنوعه يجعلها تقرف منه ايضا. يحس هو بذلك فيزداد عجزه..وفراغ روحه، فهو غريب لاينتمي لمن حوله. ايامه كلها قهر ويأس وبؤس. لايدري ماذا يحدث له؟ ولماذا يحصد به هذا الهلع كلما حاول مقاومة ما يعيشه من اضطهاد؟ لقد حطمه المحيطون به، حطموا كل هدف او امل يمكن ان يجعل للحياة طعما، فأمست اللامبالاة كأنما علاجا لعدم قدرته على التغيير. كان يهرب احيانا بخياله نحو الجبال الخضر، واشجار التين البري والنباتات الشوكية التي تغطي تلك السفوح الحبيبة، والى الانهار الصغيرة المنحدرة في الوديان، والبيوت الجبلية المتناثرة بين القمم، والمبنية تحت اسجار السنديان والسبندار الفارعة الطول. حتى القمر هناك اكثر ضياءا وهو ينير الغابات. وما احلى الهواء المنعش الذي يجدد الحيوية والحياة، وكأنما الطيور هناك اكثر حركة ونشاط، والوانها اجمل. روحه تنازعه الى صعود الجبال والمشي مع قطيع الخراف والمواشي للبحث عن العشب الاخضر. حنينه يجره الى تلك الدروب الملتوية المنحدرة بين الصخور. واليوم بالذات حين ضربه صارم بالعصى كانت كرامته الجريحة تنز دما وكراهية. ضرب الارض بمعوله وكأنه يود تحطيمها. لماذا انزل الله عليه كل تلك الكوارث؟ ثمن أي خطيئة هي؟..الكونه كرديا؟.

حين دخل كوخه وجد ملاذ ملتفة بالبطانية وهي تخيط ثوبها القديم الممزق. لم يكلمها. كان وجهها اصفر وزادت هزالا فهي لاتأكل الاقليلا. وقد شاهدها امس صباحا وهي تفرغ ما في جوفها. كانت تتقيأ وهي تبكي. انها لم تخرج من الدار منذ اكثر من شهر. منذ مرضها وملازمتها للفراش هزلت وتوسعت عيناها، وغارت وجنتاها تقضي اكثر اوقاتها في بكاء صامت دون نشيج. سألها مرات عديدة والح عليها ان تحدثه عن اوجاعها؟ فلم تجبه. انها لا تكلمه الا لماما وللضرورة القصوى، وكأنها تحمله هو قساوة الحياة التي يعيشانها وغربتهما. عاودته الرغبة المحمومة بالهرب ولكن كيف؟ ومن سوف يخفيه حتى يصل الى كردستان..ولا نقود لديه حتى ولا اجرة الطريق، بالاضافة الى الاوراق والهوية التي يفتش عنها الجنود في كل محطة وعلى كل منعطف.. سيسجنونه هو وابنته قبل ان يصل حتى الى نصف الطريق.

جلس على الحصيرة في الزاوية البعيدة، ثم لف سيجارته واخذ يمتص دخانها بشراهة، وقد وضع يده على خده. كان يود البكاء ولو كان لوحده لفعلها وانتحب، ولكن امام ابنته حبس دموعه..وسأل نفسه ما هو مصيرهما؟ واي مستقبل لهما هنا؟ وهاهي ملاذ قد كبرت..وعليه تزويجها. فستبقى معرضة للعيون النهمة الشبقة والتي تحاول الايقاع بها في كل خطوة ولن يحميها احد فلا اهل ولا عشيرة ولا اعمام ولا اخوال يسندونه، لا سند لأبنته سواه، هو الاب الكهل الضعيف..الذي لايهتم به احد فكيف يستطيع صيانتها من الشرور المحيطة بها؟ يجب عليه الفرار الى الشمال ليس من اجل نفسه ولكن من اجلها هي. يجب عليه ان يعود الى موطنه الى ارضه، هناك سيكون مصيرها اسهل وحياتها اقل تعقيدا. واليوم حين هوت عليه عصى صارم بالضربات كان تصميمه على الهرب يزداد. عليه ان يدبر كل شيء قبل ان يخبرها. سوف يحاول الاستعانة بساهر ربما سيعاونه، فهو ابن حلال..ويفهم.. هو وابوه يساعدانه كلما طلب شيئا منهما، يجب عليه ان يكبح ضعفه ويواجه الاحتمالات الخطرة من اجلها هي. فكل طريق له صعابه ومشاقه. ان خوفه عليها طبيعي وحالات ضعفه هو شيء انساني،

فهو اب، وكل انسان مكانه كان سيخاف ليس على نفسه ولكن عليها. الصعاب هي ما يجب عليه التغلب عليها والتحلي بالصبر على المشاق اثناء طريقه نحو كردستان.
مص دخان سيجارته. ثم نظر الى ملاذ. كانت قد انهت خياطة الثوب وقالت:
- الاكل فوق النار..بعده حار.
نهض بتكاسل واخذ الاناء المعدني بيده رغم سخونته. كان فيه رز مع قليل من المرق. اكله برتابة دون ان يحس بطعمه. وبعد ان انتهى ارجع الوعاء قرب سطل الماء لغسله. رجع وهو يلف سيجارة جديدة قائلا:
- صارم يريدج باجر تروحين تنظفين بيته..بس آني اقول لاتروحين..لأن بعدج مريضة.
قالت بمطاطية وعدم مبالاة:
- راح يضربك..فرات قال لي اليوم صارم هم ضربك..اشجان يريد منك؟
- ماكو شي..بس انت لاتحملين همي..آني متعود..ماراح يضرني شوية ضرب.
قالت بأصرار والقسوة تشوه وجهها:
- لا..احسن اروح..لاتخاف علي.
تجمدت ملامحها..لقد فات الاوان ولم يعد هناك ماتخاف عليه..لقد اغتصبها، ولم يبق لها شيء تحافظ عليه..رددت من جديد وقد تصلبت عيونها حتى شعر بغرابتها:
- احسن اروح..ماكو شيء يخوف هناك.
رائحة غريبة انبعثت منها، كأنه تحدي لكل ما هو ثمين..كل ما حولها كذب وتزييف وخسارات..زمن المهزومين هي وابوها..انهزموا يوم احتراق حلبجة. فقدت امها واخوتها واهلها. وهاهي تموت الآن كل لحظة. تخسر حياتها كل يوم، ويوما بعد يوم. قد يقولون انها مجنونة..ما هو الجنون اذا اضاع الانسان كل شيء؟ حتى كرامتها وحريتها..وفقدها لعقلها سيكون راحة لأمثالها..الجنون سيكون هروبا من لعبة الحياة، ومن الاحتراق الذاتي على موجات الوعي.ما تخلف وما بقى ليس الا رماد وتفحم وانطفاء داخل تيبس الروح المهانة بالاغتصاب، وموت الاماني..ان ضياع العقل سيكون نعمة..ستنسى انها تعيش لقد جردها صارم من كينونتها، وعزة نفسها حتى اصبحت نفاية تكره نفسها، تكره جسدها الذي اصبح اداة اذلالها. تعرف ان نهايتها ستكون مرعبة حين ينكشف الامر، ولكنها تستعجل هذه النهاية. لقد ولدت انسانة ولكنها ستموت كلاشيء. اسرعت الى خارج الكوخ، وقرب الجدار تقيأت ثم اجهشت بالبكاء. خفقات وعيها تختفي داخل سبات تخدير الضمير. قلبها يتمزق، لو تستطيع ان تضع حجرا بدلا عنه..ولكنه يذوب في بحر تمزقها، تبحث عن دروب للنسيان، ولكن يروعها علو جدار الاجتياز بين الحقيقة والسراب. ترنو نحو الافق المحمر وهي تحس بالتلاشي داخله حتى تضيق نفسها. انتهى وجودها لحظة اغتصابها. انتهت شجاعتها، انتهت تحدياتها. انتهى تفاعلها مع العواطف الحميمة الحلوة، كل شيء اصبح سخاما وحتى اشد سوادا من السخام. لو كانت لديها ام تساعدها او صديقة تستطيع مد يد العون لها..ولكن لااحد..انها وحيدة مع تعاستها، ومقطعة داخل عتمة روحها. بقيت جالسة قرب جدار الكوخ، وقد التصق الطين بأقدامها الحافية، انفاسها تصاحب الريح الباردة في هبوبها نحو الشمال، واحداقها مصوبة نحو الارض.
زحف الليل نحوها وهي جالسة ملتصقة بالجدار تراقب انحدار الغسق نحو خط الانتهاء والوحشة. رائحة الرطوبة النتنة تجبرها على الرجوع الى الكوخ. خاوية الدروب بلا ظل من امل. صمت اخرس يواجهها في عيون ابيها الحائرة القلقة. تقتاته اوهامه، وتذوب اوجاعه مع رياح تعصف بعقله الهاوي الى قرار واغوار عميقة داخل شعوره بالاحباط.
لم تتفقده وانما سارت رأسا بأتجاه فراشها المفروش في الزاوية البعيدة فوق الحصيرة. فراشا باردا. كأنها منبوذة انطرحت فوقه، وجسدها يتوجع على ارض معاناتها. ابتعدت عن عيونها مغارة النعاس. وليلها نتف ملفوفة بجمر تتقلب فوقه. أي حظ اعمى قادها الى هذه القرية الكريهة. مذبوحة تستدير من جانب الى آخر. مرت بخاطرها احلامها وحبها لساهر فأبعدتها مشمئزة. لقد قتل صارم فيها كل ما هو جميل، فأصابها عجز في الروح ابعد النور عنها، ودفعها مسحوقة الى عالم الواقع المستعصي على المعايشة بكل نواقصه البذيئة واحتياجاته

العاهرة وقيمه ووساخته ووطأته المملة وهو يجر بأذياله السخافات. تنصتت الى اصوات الليل لعل قنبلة تفجر كل ما حولها بكل ما فيه ومن فيه، ثم مدت يدها بحيرة لاتعرف لماذا علها تمسك بمرثية قتلها فأرتدت كفها فارغة حتى من ملامسة جسدها. في الصباح حاول والدها مرة ثانية لثنيها عن الذهاب. ولكنها ردته بضعف، واصرت على موقفها، وكأنها كانت لاتسمع. فهي تريد المواجهة..مواجهة هذا الواقع الذي يعذبها، ولن تتخلص مما هي فيه الا اذا قاومت صارم. رافقت اباها وهو في طريقه الى البستان. تلقتها ام صابر في المطبخ حسب عادتها وهي تعد الفطور. نظرت بأستغراب الى ملاذ وكأنها لم تعرفها وقالت:

- يمة هاي لويش اجيتي وانت بعدج مريضة؟

فردت ملاذ بضعف:

- مابيه شي.

اخذت الدلو ، ملأته بالماء ثم ذهبت الى غرفة الضيوف ترتبها وتمسح الغبار عنها. حين انتهت شعرت بالخوف وارتجفت فعليها الآن الصعود الى غرفة نوم صارم في الطابق العلوي وهو مايزال هناك. احست ان قدميها متراخيتين لاتستطيع نقلهما، فرجعت الى المطبخ بحجة تغيير قطع مسح الاثاث. جلست قليلا، ثم استجمعت شجاعتها وحملت الدلو من جديد وصعدت ببطء وهي تلهث الى الطابق العلوي. كان صارم لايزال في فراشه حين دخلت. نهض وهو يفرك عينيه وجلس على حافة الفراش. نظر اليها وهي تضع الدلو قرب الباب، ثم وهي تتجه بصمت نحو الكوميدي وتمسح التراب عنه. كم تغيرت. لم تعد جميلة نضرة كما كانت سابقا. ملامحها حادة قاسية. احداقها باردة وهي تتحاشى التطلع اليه. اقترب منها بنزق وحاول الامساك بها ولكنها تلافته بمهارة، فقد كانت كل اعصابها مشدودة ومتحفزة وهي تراقب حركاته من تحت اجفانها، ولكنه لم يتوقف وانما اقترب وبحركة سريعة لم تتوقعها طوقها بذراعين قويتين. دفعته بكل ما لديها من قوة وهي تتوسل:

- ارجوك ياسيد صارم..هدني..من ذاك اليوم الاسود من اغتصبتني وآني مرييضة..انت شتريد مني؟ قابل راح تتزوجني؟

اطلق ضحكة رنانة وهو يقول متعجبا:

- آني اغتصبتج؟..هو انتي اللي نمتي رأسا على الفراش..جنتي تتمنين افعلها وياج..ليش انتي تتصورين آني ما اعرف هاذي الحركات مال النثية..حركات القحبة من تريد الرجال.

ارتجفت وقد ارتفع صوتها:

- آني قحبة..انت اللي جبرتني غصبا عني بالقوة..ولازم تصلح غلطتك وتتزوجني.

ظهر الغضب عليه وصاح بها:

- وعندج لسان تطالبين بالزواج..كلبه بنت الكلب.. تتصورين واحد مثلي يتزوج وحدة مثلج.

ارتفع صوتها اكثر وهي تدفعه في صدره مرتجفه وقد اصطكت اسنانها:

- ابوس ايدك ابعد عني ..الله يخليك استر علي.

كان واقفا قربها ممسكا بذراعها وهو يجرها نحوه بعنفه المعتاد. لم يعر توسلها أي اهمية. بل كان ذلك يزيد من اشتهائه لها، وكلما قاومته اكثر كلما تهيج اكثر، انزل يده يتلمس ما بين ساقيها، فأبتعدت وهي تدافع عن نفسها:

- ترة راح اصرخ واقلب الدنيا عليك.

قبض بكفه على نهدها وانحنى بسرعة يعضها منه وهو يغمغم:

- لج تعالي ..قربي مني.

عضته في كتفه وهو يحتضن فخذيها بذراعيه ثم يحتك بها. تحمل الم عضتها وجرها الى السرير وهو ملتصق بها. كان وضعها غريبا وهي تحرك ساقيها لتبعده عنها. خافت ان تصرخ لئلا تسمعها ام صابر وتكشف ما يدور. تلوت تحته. غرزت اصابعها في وجنته وهي تولول. صوتها ونشيجها سرعا من ثورته الجنسية حين رفع ملابسها وهو يغرز رجولته فيها. سقط فوقها منهكا بعد ان انتهى. دفعته بكل مالديها من قوة وهي تصيح:

- لازم تتزوجني..لازم تتزوجني..وين اروح من الناس..راح يقتلوني لو عرفوا..استرني يرحم والديك..الله ما يقبلها تخليني بهل الحال.

فصفعها بكل ما لديه من قوة وهو يقول:
- قحبة..ولي من قدامي.
اسرعت الى باب الغرفة وهي تنتحب، ففوجأت بصابر واقفا خلف باب الغرفة وقد كتم انفاسه ووضع يده فوق عقاله، وما ان شاهدها حتى جرى مسرعا خارج الدار ونظرة احتقار واستهزاء واستخفاف رماها بها قبل ان يستدير مع استدارة السلم. اسرعت الى ام صابر وهي تبكي لعلها تجد فيها العون:
- ام صابر..ام صابر..هذا صارم اغتصبني.
ثم انفجرت في شهيق حاد. ان جهرها بالحقيقة معناه اختراق لحدود الاسرار، وهذا الطريق محفوف بالخطر، فسوف يدافع صارم عن نفسه ويلقي باللوم عليها. عرفت انها اخطأت بفضح سرها لأم صابر، التي ابتعدت عنها وكأن فيها جذام وصرخت بها:
- يمه هاي شنو هل الطلابه..لج كلبة ..يلة ولي من قدامي..ولي من هنا..بنت قذرة..قحبة..شلون يوم اسود هذا..البيت كله زبل وسيان..وهاي ما جابت النا غير المشاكل..هاي شلون شغلة انوب صارم اغتصبها..بنات ما يستحن وما يخافن من ربهن..بربوك..قوادة لاتراويني وجهج بعد اليوم.
فصاحت بها ملاذ:
- انت الكلبة..اكو حساب يوم القيامة، والانسان لازم يخاف من ربه..آني مو قذرة ولا قحبة ..آني انسانه..خافوا من ربكم.
اجهشت بالبكاء، ولفت نفسها بالعباءة واسرعت الى كوخ ابيها، تلاحقها شتائم اطلقتها ام صابر خلفها. الكلمات كالمطارق ضربتها ونكأت القيح الذي خزنته روحها منذ شهر. لاحقها جمع من الاطفال فزاد ذلك من بؤسها. رموها بالحجارة وهم يتضاحكون بعد ان سمعوا شتائم ام صابر:
- هي..هي قحبة..قحبة..شوفوا القحبة.
شاهدهم صابر وهو في طريقه الى قهوته فتعمق احتقاره للفتاة:
- هذا صارم نصه جوا القاع..منو جان يتصور عنده مثل هل الطلايب ويه النسوان..كل العالم جانوا يتصورونه مخنث..طلع طرقاعة..هاي اكيد جان مستقعدها لملاذ من زمان والناس ما تدري..منو جان يتصور ملاذ قحبة..والله اعلم شكثر تاخذ على هاذي الشغلة..واحنه نايمين ورجلينا بالشمس، بس صارم متونس ومبربع بالعسل.
في قهوته وجد مختار القرية وحسن الاعرج جالسين وهما يتحادثان بود..ولما وصل صاح به المختار:
- هاي وينك يمعود صار لنا ساعتين قاعدين وانت غايب وين جنت؟
رد عليه بخشونة والغيض طالع من عيونه:
- يعني وين جنت..وين..قابل شارد..جنت بلطام الوجه..لو شايفين اللي شفته آني.
- هاي شبيك؟
- مضيع دربي..ليش آني شايف وجه ربي من صارم وطلايبه.
فرد حسن الاعرج:
- شكو ..شصار..احنه هم قلنا لازم راح يم صارم..شنو الاخبار؟
- الاخبار كلها صخام الصخم وجهك..هاي ملاذ طلعت قحبة ..وتشتغل ويه الزلم.
قفز حسن الاعرج وهو يدور على رجله الخشبية:
- هاي محد سامعها..ملاذ مومس..منو قال لك؟
قاطعه المختار:
- لا ما معقول..حرامات شلون حلوة..من طاح حظها..الف واحد راد يتزوجها.
فرد صابر وقد زداد غيضه:
- شفتها بهاي عيني ويه صارم بالفراش..شفته وهو يفعلها ونايم فوقها..الزانية.
فرد المختار:

- اكيد شفتها بعينك..مو هذا يسمونه زنا..قابل تسويها بلاش..وهاي قضية مخالفة للقانون، ولازم الحكومة تحاسبها ..ممنوع الدعارة، والموت للعاهرات..واذا انت شاهد لازم تجي وياي لمركز الناحية، وتبلغ عنها، حتى يصدر امر القاء القبض عليها..احنه ناقصين، هنوب بربوك بنصنا..يعني انت اكيد شفتها ومستعد تحلف بالقرآن الكريم.

فصاح صابر بحنق:

- شنو اكيد ..اكيد بلي شفتها..والقرآن الكريم شفتها ..يعني لويش اكذب قابل عندي ثار وياها، لو متعارك ويه ابوها..الحجي صدق بصدق.

حل المختار حماره من المربط واردف صابر خلفه واسرع به الى مركز الناحية. بعد الظهر تراكض جميع اطفال القرية خلف سيارة الشرطة التي كانت تحمل المختار وصابر وامرأة بالاضافة الى المفوض وثلاثة من افراد الشرطة، احدهم كان يحمل سيفا ذا مقبض ملون طويل. توقفت السيارة امام كوخ تعبان. كانت ملاذ تجلس منهارة لوحدها وهي تنتحب حين دخلوا عليها. سألها المفوض عن اسمها. ثم اخرج ورقة كان يحملها وفيها اتهام صريح موجه اليها بممارسة الزنا وقرار بقطع رأسها .انشدهت..اخرسها الذهول، ولكنها حين رأت صابر معهم فهمت ما حدث..هو من شاهدها، وفضح ما شاهده على انه زنا ثم وشى بها الى الشرطة. ولكن الحقيقة غير ذلك..انها لم تمارس الزنا وانما تم اغتصابها رغم ارادتها..لقد قاومت وضربت صارم ولازال وجهه يحمل اثار اظافرها..ولكن لم يسمعها احد، ولم ينصتوا لها وهي تدافع عن نفسها وسط الهرج والصياح الذي تعالى من داخل الكوخ وخارجه. كانوا يمسكون بأبيها قرب الباب ولم يسمحوا له بالدخول. كان يلطم وجهه وقد انحل عقاله وسقط الى الارض فظهر شعره الاشيب حتى كتفه وقد تناثرت خصلات منه فوق عينيه. كالحيوان الجريح كان عويله. قاومتهم ملاذ وهي تبكي، وقد تحجرت عيناها:

- لا..لا..آني مظلومة..هو اعتدى علي..والله العظيم آني مظلومة.

تمزق ثوبها القديم عند كتفها..وانحل شعرها فغطى ظهرها. دفعتهم بيأس وهي تحاول فك قبضاتهم عنها. مما زاد من شراستهم في الامساك بها. وقعت نظراتها على رويد ورافد فأستنجدت بهم ولكنهم غضوا نظراتهم ببلاهه، وكأنهم لايفهمون ما تنطق به. التفتت الى ابيها وهي تصرخ:

- ابوي..بويه..تره آني مظلومة..صارم اغتصبني، بالقوة آخذني..آني مظلومة لاتخليهم يقتلوني.

اوثقها الشرطيان وجراها الى وسط القرية..صرخت بوحشية، صرخة ضيم، وانتفضت بألم من القسوة، والرعب يقطر من اعطافها. تصدعت صراخاتها على جدار الصمت المذبوح بالخوف والذعر والجموع تتبعهم. حين قرأوا عليها الحكم بالموت، احنوا جذعها واجبروها على الركوع على ركبتيها وهم يمسكون بها من خصرها. وضع احدهم يده فوق ظهرها واخذ يضغط عليه بكل قوته كي يشل حركتها. اما الآخر فقد امسك بيديها المربوطتين وهو يساعد صاحبه على اركاعها نحو الارض الطينية. حاولت ان تنظر بأتجاه والدها وكانت تسمعه وهو يصرخ بأسمها باللغة الكردية منتحبا:

- فيان..فيان سأثأر لك.. لن ادع المجرم يفلت من يدي..سأقتله ..المجرم..

لم تسمع جملته الآخيرة فقد هوت البلطة لتقطع رأسها عن بدنها. انهار ذلك الكيان الحي نازفا هول الالم. انهار جسدها، وظلت قصباتها غارقة في شهيق وشخب وزفير الحياة، والروح وهي تغادر البنيان الحي الذي تم وقف الحياة فيه، في رحيل قسري عن الدنيا. نهر الدم تدفق بنبضات من جذعها نحو الارض فأخرس الجميع. حدقوا نحوها بذهول وقد اصبحت شكلا غريبا لجسد دون رأس. والرأس تدحرج وهو مفتوح العينين والفم وقد تلطخ الشعر الطويل بالوحل ككرة مخيفة، مرعبة. ابتعد عنها المشاهدون والجزع يخض صدورهم. وامامهم تصدع شباب فتاة وتوارى يحفر القلوب، ويحصد صوت النشيج ويؤرق الصمت. حمل الشرطي ذلك الرأس وعلقه على باب كوخ تعبان.

تراكضت النسوة تحمل الاطفال بعيدا، ثم دخلن البيوت واوصدن الابواب خلفهن. انسل الرجال فرادى وجماعات، وقد انتهى كل شيء..انتهت حياة كائن حي. بعد ان اهدرت تلك الحياة. بقى الكهل وحده وبجانبه فرات يتابع السيارة وهي تختفي في دروب البساتين. برك الكهل على الارض امام جثة ابنته يتحسها بأصابعه.

وببطء ارتفع عويله وهو ينعي باللغة الكردية. حمل جسدها الى صدره وهو يتلمس ذراعيها، وصوته يرتفع حتى اصبح صراخا اطلقه فوق البيوت. وسمعه الجميع، وحملت ذلك العويل رياح الشمال فوق سعف النخيل نحو تلك الارض البعيدة فوق المياه. اقترب منه فرات وامسك بيده وجلس على الارض قربه ودموعه تسيل:
- لويش قتلوها؟ همس.
اسرع ابو كاصد الى الشيخ يحاول انهاضه من جلسته. حاولت بعض النساء المدثرات بالسواد جذب الجثة من يده، ولكنه دفع الجميع بقسوة وكراهية، وصرخ في وجوههم:
- ولوا من قدامي..الله يلعنكم كلكم.
وركع يحتضن جثة ابنته . انتحبت النسوة، واحتار الرجال ماذا يفعلون وهم يرونه يتمايل بجسد مقطوع الرأس يمينا وشمالا. جسد تدلت منه اليدان معلقتان بشكل غريب خلف الظهر. وساقان معوجتان تشابكتا وسط بركة من الدماء. وعنق تخثرت جراحه فراح يترجرج. دوى صوت الكهل مثل عواء الذئآب الجائعة. ثم اخذ يلطم رأسه بيده بكل ما يحمل من قوة، وكأنه يريد تحطيم نفسه. ولكل ضربة صخب مجنون. التصقت به العيون الشاردة من الواقفين حوله، والخزي يشل كل حركة لهم، حتى اختلطت الاشياء امامهم. تأوهاته جمدت ادميتهم. كالوجع حين يلوثه الطين فيمتد عبر المسافات البائسة لرائحة الموت يلسعهم عوائه، فيتراشقون النظرات يائسون من مساعدته. يتنفس رائحة دمها ويهزها محموما كي تعود. يكنس بيده عن جسدها الرمل العالق به، ثم يرتفع صوته صائحا كالحيوان. ينثر الشوك في صحراء ايامه لتزداد غربته عمقا. يغمر الدم والوحل وجهه ولحيته فيصبح كتمثال من صلصال ينبت فوقه شعر اشيب مطرز بالاندهاش وهومجهض العينين. يضع شفاهه فوق صدرها العاري وقد انشق الثوب المدمى وتهدل الى خصرها. جسدها مصلوب فوق صدره نحو اهداف غدت مجهولة لديه. تدفعه الريح الملهوفة فيهتز جذعه وهو يحاول التماسك فوق ركبتيه تشطره آلامه، ويشرذمه فراغ ما حوله من سواد.
جاء ساهر يركض حين علم بالخبر ومعه رند. كانوا بعيدين ولم يعلموا بالامر الا متأخرين وبعد فوات الاوان. امسك ساهر بالشيخ القابع فوق جثة ابنته وحاول انهاضه، ولكنه التصق بها وهو ينوح ويحوك من مكنوناته ووجعه الدفين اصواتا تندفع مهزوزة تبحث عن ملجأ لها بين قلوب الواقفين. كالصدى رجع صوته فوق البساتين. كان وجهه المكرمش بالقذارة واعوامه الستين مرصوصة تتسلل من احداقه كالخيوط القاسية المنكسرة داخل ثنايا روحه وهو يغيب عن كل ما حوله. تلوى وافلت من قبضة ساهر والتصق مع جثتها الى الارض. تصلبت اكتافها وتعثرت اقدامها بالحجارة والحصي. فعدل من وضعهما ومددهما وهو يمسد بأصابعه المرتعشة فوقهما. حركاته تحمل احساس الوحشة لفراق تلك الفتاة الفتية الحلوة الذاهبة ضحية. وكأنها مازالت طفلة يهدهدها للنوم وهو غارق يغوص اكثر في عتمة تنخر بؤسه، وكل ايام عمره كالسوسة راح يلوم نفسه:
- قلتلها لاتروحين ..حذرتها من صارم..جنت اعرف شيريد منها..منعتها وقلتلها ترة صارم شراني لاتروحين لبيته.
كسياط لسعته كلماته..وخز للمستحيل يمد الدمار والخراب درجة بعد اخرى فيتسلق اوجاعه. كموج هائج تلاطمت في مخيلته الاسئلة. كيف حدث ما حدث؟ يجب ان يعرف..لن يدع المجرم يفلت من يده. سينتقم لها. لقد اغتالوه يوم قتلوها. مات معها ابتلع دمها الذي لطخ شفتيه. وفاحت رائحته تحت انفه. دخلت روحه في غابات وعيه وانسلخت متمردة على واقعها المرير. ها هو يُهزم من جديد. موته الاول كان في حلبجة مات بعدها آلاف المرات. ولكن هذا الموت هو ابجديته الاخيرة. بقى وحيدا، وقد جاوز الستين. سنواته تمر كطحالب الصحراء حين تسقط في قاع ملتهب داخل المجهول. يدفع مرة اخرى يدا امتدت لأنهاضه. لايريد معونتهم، يكرههم هو. اتركوه داخل واقعه الاليم وهو يقصف زمنه، الراقد داخل الخوف والخنوع. كل هذا الالم ولم ينهض من فراغ روحه. كل هذا العذاب ولازالت نفسه لم تتصلب للقتال. هل هو مخبول؟ كيف بقى هنا كل هذي السنين؟ مُهجر غريب بعيدا عن وطنه تدوسه الاقدام وهو صامت. تدثره الازبال وهو قانع. متى ينهض للزمن العابث به، ويلم روحه العارية ويخرج من قوقعة الظلم ويقول للعالم انا هنا..انا موجود. ضرب رأسه وهدهد جثتها مع الريح الهابة. دفعهم عنه حين جربوا اخذها منه. تمسك بها بقوة. سأبحر معها دروب كردستان همس لنفسه. وارتفع

صوته يندب، فأمتد عاليا ورددت النخيل صدى ذاك الصراخ. جاء ابو ساهر ثم ابو رند ومعهم جمع من رجال القرية وبالقوة تمكنوا من فك ذراعيه وحملوا جثة الفتاة وادخلوها الى كوخه، ومددوها على طاولة خشبية ثم غسلوها وارجعوا الرأس الى مكانه. لفتها النسوة المتشحات بالسواد بكفن ابيض. وجاء الرجال الصامتون فوضعوها في صندوق خشبي وساروا بها الى المقبرة. وهناك واروها التراب، وقرأوا عليها سورا من القرآن الكريم ثم ختموها بالفاتحة وتفرقوا.
بقى الشيخ وحده في كوخه. غائبا عن الوعي. وفرات جالس الى جانبه. لم يتحرك احدا منهما، ولم يفه بحرف ساعات طويلة. حتى ان فرات في النهاية قام وغادره. كان جائعا. ذهب الى جدته فوجدها تبكي. اعطته بعض الطعام وامرته ان يذهب به الى الشيخ تعبان. حين رجع فرات بالطعام الى الشيخ لم يجد احدا في الكوخ. فتش عنه في كل مكان، ولكنه لم يجده. كان كل شيء في الكوخ كما هو ما عدا ملابس ملاذ التي اختفت بأختفاء ابيها. بحث الجميع عنه. نادت ام كاصد على ابو كاصد ثم على ساهر ورند وبعض الفلاحين حتى النساء توزعن في البساتين وعلى ضفاف النهر. مشوا اميالا عديدة. نظروا في كل الزوايا ولكنهم لم يجدوا الشيخ.
انتشرت اخبار ما حدث في طول القرية وعرضها، وتعدتها حتى وصلت الى مدينة البصرة. وكانت سالفتها تقص في البيوت والشوارع وفي اروقة المديريات وفي المقاهي.
حين جلس صابر مع حسن الاعرج بعد ايام بكى صابر ندما على ما فعله. واخبر صاحبه بأنه لم يكن يعلم انهم سوف يقتلونها بل كان يعتقد انهم سوف يسجنونها فقط، وان اللوم كله يقع على المختار الذي جره جرا الى مديرية مكافحة الاجرام في مدينة البصرة.. ثم حصل ما حصل لأنهم اعتبروه شاهدا على ممارستها للزنا وبذلك ثبتت عليها التهمة. ولكن اين ذهب ابوها؟ تحدث صابر عن اختفاء تعبان العجيب. وخمن انه حتما رجع الى كردستان. وحلف بعض الفلاحين انهم شاهدوه وهو يركب الباص الذاهب الى بغداد، ومن هناك حتما عاد الى وطنه، الى قريته في كردستان. اما البعض الآخر من الفلاحين فقد قالوا انه مايزال في مدينة البصرة وقد شاهدوه وهو يعمل في معمل السجائر مع العمال. اما النسوة فكن متأكدات انه سوف ينتقم من صارم، بعد ان توضح من ام صابر ان صارم كان قد اعتصبها فعلا، وانها لم تكن راضية. فقد شاهدت ام صابر اثار خربشة اظافر على وجه صارم في نفس اليوم قبل سفره الى البصرة. وحلفت ام صابر ان ملاذ لم تكن زانية بل كانت ضحية. وحين جاءت جمع من النساء لزيارتها بعد ايام والاستفهام منها، قلن وهن يقزقزن حب الرقي الذي كن قد جمعنه من محصول السنة الماضية، ثم فرشنه فوق السطوح وحمصنه بالمقلاة ليصبح تسليتهن في ايام الشتاء الطويلة الماطرة..قلن ان اباها لن يترك صارم دون عقاب على فعلته. ولكن الرجال هزوا رؤوسهم رافضين تلك الفكرة..فمن اين تأتي الشجاعة الى تعبان كي يفعل مثل هذا؟ ومن اين يأتي بالنقود لشراء بندقية او سلاح لقتل صارم؟ كما انه لن يحاول الرجوع الى القرية ليقوم بهذا العمل..كلا انه لن يستطيع قتل صارم ..الاحتمال المرجح هو سفره الى كردستان. عاد الى موطنه حيث ولد. وقد قال بعضهم انه كثير ما كان يحلم بالجبال ويسولف لهم عنها وعن البيشمركة. بل انه كان واحدا من الانصار هناك، وانه حارب كثيرا ولذلك قامت الحكومة بتهجيره من موطنه وجاءوا به الى البصرة، للتخلص من شره هذا ما اكده بعض الفلاحين من معارفه..قالوا الدنيا ياماكل يامأكول.. واذا الواحد ما يدافع عن حقه يأكله الآخرون..وان تعبان عندما كان شابا وقبل وصوله الى القرية كان دليلا لفرقة من البيشمركة في تلك الدروب الملتوية الهابطة من قمم الجبال. الا ان بعضهم اصر على انه التحق بالمتمردين في الاهوار. فمن هناك يستطيع السفر الى كردستان سيساعده على ذلك المهربون الايرانيون المختبؤن مع العصاة بين قصب البردي فهم قادرون على كل شيء، وكثيرما انتصروا حتى على الشرطة التي تقصفهم بين يوم وآخر. وقد هرب الساكنون في تلك المناطق للايصابوا بالأذى. والناس تفر من الاهوار وتطلب حماية عشائر المنتفك قرب سوق الشيوخ في الناصرية، ورؤساء العشائر في حيرة من امرهم حول تسليم تلك العوائل للحكومة ام حمايتها، خصوصا وهم لايريدون سفك الدماء بالقتل والمقتول من اجل بعض العوائل الفارة من الاهوار. فسيزداد حينها عدد الاموات الذين لايوجد من يثأر لهم، ويكثر عدد الاحياء المنسيون في القرى المهجورة التي نساها حتى الله.بالاضافة الى ان القضايا اصبحت فوضى، فالناس لاتعرف من هو ضد من ؟ ولماذا؟ فالناس لادخل لها في كل ما يحدث من اضطراب، بل الذنب هو ذنب الاجانب

الذين يتدخلون في شؤون العراق. وحتى ردم الاهوار ما هو الانتيجة لما يحدث من اضطرابات قطعت رزق الناس فهم لايستطيعون اعالة اولادهم ونساءهم. وكثر الكلام في طول القرية وعرضها. كان كله همسا طبعا. ولكنه كان يصل من واحد الى آخر حتى وصل الى مدينة البصرة ثم الى بغداد.
كانت الهمسات تعلو وصارم في البصرة، لاعلم له بكل ما يحدث، حتى ان صاحبه فارس ثار ضده واتهمه بالاهمال. فالدنيا مقلوبة وهو لايدري. والفرقة التي كونها لضبط القرية هي فرقة فاشلة لا ضبط فيها ولا نظام. وافرادها اصبحوا يعملون لحسابهم الخاص. خصوصا بعد انتشار الكلاب السائبة وحاجة البلدية الماسة للتخلص منها. فقد وزعوا بيانا علىالفلاحين يعدونهم بالف دينار يدفع لكل من يقتل كلبا سائبا ويأتي بجثته. ليلتها كثرت الطلقات واستمرت في الايام التي بعدها خصوصا حين تكون الليالي مقمرة. حتى ان صابر وجماعته قتلوا ايضا احد الذئآب وجاءوا به الى البلدية لقبض النقود، ولكن البلدية رفضت الدفع، فالقرار كان واضحا وصريحا ويخص الكلاب فقط، ولم يذكر فيه قتل الذئآب. حاول صابر وحسن الاعرج اقناع المسؤول بأن الجثة هي لكلب وليس لذئب، وان مايراه هو مجرد تخيل فبعض الكلاب تشبه الذئآب تماما، وان هذا هو كلب ضخم من الفصيلة الذئبية. ولكن المسؤول لم يقتنع بذلك. فعاد صابر وحسن الاعرج بجثة الذئب ودفنوها في القرية كي لاتتفسخ وتصبح نتانة تنشر الروائح الكريهه. واقسموا منذ ذلك اليوم انهم لن يقتلوا الذئآب بعد الآن وسوف يقتصرون على قتل الكلاب.
كان حسن لايزال يلوم صاحبه على تسرعه بالابلاغ عن ملاذ. الم يكن من الافضل ان يتزوجها واحد منهما، خصوصا وهي بذلك الجمال، وهما بحاجة الى بنت تساعدهم وملاذ كانت نشطة وشغولة. ولكن سبق السيف العذل. والله يلعن الشيطان الذي جعل الانسان عجولا.
اما صارم فكان فشله في تكوين الفرقة، وضياع الارض التي فاز بهاواشتراها ابو ساهر، والاخبار التي تؤكد مواصلة ساهر في زراعتها بمختلف الاعناب والتي ينوي فيها تشييد معمل لتجفيف التمور والاعناب، ثم وصول انباء مقتل ملاذ عكرا عليه مزاجه جدا. هذه القضايا واكثر وصلت الى سمع صديقه فارس الذي هدده بالعواقب الوخيمة اذا لم ينجح في تحسين هذه الاوضاع كلها واهمها الحصول على الارض بأي ثمن كان. وهكذا بعد ايام انتشرت اشاعة لا احد يعرف مصدرها وكيف انطلقت،ومن نشرها، تقول بأن وزارة الزراعة سوف تقوم بأستملاك هذا البستان وما حوله من اراضي لتحويله الى منتزه للسفرات المدرسية القادمة من مدارس مدينة البصرة. وان وزارة الزراعة سوف تدفع تعويض للملاكين بمبالغ تقدرها هي وستكون قليلة على اكثر تقدير. هذه الاشاعة سرت كالنار في الهشيم بين المزارعين وعم الفزع، وبدأوا يحسبونها ويفضلون بيع اراضيهم بأسرع وقت لتلافي الخسارة قبل ان تقدم الوزارة على اقرار مشروعها. ولكن هذه الحيلة لم تنطلي على ابو ساهر فقد فهم ان هناك لعبة في الموضوع ولم يتسرع، وانما سافر الى بغداد ومن مصدر موثوق اكدوا له ان الموضوع كذبة كبيرة، وهكذا انكشفت المكيدة. زاد ذلك من ثورة صاحب صارم حتى اصبح لايطاق. وغدا صارم يتلافى اللقاء به. ولم تكن امور صارم مع وزارة الري احسن. فهو يدفع الرشوة اثر الاخرى للمهندس لتغيير المبزل الذي صمم على اراضي ابيه. ولكن المهندس لم يوافق على تبديل هذا المبزل وابعاده عن موقعه الى موقع بستان ابو رند وقطعة صابر المجاورة لها. فكل محاولاته فشلت بفضل حذاقة ابو ساهر واسراعه الدائم لتلافي خطط صارم، كان يقف له دائما بالمرصاد، فلديه اصدقائه الذين يوصلون له الاخبار اول بأول من وزارة الري ومن الفلاحين الحاقدين على صارم خصوصا بعد مقتل ملاذ.
اوضاعه في البصرة اخذت بالتدهور كذلك. غابت الفتاة نجوى ولم تعد تأتي للعناية به وطبخ طعامه وامتاعه. وحين اتصل بليان ليعرف السبب. اخبرته ان الحملة الحكومية تحت شعار الموت للعاهرات، بدأت تؤثر كثيرا على اعمالهن الحرة. وانهن بتن يحسبن حسابا لكل زبون خوفا من ان يكون مدسوسا عليهن من الحكومة لكشفهن. وهكذا قل العمل والزبائن. الا ان قصة نجوى كانت مختلفة تماما..رفضت ليان البوح بها، فقد كانت حذرة جدا من مواصلة الحديث. بل انها قطعت المكالمة بحجة ان هناك من يتسمع على التلفون.
قرر صارم زيارة ليان في بيتها لمعرفة الحقيقة. مشاكله زادت من احساسه بالكآبة ومن انه على حافة الانحدار.زال تماسكه وثقته بأنه كان ممسكا بكل الخيوط في يده. يبدو الآن بأن سيطرته على الاحداث قد بدأت

تتفكك واوصلته الى الشعور بالتيهان الذاتي لأفكاره ولكل ما يرسمه من خطط للمستقبل بشكل خاص. عنف نفسه على لحظات ضعفها. يجب عليه التماسك خصوصا الآن. فهو بحاجة الى كل تركيزه وقوته لعبور الخطوط الاخيرة نحو التحكم بما حوله. ان تحايله المستمر على الظروف ولعبه على الجدران جعلته يطفو فوق جميع التيارات ويعبر بهدوء وبدون صعوبات فوق السدود. وفي الوقت الحالي عليه الاعتماد على هذه الصفات المرنة من الهدوء للاستمرار والبقاء في هذا الوقت العصيب، والا سوف ينحدر مع الساقطين تحت اقدام الاقوياء. ارعبته فكرة ان يقع فيدوسه الاعلى منه. فهو يعلم انه حين يغرق سيغرق لوحده، ولن يمد احدا يده لمساعدته. سيتخلى الجميع عنه ، وينفض كل معارفه من حوله. وسيديرون وجوههم وكأنهم لم يعرفوه في يوم من الايام. واكبر مثال على ذلك ما حدث لصديقهم كريم حمادي. لقد خرب بيته في يوم واحد بعد ان باع كل شيء ليسدد الرشوة التي طلبوها. شعر بالضيق، فهو منذ عدة اسابيع لم يبع من المواد المكدسة لديه سوى القليل فزعا من انكشاف امره. الخوف الذي اصبح يشله. في المساء وحسب عادته وعلى الرغم من انعدام الرغبة لديه في لعب القمار ذهب للقاء شلته المعهودة اولا قبل الزيارة التي قررها لليان. كان هناك محمد وعليم وعلي. الذي اظهر انشراحه لمجيء صارم. واستطرد في حديثه موضحا سبب فرحه:

- واخيرا وجدتها.. الفتاة المناسبة لي.. وقعت بغرامها رأسا اول ما شفتها..هي من عائلة فقيرة، مات ابوها اثناء الحرب العراقية الايرانية..يقولون لقوا دبابته خالية ماكو احد بيها..ياما هربوا منها لو تم اسرهم..فتشوا عليهم لكن ما عثروا على احد ولا حتى على أي جثث..وحسب الاشاعات يمكن المجموعة بكاملها فرت الى ايران..يعني محد يعلم شصار بيهم..البنية عمرها صغير حوالي سبعطش سنة بس..وتشتغل كاتبة على الالة الطابعة. وتريد تكمل الجامعة وتصير مهندسة كومبيوتر..بس شلون حلوة وانيقة..تقول هي تشتري الملابس المستعملة بس تختار اجمل الاشياء..اختها مريضة..يقولون يمكن سرطان..خصم الكلام آني بس شفتها ابيت عمها وبس وقعت عيوني عليها ماقدرت اتحرك ولا ابعد نفسي عنها. وقضيت الليل كله افكر بيها..ناعمة وصغيرة بس متروسة اغراء واثارة..يعني من النوع اللي تعرف شلون تخلي الرجال يفقد صوابه.

انتفض صارم كأن حية لدغته. فكل ما قاله علي ينطبق على نجوى ولكنه قاوم نفسه وسيطر على انفعالاته بجهد وسأل بصوت طبيعي:

- شنو اسمها؟

فرد علي متفاخرا:

- اسمها هدى..اعتقد انت تعرف عمها ..تدري منو؟..عمها يصير العقيد ابو سراب..هذا اللي جنت بفرقته من جنت بقاطع البصرة. مرة حجيت النا شلون جنت تساعد العائلة وتزودهم بكل ما يحتاجونه من الخضروات والفواكه.

قال ذلك وهو يطلق ضحكة رنانة ساخرة تدل على الازدراء من وضاعة منبت صارم الفلاحي. تمالك صارم نفسه بجهد فاق ارادته. فقد كانت المفاجأة عليه من الشدة بحيث اخرسته..صعقته حقيقة نجوى..حتما هي نجوى..هدى هي نجوى الفتاة التي تخدمه والتي ظهر انها واحدة من هذه العائلة..واسمها الحقيقي هو هدى. حاول ان يرد تهكم صاحبه بمثله. ولكنه تمادى في وقاره وتبسم فقط بسمة ذات معنى اقلقت علي. فهو لن يخلق عدوا في الوقت الراهن والذي يحتاج فيه الى الاصدقاء، لذلك سيترك صديقه لاوهامه. اما الحقيقة فتبقى ورقة رابحة في يده سيستغلها في الوقت المناسب. اما علي فقد غاضت ملامحه حين شاهد تبسم صارم..فهذا الشيطان اكثر كيدا من جميع من عرفهم. ويجب ان يحسب حساب ابتسامته تلك والتي تعني انه يعرف شيئا ويبطنه. تردد قبل ان يسأله:

- انت تكتم فرد شيء؟

ولكن صارم لم يجبه. صمته كان اكثر من جواب. فلديه ورقة رابحة هي هدى او نجوى لن يضيعها. سرى السكوت بينهم جميعا، حتى قست الدقائق فوق رؤوسهم. وحين امسى الكلام ضرورة لابد منها فقد شاهد اللالحاح في عيونهم لم يقل سوى:

- ياجماعة..ماكو شيء اخفيه..ماعندي آني أي سر انتوا ما تعرفونه..كل ما هناك ابتسمت فرد ابتسامة مو اكثر..

ولكن غيض تفاقم ببطء داخل نفسه. كان في البداية حسدا وحسا بالفقدان. فقد كانت نجوى ملكه، وهي الآن تحاول الافلات من قبضته. اذا لم تكن قد افلتت فعلا. هذه المشاعر نغصت عليه سهرته، فتحولت الى امتعاض من معارفه وطريقة لعبهم، وعلى الخصوص الضجر من علي. فهو لم يترك فيه شيئا الا وانتقده بلهجة الضحك والمرح والتي تقترب من الاستهزاء. ثم بعد ذلك شن حملة قوية على النساء والزواج:
- يمعود فك ياخة من طيحان الحظ هذي. المرة ما تعول تلزم الرجال حتى تبدي بالنكد..لويش تأخرت؟ مع منو جنت؟ ما اريدك تصادق فلان ولا تمشي ويه علان.. اريدك ترجع من وقت..ولهل السبب الاحسن للواحد يترك الموضوع ويعيش حياته حرا كريما..يروح ويرجع مثل ما يريد..ويبقى ساهر الى غبشة الفجر..انسان حر احسن من وجع الدماغ..النسوان كيدهن عظيم..وما تمر فترة على الزواج حتى تلقي نفسك بلا اهل ولا اصحاب ولا فلوس.
فضج الحاضرون بالضحك، وتلقفوا النكات حول النساء وما اخسأهن وانذلهن، فهن عربيدات وشياطانات في فجورهن وفسقهن. فقال محمد:
- ياجماعة اسألوا مجرب ولا تسألون حكيم ..يمعودين شوفوني شلون متلوع ومتندم..ساعة السودة يوم اتزوجت..يا اخي كل يوم والثاني عركة، واذا ما لقت احد تتعارك وياه تتعارك ويه روحها..بعد الزواج الدنيا صارت ما تسوى شيء.
فرد عليه علي:
- يمعودين لاتطوخوها..صحيح النسوان مشاكلهن هوايه بس الواحد ما يقدر يستغني عنهن..وبعدين الماتمشي زين الها دوا..كافي صفعتين وكفخة الى الراس وكل شي يرجع لمكانه..فلا تدوخون روحكم بهذي المسائل.
فرد صارم:
- انت واحد بطران وساذج، ابسط وحدة تقدر تلعب عليك وتقشمرك..آني متأكد ورا هذي البنت الف سالفة وسالفة. واتراهن وياك بالاخير راح تندم ويطير ويتبخر الحب من دماغك.
كان يريد من علي ان يتخلى عن مشروع زواجه. فهذه الفتاة نجوى يظهر مثل الحية، تعرف كيف تصل الى اهدافها بدون خوف..ولكنه لن يدعها بسلام حتى يحصل على بعض الفوائد والمنافع من هذه العملية. زاد امتعاضه. كيف استطاعت فتاة صغيرة مثلها اخفاء شخصيتها كل هذا الوقت. كان يتصورها انسانة فقيرة محتاجة لامعيل لها، فظهر انها واحدة من افراد عائلة العقيد. وابنة عم سراب الفتاة التي توله بها بداية الحرب مع ايران واثناء خدمته في قاطع البصرة. لام نفسه لعدم تحريه عنها قبل الارتباط بها. وعنف روحه ايضا على ثقته بليان. فقد كانت تخدعه بأخفاء حقيقة نجوى عنه. كان من واجبها اخباره عن عائلة الفتاة. وطن نفسه على الذهاب اليها صباح اليوم التالي لجمع المعلومات ومعرفة حقيقة ما يجري. راودته الافكار حتى خنقت فيه تركيزه وظلت تروح وتجيء، حتى خسر معظم نقوده على طاولة القمار. فسخر منه علي قائلا:
- حظك نحس اليوم.
ولكنه لم يهتم. ظنونه زادت من شعوره بأن هناك من احتال عليه..والمحتال هو مجرد فتاة صغيرة عاهرة، استطاعت ان تستغله. كان يعتقد انه هو السيد وهي الضحية. فظهر العكسس انه كان طول الوقت مثل البومة مغفل ونايم. توقف عن شرب البيرة. رمى الاوراق وقذف نفسه داخل سيارته بغضب وهو يصفق بابها بقوة. استقبل نسمات الفجر واخذ نفسا عميقا لطف من هياجه، ثم جز على اسنانه واتجه نحو شقته.
لم ينم. مرت الليالي التي قضاها مع نجوى كالفلم امام عينيه. جسدها رائحتها تغنجها وكيف كانت تلهب مشاعره الى درجة العنف معها كيف ستصبح لأحد غيره؟ ظل يتقلب على سريره حتى الصباح الباكر حيث اخذ حمامه واتجه الى بيت ليان. كان الهدوء يعم ارجاء الشقة. شرارة حذر اكلت من حنقه. فتحت ليان الباب وعلى قسماتها ومض ارتياح حين شاهدته..رحبت به بحرارة. تجاوزها الى غرفة الضيوف، وجلس على احدى الأرائك. لاحظ ان الغبار يعلوها، وكأن الغرفة لم يتم تنظيفها منذ مدة. جاءته بقدح من الشاي والاستغراب واضح عليها:
- صار مدة ما شفناك..خير انشالله.
كان صوته اولا غريبا ولكنه احتدم بعد ذلك:

- اجيت اسأل عن نجوى؟ شنو اخبارها؟ صار مدة ما زارتني واريد اعرف الاسباب؟
تلاوين من الاحمرار علت وجهها، وقالت:
- اعتقد هي مشغولة..لأن اهلها كاعدين يراقبونها وين تروح ووين تجي الى درجة صارت تخاف من الفضيحة..اصبر شوية.
- وعدتيني بمعلومات تفصيلية عنها وعن عائلتها..شصار من الموضوع؟ الى هسه ما سمعت شي.
قالت وكأنها تحاول اخفاء ومدارات بعض الامور. انها لاتريد التورط ولا البوح بشيء تندم عليه:
- الاحوال شوية متعقدة..اكيد سمعت بالحملة اللي تقوم بيها الحكومة ضدنا..اتصور اضطريت استنجد ببعض الناس حتى يتوسطون لي. ولوما الواسطات من كم واحد من المعارف جان لزمونا ودخلونا السجن..بس اولاد الحلال تستروا علينا بعد ما دفعت لهم رشوة..ورغم كل هذا احنه بعدنا خايفات..لأن اذا سكتوا علينا اليوم يمكن مايسكتون باجر. وآني غرقانة الى أذاني بهل المشاكل ..وانت تعرف هاذي مسألة حياة لو موت..بحيث قبل كم اسبوع سديت البيت وما قبلت استقبل زبائن ولحد هسه احنه مرعوبات وما ندري شوكت الشرطة تدق الباب علينا. واذا استمر الحال على هذا المنوال راح يخرب بيتي وينقطع رزقنا..على كل حال ما صار عندي وقت اجمع معلومات عن نجوى.
كلماتها تقطر كذبا كعادتها..كيف يمكن ان يصدق مثل هذا التظاهر؟..انها تعرف الكثير ولكنها لاتبوح بما تعرف.
زاد حنقه وصاح بها:
- كذابة..آني ادري انت تعرفين كل شيء.
شعرت بالفزع ولكنها تمالكت نفسها:
- شنو قصدك ما افتهمت؟
قال وقد بانت حدة طباعه واضحة على قسمات وجهه:
- معلوماتي تقول ان نجوى من عائلة معروفة ..واكثر من هذا..هي راح تنخطب عن قريب.
ظهر الارتباك على وجه ليان. ورغم ذلك حاولت التخفيف من حدته قائلة:
- شلون عرفت .. منو وصلك هذي الاخبار؟
تجاهل سؤالها وصاح بها:
- انت يعني تتصورين هي راح تفلت من ايدي بهل السهولة..خل يكون بعلمج نجوى صاحبتي آني وبس..عشيقتي..واي تصرف دون موافقتي راح يخليني اطربق الدنيا فوق راسها.
ارتعبت ليان ولكنها سيطرت على نفسها بسرعة وقالت:
- ارجوك صارم لا تغضب.. لاتصير عصبي عيوني..ترة احنه نخدمك بعيونا..وما عندنا بركة غيرك..ارجوك اتعوذ من الشيطان..لأن حسب علمي هي الى هسه بعدها ما وافقت على الخطبة..منو قال هي راح تنخطب؟ والله هي اعقل من ان توقع روحها بفضيحة.. واكيد راح تسمع كلامك وتكون تحت امرك وكل ما تطلبه منها يصير..اذا انت ما موافق على زواجها ..صدقني ماراح تتزوج..انت بس تؤمر.
هدأ ولكنه استمر بنفس اسلوب السيطرة والانفعال:
- اريدها تجي لشقتي باجر حتى اتفاهم وياها.. بالمناسبة هي شنو اسمها الحقيقي..نجوى لو هدى؟
وحين سكتت ولم تجبه صرخ بها:
- لويش ساكته..آني اسأل شنو اسمها؟ الظاهر انت ليهسه ما تعرفين الورطة اللي انت واقعة بيها..ما تدرين انت وهي وبرسالة صغيرة مني للامن ..اوديكم بداهية وتصير فضيحتكم بكل مكان..وتعرفين شنو النتيجة.
فقاطعته وهي ترتجف:
- الله يخليك ياصارم يهون عليك العيش والملح ويه بعضنا.. يعني هي مو جريمة لو الواحد غير اسمه، هي بس جانت ما تريد اهلها يعرفون لأن جان قتلوها..هي صحيح اسمها الحقيقي هدى وكل ما قلته عن عائلتها هم صحيح..بس ارجوك ياسيد صارم ان تهدأ..آني ما اريدك ترتكب حماقة تندم عليها بعدين..لأن عائلتها محد يقدر يستهين بيها ولو يصير على بنتهم شي ويسمعون ان لك علاقة بالموضوع ما راح يسكتون..وانت تعرف محد

يقدر يوقف قدامهم..فبعضهم بالحرس الجمهوري وقسم منهم بالامن..وحسب علمي عمها عقيد بالجيش..يعني يقدرون ينتقمون منك ومن كل واحد يأذيهم..فلا تورط نفسك.
خزرها بشدة وهو يقول:
- ولنفس هذي الاسباب لازم تحذرين انت وهي..فعائلة مثل هاذي ما تقبل بالفضيحة..واذا ما نفذت طلباتي ما راح احد يقدر يوقفني وبطرقي الخاصة من ايصال كل ما اعرفه الى الجهات المختصة..لذلك عليجن ان تنفذن ما اريده لأن قسما بالله اخليجن تتندمن ..والثمن حياتج وحياتها.
ارتعبت ليان اكثر ..واقتربت منه وجلست الى جانبه وصمتت لفترة في محاولة لأمتصاص حقده وغله عليها وعلى نجوى ثم قالت:
- انت ابن حلال..وما يرضيك ان تدوس علينا..ولخاطر الله لاتستعجل بهل الامور لأن العجلة من الشيطان..وآني وهيه يمكن ننفعك بهواي قضايا..وماكو داعي للعصبية..فصدقني ما يصير غير خاطرك الطيب.
نهض وقد اطمئن انه سيطر على الوضع، وانهن لن يخاطرن بأتخاذ أي قرار دون موافقته..وانه سوف يحصل على كل ما يريده، وقد فهمن الدرس الذي لقنه. فليان حتما ستبلغ نجوى بكل ما قاله وبذلك ستعلم انها ليست حرة في القيام بما ترغب به..وان عليها ان تحسب حسابه اولا..فهي عشيقته ولن تفلت منه بسهولة. وما ان خرج حتى اسرعت ليان الى التلفون تطلب نجوى وتأمرها ان تأتي اليها فورا.
حين وصلت نجوى الى بيت ليان كان وجهها مصفرا. وبعد ان استقرتا في غرفة الضيوف، قصت ليان عليها كل ما حدث وبتفاصيل التهديدات التي وجهها صارم. زفرت نجوى بحرقة واجهشت بالبكاء. تركتها ليان تنفس عن العذاب والخوف الذي تشعر به وقالت لها:
- نجوى بدل هذا البجي تعالي اول نفكر شنسوي..وما هو الحل حتى نخلص من هاي المصيبة اللي احنه بيها؟ صارم يريدج تروحين للشقة باجر حتى يتفاهم وياج ..شتقولين؟
قفزت نجوى كالملدوغة وهي تصيح:
- لا ..ما اريد اشوفه ولا الاقيه..ولا حتى اشوف وجهه..اول وتالي هيه موته..واذا مقدر علي القتل فخلص خل المقسوم يصير.
فأسرعت ليان تهدئها قائلة:
- نجوى صيري عاقلة..المشاكل ماتنحل بهل الطريقة..تنحل بس بالهدوء والحكمة..واحسن طريقة هيه مسايرته حسب هواه حتى نكسب وقت ونلاقي طريقه نخلص بيها من شره..العصبية يجوز تخليه ينفذ تهديده ويبلغ الامن بأمرنا ونروح بالرجلين.
زاد نواح نجوى وهي تقول:
- يعني وصلت الى آخر الطريق وضاعت حياتي..لأن صارم راح يصر على ان ارفض طلب علي بالزواج..انت تدرين منو علي هذا؟..علي ابن عائلة من اغنى العوائل..يعني مليونير..ابن واحد من العوائل المتنفذة بالعراق..عنده قصور ما تنعد وسيارات بكل لون..تريديني ارفض مثل هذا الشخص وابقى عشيقة لصارم؟..يعني اعيش حياتي كلها بالخوف والذل تحت رحمته وهو ماسك رقبتي. امشي وآني خايفة من خيالي، واطيع كل كلمة يقولها..والكراهية والاشمئزاز من كل لمسة يمسني بيها. واحيا حياة بدون احلام ولا مستقبل بيت وزواج واولاد. هاذا هو دربي وطريقي..لا..والف لا..لازم تلاقيلي حل ثاني..لابد اكو طريقة اخلص بيها من صارم.
انتفضت ليان. ولكنها تمالكت نفسها وبعد قليل من التفكير اوقفت نجوى عن البكاء وهي تقول:
- هدى يعني انت مستعدة لكل شي حتى تخلصين منه..الموت مثلا؟
وبنزق توقفت نجوى عن نشيجها وهي تؤكد بأصرار:
- آني مستعدة اسوي أي شي يخلصني منه..بدون ان اورط نفسي..اقصد اخلص منه بطريقه آمنه.
قالت ليان وقد بدأت الافكار تومض في مخيلتها..ان نجوى قد تصبح كنزا في المستقبل اذا تزوجت من علي..فبواسطتها ستتمتع هي ايضا بالعز والجاه، وتعتزل هذه المهنة التي تكرهها..اليست هي من يعرف ماضي

نجوى؟..اليست هي من سوف يخلصها من صارم؟ وهذا المعروف سترده نجوى لها في يوم من الايام، ولن تبخل عليها بالمال بعد زواجها.كل ما عليها هو ان تضع شروطها بشكل واضح وتجعلها ترتبط بها بحيث تنفذ لها مطاليبها المستقبلية. وقد تنجح في توسيع اعمالها الآخرى وتمولها لها. قالت ببطء:

- انت مستعدة حتى للقتل؟

ارتعبت نجوى ونظرت بأستغراب الى ليان..ثم قالت:

- القتل شنو قصدج وضحي؟

- نعم القتل ..ماكو هناك طريقة ثانية تخلصنا من صارم غير قتله، وبموته تنحل المشكلة وما يبقى احد يعرف او يهددج بماضيج. علينا ان نختار بين حياته هو لو حياتنا احنه.لأن صارم ماراح يسكت اذا بقى حي..وراح يظل يستغلنا ويهددنا حتى لو تخليتي عن الزواج من علي..آني اتوقع راح يطالبنا بمطاليب جديدة..حتى كدنا وتعبنا مو بعيد يستولي عليه..تصوري بعد ان يضيع المستقبل راح نصير عبيد عنده. ونشتغل بمذلة بنفس هذي الشغلة ونبقى نخاطر بحياتنا ويجي هو على الحاضر يستلم ما نحصل عليه..وما يبقالنا شي ويجوز ما نسلم من الضرب والأهانه اذا عارضناه..آني اعرف صارم شلون قاسي وماعنده ضمير..وواثقة هذا هو ما يخططله..وهاي هي حياتنا بالمستقبل..ولهل السبب علينا الاختيار بين حياته هو وحياتنا. وما عندنا طريق نسكته بيها للابد غير قتله.

تلبد وجه نجوى وتعكر وقالت وهي ترتجف:

- زين شلون؟ وشنو هي الطريقة بحيث مانخلي احد يحس بينا..اقصد الشرطة والامن؟

قالت ليان وهي تنهض عن كرسيها وتتمشى على طول الغرفة رواحا ومجيئا:

- هذا الموضوع آني ادبره..خلي يمي..انت معليج بس دبري الفلوس اللي راح اطلبها. عندي خطة. راح اتصل بأحد الاشخاص واتفق وياه شلون نقدر نغتاله، بحيث يظهر الحادث وكأنه موت طبيعي. وبعدين ندفع له ما يطلبه من فلوس.

ارتاحت نجوى. وكأن هناك هم انزاح عن كاهلها، ونهضت تقبل ليان وهي تقول بفرح:

- هذا خوش حجي..واتصور هذا هو الحل.

- كل اللي اطلبه هو ان تروحين باجر الى شقته حسب طلبه حتى ما يشك بينا..ولازم نخليه يطمأن بأننا راح ننفذ له كل مطاليبه. وبعدين نبدأ بالمراوغة والتحايل الى ان نوقعه.. ها انت موافقة؟

ارتعشت نجوى. وسكتت ولكن بعد فترة تفكير وجدت ان لاخيار امامها سوى القبول بما خططت له ليان فقالت:

- زين ..اروح باجر..بس يكون بعلمج هاذي آخر مرة اروح بيها ..توعديني؟

قالت ليان وقد انبسطت اساريرها رغم الجد الذي بان في عينيها :

- لا تخافين ..لأن آني وانتي ماشيات بنفس الدرب..واذا انكشف امرج راح ينكشف امري هم..فماكو قدامنا غير مساعدة بعضنا الى ان نخلص من هذي الورطة.

صباح اليوم التالي طرقت نجوى باب شقة صارم حسب عادتها. كان لايزال في فراشه بعد سهرة له في لعب القمار استمرت حتى الفجر. تمايل وهو يتجه نحو باب الشقة. وحين فتحها فاجأه وجودها. ولكنه استبشر بذلك وسحبها بقوة الى صدره حال دخولها. ولم يدع لها مجال حتى ان تقول أي شيء. حاولت ان تدفعه وهي تشهق كي تأخذ نفسها ولكن قبضته كانت حديدية وهو ينزعها ملابسها بشراسة حتى انه مزق ملابسها الداخلية وتركها عارية، ثم طرحها على ارض الممر، وعلى السجادة الصغيرة المفروشة قرب الباب رفع ساقيها حول خصره واندس بين فخذيها وبعنف راح يمارس عملية الجنس معها.

حين انتهى نهض عنها وتركها وهي مسجاة ترتعش. وكالمرات السابقات تملكها شعور ان مايقوم به هو في الحقيقة عملية اغتصاب وليست ممارسسة للجنس. استردت انفاسها بعد وهلة ولملمت ملابسها ثم اخذت ترتديها وهي ترتجف. سمعته يدندن بأغنية وهو يأخذ حمامه. بدأت بتنظيف الشقة. في الصالة رأت ان المكتبة مائلة قليلا وواقفة بشكل معوج. وقفت الى جانبها وحاولت زحزحتها لتصليح منظرها، حين لاحظت الباب خلفها. استغربت، وشعرت بدقات قلبها وهي تسرع..ماذا يخفي صارم وراء هذي الباب؟ تسمعت الى صوت الدوش

فعرفت ان صارم لايزال في الحمام. وبسرعة دفعت المكتبة واندست خلفها. ولحسن حظها كان صارم قد نسى المفتاح في قفلها، ولم تجد صعوبة في الدخول. زاد اندهاشها وهي تشاهد البضائع المكدسة في تلك الغرفة. لم تطل وقفتها وخرجت مستعجلة، ثم ارجعت المكتبة كما كانت، واستمرت في تنظيف الغرفة وهي مسرورة بما اكتشفته..ان صارم يتاجر في السوق السودة..فالكحول والسجائر جميعها من الماركة الامريكية. عليها الاسراع بأخبار ليان، فربما ستكون هذه المعلومات هي التي سوف تخلصها من صارم اخيرا.

وحين خرج من الحمام تلافاها جهده، ولم يدع لها فرصة مناقشته في المسائل التي جاءت من اجلها. حتى تهديداته لم تتبين اذا كان جادا بها ام لا؟. اتم تغيير ملابسه. وحين خرج من غرفته وجدها قد رتبت الشقة ونظفتها. فقال لها وهو يهم بالمغادرة:

- انت خلصتي تنظيف الشقة؟.. يلة نطلع.

ثم قرصها من خدها ملاطفا وهو يقول مبتسما:

- اريدج دائما ها الشكل..بنت مطيعة..ما اريد اسمع مرة ثانية عن مشاريع زواج او ما شاكل. انسي علي واخباره..لازم تتفرغين بس لرغباتي..انت فاهمة؟

ربت على خدها ثم قادها خارجا. ما ان غادرت الشقة حتى اسرعت الى ليان واخبرتها بما اكتشفته في شقة صارم. فرحت ليان ولكنها اخبرتها بأن وجود البضاعة في بيته ليس كافيا للايقاع به فهو قد يقول بأنها لاستعماله الشخصي. عليها اولا ان تعرف التجار الذين يتعامل معهم صارم، ثم الاتفاق مع واحد منهم للتبليغ عنه. اعتراف احد هؤلاء التجار سيضمن بصورة اكيدة تورطه في تجارة السوق السوداء. وفي النهاية قالت لها:

- خلي هذي القضية يمي،آني ادبرها مع معارفي..اتصور اقترب الوقت حتى نخلص من صارم..اذا ثبتت عليه التهمة راح ينسجن لفترة طويلة. المهم لازم ما يعرف ابد، احنة ورا هذا الموضوع..لأن حتى وهو بالسجن يقدر يأذينا..وآني اعتقد لو نقتله ونخلص منه يكون افضل حل.. بس هذا بعد ما يدخل السجن، راح اظل احاول الى ان يزول خطره وينتهي الموضوع.

كان صارم على موعد مع مهندس الري والبزل لدراسة الخرائط وتبديل موقع المبزل. ولكن الامور تعقدت هي الاخرى فقط بلغه المهندس ان هذا الموضوع يحتاج الى موافقة مؤسسة استصلاح الاراضي في بغداد. ومن الافضل الاتصال بهم شخصيا لتسهيل هذه القضيية. وهذا يعني ايجاد شخص يتوسط له في تلك المؤسسة مع دفع رشوة له. عكر ذلك مزاجه. عصر نفس اليوم ذهب الى موعده الثاني وهو استطلاع المطعم الذي يود شراءه، وكان قد حسب بدقة مصاريفه والارباح التي سيربحها اذا تمت له الصفقة. يقع المطعم في محلة التنومة، في موقع حساس ومزدحم. فالمنطقة تجارية والزبائن يكثرون فيها. سيحول المطعم الى واحد من الدرجة الاولى، حيث الموائد ذات المفارش البيضاء والارضية ذات السجاد الاحمر، والاضواء الخافتة الساحرة، والطعام الشهي، بالاضافة الى المشروبات التي سيحصل على رخصة عنها. لقد فكر بكل شيء، واستشار احد معارفه المعروف بخبرته في هذا المضمار والذي اكد له النجاح المضمون لهذا المشروع. فالناس لايستغنون ابدا عن الطعام، خصوصا اهل البصرة المشهورين بحبهم للطبخ والاكل.

في المساء قرر الرجوع الى القرية، ففكره مشغول بكيفية الحصول على بستان ابو ساهر، خصوصا بعد التهديدات التي هدده بها صاحبه فارس. وهو شخص لايمكن الاستهانه بكلماته..عليه استرجاع البستان بأي ثمن، هذه القضية اصبحت تقض مضجعه. كان فارس ينتظره في المكان المعلوم. وفي هذه المرة ايضا كان ثائرا.ظل يلومه على تقاعسه في حل هذه المسألة. واتهمه بأنه فاشل لاخير فيه. تمالك صارم نفسه بصعوبة، واخذ يذكره بكل ما قام به من اعمال ناجحة لخدمته وخدمة الجماعة. ولكن ذلك لم يخفف من اختلاف وجهات النظر بينهما. فارس كان من النوع المتسرع والمتقلب. يحتد بسرعة وتصبح كلماته اوامر فقط على صارم القيام بتنفيذها دون نقاش. عمق هذا شعور النفور بينهما. التشابه في عدم المرونة والتصلب وانعدام القدرة على التفاعل مع الاحداث، ثم القوة والسطوة والفرض هو ما تعودا عليه كليهما لأجبار الآخرين على طاعتهما. وزاد فارس على صاحبه بشعور التعجرف والغرور كلما نجح في عملية او انتصر فيها. الآخرون في نظره لاقيمة لهم ليسوا سوى ادواة لتحقيق اغراضه وتنفيذ ما يفكر به. رغم صداقته الظاهرية لصارم كان يكن له الاحتقار

ويزدريه، ويسفه كل رأي يطرحه مهما كانت صحته لأثبات فوزه المعنوي عليه. بخله على من هم اقل منه وكرمه مع من هم اعلى منه مرتبة او مع الذين يمتدحونه يجعله منفرا في انتهازيته الهادفه الى اظهار نفسه ومنحها قيمة اجتماعية اكبر مما هي عليه. على الرغم من كل تلك المظاهر والقوة التي تحيط بشخصه فروحه خالية من الشعور بالامان والاطمئنان والاستقرار. فهم صارم مايدور من انفعالات محتدمة داخل تفكير فارس فحنق لذلك. ولكنه كبت ماشعر به لتفادي التصادم معه. فلديه من المشاكل ما يكفيه. كضمه لغيضه جعله في ثورة من الغضب والكراهية تصل درجة الابتعاد وقطع العلاقة به. سيثأر منه في يوم ما ويتخلص نهائيا، حينها لن يفرض عليه احد الاوامر ويجبره على تمشية قضاياه بأسلوب لايقبله، وتخالف مفاهيمه هو. ساق صارم سيارته الى القرية وهو غارق في شعور الكآبة والقلق والخوف من فارس. فأحساسه لايخطيء بأن فارس ينوي انهاء ما بينهما هو الآخر. وهذا يعني الاستغناء عنه بأسلوب قد يشكل خطرا على حياته. فهم لن يدعوه يخرج من بينهم بهدوء وهو يعرف الكثير. شكوكه هذي صبغت لياليه الماضية بالقلق الذي طير النوم من عينيه.تؤرقه افكاره، وتحفر الشراسة داخلها ..فعليه التخلص من فارس قبل ان يظفر هو به.

كان الليل قد انتصف حين وصل الى البيت. ادخل سيارته الى الكراج ووقف قربها ينظر الى السماء الملبدة بالغيوم. ذكرى ملاذ شوشت عليه خياله. ابعدها عن باله. لقد سمع بما حدث لها. الغيظ يستحوذ عليه من صابر..هذا المشعوذ سوف يؤدبه..وقع بصره على دراجته. وبدلا من ان يتجه نحو البيت اخرجها وامتطاها متجها بها نحو النهر عبر البساتين.

سرعته والرياح وهي تضرب وجهه وصدره غيرت من مزاجه. روح المغامرة اعترته وهو يحب هذا الشعور حين يعتريه. اقتراب الخطر او اقترابه من حافة الخطر يزيد من احساسه بالثقة بنفسه ويهيج مشاعر متضاربة تضج بها روحه المتعطشة لأكتشاف اسرار الناس وكل ما يخفونه عنه.

وصلت الى سمعه ضربات مجاذيف. فكاد يصرخ جذلا. لقد اصاب حدسه. اليوم سيكتشف من هم المهربين؟. زاد من سرعته حتى اقترب من ضفة النهر فتوقف خلف الاشجار واخذ يتابع القارب ماشيا وهو يجر دراجته خلفه بخفة. ومن بعيد شاهد شبحين مسرعين لملاقاة القارب، عرفهما رأسا انهما صابر وحسن الاعرج. نزلا الى الماء وامسكا بالقارب واخذا يتحدثان مع ملاحه. لم يسمع الكلام فقد كان الصوت منخفضا. اقترب اكثر حتى وصل قرب بستان ابو ساهر. وبالضبط قرب الكوخ الطيني، كوخ الجد. ادهشه ان هناك شيئا يلمع خلف الباب.. ضوءا لاح من شقوق الباب المغلق..استغرب.. انفعال انتابه فهو على حافة كشف سر جديد يخص ابو ساهر. شيء ما مختفي هنا. ما احسن حظه اليوم..عثر على المهربين وعرف هوياتهم ومن يدير شبكتهم..ثم هناك خبايا في بستان ابو ساهر وابو رند..لديهم اسرار قد تكون خطيرة ستساعده في الحصول على البستان الذي يريده..اجل كشف السر سيجبرهم على الخضوع لرغباته بعد ان يعرف ما يخفونه في بستانهم. انتشت احاسيسه وارتفعت معنوياته وصعدت الدماء حارة الى صدغيه..انه محظوظ..والدنيا تخدمه وتخدم اغراضه وسوف ترتفع حياته اعلى فأعلى الى مركز القيادة. انعكس ضوء القمر على شعره الذي التمع في الظلام. كانت رائحة الاعشاب قوية وممزوجة برطوبة الليل ولزوجة الماء. راقب صابر وحسن الاعرج وهما يحملان الصناديق فوق ظهريهما ويبتعدان. اما القارب فقد انحدر مسرعا مع التيار.

بقى واقفا قرب الصريفة الطينية. اقترب منها وبخفة نظر الى داخلها من شق الباب. شاهد شخصا غريبا مهندما يجلس فوق الوسائد الملقاة فوق الفراش، وهو يقرأ في كتاب بين يديه ويمد كفه بين فترة واخرى فوق المدفئة النفطية المشتعلة ليدفيء نفسه...منو هذا تساءل؟..ولويش خاتل هنا؟ انه لم يره من قبل ولا يعرفه..بتعجب راقبه. منظره يدل على شخص مثقف متعلم..لم يشاهده في القرية ولم يسمع احدا يذكره امامه..اختلس النظر مرة ثانية ..يجب عليه معرفة هويته وسبب وجوده هنا. انه يعرف الآن ماسيفعله. سيتجسس على ابو ساهر الى ان يتأكد من هو، ثم يلعب لعبته في تهديدهم للحصول على البستان. لا يعتقد ان هذا الشخص سوف يختفي بسرعة من هذا الكوخ، فكل ما حوله يدل على انه مقيم منذ فترة، وانه امضى وقتا غير قصير وهو في هذا المكان. ولذلك معنى واحد فقط انه مختفي هنا..اي هارب من شيء ..فار من العدالة..ومعناه انه سيبقى مقيما حيث هو مادام لايعرف انه قد تم اكتشاف امره. ولكن السؤال هو هل ابو ساهر وافراد عائلته يعرفون بهذا المختفي عندهم..ام

انهم سينكرون علمهم به وبوجوده في كوخهم..الا اذا كشفهم وهم متلبسون معه في الكوخ.ولكن اولا يجب ان يعرف من هو وما سبب اختبائه؟. تسلل مبتعدا مثل شبح يتوارى داخل طيات الظلام لايسمع احد وقع خطوه فوق الحصي ورمال جرف النهر. ينعق خلفه بوم الشؤوم. سار والدنيا لاتسعه من الفرح يتابع الضوء الخافت الذي ينير سعف النخيل..ها ان الحياة تخدمه من جديد، وترجع له سيطرته على كل قضاياه بيد من حديد. فداخل روحه استيقظت كل المنافع الشخصية التي سيحصل عليها بما اكتشفه..ولن يهمه ما قد تجره على الآخرين من كوارث ملفعة بقسوة الليل البهيم..لايحب الشفقة او الرحمة ولن يدعها تمرق في سمائه..لايهمه الآن سوى حل الاحجية التي تقوده مباشرة الى هدفه..الجاه والمال والسلطة..ولن يكترث حتى لو رقص على قبورهم..ولذلك عليه ان يلعب اوراقه بعناية ودقة واحدة بعد الآخرى.

الفصل التاسع

الصمت حين يلهو

يولد الانسان ويموت. انها قاعدة الحياة لكل حي. وبين الولادة والانتهاء توجد رحلة. هذه الرحلة يتمتع بها كل من يبذل جهدا. فهي الكينونة والوجود. والانسان هو مجموعة لأخلاق وسرائر ورثها عن اسلافه وشذبتها التربية التي تلقاها في الاسرة والمجتمع. فتظهر بعض الخصال اوضح من غيرها وقد تختفي اخرى.
في نفس اليوم الشتوي المشؤوم الذي فر فيه دكتور عادل من مواجهة رجال الشرطة، عاد الى القرية وحاول اللجوء الى الكوخ الطيني ولكنه وجده مقفلا. كان ساهر يقوم بنقل الشتلات الجديدة التي اشتراها لزراعة بستانه الجديد، ففوجئ به مختفيا خلف الاشجار، وتضايق، فقد كان يأمل ان تستقر الامور ويختفي عادل من حياتهم، فيتخلص من قلقه الدائم وخوفه على العائلة في حالة افتضاح امر اختبائه لديهم. ظهوره الجديد جدد تلك المخاوف. سار معه متحرجا الى الكوخ الطيني. تعذر الكلام بينهما. الا ان عادل اجبر نفسه وقطع الصمت ليحكي لساهر والدموع في عينيه ما حدث له ولثروة، وكيف داهمت الشرطة بيتها واضطرته للهرب. توسل الى ساهر ان يساعده في معرفة ما حدث لها، وان يعده بتقصي اخبارها.
رجع ساهر وهو منقبض الروح. مر على بيت عمه ووجد رند تحضر الطعام في المطبخ. ملامحه المتكدرة اقلقتها. انه يكتم شيئا ويكبت في نفسه ولا يبوح بأوجاعه. ان طيبته وكرمه وجديته في كل ما يقوم به تُصعب أي ثرثرة، فتظهرها وكأنها تدخل من جانبها في شؤونه. وهذا قد يزيد من توسيع الشرخ الحاصل بينهما منذ ان عرفت بأهتمامه بملاذ. والآن وقد ذهبت تلك الفتاة مازالت علاقتها به ضعيفة وغير متماسكة كالسابق. لقد حزنت عليها رغم كثرة الاقاويل حول سبب قتلها. ساندت ساهر اثناء المعمعة التي قادها في البحث عن تعبان دون جدوى. وخلال ذلك الوقت انتحبت ولامت نفسها لسوء ظنها، واعتكفت في غرفتها اياما. قررت بعدها ان تغير من طريقة تعاملها مع ابن عمها بحيث تكون اكثر حرارة وعاطفية ولكنها لم تفلح في تحسين مزاجه. وها هو اليوم من جديد يأتي وهو متعكر ومتعب، وحين سألته عن السبب اخبرها برجوع عادل، وشدة مخاوفه من مغبة انكشاف امر وجوده. حاولت ان تطيب من خاطره، ولكنه صارحها بأنه لايدري كيف يحل هذه المشكلة، فعادل صديقه . ومن الصعب مفاتحته بوجوب مغادرتهم، ولكنه يعاني من هلعه الدائم مما سيحل بالعائلة من دمار لو افتضح امره. حتى اصبح كل شيء كالكابوس يقض مضجعه. في البداية وحين جاءهم عادل كان يعتقد ان الموضوع لن يتعدى بضعة ايام تتوضح فيها القضايا ويعود عادل بعدها الى البصرة وكأن لم يكن هناك شيئا. وفاتت الايام ثم الاشهر والامور تزداد سوءا وليس هناك امل بأن عادل سيجد واسطة تساعده للرحيل عنهم. وطال الزمن العسير. وتنصل جميع المعارف من معرفتهم به ولم يمد احد يد المساعدة له..لا احد له..يتيم، لااسرة تسنده ولا اقرباء ..كيف يمكن ان يكون الانسان وحيدا بهذا الشكل المرعب؟ ولن يقبل ضميره ابعاده ودفعه الى المجهول رغم الخطر المحيط بهم..كيف يمكن جرح انسان قدم حياته لخدمة الآخرين، ووقت الشدة لايجد من يعينه..كلا لن يكون ساهر واحدا من هؤلاء الذين يديرون وجوههم لأنسان كهذا. سكتت رند تقاسمه القلق. نصحته ان يحادث اباها بالموضوع علهم يجدون حلا لما هم فيه. ابوها كان دائما اهلا للتحديات التي تمر بها العائلة..ما من مشكلة الا ووجد لها دربا يسهلها. عند الظهر تناول ساهر الغداء مع ابو رند . اثناء الحديث صارح ساهر عمه بما يقلقه. فوعده بأنه سيدرس الموضوع مع عادل وحتما سيجد مخرجا له.
كان عادل يتعذب مع همومه. ليله طويل، لاضوء فيه، ولا خيط من نور يرشده. كل مايلمسه تصيبه لعنة السوء. تمنى ان يتلاشى. فكر بالانتحار، ولكنه عاد الى تماسكه. بكى ثروة اياما لم يكلم فيها احد. لم يداعب النوم اجفانه. حتى اصبح الارق رفيقا له. نحل وضعف واصفر لونه. بات لايأكل الا نتفا مما تأتيه به رند. كل حركة تجفله

وترعبه. والهلع واضح على تقلصات ملامحه. وحش للظلال سحب غطاءه فوق ايامه الخاوية المظلمة حيث يلهو الصمت. لايؤنسه سوى خرير مياه النهر المار امام الكوخ. فقد القدرة على التفكير السليم. حاول مرات ان يهيم على وجهه، ولكنه تراجع خوفا على اهله الذين يسترونه عندهم. كان يبقى جالسا دون حراك ساعات بلياليها، حتى عندما يزوره ساهر لاينبس بحرف وكأنه نسى الكلام او فقد القدرة عليه. الكلمات تمر امامه وكأنها تتزحلق فوق غطاء ذاكرته السابحة بعيدا هناك خلف صورة ثروة التي اختفت دون اثر. الشخص الوحيد الذي كان يفهمه هو ابو رند..بكل قيمه وانسانيته..ابو رند ذلك الانسان الذي آمن بالخير بعد ان صهرته احداث الحياة وصعابها. كان دائما يصرح بأن الشر هو نتيجة لأخطاء خارجة عن ارادة الافراد، لأنهم اولا واخيرا اناس، يتأثرون بالضغوط التي يقعون تحت تأثيرها. قال له اخوه في احد الايام بعد نقاش عاصف ان العصر الذي يتخيل انه مازال يعيش فيه.. عصر الضمير قد اندثر. واصبحت الطيبة سذاجة. والكرم تبذير واضاعة للمال. والشجاعة تهور لاضرورة له. وعلى الانسان التفكير بنفسه قبل تفكيره بالغير. ولكنه لم يقتنع بهذه الكلمات فهي تفاهات في نظره.. قال نحن بشر متمدنون وعلينا عدم التعامل بمثل هذه المفردات وهذا المنطق. فالشجاعة مازالت شجاعة. والكرم مايزال كما نفهمه. والطيبة هي التي تُسير العلاقات المتعارف عليها بين الناس. وحتى الحيوانات لاتأكل من اجناسها الا نادرا، وحين تقتل فهي تفعل ذلك من اجل الطعام وفي سبيل حياتها فقط فما بالك بالانسان ذو العقل المدرك . كان لطيفا دمث الاخلاق في تعامله مع الجميع وكذلك مع عادل. فهو يراه ويفهمه. انهما من طينة واحدة..متشابهان في التفكير والتعامل مع جميع مرافق الحياة. انه الابن الذي تمنى دائما ان يكون له. وهو الآن وحيد. ضعيف يعيش محنته. يبحث عن المسار الصحيح لوجوده وكينونته، ويحتاج الى انسان صادق يسنده ويقف الى جانبه حتى يصل الى بر الامان. كل ما حولهم هو صراع من اجل البقاء. وعليه ان يكون قويا لمواجهة التحديات والتغلب على العقبات. قال عادل لأبي رند حين جاء لزيارته في احدى الليالي:

- كل شي مسدود قدامي..يا..

اراد ان يقول يا عمي ولكنه لم يستطع..فهذا الجالس امامه هو ابوه وليس عمه. كيف يخاطبه الآن لايدري؟ فمنذ ان اكتشف الحقيقة التي دلته على ان ابو رند هو والده وهو لايعرف كيف يتصرف معه، فالحوار ما ان يبدأ حتى يصبح عقيما باردا. ووضعه الحالي يزيد من شعوره بالضياع. كل افكاره ميتة يابسة حتى ملكة الحدس عنده انتهت. ما يريده الآن هو ان يتركوه وشأنه يحيا في هذا الكوخ حتى يستيقظ يوما ويأتي احد ما ليخبره ان كابوسه قد انتهى ورجعت الحياة الى اشراقتها السابقة. كم يتمنى لو انه عاد الى حياته العادية، وقتها كان سيأتي بشجاعة الى هذا الرجل ويخبره بأنه ابوه. ان يعرف هذا الجالس امامه انه ابوه ربما سيكون هو الحل لما يعانيه..وفجأة لمعت الحياة في احداقه.. لماذا لايخبره بالحقيقة الآن؟..حقيقة مولده..اجل انها قصة لايمكن تصديقها ولكن لم لايحاول..ماذا سيخسر؟ انتعشت روحه قليلا واعتدل في جلسته وقال:

- ياعمي انت تتذكر حديثنا عن الهور في بداية الايام لما جيت الى هنا؟

رجفة شك شلت تفكير ابو رند. تغير وجهه. فاجأه السؤال..سعال عنيف هزه، حتى شعر بالاختناق. بعد ان تمالك نفسه قال وهو مايزال يشهق:

- شنو اللي ذكرك هسه بهل الحديث؟

كان يظن ان عادل يود الهرب الى الاهوار والاختباء هناك، فارتاح لأنه منذ مدة يحاول مفاتحة عادل ومناقشته حول امكانية تغيير محل اختفائه، قال:

-وصلتني معلومات بأن الحكومة هدمت اكواخ ابو ستار واهله..وبالوقت الحاضر ما اعرف احد هناك تقدر تلجأ وتختفي عنده.

قال ذلك وقد شعر بعزلته وفراغ روحه. كم من الطعنات تنتظره على رصيف محطات حياته؟ هل فقد الى الابد خيوط الماضي بعد زوال وطمر تلك الاكواخ الطافية فوق صفحة الماء؟ طيف لفتاة جميلة مر بخاطره..اين هي ذكرى؟ واين هو ذلك الولد ابنه منها..كيف يجده وكل الآثار تندثر وتنمحي؟ حتى الناس الذين يعرفون سره ابتعدوا وضاعوا. ما اقسى تلك الاقدار عليه.. ولكنه لن يستسلم سيحاول البحث من جديد سيسافر الى ابو ستار ويلتقي بجميع المعارف لعلهم يعروف شيئا عنها. صوت عادل قطع عليه افكاره:

- مو قصدي الهرب الى هناك..ولو هيه فكرة لازم افكر بيها بجدية..آني فكرت التحق بفرقة الخاتلين هناك بين القصب..بس اليوم اريد اذكرك بأبو ستار..لأن وآني هناك..يعني من جنت بالاهوار سمعت شائعات عن بنته ذكرى وعن قتلها..اريد اعرف اذا انت عندك علم بالموضوع او عن أي اخبار عنها؟
ظهر الأستغراب على وجه ابو رند وكأن عادل يقرأ افكاره:
- ذكرى..لويش يا ابني تسأل عنها..حسب علمي ان البنية ماتت من زمان..بس اذا كنت انت تعرف احد عنده معلومات عنها اكثر من هذا ياريت تقول لي؟ لأن آني من زمان احاول اعرف أي شي عنها.
لمعت عيون عادل. هل معنى ذلك ان ابو رند يفتش عن ذكرى؟..وهل يقصد انه يعرف انها لم تمت؟ يجب ان يتأكد من ذلك قال ببطء:
- اللي اعرفه ان ذكرى ما ماتت..ابوها ما قتلها..
- آني هم سمعت بهل الشائعات..واعتقد صحيحة.
-آني اريد اقول ياعمي.. ترة آني اعرفها هيه شخصيا..وبنفسها قصت علي شلون ابن خالتها سريع انقذها من الحريق.
قفز ابو رند.فأهتزت الكراسي حوله. حدق بعمق في عيون عادل وكأنه لايفهم ما يقوله ساد صمت عميق. ان عادل يفتح ويمزق استار عوالمه المغلقة في سراديب روحه. ماضيه المغموس بمشاعر واحاسيس الذنب. ايامه وسنينه الممزقة بالهواجس والبحث الصامت. وزمنه المملوء بكبسات الشرطة والآمن واوهام الخلاص، وبناء مستقبل افضل للجميع. احاديث ابيه وموت امه. قديسون وابطال. قتلة وجلادون، وبكل ما يحمل ذلك الزمن العسير من انهيارات في صمته الرهيب وهو يلهو..كم هو مملوء بكوابح للرغبات، واندفاعات للعمل الجماعي لأناس مؤمنون بقيم ومثل للمجتمع، وآخرون منهارون ومخذولون وفاشلون. كل تلك الايام بأغبيائها واذكيائها السابحين معه في نفس التيار. احياء ومن منهم من قدم حياته صمودا، او الذين فضلوا الحياة مثله وتراجعوا عن المسيرة. تشكيلة هلامية وهرمية لأختلافات وانعكاسات وضمائر. كُلٌ يجد لطريقه تبريرا كي يدافع عن نفسه وعن الخطأ الذي وقع او لم يقع فيه. ورحة تدور تحصد الاقوياء وتبعد الضعفاء والمخذولين. زمنه العسير الذي هو باب للولوج الى عالم الشرطة، ومكتض بالتحقيقات والمحاكم والقضاة والقوانين..واسلوب تقديم الرشاوي وعالم المال، والرؤوس والاذناب .. في كل هذا وداخله ومن خلاله اين ضاعت الحقيقة؟ حقيقته وحقيقة عالمه وعمره الذي مر يجر بعضه بعضا..وحتى حاضره المبني فوق لبنات وبقايا ذلك الماضي..ان عادل يسأله اذا كان يعرف ذكرى؟ ويقول له انه يعرفها؟ كان يرتجف حين شهق يكسر سكوته وهو يقول:
- انت..ياابني انت تقول..آني اللي اسمعه صحيح.. يعني انت تعرفها؟..وين هي؟ وين الآقيها؟
رحلته في اعوام الماضي عادت من مغاليقها كي يمكن فتحها مرة اخرى. ردد بلهفة والمفاجأة لازالت مرسومة في عيونه تطرز ملامحه:
- وينها..وين تسكن؟
كل صفاته، حلمه طيبته وتهوره لم يعد موجودا. اصبح كل جسده قالبا من سؤال ولهفة جواب وانتظار لما سيقوله عادل:
- آني ما اعرف اذا كان موضوعها يهمك..القصة سر ما اريد اخوض بيه..وما اقدر ابوح بيه.
صرخ ابو رند وقد جحظت عيناه:
- ياابني انت تسألني اذا جان موضوعها يهمني؟ هاي صارلي سنين ادور عليها الى ان صارت وهواسي طول عمري.. ياابني خبرها راح يحيني ويغير مستقبلي..خبرها هو ايماني بوجود قدر ومصير. وراح يخلي دربي يخضر وشجرة حياتي الجافة تنبت..احلفك ياابني قول لي وين هي؟..وين القاها؟..فهي سر حياتي المضموم بقلبي من شبابي الى هسه.
انتقلت حيويته الى عادل، لهفته. شجونه تطوف كأماسي لياليه فوق ملامحه. ذرات من رذاذ ذلك الماضي هي انفعالاته المنسلخة داخل سفينة حياته. قال ببطء وبمودة:
- ذكرى هي امي..

سكت ليرى..وطال الصمت اللاهي بأقدارهم. كأن للدنيا مذاقا ورائحة اخرى غير ما تعودوه..زغاريد ورقصات للربيع، وسفرات مدرسية ايام الصبى. ودربكة وحوافر لفرسان يرسمون امامهم دربا لم يكونوا يعرفونه. مهرجان. وتلك اللمحات المضيئة القليلة التي مرت عليه. طعم قبلتها الاولى. ذكرى ذراعيها وهما تحتضنانه. دفء نهديها وهما يحتكان بصدره عادت اليه منورة بكل الاشتياق. قفز ابو رند يقترب من كرسي عادل حيث يجلس امسك بيده بقوة، ثم تركها واخذ يروح ويجيء وجسده يكاد ينفجر. ترجه الاصداء القديمة. من داخله يتصاعد ذلك النغم السماوي والسرمدي للحب.. وفرحة المفاجأة. انه قدره..وحظه ونصيبه.. التردد يقتله فهولم يفهم جيدا.. هل هذا الجالس امامه هو ابنها؟..عادل هو ابن ذكرى؟..هي ام هذا الشاب الموجود بين يديه والمختبيء منذ مدة عنده في البيت؟ ما هذا الزمن العجيب؟. وهل يمكن تصديقه؟ رنين يحفر بمعاوله سنوات شبابه. وامنية، وخيط رفيع يوصله حد الجنون المطبق. يدق كصدى الامواج في اغواره. مراكب تخفق في افقها اشرعة الامل. جلس من جديد امام عادل وهو يرتجف:

- انت ابنها الوحيد؟..قلتلي انت يتيم ماعندك اب..مو هيجي..منو هو ابوك؟

كالشرارات المضيئة كان التوتر. رعشات مطر ثلجي ابردت عروقه. زهور اينعت في سهوب مشاعره القاحلة الميتة. اراد الصراخ كي يتخلص مما يخنقه. ذبول حياته فجأة اصبح شيئا آخر. تبدد الدخان الذي يلفه. تفتت ذرات الطين وهي تغتسل برموز الاحياء. ونهضت الحياة من التلاشي كي تكون هي الاعظم. عبراته تنداح على وجنته. انحنى كالقوس على نفسه يلملمها من الانشداد الى الارض ويشدها كي ترتفع. وروحه تدور..وتدور..وكأنه يغيب، وعيونه تغيم خلف غمامة سراب كما كان يحدث له حين كان يسمع حكايات جدته وهو صغير، او عندما كان يلتصق بنافذة قطار يسير به الى بغداد تاركا صباه خلفه. انه نهار جديد. بداية حياة اخرى..ولادة مرة ثانية. الحياة تمنحه فرصة اخرى كي يصلح ما حدث منذ سنوات. نظر ابو رند الى عادل وقال مرة ثانية:

- لاتسكت ياابني خبرني بكل ما تعرفه ..اريد اعرف القصة من بدايتها الى نهايتها..وين جنتوا تعيشون؟ وشلون جنتوا تحصلون على رزقكم منو جان يصرف عليكم..احجي لي عن طفولتك..اريد اعرف كل شي..

حكى عادل بتوءدة وبصراحة تامة كل حياته منذ صغره. معاناته وما قاسته والدته في سبيل لقمة العيش. فقره المدقع، وكيف كان ينام اياما بدون طعام. طفولته المعذبة بدون معين او قريب يساعده. كفاحه في صباه ثم شبابه كي يصل الى ما وصل اليه من مكانة اجتماعية. كان يتكلم وهو يحس بما يعانيه هذا الرجل من الم لكل مايقوله، وكأنه يقاسمه ويشاركه تلك الاحداث. وببطء انطلق يسرد بيسر كذلك نجاحاته بعد انتهائه من الكلية فهو يود ان يرضي ويشبع فرحت ابيه به وغبطته، فقد انتقلت الى قلبه وبها عاوده الانتعاش ونمت داخله مورقة بالامل. وشعورا غريبا بالانتماء يسرى بين منحنيات غربته..حقا ان الابوة شيئ عجيب كالغطاء الذي يلف الابناء ويدفأهم..يريده ان يعرف انه ابوه، وكم هو بحاجة الى تلك الابوة، فأستمر يحدثه عن اليوم الذي عرف فيه سر مولده:

- امي قبل موتها حجت وقالت لي منو هو ابوي..طول حياتها جانت تكتم هذا السر..جانت تبذل جهدها من اجل اخفاء هذي القصة الى ان تمرضت وعرفت بقرب ايامها الاخيرة . صاحتني وصارحتني وقصت علي الحقيقة..كشفت لي سر مولدي ومنو هو والدي وشنو اسمه..من ماتت بحثت ولكن مع الاسف ما قدرت اوصل الى نتيجة الى ان اجيت هنا..وبالصدفة من احاديثك ومن بعض التواريخ ومطابقة الاسم خمنت انك ..قصدي اعتقد انت هو والدي..يعني هو استنتاج ويمكن اكون غلطان..لأني لحد هسه ما متأكد من الموضوع...هو القدر العجيب كأنما بأسلوب غريب جابني الى هنا حتى اعرفك واعرف اصلي.

قفز ابو رند وهو يشهق بالهواء. فرحته تندلق داخل كيانه بلهفة وتراقص تداعيات احلامه وهمساتها. انها تشق داخل روحه، وحزنها يُفعّل ما يعيشه من انفعال. قلبه فوق كفه يريحه من سفره الطويل. صوته ضحكات تكركر وهي تخرج من اعماقه. تشعل الافق بالامل في منعطفات دروبه الهادئة. صمته يلهو وهو يحمل اشلاء مدينته الهيكلية داخل خلايا مخه..منقوشة بالاصدقاء والاعداء، وما سوف يقولونه لو عرفوا بهذا السر الخفي. تشابكت

اصابعه مع اصابع عادل يضغط على كفه وكأن صبره اشتهاء لكل ما فاته من احداث تُكون حياة هذا الغائب كل تلك السنين. وانهمرت دموعه وهو يقول:
- ماكو غلط..انت ابني..اتأكد ياابني آني هو ابوك..آني هو الانسان اللي حدثتك امك عنه وجانت عندي علاقة بيها..وانت ثمرة تلك العلاقة..او الغلطة سميها مثل ما تريد..انت ابني..انت اكيد ابني..سامحني ياولدي.
رفع كفه يغطي عيونه ..كان يبكي وهو يردد:
- اغفر لي..سامحني على كل العذاب اللي سببته الك..آني السبب بكل ماجرى لأمك.
تلك الليلة سهرا معا. كان ابو رند لايكف عن سؤاله عن كل صغيرة وكبيرة في حياته وما مرعلى امه من قهر ممزوج بالعذاب حتى موتها. اصر عليه ان يعيد حديثه عن زمن طفولته وشبابه وكفاحه من اجل كينونته. اعوام الشقاء من اجل البقاء. وان يحدثه عن ثروة وهروب واختفاء ابيها، وعن انتحار امها. وصف عادل لوالده حبه لها وكيف القت الشرطة القبض عليها. ظل يحكي لأبيه كل سنوات عمره. كان قلبه يدمى بأخيلة، وغرف مظلمة، وليالي مقمطة بالخوف والسهر والعوز، وايام الجوع، وزمن البطالة. اضحكه على الباعة المتجولون وهو يغشهم ليحصل منهم على لقمة العيش كي يكمل دراسته. حكى له عن تحمله وقوة ارادته في الوصول الى هدفه التي اوصلته احيانا حد سرقة قطعة خبز من مطبخ المستشفى، ومرات الى الاختفاء في البساتين للنوم هربا من دفع ايجار غرفته. عمر فات وسنوات مرت تفيض بتفاصيل الكدح ومواجهة صعوبات الحياة. فقر وجوع..تشرد ولعنات الى مصير بائس، وانتظار امل في يوم ما قد يجد ذلك الرجل الذي وضعه نطفة في رحم امه. ولن يسأله سوى سؤال واحد..لماذا فعلت ما فعلته وخلقتني كي اعيش هذا الشقاء كله؟..اي عذر يمكن الاعتذار به عن فعلة كهذه؟. نهض عادل عن مكانه، خطواته ثقيلة بالهموم. يلبسها ويتحزم بها فوق جسد واهن مصلوب، مشنوق، يسبح كالهوام فوق تيار لخرير نهر بلا ضفاف. يجاري غي الاوهام حين تزرع في بدنه نوافذ للكبرياء. وحين يهطل ندى عطشه للحنين!..يتوغل في متاهات عشقه لأريج العطف، ورفيف وهديل لدفء ملاذ في ليل لامتسع لظلامه الدامس. وصبر على قيض نهار بلا ظلال في افق امل لصدا بعيد قريب لبيت يأويه فيستكين. تدور احداقه كالمحال في سراب خضرة الانتماء. وفي كل مرة يطعنه الغرق في الصميم. يتمسك بالغيوم ورذاذها كحبال تتلوى بين يديه، عله ينمو الى نجيع اسرة يترقبها، كي يحلق مشرقا الى كوة يتفيأ بخيالها..لكن العقم يورق متبرعما كبيرا في جذور مطمئنة، تتطاول وارفة كالسلالة لأجداده..يهفو الى ابناء يحصدون سنابل ما يزرعونه مع الآخرين من ذكريات واحداث..وفجأة يمسك بتراب اسلافه..اخيرا ولأول مرة يحس انه ثابت..على ارض ثابتة يسير..لقد توقف غرقه. لم يعد يحمل شقاءه وحيدا..هناك شخص يقاسمه بصدق ومحبة كل ما يشعر به..ويخاف عليه كما يخاف على نفسه..انه دفء الارتباط بشخص قريب..من دمه ولحمه. غمرته راحة غريبة وشبه فرحة بعد ان توقف عن الحديث. ارتفعت معنوياته واندفع يحتضن ابيه، كينبوع وجد نهره. امواجه مترادفة في اندفاعها وهمس..ابي..
احتضنه والده بحنان وهو يقول:
- سامحني يا ابني..احلف لك بوقتها ردت الزواج من امك..بس القدر جان اقسى مني..وكل يوم فات من عمري جان يزيد ثقل شقائي ..لو تعرف شلون الضمير يحرق بلذعاته..مثل السياط..وهسة شوفني شلون دفنت نفسي جوه شرب العرق حتى انسى الابن الضايع مني..صحيح هي جانت لحظة ضعف..بس المها غطى على كل سنيني.. وهسه راح اقوم بالمستحيل حتى اخلصك..مو لأن هذا دين عليّ..بس لأنك ابني، وآني هو اللي منحك الحياة، وورثك هذي التعاسة..مسكينة امك..جانت ضحية نزوة دفعت ثمنها حياتها كلها..اغفر لي وألها يا ابني..انت ماعندك ذنب..هو بس ذنب التقاليد والمجتمع العقيمة..تراث مابيه خير ولازم يزول. فالقانون هو اللي لازم يسود..مو عادات قاسية تنزع عن الانسان اسباب انسانيته..لو جنت في ظروف غير ظروفك هذي اللي تجبرك على الاختفاء، وتجبرني على حفظك من الاذية جان جاهرت وواجهت المجتمع بيك. فأنت ابن كل اب يكون فخور بيه..فعندك من قوة الارادة والشجاعة والشعور العالي بالمسؤولية تخلي كل انسان يرفع راسه عالي بيك. آني افتخر بيك..واشكر امك لأن ربتك زين وحفظت بيك كل ما يوجد بالبشر من خصال طيبة، برغم اعوجاج ولادتك. قلبي ملتاع للعذاب اللي انت تعيشه هسه.

جذل تماسك في نشوة. ان يقف الانسان بوجه الزمن، وعقم العادات، معناه تحرره مما ورثته الاجيال الحاضرة من قيم الماضي..وانطلاقه الى آفاق جديدة تجعل النجوم تشرق هامسة بالخير. فمنذ ان زيّف المشعوذون حرية الفرد..حتى قبل اسوار بابل وزقورات اور والانسان على هذه الارض يرسم خطوط القوانين لحفظ حقوقه:
- لازم اكو هناك فرد طريقة..لازم اكو فد درب اخلصك بيه من هذي الورطة اللي انت بيها.
بعد منتصف الليل غادر ابو رند ابنه عادل والكلمات ترن في مخيلته. لازمته طول ساعات ايامه التالية..ما العمل؟ وكيف ينقذ ابنه من المشاكل التي تحيط به؟ كيف يعوضه عن عذاب السنين التي فاتت كلها؟ وفجأة جاءه الرد..تسفيره الى خارج العراق هو الحل. سيفتش عن مهرب يعد له الاوراق اللازمة لتسهيل ذلك السفر ثم يرافقه الى احدى البلدان الاوربية. كان اخوه ابو ساهر هو اول من التجأ اليه وطلب منه مبلغا كبيرا من المال، لأن لديه قضية حياة او موت..واصر على عدم الافصاح عنها..لا تسألني قال له..يمكن في يوم من الايام سوف اوضح لك السبب..اما الآن فأود منك ان تثق بي وتوفر هذا المبلغ بأي طريقة. حاول ابو ساهر كثيرا معرفة ما وراء ذلك الاحتياج المفاجيء والغامر للمال ولكن محاولاته باءت بالفشل.
اندهش ساهر وتعجب من شدة تعلق عمه بعادل يوما بعد يوم. فكثير ما كان يقضي ساعات النهار بطولها في الكوخ الطيني يتهامس مع الدكتور. يضحكان معا، اويتقاسمان سمات الجد. حتى رند استغربت هذا التغيير. فقد اصبحت كل كلمات والدها عن عادل واخبار عادل وماذا يفعل وهل يأكل..وفراشه وملابسه هل هي نظيفة ومكوية كما يجب؟ وكيف يريحه في كوخه؟ حتى انه اقترح عليه ان يبدل سكنه من الكوخ الى البيت للسكن معهم. لولا تصلب ساهر ومعارضته. فقد كان خوفه من انكشاف امر وجوده لديهم يزداد. خصوصا وهو يرى اعوان صارم وجواسيسه المنبثين في كل ارجاء القرية وهم يحومون حول بستانهم.
رغم الامطار والعواصف التي مرت عليهم ذلك الشتاء لم يتعب ابو رند من قضاء جل وقته مع الدكتور. تبدلت تصرفاته حتى مع رند واصبح اكثر اهتماما بها، فأكثر من محادثتها ومساعدتها في حل مشاكل البيت. ذهب عنه كدره الدائم. بدأ يسأل عن الاصدقاء والاقرباء وعن احوال القرية وسكانها. فتش عن ابو ملاذ بهمة حين اختفى ولكنه لم يجده. امر رند ان تزيد من مساعداتها المادية لأم كاصد ووعدها ان يساعدها في التفتيش عن ابنها في بلاد الغربة. هذا التحول اسعد رند وازال عنها ضيقها بعد مقتل ملاذ، وابتعاد ساهر عنها. الازمة النفسية التي مرت بها في الفترة الماضية ارهقتها، فقد كانت معلقة بين السماء والارض. تداعيات وحدتها وهواجسها اربكتها. ولذلك جاء تبدل والدها كقطرة الندى على قلبها. واعاد لها ثقتها بنفسها، وبأنها قادرة على اعادة بناء العلاقة الودية مع ساهر من جديد. صار في قلبها توق وشغف للابحار مع ابيها داخل اسراره الماضية، يجب ان تعرف سر هذا التحول. زارت عادل تشاركه ما تحس به من تحول والدها. عادل غدا بالنسبة لها صديقا حميما يستمع الى شكواها وينصحها فترتاح وتهون مشاكلها. اسلوبه في تبسيط وتسهيل ما يتعقد امامها من قضايا يرضيها. كان يسميها اختي الصغيرة، واعجبتها هذه التسمية. فهو فعلا كان يلعب دور الاخ الاكبر فيعمق فيها وعيها بالحياة. ويشرح لها الكوارث التي يمر بها من يستهين بأقدار ومصائر الناس. ولكنه كان كتوم على اسراره حريص عليها، يلوذ بالصمت او الى تغيير الحديث. لذلك لم تكن تلح عليه بالافصاح عنها وتكتفي بما يقول.
في احدى المرات اثناء زيارتها له شاهدت من بعيد حسن الاعرج وهو يحوم على ضفة النهر. بقيت تراقبه حتى غاب عن انظارها. توجست شرا من وجوده. حدثتها غريزتها انه يحاول الاقتراب من الكوخ الطيني. فانتابها خوف مريع ولكنها لم تخبر عادل بذلك وقررت حراسة المكان ومراقبته جيدا لتتأكد من الموضوع. لاحظت ان عادل متعب رغم هدئه الظاهري. فالايام تجر بعضها بعضا ولا اخبار جديدة عن ثروة. المه اوصله الى حد توهم ان ماحدث له هناك في بيتها لم يكن حقيقة وانما هو من نسيج خياله. كوابيسه كانت تلبسه في الليل فيتقلب فوق نعش احلامه الميتة. جسده يوجعه لعدم الحركة والجلوس ساعات طويلة في الكوخ. اكتسب عادة التمشي بعد منتصف الليل على ضفة النهر حين يهجع الجميع الى النوم. زيادة اهتمام ابيه به كانت تربكه فهو لم يتعود على ان يكون له اب يدير له حياته وشؤونه. ولكن نوع من الاطمئنان بدأ يدخل وعيه كأجنحة يجوب بها فضاء الاعتماد على الآخر وترك المسؤولية على كاهل نهر اهتمام ابيه به. ولوجه الى درب الانتماء كان لايزال

بطيئا. تستفز افكاره احيانا قيود الارتباط. فهو اعتاد على حرية الرأي في اتخاذ القرارات لوحده. يشعر ان اباه يريد مقاسمته كل شيء حتى زمن الماضي من سنين عمره. كان يهرب من ذلك الى رند. اخته الصغيرة التي بدأ يتعلق بها منذ عرف انها فعلا اخته. شعر برهافة احساسه بما بينها وبين ساهر من روابط حب. ومن كلماتها عرف بما تعانيه من كدر وقلق هو سببها. فراح ينصحها دون ان يجعلها تفهم انه يعلم. نصائحه لها كانت تتركز في احسن الطرق التي يجب عليها القيام بها للتقرب من ساهر والنفوذ الى اهتماماته كي تعيد صلتها بأعماقه فتفهمه.ارشدها الى الكتب التي تقرأها والمواضيع التي تناقشها وعلمها الاسلوب الذي تحدث به ساهر. فتوطدت بينهما الصداقة. وحاول جهده التقريب بينهما وهو يقرأ عمق المشاعر التي تربط الاثنين معا. حافظ على خصوصية اسرارهما بحكمة ولم يتدخل. فقد وجد ان صفاء علاقتهما النابعة من ارتباطهما الروحي ستتغلب على ما يمران به من سوء فهم يعكرها، فلديهما من الفهم الكامل لما يجري بينهما بحيث لامجال فيه الى الافتراق. فالهيام منحوت على اكفهما في تلامسها الرقيق حتى اثناء الابتعاد. راقب رجوع تلك العواطف بمتعة. وفرح صامت اطر لهفته عليهما. وجد انه يستشعر غبطة خاصة في تألق نظراتهما. الفعل الجميل امتزج بروحه فنشطها، وحرك بدنه. فصار مغمورا بذلك التواصل والتآلف والحنين.

لم يعرف احد ان صارم قد اكتشف وجود عادل في الكوخ الطيني رغم مرور اسبوعين على ذلك. حين حدث ما حدث. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. ساد الهدوء جوانب القرية. كان عادل جالسا وهو يسرح بأفكاره حول ثروة. تقلب في جلسته حين وشوش شيء ثم لمع ضوء، وتسارع سطوعه في الجانب القريب من الكوخ الطيني. عدل من وضعه وهو يحاول الخروج للتمشي حسب عادته، فتردد..ما هذا الهسيس الغريب؟ وما سر النور الذي انبثق فجأة؟ التف بعباءته وفتح الباب ببطء، ثم بأسرع من لمح البصر طار راكضا بأتجاه بيت ابيه، واخذ يطرق الباب..والنيران خلفه تطارده وتقترب ملتهمة كل شيء امامها. وهي تحرق الاعشاب الجافة والاحراش وجذوع النخيل، وتزداد تأججا واستعارا بسرعة البرق. الطرقات ايقظت الجميع فتراكضوا يحملون الدلاء الى النهر. فهم ابو رند الموقف فبادر الى اخفاء عادل في سرداب البيت. وهرع مع الآخرين لأطفاء الحريق الذي شب. هب اهل القرية وهم منفعلون الى المساعدة بحمل الجرادل المملوءة بالماء الى البستان المشتعل. ازدحم المكان بالفلاحين والنسوة الباكيات والاطفال الصارخين. الحشد المتجمع بقيادة ابو ساهر وابنه وابو رند بذلوا المستحيل لحصر النار. وفي وسطهم وحسب تعليمات صارم اختلط صابر وحسن الاعرج وهما يتظاهران بالمساعدة، ولكن في الحقيقة يبحثان عن الغريب المختفي..اين ذهب؟ اقتحما اولا الكوخ الطيني وفتشاه، ولكن خاب املهما حين وجداه خاليا من صاحبه..همس صابر في اذن صاحبه انه يظن ان الطائر قد التجأ الى بيت ابو رند..فهو اول من شاهد الحريق وهو يشتعل وايقظ الناس. التف صابر بين الجموع ودخل الى بيت ابو رند ولكن صاحب الدار كان اكثر يقظة فأسرع اليه وهو يصيح به ان يساعده في حمل المياه، ولم يترك صحبته هو وحسن الاعرج حتى جاءت سيارات الاطفاء.

وصلت سيارات الاسعاف والمطافي بعد ان احترق معظم البستان. ولحسن الحظ لم تطل النار البيوت القريبة نتيجة للجهود العظيمة التي بذلها الفلاحون للسيطرة على الحريق. نجح الحشد في محاصرة اللهب بشكل ما وانقاذ اجزاء من البستان كذلك. وفي الصباح جاءت الشرطة وسجلت الحادث على انه قضاء وقدر. ولكن ابو ساهر وابو رند وساهر كانوا واثقين ان الحريق شب بفعل فاعل وانه مدبر..ولكن من قام بذلك؟.. ولماذا؟ حينها تذكرت رند مشاهدتها لحسن الاعرج وصابر وهما يتلصلصان خفية قرب النهر. فأخبرت اباها بذلك وحدثته انها لمحتهما غير مرة وفي ايام مختلفة وهما يقتربان من الكوخ الطيني خلسة، وهي الجهة التي بدأت منها النيران بالاشتعال. ولكن لماذا يحاول صابر او حسن الاعرج حرق البستان؟ جاءهم الجواب على تساؤلهما بأسرع مما يتوقعون..حين داهمت شرطة الامن منزل ابو رند بعد نهارين فقط من اندلاع الحريق.

في نفس اليوم الذي شبت فيه النيران، وبعد ان تم اخمادها..اختلى ساهر بأبيه. ولكن خلوتهما لم تدم طويلا لأن صياحا وعراكا انبعثا من غرفة الضيوف جعلا زياد وامه يهرعان الى الحجرة، حيث وجدا ابو ساهر وقد امسك بخناق ساهر وهو يصفعه على وجنته ويجره من ثيابه. كان ابو ساهر في ثورة عنيفة على ابنه وهو يصرخ به شاتما له. حاولت الام التفريق بينهما ولكنها عجزت. فأسرع زياد الى عمه ابو رند يستنجد به وهو يبكي ويطلب

معونته. حين دخل ابو رند الى بيت اخيه..واجهه اخوه بعاصفة من الصياح افزعت رند وجعلتها تجهش بالبكاء. توسلت ام ساهر اليه ان يهدأ، حتى نجحت في جعله يجلس وهو يصرخ في وجوههم:
- شلون..ضميتوا علي..خبر هذا الدكتور الخاتل عندكم بالكوخ؟..هنا ..هنا بالبستان اكو واحد هارب من السلطة..شارد من الامن والشرطة تدور عليه..وانتو ساكتين وتعرفون صارم يراقبنا..اسكت ابو رند لاتقاطعني..انت بعقلك وفهمك للقضايا تفعل هذا الشي؟ لازم رجعت لملاعيبك مال ايام زمان..ما جزت منها..رديت للسياسة مو هالشكل؟ ما تبت؟ وما تعبت بعدك؟ تريد تفهمني انك ما مهتم لمستقبل عائلتك؟ ولالبنتك؟ انت تدري شراح يصير بينا بعد ما عرف صارم بهذا الخبر وبمكان هذا الخاتل هنا..هذا المعارض للحكومة؟..لا تجاوبني؟ لأن ما اتصور انت اعمى ما تشوف شكاعد يصير داير ما دايرك؟ اسكت خليني ابرد روحي بيك؟ أي نعم انت اعمى..السياسة عمت عيونك بحيث ما تشوف مخاطرها..يبين تريد تصير بطل..ناوي تموت مو هيجي؟ روح موت محد مانعك بس بعيد عن هذا البيت.. شلون تخفي ببيتنا رجال سياسي شارد من الشرطة..والله لو شربت من دمك ما جان برد قلبي.
جاءت ام كاصد وفرات على الصياح ولكن رند اخرجتها وامرتها ان تعود الى اعمال البيت. وان لاتتدخل فيما لايعنيها..عرفت ام كاصد ان الموضوع هو حريق بستانهم، فلم تلومهم على الانفعال. حاول بعض الفلاحين الدخول لفك النزاع، الا ان ام ساهر اقفلت الباب وطلبت منهم الخروج وشرحت لهم انها امور عائلية لايحق لهم التدخل فيها. استمر ابو ساهر بالحديث وهو يجر ساهر من ياقته ويلطمه بعد كل جملة. ولكنه خفض صوته كي لايصل الى الفلاحين حول البيت فيفهمون ما يحصل بينهم.
خيم الحزن على الجميع. كانت القرية تعج بالاشاعات. فقد خمنوا ان صارم هو الذي احرق البستان لاغيره. فلا مصلحة لأحد وخصوصا صابر وحسن الاعرج للقيام بمثل هذا العمل. تعالت الهمسات ولكنها لم تصل الى بيت ابو ساهر، فقد كان النزاع والخصام على اشده بين اهل الدار، وبالتحديد بين ابو ساهر وابو رند. فقد كان ابو ساهر يلومهم على تهورهم وعلى عدم اخباره بما حصل:
- صار له اكثر من اربعة اشهر وهو هنا عندنا خاتل بالكوخ، وآني آخر من يعلم؟ ما لقيتوا مكان ثاني غيره تضموا بيه..ثمة منو هو حتى يهمكم مصيره الى هذا الحد؟..مجرد انسان..فرد واحد غريب عليه هو ان يدبر اموره..شفتوا الكارثة اللي جبتوها على راسنا بعد ما نكشف الموضوع..اكيد هو صارم حرق البستان حتى يعرف منو مختله بالبستان ومنو يساعده؟ هسه بهل الليلة اليوم تأخذه ياساهر للبصرة وتخليه هناك..خلي هو يدبر اموره.
ولكن ابو رند وقف امام اخيه بأصرار وقد تضرج وجهه بالاحمرار من الحنق والانفعال:
- لا محد يوديه الى أي مكان..راح يبقى هنا خاتل عندي الى ان الاقي مكان جديد يروح يختفي بيه.
ولكن ابو ساهر كان حانقا. كان يحترق. ضاع كل ماله وحلاله وتعب السنين بأحتراق بستانه..كيف سيعيل العائلة؟ كيف سيوفي بمتطلباتهم جميعا؟ كان يقلب زوايا العتمة التي توغلت داخل سلام حياته وغمرتها بظلال العوز والفاقة. صرخ في وجه اخيه:
- وانت شعليك؟ انت شنو اللي يربطك بهل الرجال؟
حاول ساهر التدخل كي يخفف من حدة الصراخ، ولكنه لم يفلح. فقد اوقفه ابو رند وهو ينحيه جانبا وصوته يعلو:
- كل شي يربطني بيه..انت ما تعرف هو منو بالنسبة لي..هو دين عليّ ..ماكو احد راح يقدر يوقفني..والاحسن لكم لا تعاندوني..لا انت ولا أي واحد منكم.
صاح ابو ساهر:
- لازم توقف عند حدك..آني راح اوقفك ..ما راح اخليك تحطم العائلة بغباءك..كاعد تدوّر على الرجولة والشهامة؟ وغيرها من هل الضراط اللي تفتخر بيه..اسمع تره هاي كلها سذاجة وجهل بالحياة..شنو دينك..الدين اللي تقول انت مديون اله؟..لازم اكو سر احنه ما نعرفه بينك وبينه؟

وقف ابو رند. اصوات في عقله حبيسة لا يستطيع ايقافها. حبال البوح بالحقيقة تمزق استار سره الخفي. ان كل ما نعيشه هو زيف. كل ما حوله شرنقة تكاد تخنقه. فكل شيء هو تهاويم للمادة والنقود. الحياة كلها مصالح باردة جافة ميتة. كل الكلمات، وكل الدنيا فيها خلل، وقد نالت من التركيبة الطيبة لسمو العيش. ليذهب كل هذا العالم المسموم الى الجحيم فليس فيه رحمة ولا مشاعر ولا انسانية:

- نعم..نعم عندي سر..بيني وبينه اكو سر..تريد تعرفه..زين آني اقول لك..هذا الانسان هو ابني..ابني من دمي ولحمي.

ذهول.. ران عليهم..صمت بدأ يلهو..حلكة كالديجور. غياهب غير مفهومة الاغوار. توكيد لوجود شيء اسمه ضمير. تمرد على الخنوع والتفاهة. وضع النقاط على الحروف وحيث يجب ان تكون. لامجال للسكوت بعد الآن لقد عبر جدار المحافظة على الماضي. ولا طريق للنكوص عن الاعتراف بكل الحقيقة. الانتفاض على ضعف الذات ومواجهة ما يكون بالبوح ومواجهة توهج الصراحة. اكد من جديد وهو يقطع الصمت السائد:

- عادل ابني..وبعنقي دين له ولأمه.

انتفض ساهر وابو ساهر وبتردد قال ساهر وكأنه لايصدق ما يسمع:

- ما افتهمت شنو قصدك ياعمي..تقصد عادل مثل ابنك؟..لو تقصد انت متزوج وحدة ثانية غير عمتي ام رند؟

اشار له ابو رند بالسكوت، ووجه كلامه الى ابو ساهر قائلا:

- تذكر يابو ساهر بالستينات من انهزمت واختفيت بالاهوار..هناك تزوجت بالسر بأم عادل، وما علنت زواجي منها لأن تم اعتقالي وخفت عليها..ولما انفضح امرها لأن جانت حامل بذاك الوقت..خافت من اهلها وهربت واختفت بالبصرة..ومن ذاك اليوم محد سمع عنها شي. دورت عليها هواية بس مع الاسف ما قدرت اعرف مكانها. وبالصدفة حدثني هو بقصته، ومن الحجي انكشف لي هيّ امه اللي جنت ادور عليها..وهسه هو بورطة ولازم احميه واعاونه..ولهل السبب طلبت منك ان تدبر لي مبلغ من المال اساعده بيه حتى يسافر خارج العراق ويهاجر. ورحت للبصرة ولقيت مهرب واتفقت وياه..وهسه آني واقف بس على دفع الفلوس للمهرب حتى يزور باسبورت وياخذ عادل ويعبر بيه الحدود.

صوت بلا كلمات تكسر وهنك ستارة الصمت. لم يستطع البوح بكل الحقيقة. لم تكن له الشجاعة على ذلك. توضح الآن فقط سر تعلقه بعادل. وسبب سهراته معه، واصراره الغريب على المحافظة عليه. سبق الاصوات ساهر:

- ابنك؟..عادل ابنك؟ ..يعني هو ابن عمي..عادل قرايبي..ابن عمي؟

قاطعه ابو ساهر وقد استعاد هدوءه:

- ما اصدق؟..اكيد هذا وهم من اوهامك..لو واحدة من هواجسك وهلوساتك.

توقفت رند عن البكاء وقد فغرت شفاهها كالمعتوهة. اذا هذا هو سر والدها؟ كانت تحس بغريزتها ان هناك شيئا ما غريبا يحدث؟ ولكنها لم تتصور ابدا ان عادل من الممكن ان يكون اخاها؟ سهاما حارقة كانت نظراتهم وهم يستعيدون وعيهم. كأنهم غطسوا في رمال الصحراء في قيظ صيف..لافيء..ولا ماء للخلاص مما هم فيه.

اسرعت رند تجلس الى جانب ابيها وهي تسانده في الكلام، بلهفة فقد اعجبها ان يكون عادل اخا حقيقيا لها:

- لا تقلق بويه..اكيد راح نقدر ندبر الفلوس..حتى لو بعنا بستاننا..وبعدين آني عندي ذهبي ومصاغي..وخشل امي..المهم نتعاون ونحل هذي المشكلة ..وننقذ عادل.

كلماتها اعادت التخطيط والتدبير الى وعي عمها فقال بجد:

- لويش الى هسه ما خبرتنا بالموضوع؟

- خفت ما تفتهموني. وبعدين كنت اعتقد ان ابني ضاع مني للابد.. الى حد قبل ايام يله عرفت الحقيقة.

تنحنح ابو ساهر ولم تفارق الصرامة قسماته وهو يقول:

- هذي الحقيقة هسه غيرت الوضع..آني اكثر من متأكد تره هذا صارم عنده خبر وعلم بوجود عادل ومكانه بالكوخ..وآني مستعد احلف ان الحريق بالبستان ما جان صدفة. ولهل السبب لازم نتصرف بسرعة قبل ما ينكشف امرنا..صدقوني لاتستغربوا اذا الامن اجونا بعد كم يوم. وحتى نفوت الفرصة على صارم عليك انت

ياساهر تأخذ عادل وتسافر بيه للبصرة اليوم. وهناك راح ادليك على جماعة اصدقاء اعرفهم يقومون بنقله الى بغداد في نفس اليوم. بعدين ندبر المبلغ المطلوب للمهرب حتى يأخذه الى خارج العراق. طبعا هذا راح يكلفنا هواية..بس آني راح اتصرف واجمع الفلوس فالموضوع هسه صار قضية حياة لو موت..وكلما عجلنا بالعمل كلما حافظنا على نفسنا وحمينا العائلة من الكارثة..والله يخلصنا من هل البلوة..ويستر علينا.

كان عادل ما يزال مختبئا في السرداب حين جاءه والده وقص عليه كل ما دار من اتفاق العائلة عند ابو ساهر. وفي الليل زاره الجميع وتعرفوا به وسلموا عليه. وعند منتصف الليل ودعوه وهو يغادرهم ودموع الشكر في عينيه. فقد كانوا اهله الذين وجدهم اخيرا. وعدهم انه سوف يكتب لهم حال ما يصل الى مكان آمن يستقر فيه.

بعد يومين احاطت شرطة الامن بالقرية، واقتحموا بيت ابو رند. فتشوا في كل مكان. ولكنهم لم يجدوا عادل. فأمسكوا بأبو رند واوسعوه ضربا وشتما، ثم اقتادوه معهم الى مديرية مكافحة الاجرام. ما انقذه هو عدم معرفتهم لهوية المختفي، وانكاره التام لوجود احد مختبيء عنده. بعد ان ساقوه الى التحقيق بقيت رند وحيدة تبكي. ورفضت الانتقال الى بيت عمها حين طلب العم ذلك منها. فضلت ان تلتف بهدوء عزلتها. وتتعايش مع اغوار فاجعتها. ولم تساعدها نظرات الحب والحنان من ساهر وهو يرجوها ان توافق على السكن معهم ولو لبضعة ايام حتى ينجلي الموضوع ويخرج ابوها من التوقيف. اكدت لهم ان كل شيء سيبقى كما تركه ابوها حتى يعود. وظلت تلوب مع اعمال البيت. بعد مرور اسبوع فوجئت بزيارة سرية جدا من صابر. كان يتلفت خلفه وهو يدخل غرفة الضيوف ليلا. قدومه اجفلها، ولكنه طمأنها بأنه جاء من خلف ظهر صارم. وان صارم لايعرف بقدومه. ثم قص عليها كيف اجبرهم صارم على اشعال النار في بساتينهم. وحلف امامها بأنه نادم، وانه قام بذلك خوفا على حياته فصارم يعرف عنه قضايا غير قانونية يهدده بها اذا لم ينصاع لأوامره. وبعد ان انتهى نصحها ان تذهب شخصيا الى صارم وترجوه ان يساعدها في الافراج عن والدها واخراجه من السجن فهو الوحيد القادر على ذلك نظرا لصلاته مع الجهات الامنية. كان طلبه غريبا عليها..لماذا يريدها ان تذهب الى صارم شخصيا ولوحدها؟ هل صارم هو من ارسله؟ وما غرضه من ذلك؟ وما هي مصلحة صابر في افشاء مثل هذا السر لها؟ اسئلة طرحتها على نفسها بعد ذهابه. وكان الجواب واحدا ان صارم يخطط من جديد لشيئا يخصها ويخص عائلتها. ثم ماهي هذه القضايا التي يمسكها ضد صابر ويهدده بها؟ فصابر لم يخبرها ان صارم بعد ان عرف بأعمال التهريب التي يقوم بها هو وحسن الاعرج قد قلب حياتهم الى جحيم. وغدت اوامره تنفذ بدون نقاش..فهو الذي طلب منهم مراقبة الكوخ الطيني، وبعد ان تأكد من وجود شخص مختبأ هناك امرهما ان يقوما بأحراق البستان ولم يعارضاه في ذلك خوفا منه. ولكن صابر فكر انه لو اوصل هذه المعلومات الى ابو ساهر ورند فقد يستطيع الخلاص بواسطتهما من صارم. نقله لهذه المعلومات سيشفع له عندهم ولن يمسوه بسوء. اما اذا انكشف الامر لصارم واستطاع الافلات من قبضة ابو ساهر فلصابر عذر آخر هو محاولة اقناع رند لزيارة صارم كي يتوسط لها لدى السلطات من اجل فك الحبس عن ابيها، وهذا سيقرب بين رند وصارم. فحسب تخيلاته يحس ان صارم له رغبة بالحصول على رند. وبذلك سيبرأ ذمته امام صارم وينجو من عقابه.

كانت رند متعبة ويائسة وهي تحدث عمها بتفاصيل زيارة صابر لها. كالريح وعنفها هب غضبه. واصر بأنه لن يدعها تذهب الى صارم وحدها. ولكنه هو وساهر من سيقومان بهذه الزيارة للتفاهم معه. وهذا ما حدث. الزيارة فجرت دوامة جديدة من المشاكل جعلت عقلها يتوه وذاكرتها تتخبط هلعا على مصير ابيها. الكوارث جاءت تباعا. فبدلا من حل المشاكل والاتفاق مع صارم حدث شجار عنيف بينهم خلال المقابلة حين واجهوه بما سمعوا. زاد الطين بلة ان صارم انكر كل شيء وضحك وهو يتهم صابر بالكذب والاحتيال عليهم. مما اثار حفيظة ساهر فالتحم معه بالايدي والكلمات والضرب. ولولا تدخل ابو ساهر وآخرين بينهما لما استطاعوا وقف المعركة بين الاثنين. الشجار الذي حدث دمر العلاقة بين العائلتين ومن ثمة بين العشيرة التي انقسمت الى نصفين حزب يناصر ابو ساهر وعائلته والحزب الآخر كان الى جانب صارم ووالده. تفكك الوئام والتآلف الذي كان يسود القرية، والذي كان الجميع يحافظ عليه ولو ظاهريا. فبانت الخلافات القديمة. ونزفت الجراح الماضية تجر بعضها خلف بعض كحجر القي في الماء فأنتشرت امواجه متوالية ومبتعدة اكثر واكثر لتشمل مساحات اكبر واكبر. وهكذا تحولت المنطقة الى جماعات مناصرة الى ابو ساهر واخرى معادية له تؤيد صارم. وفي

يوم اسود حين تأزم النزاع اندفعت جماعة من المؤازرين لصارم بقيادة الفرقة المسلحة التي اسسها واعتدت بالضرب بالعصي والحجارة على عدة عوائل من جماعة ابو ساهر. هذه المعركة احرقت بلهيبها كل سلام سابق واججت العداء بشكل سافر بين الفريقين فقد رد جماعة ابو ساهر على ماحدث بتخريب المضخات التي تسقي بساتين صارم وعائلته. ولكن بعد اسبوع اشتعلت الحرائق في زرائب الماشية العائدة لأبي ساهر. وحين جاءت الشرطة للتحقيق فيما حصل، صمت الجميع ولم ينبس احد بكلمة وتم تسجيل ما وقع ضد مجهول. وزادت الامور سوءا على سوء حين تدخل شيوخ الناصرية في محاولة لأصلاح ذات البين بين العائلتين. فقد اقترحوا وحسب الاعراف المتبعة ان تزف رند الى صارم، وبالمقابل على صارم اخراج ابو رند من الحبس. وبهذا الزواج يتم اصلاح الشرخ الذي حصل في العشيرة وفض التنازع بالمعروف بدفع مهر يكون كتعويض عن الاضرار التي نتجت عن الحريق لأبو ساهر من عائلة صارم. ولكن ابو ساهر لم يوافق على هذا الحل، فقد كان يعرف بحب ساهر لرند. وكثير ما تحدث مع ابو رند عن مستقبل حياة ساهر ورند في بيت الزوجية. ولن يدع هذا الخلاف يدمر حياة ابنه وابنة اخيه. ولكن ضغط الفلاحين ورؤساء العشائر الآخرى كان كبيرا ولم يدع له مجالا للرفض بشكل قاطع. تردده في الموضوع اجبره على ربط موافقته بموافقة اخيه ابو رند بعد خروجه من السجن. هذا الحل اراح صارم لذلك لم يمض اسبوع حتى عاد ابو رند الى البيت وقد اخلي سبيله. ولكنه لما علم بالطريقة التي على اساسها تم بها ذلك ثارت ثائرته. سانده ساهر فقد كان مصابه شديدا. اولا خسارتهم المادية حين أُحرقت بساتينهم، مما اجبرهم على عرض اراضيهم للبيع لتلافي ذلك. وبعدها جاءتهم الضربة الجديدة حين فقدوا دوابهم، واعظم المآسي كان خوفه من اجبار رند على الزواج من صارم كل هذا جعله كالمجنون.. ضاع صوابه فراح يتهدد صارم بالموت..سيقتل ابن القحبة هذا.. لن يتركه يهدم حياته واحلامه ويستولي على كل ما هو عزيز لديه..كلا لن يدعه يتزوج من رند الفتاة التي يحبها. انه حقا انسان جاد ومسالم ومتزن..ولكن خراب كل شيء سيدفع به الى حمل سلاحه والدفاع عن نفسه..عن حياته..لن يترك صارم ليتمتع بأنتصاراته ..ولن يسمح له بحيازة كل ما كان يحب ويتمنى ..سيقتل ابن الكلب هذا ..سيسحق رأس الافعى ويقتل الشر الذي يفح به. اما صارم فقد كانت فرحته لاتوصف لتطور الاحداث في صالحه، فهو منذ زمن يفكر بكيفية الاقتران برند فهي اصلح زوجة له. بواسطتها سيتدخل في الصغيرة والكبيرة لأدارة شؤون بساتينهم. فيكون هو الآمر الناهي في القرية.

على الطريق الى مدينة البصرة كان صارم يتمشى برفقة صاحبه فارس. لعلعت ضحكاته وهو يسخر ويصف له الاحداث التي مرت. كان فخورا بكل ما قام به. فهو الذي احرق البساتين وهو الذي اجبرهم على عرض اراضيهم للبيع.وقدم لهم سعرا لابأس به لشرائها. اثنى فارس على خططه وفرح بها هو الآخر. وذكره بالاتفاق الذي قام بينهما حول تحويل الارض له بعد مدة من الأستيلاء عليها. ولكن صارم سكت..فهذه الارض لن تكون لأحد سواه. فهو قد تعب كثيرا حتى استطاع استملاكها. ولن يدع مخلوقا يأخذها منه مهما كان الثمن. عدل من سترته فهو يعلم بالمخاطر التي قد يواجهها في حالة رفضه لهذا الاتفاق. بهدوء سيطر على افكاره ففي دخيلة نفسه لمعت فكرة انه آن الاوان ليلعب لعبته ويتخلص من صاحبه فارس هذا. ويجب عليه ايجاد افضل السبل للوصول الى هذا الهدف. لقد اصبح هذا الرجل عبئا عليه. ويزداد خوفه منه يوما بعد آخر.. ولكن كيف يقوم بعملية مثل هذه؟ ان ذلك معناه انهيار للهيكل الذي يستند اليه في نشاطاته.. رغم ان التخريب كان قد بدأ منذ مدة..تذكر صارم ذلك اليوم. لقد كان في الليلة التي عرف بها ان نجوى قد غدرت به ووافقت على الزواج من علي..اجل ليلة زواجها..لقد ضربت بعرض الحائط بكل تهديداته. في ذلك اليوم قرر ان يصعد على اكتاف فارس كي يصل الى الاعلى منه، وبذلك يضمن سرعة سيطرته على ما يمر به من مشاكل. رغم هدوئه الظاهري اسرع في مشيته وهو يحاول انهاء هذا اللقاء المزعج بينه وبين فارس لقد تواعد معه على لقاء آخر ثم ودعه، واسرع الى انهاء بعض المعاملات مع احد التجار.

لغز المرأة هذا ما كان يحير صارم اكثر من تخطيطاته مع فارس. قوة اللغز تكمن في الجهل بمعرفة مواصفاته وحقيقته وما يستند عليه من ذرائع، وحين يعرف كنهه يبطل كونه لغزا. وما يستغربه صارم هو كيف يمكن لفتاة مثل نجوى ان تتحداه وتتزوج من علي رغم كل تحذيراته لها..هل لديها شيء تستند عليه يقيها من الوقوع

في شر اعمالها؟ ما هو هذا السند؟ هل تعرف معلومات تستطيع تهديده بها ان حاول هو الايقاع بها؟ جاءه الجواب بأسرع مما كان يتوقع. حين وصل الى صديقه التاجر اختلى به وبسرية تامة اخبره بأن الشرطة سألت عنه. وهو يعتقد ان اسئلتهم جاءت نتيجة وصول معلومات لهم تفضح تجارته بالسوق السوداء. وهو يخمن ان وراء ذلك امرأة. ثم ودعه وهو ينصحه بالحذر. جن جنون صارم..في تلك اللحظة فقط انتبه الى ان نجوى قد كشفت سر المخزن المغلق في شقته. وانها تخطط للايقاع به. عليه اذا الاسراع وتخطي خطواتها قبل ان تغلبه. عليه حماية نفسه بفضحها هي وكشفها امام صاحبه فارس ثم امام زوجها. في اليوم التالي بدأ متألقا ومتوازنا في حديثه مع صاحبه فارس. ادار الحوار بلباقة وحذق لتصل به الى ما يروم اليه بوضوح، وبكل ما يستطيع من دبلوما سية شرح له من هي نجوى؟ ابنة من ومن هو عمها؟ وزواجها من علي..والاهم من ذلك هو ماهية عملها مع ليان؟ ثم وبالادلة القاطعة وصف له لقاءاته معها؟ كان يتلذذ بكل كلمة يقولها بأنسجام تام مع حبه ورغبته في الانتقام. لم يصدقه فارس اول الامر..ولكن بالمعلومات التي يعرفها والاشياء الصغيرة كشف صارم له كل الخداع والاعيب الذي كانت تقوم به هذه الفتاة.

تشجع فارس وفي نفس اليوم ارسل تقريرا مفصلا بكل ذلك الحديث الى جهات عليا.. ولكن ما حدث بعد ذلك كان بعيدا كل البعد عن المنطق.. فلم تمض ايام حتى قُتل فارس برصاصة في رأسه .. وجدته شرطة المرور جالسا في سيارته مقتولا. وصل الخبر الى صارم بواسطة احد معارفه قبل ساعة من مداهمة الامن لشقته السرية..وقد خاب املهم في العثور على شيء عنده. فقد كان قد نقل معظم البضاعة الى بيت احد اصدقائه من التجار . ماذا حدث؟ كيف أُغتيل فارس ولماذا؟ ومن الذي قتله؟ يعرف ان من كشف عن شقته السرية هي ليان؟ ولكن من كان وراء الشرطة في تلك العملية؟ لا يحدث شيء دون تحريك من الايادي الخفية لجهات قوية؟. وفاة فارس خلقت فوضى مع جميع معارفه الذين تم استدعاؤهم والتحقيق معهم. وطبعا قيدت الحادثة ضد مجهول. لف نفسه بالصبر والحذر رغم فزعه. تظاهر بعدم المبالاة واخفى رعبه والاشباح التي كانت تطوف حوله وتصاحبه في كل خطواته. هناك خطأ ارتكبه جعل الهرم الذي يسنده ينهار.. انها الخيوط الخفية بدأت تلعب بمصيره. كان يعتقد ان ولاءه للكبار وولاء صاحبه سيشفع له ويبعد عنه شبهة الخطر. ولكن الاحداث اثبتت له عكس ذلك.. فبمجرد الشك كان كافيا كي ينقلب كل الذين يعرفهم ضده. فأصبح الخوف الغريزي يصاحبه اينما حل.. فبعد تسليم جثة فارس الى اهله..استدعي صارم للتحقيق من جديد..وكل الاثباتات توجه اصبع الاتهام له بأنه هو من قتل صاحبه..كانت ساعات من الزمن الرهيب..والحيرة تطحن مثقلة بالظلام والجهل والاسئلة مع ارهاصاتها..اهو التقرير الذي ارسله فارس عن نجوى وليان اوصله الى نقطة النهاية هذه؟ ام ان اسلوب حياته وما قام به من مكائد ورشاوي وتهريب هو السبب؟ وظهر خيال ملاذ ورأسها وهو معلق بباب بيتها ككابوس يحيط به.. وتراقصت جثث تلك القرية البعيدة في كردستان تقض وتورق لياليه المحفورة بالارق. فبين اشلاء ذلك التمزق وما كان يظنه ولادات جديدة، لم يلاحظ انه كان يجري الى الوراء وليس الى المستقبل..كان يسير نحو نهايته وليس الى الاعلى حيث السيادة. اهذا هو سبب قتل صاحبه او تصفيته؟ ام ان ما حدث جاء نتيجة لمعرفته بكل تلك الاسرار والايادي الممسكة بالخيوط التي تحركها؟ وهو واقع يحوطهم ويجري حولهم. انداحت موجات صفراء حوله. افرغت افكاره في مجاري الانهار المتيبسة وهي تحاول الاستكانه والركود الضحل بما تحمل من طين عكر يتجمع من النجاسات التي تلوث كل ما يلف الحقيقة التي يواجهها الجميع بالصمت اللاهي بأقدارهم. حتما ما اوقعه هو بادرة صغيرة او مخالفة لم يتعمدها وانما سهى عنها، حكمت عليه بالاهدار لستر اسرار قد تفلت من عقال ضبط تفشيها، او لأخفاء اسم من رسمها. اللعنة على تلك القضايا السرية.. فلم يكونوا فيها هو وغيره سوى ادوات خلف جدران غامضة ينفذون ما يأمرون به. وحال الانتهاء ينتهي به دورهم ومعه السبب في بقاءهم احياء، ويغدوا من الواجب الخلاص منهم، ومن قبضة المتاجرة بما يعلمون.. انه الواقع البديهي للتشعب خلف حيطان الجحيم. فحين تقطع القضايا الافتراضية شوطا لا نكوص فيه ويصبح الأنسان جزأ منها، فلا مفر من هذه النهاية، خصوصا وهناك الكثير من الذين تتهرى احذيتهم تنصتا خلف الجدران. وآخرون بصاصون يحتسون من نفس المياه السائرة تحت قصور الاوهام المبنية فوق الرمال. والذين لايعرفون موعدا للحق او العدل..والكلام ابعد من نجمة الظهر..وكل شيء ينتهي ولا ينتهي..كل ما هو مهم هو اهم من اللامهم

في الحياة، ولا ينطفي الا بالموت. بعد خروج صارم من التحقيق..رافقه رعب لاحدود له..ظل اياما واسابيع يتلفت خلفه في كل درب ويسأل نفسه بعد كل خطوة هل حان اجله؟ وهل هناك من يخطط لأغتياله انتقاما او عقابا له على ما فعله؟ فهناك الكثيرون لهم يدا في انهيار هرمه الذي بناه كل تلك السنين. والظاهر انه داس على طرف احد ما له سلطات كبيرة. داخ، كل ما كان يخفيه بدأ يطفو فوق سطح الماء. وليس دخول الحمام مثل الخروج منه وسط صحراء شاسعة وملتوية ومطرزة فيها حواشي لموائد القصور الغنية. عاش جحيم الترقب لشبح او طيف يغرز في قلبه السكين او رصاصة تأتي بصمت يلهو بمصائر الناس. غريزته وكل الدلائل كانت تشير له بأقتراب الخطر منه وانه مهدد. قام بتغيير سكنه بسرعة. فكر بالاسراع بالسفر وخطط له. في احد الايام التقى بصديقه محمد فتحدث معه بأختصار وكأنه يحاول جهده تلافيه، قال له ان علي وزوجته قد رجعا من شهر العسل وان زوجته اصبحت سيدة مجتمع من الدرجة الاولى في مدينة البصرة، ثم تركه مسرعا وهو يتلفت كي يتأكد من ان لاشاهد هناك على وقوفه مع صارم. ذهب الى بيت ليان ليعرف على الاقل ما حدث خلف ظهره ولكنه وجد البيت مهجورا واخبره الجيران بأن ليان قد انتقلت الى دار جديدة لايعرفون عنوانها. شعر صارم بفراغ مريع، لا احد يقاسمه ما يعانيه من جزع. وحدة قاسية يتحرك داخلها. مستقبله كان لاوجه له. وكل خطواته تغور وتنهار ..وفجأة وبدون ان يتوقع اي انسان اختفى صارم. وفاتت ايام ولا اثر له. ومرت عدة اسابيع واختفاء صارم غير واضح ولا يعلم به احد. فهو متعود على السفر والظهور. هذه المرة طالت غيبته، حتى ظهر القلق على اخوته واهله.

للاشاعات اجنحة تطير بها ثم تنتشر وتتكاثر خصوصا حين يختفي شخص مثل صارم. فهناك من قال انه سافر الى خارج العراق وطلب لجوء في احدى الدول الغربية. وآخرون اكدوا ان جثته وجدت طافية في الاهوار، وان هناك تصفيات بين المهربين كان صارم ضحية لها. وهمس البعض بأنه وجد مقتولا داخل سيارته وان الحكومة امرت بدفنه سرا بعد ان كشفت الاعيبه. وبثقة وجد قال صابر لزوار قهوته انه رأى طيفا يشبه في سجن ابو غريب او الرضوانية لتلاعبه بصفقات تجارية من الاغذية، وقد حكم عليه بالاعدام بشكل سري في احدى السجون السرية الجديدة ذات الغرف السرية للغاز.

اما اهله فقد اكتنفهم صمت عميق. بل بدأوا يتقاسمون امواله وبيته. وبذلوا جهدهم لتلافي الحديث عنه.. هم يعرفون ويخفون ما يعرفونه.. هكذا همس الناس ولكن لم يقطعوا الشك باليقين. خصوصا ابو ساهر الذي ترك العاصفة تمر به دون تعليق. فهو لديه مشاغله الكثيرة ولا فراغ له للقيل والقال. باع جزءا من بساتينه الى احد التجار من مدينة البصرة بسعر جيد جدا. مما انقذ بساتينهم الاخرى. وارتاحوا اكثر حين زارهم ابو صارم زيارة ودية وابلغهم انه يحلهم من وعد خطبة رند الى صارم. واكد لهم ان الفتاة حرة في الزواج بمن تريد.

انتهت اشهر الشتاء واقترب الربيع وكل شيء هادىء على ضفاف شط العرب، الى ان بدأت الضربات الامريكية الجديدة. جلست رند تحت احدى الاشجار في البستان الذي قام جميع افراد العائلة بغرز شتلاته الطرية الصغيرة. وكانت الفسائل الخضراء اللينة قد انطلقت من عقال الارض المحروقة لتداعب الريح. حدقت رند بمياه النهر الساري امامها وهي تحتضن ومضة الوان الغسق داخل مآقيها.وتسمعت الى رفرفت الطيور فوق السهوب البعيدة وهي تبحث عن اعشاشها. ثم مدت يدها تغرف من المياه وتغسل وجهها، السكون يحيط بها فكل شيء يحمل على كفه ظلال الحب كقصائد النشوة..ان يعيش الانسان هي اكبر مغامرة..بل الحياة هي المغامرة الكبرى داخل هذا الكون. رغم الحالة التي يمرون بها لاتزال الطبيعة على جمالها وشفافيتها في تلك النواحي.

اجفلت على ملامسة كف ساهر لكتفها. رحبت به وهي فرحة كعادتها. ولكنها تهيبت هذه المرة فعيونه تحمل ضياءا تشرق بالحيوية. كانت الظلال خفيفة مختلطة بنكهة الياسمين وهي تحتضن جذوع النخيل وتهبط حول النهر كتنهيدة قلب هائم. اخذ كفها بيده وبصمت مسد على شعرها. جلس الى جانبها على الجرف منساقا الى الشعور الخفي الذي يربطه بها..يعشقها هو. ويحن اليها حتى وهي الى جانبه. ارتبكت ومشاعرها تنساب داخل كيانها فتلفه بالغنج. ابتسمت حين قال لها انه كان يبحث عنها..وستظل دائما الهدف الذي يطمح بالوصول اليه..فالدنيا لاطعم لها اذا غابت عنه ثم اردف:

- رند..شنو رأيج هل تقبلين تتزوجيني..؟

ولم تتردد والخجل يلون ثغرها ان تشير برأسها وهي تهمس:
- نعم.

ظلمة الليل. خرير الامواج وتياره. نقيق الضفادع ونعيق البوم. والآف من الاصوات لمخلوقات تنسج معزوفة لايسمعها الا من تعود على الصمت. تلك الحياة التي تموج في تلك الظلمة كانت دائما تملأ عادل رهبة وخشوعا. حين انفرجت الاشجار تسللت اشعة اخذت تبحر فوق الاثير لتداعب قمم الجبال وفجاجها. اشعة حليبية تراكضت معهم بين الوهاد وفوق الاعشاب تصاحبهم في ركضهم لعبور الحدود بين العراق وتركيا. جاءهم صوت من الامام يحثهم على الاسراع، فهناك خطوات واقدام تدب خلفهم وهي تتبعهم من بعيد. لقد اقتربنا من الحدود وهي هناك خلف النهر. لهث المهرب وهو يهمس في اذن عادل ان الركض بعجلة هو ما نحتاجه الآن، كي لايلحق بنا حرس الحدود. هرع عادل وكلمات والده ابو رند ترن في اذنيه..الحياة ركض.. كلها لهاث وركض..وعليك دائما ان تواكبها. المناظر تتغير امامه وهو يهرول، ويهرب خوفا. صوت تكسر الاغصان الجافة تحت اقدامهم. جعلت المهرب يهمس حانقا..هش.. انه يركض الآن كي يجد له مأوى..وطن جديد..يهرع بكل حواسه وعقله ووعيه الى مكان يجد فيه الامن. كانت يداه ترتجفان، وساقاه ترتعشان وتخوران، وعيونه زائغة لمجرد انه قد يقع في قبضة حراس الحدود. قد يمسكون به بعد هذا العذاب الطويل. في طريق زحف الليل جفت الدماء في عروقه وهو يسمع همس الرجل الذي يسير الى جانبه بكلمات مذعورة..اشعر انني اتلاشى..اذوب في الهواء. طمأنه عادل وطلب منه الاسراع اكثر كي يلحقوا بالآخرين. داعب الهواء عيونه فثقلت. ولكن صوت المهرب في المقدمة ايقظه وهو يبث فيهم الشجاعة..لا اعتقد انهم سيجدوننا فلنا طرقنا بين الشعاب والتي لايعرفها حراس الحدود. ظل عادل يتشبث بمنظر قمم الجبال وضوء القمر خلفه كي يقهر تعبه. فكر برحلته التي قطعها منذ ان ترك مدينة البصرة وسافر مع ساهر الى مدينة بغداد. حيث اوصله الى بيت احد معارفهم في مدينة الثورة. دام اختفاؤه هناك مدة شهرين حتى تم اعداد كل شيء لسفره خارج العراق. طيوف واحلام كانت ازمنته هناك. لايرى فيها احد. فالعائلة التي سكن معها لم يكن يلمح افرادها الا وقت احضار الطعام. او حين يقضي حاجته. الخوف يشلهم الى درجة اصبحت كل تصرفاتهم غريبة. وحين قص على رفيق سفره كل ذلك، اكد له الرجل ان معظم الناس يتصرفون بنفس الطريقة الغريبة حين يواجهون خطر ما، فهم يقاطعون ويهمشون ويعزلون انفسهم. مع نسيم الليل صمت منسوج في افق القمر يطارد ليله النجوم. حثيث من الخطوات لجماعة عابرين يتركون اثارا خلفهم رائحتها وطن..اسرعوا..حذرهم المهرب من حراس الحدود..فهم يقتربون. فحيح الافاعي تنسل وحيوانات تقفز مرفرفة، وامر بالوقوف وانتظار لسيارة متوقفة قرب جسر لعبور النهر. السيارة ستنقلهم الى الجهة الآخرى. قفز الجميع اليها وهم يتساءلون الى اين ستأخذهم. فأجابهم المهرب بأنه سيوصلهم الى مكان آمن على الضفة الآخرى. على ارض البيك آب جلسوا وقد استشعروا قليلا من الراحة. شقاء وتعب هي الحياة..لعنات رددها المهرب. غفا عادل بعين واحدة رأى فيها فتاته ثروة. حبه الوحيد. صمم ان يستدعيها حال خروجها من السجن سيطلب منها موافاته الى بلاد الله الواسعة اذا نجا هو الآن مما هو فيه. الحياة حلم هذا ما يؤمن به يأتي بعد ولادة من ظلام. الجميع يتمسك بها بأنتظار ايام افضل. طير حلق مذعورا فوقهم. انه طير المسافات يعبر بهم همس الزمن. تلمع الجبال بشحوب السحر. شتائم من احدهم على سنين عمره والذي اوصله الى ما هو عليه..هارب..مطارد..اما كان الافضل له ان يكون مثل الآخرين الصامتين على لهو الزمن..هناك في مدينته وبيته..هناك الزمن هو طريق ملتوي، يسير الى الخلف عند اول بادرة مخالفة فينتهي..والشك بعدم الولاء موجود دائما بين ثناياه. وصلوا الى نقطة ما. امرهم المهرب بالنزول فأشار رفيق السفر الى مكان على سفح الجبل شارحا لهم بأن الاقدمين كانوا يشعلون نارا للآلهه ايا هناك. ثم تحسر على بساطة القدماء وراحة بالهم. رغم تطور الحضارة وتعقيدات التكنولوجيا ما يزال الانسان يبحث عن السعادة. كان القدماء اسعد منا. خالفه عادل ..كانت حياتهم كحياتنا كدحا وتعبا وخوفا من اشياء كثيرة كحالنا الآن. قاطعه المهرب وهو يصيح بهم، كي يهرعوا لأن حراس الحدود قد دنوا منهم كثيرا..يتربصون بنا..اعطني كفك ياصديقي همس له رفيق سفره. للتعب اغوار تكمن كالاقبية في كهوف العظام، يزيد من حدته الانهزام. امسك بيده. نظر الى الافق..هناك

الخلاص..اترى اشباحا بعيدة عند حافة السهوب..قرب الوادي..هل تتصور انهم سيمدون لنا يد العون؟ ضغط عادل على يد صاحبه. كم يتمنى ذلك الخلاص..اخيرا بعد كل هذا العذاب..سيسير مع التيار ولن يسير عكسه..سيتلافى كل المتاهات. وسيلملم زبد المياه بكفيه، ويحلم بضفاف خضراء، وبلاد الانبياء..وغربة اخرى ليس فيها سوى الاستمرار والبقاء..وآمال قد تنمو حين تطل من اعماق العمل..هذا ما يبغيه الآن..قانون يسمح لكينونته في ان تزدهر بأمان. حتى لو كانت هناك اذرع لسهاد ليل الوحدة الطويل. هو لايريد سوى التعايش والتفاهم النزيه مع الآخر المختلف دون حقد. ها نحن نعبر الحدود، وضح المهرب. اول خطوة في رحلة المستقبل المجهول، حيث يبقى الهاربون بلا استقرار للعديد من السنين..دائما غرباء اينما حلوا.
نظر عادل خلفه فرأى من بعيد جبال كردستان ..صور تبتعد لأراضي احبها..ارض الشمس الحارقة، وضفاف النهرين وشط العرب. في تلك اللحظات عرف انه فقد شيئا..فقد الانتماء للوطن. وبدأت تلك الربوع التي تنفس هواءها تختفي رويدا رويدا عن بصره في وهج الفجر الذي انبثق ليوم جديد..يوم آخر.
فتح سائق سيارة البيك آب المذياع على نشرة الاخبار ثم ترجم لهم ما يقوله المذيع..امريكا تهدد بضرب العراق..لحيازته على اسلحة الدمار الشامل.

انتهى لندن/2003 شباط
الدكتورة خولة الرومي